

التعليق والإيضاح
على
تفسير الجلالين

ح) عبد الرحمن بن ناصر البراك، ١٤٤٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البراك، عبد الرحمن بن ناصر

التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين ٢. / عبد الرحمن بن ناصر
البراك - ط ١ - الرياض، ١٤٤٥ هـ

٦١٦ ص؛ ٢٤×١٧ سم.

ردمك: ٣-٦٧٤٣-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

١ - القرآن - تفسير أ.العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٥ / ٣٠٩٥

رقم الإيداع: ١٤٤٥ / ٣٠٩٥

ردمك: ٣-٦٧٤٣-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م

حقوق الطبع محفوظة



المملكة العربية السعودية

الرياض

الجوال 00966505112242

البريد الإلكتروني m@sh-albarrak.com

الموقع الرسمي sh-albarrak.com

إِصْدَارَاتُ مُؤَسَّسَةِ وَقْفِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ الْبَرَّاكِ (٢١)

التَّحْلِيقُ وَالْإِضَاحُ

عَلَى

نَفْسِيرِ الْجَلِيلَيْنِ

تَأَلَّفَ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ الْبَرَّاكِ

المجلد الثاني

آلِ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءِ

مُؤَسَّسَةُ وَقْفِ الشَّيْخِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ الْبَرَّاكِ





سُورَةُ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقوله تعالى: ﴿الَمْ ۝١ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝٣ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۝٤ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝٥ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٦ هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٧﴾ [آل عمران: ١-٦].

افتتحت هذه السورة بمثل ما افتتحت به سورة البقرة؛ من الحروف المقطعة: ﴿الَمْ﴾، وقد تقدم الكلام في الحروف المقطعة بما أغنى عن إعادته^(١)، وقد تضمنت هذه الآيات؛ إخباره تعالى عن نفسه بأنه لا إله إلا هو؛ أي: لا يستحق العبادة غيره، وأنه تعالى الحي القيوم؛ وبهذا تكون هذه الآيات قد تضمنت ما تضمنته أول آية الكرسي؛ من ذكر توحيده وبعض أسمائه وصفاته^(٢)، ثم أخبر تعالى عن منته على رسوله؛ بإنزال هذا الكتاب المصدق لما سبق إنزاله؛ من كُتُب الله؛ كالتوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، أنزلهما هدى للناس وفرقاناً، وفي هذا تمهيد لما أخبر الله به في هذه السورة عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ثم هدّد الكافرين بآيات الله، بالعذاب الشديد، وذلك موجب أنه عزيز ذو انتقام، ثم أخبر تعالى أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه الذي يصوّر العباد في أرحام الأمهات، وبذكر هذا المعنى في مطلع السورة؛ تمهيد لما سيذكره في هذه السورة؛ من حمل امرأة عمران، وولادة

(١) ينظر: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ٣٤).

(٢) ينظر: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ٥٦٥).

مريم، وحمل مريم بعيسى **عليهما السلام**، وما في هذه الآية من ذكر إحاطة علمه تعالى بما في السموات والأرض، وبتصويره الناس في الأرحام؛ من أعظم الأدلة على ربوبيته وإلهيته، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٦)؛ فيه إثبات الاسمين الكريمين: العزيز، الحكيم، والصفيتين: العزة، والحكمة.

سُورَةُ الْعَمَّانِ

مدينة، مائتان أو إله آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ﴾ الله أعلم بمراده بذلك.
 ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، نَزَلَ عَلَيْكَ﴾ -يا محمد-
 ﴿الكِتَابَ﴾: القرآن مُلْتَبَسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾: بالصدق في أخباره، ﴿مُصَدِّقًا﴾
 لما بين يديه: قبله من الكتب، ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ﴾
 أي: قبل تنزيله، ﴿هُدًى﴾: حال بمعنى: هاديين من الضلالة ﴿لِلنَّاسِ﴾
 ممن تبعهما -وعبر فيهما بـ (أنزل) وفي القرآن بـ (نزل) المقتضي للتكرير،
 لأنهما أنزلا دفعة واحدة بخلافه- ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ بمعنى الكتب
 الفارقة بين الحق والباطل. وذكره بعد ذكر الثلاثة ليعم ما عداها. ﴿إِنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: القرآن وغيره ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَاللَّهُ
 عَزِيزٌ﴾: غالب على أمره، فلا يمنعه شيء من إنجاز وعيده ووعدته، ﴿ذُو
 انتِقَامٍ﴾: عقوبة شديدة ممن عصاه، لا يقدر على مثلها أحد.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾، كائن ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
 السَّمَاءِ﴾، لعلمه بما يقع في العالم من كلّي وجزئي -وخصّهما بالذكر
 لأنّ الحس لا يتجاوزهما- ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ، كَيْفَ

يَشَاءُ ﴿١﴾ مِنْ ذُكُورَةٍ وَأُنْثَىٰ وَبَيَاضٍ وَسَوَادٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ ﴿٢﴾ فِي مُلْكِهِ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ ﴿٣﴾ فِي صُنْعِهِ.

وقول المؤلف: (الله أعلم بمراده بذلك): سبق التعليق على نظيره في فاتحة البقرة.

وقوله: (يا محمد): بيان: للمخاطب بقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾. وقوله: (ملتبسًا): بيان لمعنى: «الباء» في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: إنَّ الباء للملابسة^(١)، ولو قال الباء للملابسة؛ لكان أولى من قوله -تفسيرًا للكتاب-: «القرآن ملتبسًا»؛ لأنَّ الالتباس من اللبس، لا من الملابسة^(٢). وقوله: (بالصدق في أخباره): تفسير للحق الذي في القرآن بصدق الأخبار، وهذا تفسير قاصر؛ فإنَّ الحق الذي في القرآن يشمل الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]^(٣).

وقوله: (قبله من الكتب): بيان لمعنى: ما بين يديه؛ لأنَّه يُعَبَّرُ بما بين يدي الشيء عما تقدمه من زمان أو مكان، كما قال ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة»^(٤) وتقول: مشى الجند بين يدي الأمير؛ أي: أمامه، والكتب التي بين

(١) ينظر: الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٦/٢)، والدر المصون (٣/١٥) والكثير يعبر بـ «ملتبسًا بالحق» بخلاف ابن عاشور في التحرير والتنوير (٣/١٤٨) في هذا الموضوع فقد عبّر بـ «الملابسة».

(٢) ينظر: لسان العرب (٦/٢٠٤).

(٣) ينظر: تفسير السعدي - ت اللويحق - (ص ١٢١).

(٤) أخرجه أحمد (٥١١٥)، والطبراني في الكبير (٣١٧/١٣) رقم ١٤١٠٩ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وذكر البخاري جزءًا منه تعليقًا بصيغة التمريض في «كتاب الجهاد والسير»، =

يدي القرآن، كل ما نزل من كتب الله؛ خصوصاً التوراة والإنجيل، ولهذا خصهما الله بالذكر في آخر الآية.

وقوله: (قبل تنزيله): أي: أنزل التوراة والإنجيل قبل تنزيل القرآن. وقوله: (حال)... إلى آخره: يبين: أن ﴿هُدًى﴾ في الآية منصوب على الحال، وأنه من التعبير بالمصدر عن اسم الفاعل، ولهذا قال: «هاديين» أي: التوراة والإنجيل^(١).

وقوله: (ممن تبعهما): تفسيراً للناس ببعض معناه، ولفظ الناس يعم من تبع التوراة والإنجيل ومن لم يتبعهما، ولا ريب أن من تبعهما أخص بهدائيهما، كما قال الله في القرآن: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقوله: (وعبر فيهما)... إلى آخره: يشير إلى السر في الإخبار عن التوراة والإنجيل بالإنزال، وعن القرآن بالتنزيل، وهو أن التوراة والإنجيل أنزلا جملة، وأن القرآن نُزِّلَ مفرداً، وهذا مبني على الفرق بين الإنزال والتنزيل؛ وهو أن التنزيل يقتضي التكرار والتفريق بخلاف الإنزال^(٢)، والذي تدل عليه الشواهد من الآيات، أن القرآن يوصف بالإنزال والتنزيل^(٣)، وأما التوراة والإنجيل فلم يخبر عنهما إلا بالإنزال، فدل ذلك على أن التنزيل يتضمن الإنزال لا العكس؛ فكل منزل منزل، وليس كل منزل منزلًا، فما نزل

= «باب ما قيل في الرماح» عند حديث (٢٩١٤)، وقال ابن تيمية في الاقتضاء (١/٢٦٩): «وهذا إسناد جيد». وصححه الألباني في الإرواء (١٢٦٩). وينظر: التعليل (٣/٤٤٦).

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن (١/٢٣٦)، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٩/٢).

(٢) ينظر: تفسير الثعلبي (٨/٢٤)، والتفسير البسيط (٥/١٥).

(٣) لهذا ذهب ابن حيان إلى عدم التفريق وأنهما بمعنى واحد. ينظر: البحر المحيط (١/١٦٧-١٦٨)، (٣/١٦).

متفرقًا؛ فيخبر عنه بالإنزال والتنزيل، كما في المطر فقد وُصف في القرآن بالإنزال والتنزيل.

وقد يوضع التنزيل موضع الإنزال، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ فعلم أن اقتضاء التنزيل للتكرار ليس مطردًا، كما تدل عليه هذه الآية، ويجري مجرى التنزيل في الدلالة على التكرار لفظ التنزل، كما قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ﴾ [القدر: ٤]، وقال تعالى: ﴿وُنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقوله: (بمعنى الكتب الفارقة بين الحق والباطل): يريد أن الفرقان مصدر عُبر به عن اسم الفاعل، وُسِّمت الكتب المنزلة على الرسل «فرقان» لأنها متضمنة له؛ كقوله تعالى في القرآن: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى في «التوراة»: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقوله: (وذكره بعد ذكر الثلاثة ليعم ما عداها): يشير بهذا إلى الحكمة في ذكر إنزال الفرقان بعد ذكر الكتب الثلاثة: القرآن، والتوراة، والإنجيل، وذلك في قوله: (ليعم ما عداها)؛ أي: ليشمل قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾، غير الكتب الثلاثة؛ فإن كتب الله جميعها مشتملة على الفرقان بين الحق والباطل.

وقوله: (القرآن وغيره): يبين أن آيات الله تشمل كل ما أنزله الله من كتبه؛ فكل من كفر بشيء من كتب الله؛ فهو كافر بآياته.

وقوله: (غالب على أمره): يبين أن من معاني العزيز: الغالب.

وقوله: (فلا يمنعه شيء من إنجاز وعيده ووعدته): فيه: بيان مناسبة ذكر اسمه: «العزيز» بعد ذكر الوعيد.

وقوله: (عقوبة شديدة)... إلى آخره: تفسير لانتقام، وكأنه أخذ المعنى الذي ذكره من تنكير ﴿انْتِقَامٌ﴾ الدال على التعظيم والتهويل.
وقوله: (كائن) يعني: موجود؛ فالمعنى: لا يخفى على الله شيء من الموجودات.

وقوله: (لعلمه)... إلى آخره: تعليل لقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، ومعنى ذلك: أن علمه تعالى محيط بما في السموات والأرض.

وقوله: (وخصهما بالذكر)... إلى آخره: يريد السموات والأرض؛ لأنَّ حَسَّ الناس لا يتجاوزهما.

وقوله: (من ذكورة وأنوثة)... إلى آخره: بيان لما يشملهُ التصوير حسب مشيئة الله.

وقوله: (في ملكه): يبين أنَّ عزته تعالى تقتضي التصرف والتدبير في ملكه بما شاء.

وقوله: (في صنعه): معناه أنه تعالى ذو حكمة في خلقه لا يخلق شيئاً عبثاً.



وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَقْلُ الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران: ٧-٩].

يخبر تعالى في هذه الآيات ممتننا على رسوله؛ بأنه تعالى هو الذي أنزل عليه هذا الكتاب -وهو القرآن-، ويخبر سبحانه؛ بأن آيات القرآن منها مُحْكَمٌ، ومنها متشابه؛ فالآيات المحكمات هن البينات الواضحات، وآيات آخر متشابهات، يشبه معناها على بعض الناس ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾؛ أي: ميل عن الحق؛ فيتبعون الآيات المشبهات؛ لأنها تحتمل معاني. يفعلون ذلك طلباً للفتنة، وهي: الصد عن سبيل الله، وطلباً لتأويلها الذي لا يعلمه إلا الله، وأما الراسخون في العلم، وهم الذين فقهوا في دين الله وعملوا به، وتمكّن الإيمان في قلوبهم؛ فهؤلاء الراسخون يؤمنون بجميع الآيات المحكمات والمتشابهات، ويردّون المتشابهات إلى المحكمات، ويقولون: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، ويدعون بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾، وقد دل قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾: على أن بعض القرآن محكم، وبعضه متشابه، وجاءت آيات أخرى تدل على أن القرآن كله محكم وكله متشابه، وهذا فيه نوع تعارض في الظاهر، فلا بد من الجمع بين هذه الآيات، وطريق الجمع أن يبين معنى الإحكام والتشابه الذي يعمله، ومعنى الإحكام والتشابه الذي يخص بعضه؛ فنقول: الإحكام الذي يعمله؛ بمعنى: الإتقان؛ فكله محكم؛ أي: متقن ألفاظه ومعانيه، والتشابه الذي

يعمه؛ بمعنى أنه يصدق بعضه بعضاً، فلا تناقض فيه، ومعنى الإحكام الذي يخص بعض القرآن: هو الفصل بين المشتبهات علماً وعملاً، ومعنى التشابه الذي يخص بعضه: خفاء المعنى المراد حتى يشكل على بعض الناس، فيحتاج إلى ما يبينه ويرفع الإشكال^(١)، واختلف المفسرون في المراد بالتأويل في الآية؛ ف قيل: المراد به حقائق الغيب، وقيل: المراد به التفسير^(٢)، وبناءً على هذا اختلف القراء في الوقف^(٣)؛ فذهب الجمهور إلى الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ والمراد بالتأويل على هذه القراءة الحقيقة، وقال: بعضهم الوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وعلى هذا؛ فالتأويل بمعنى: التفسير، وحينئذ؛ فلا منافاة بين القولين في الوقف^(٤)، وجاء في السنة حديث يتعلق بهذه الآية، فروى مسلم في صحيحه^(٥) أن النبي ﷺ تلا هذه الآية، ثم قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ» يريد قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، وقد ذمَّ الله في هذه الآية الذين يتبعون المتشابه من الآيات؛ فوصفهم بالزيغ، وقصد الفتنة في اتباعهم المتشابه، وفي مقابل ذلك أثنى سبحانه على الذين يؤمنون بالكتاب كله، ووصفهم بالرسوخ في العلم والإيمان التام ونوّه بدعائهم؛ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى آخره ونظير هذا الدعاء قوله ﷺ: «يَا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(٦)،

(١) ينظر: شرح العقيدة التدمرية لشيخنا (ص ٣٤٤-٣٥٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥٩٧)، وزاد المسير (١/٢٦٠).

(٣) ينظر: إيضاح الوقف والابتداء (٢/٥٦٥)، والقطع والالتفاف (ص ١٢٤).

(٤) ينظر: شرح العقيدة التدمرية (ص ٣٠٥).

(٥) برقم (٢٦٦٥) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٦) أخرجه أحمد (١٢١٠٧)، والترمذي (٢١٤٠) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: «وفي الباب عن النّوّاس بن سميعة، وأم سلمة، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، وأبي ذر. وهذا حديث حسن» وصححه الحاكم (١٩٢٧). وينظر: الصحيحة (٢٠٩١).

وهذا الدعاء يتضمن سؤال الثبات على الدين، والاعتراف لله بنعمة الهداية، وسؤال الرحمة التي يحصل بها خير الدنيا والآخرة، والثناء على الله لكثرة الهبات واليقين باليوم الآخر، وتنزيه الله عن إخلاف الوعد.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾: واضحات الدلالة، ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: أصله المُعْتَمَد عليه في الأحكام، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ لا تفهم معانيها، كأوائل السور. وجعله كله مُحْكَمًا في قوله (أُحْكِمْتَ آيَاتِهِ) بمعنى أنه ليس فيه عيب، ومُتَشَابِهًا في قوله (كِتَابًا مُتَشَابِهًا) بمعنى أنه يُشَبِّه بعضه بعضًا في الحُسْن والصِّدْق.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: ميل عن الحق ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءً﴾: طلب ﴿الْفِتْنَةَ﴾، لِحُبِّهِمْ لها بوقوعهم في الشُّبُهَات واللُّبْس، ﴿وَابْتِغَاءً تَأْوِيلَهُ﴾: تفسيره، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾: تفسيره ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وحده، ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾: الثابتون المتمكِّنون ﴿فِي الْعِلْمِ﴾: مبتدأ خبره ﴿يَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ﴾ أي: بالمتشابه أنه من عند الله ولا نعلم معناه. ﴿كُلٌّ مِنَ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ﴾ من عِنْدِ رَبَّنَا. وما يَذْكُرُ - بإدغام التاء في الأصل في الذال - أي: يتعظ ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾: أصحاب العقول.

ويقولون أيضًا إذا رأوا من يتبعه: ﴿رَبَّنَا، لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾: تملأها عن الحق، بابتغاء تأويله الذي لا يليق بنا كما أزغت قلوب أولئك، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾: أرشدتنا إليه، ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾: من عندك ﴿رَحْمَةً﴾: تبيينًا - ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ - يا ﴿رَبَّنَا، إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾: تجمعهم ﴿لِيَوْمٍ﴾ أي: في يوم ﴿لَا رَيْبَ﴾: شك ﴿فِيهِ﴾. هو يوم القيامة. فتُجَازِيهِمْ بأعمالهم كما وعدت بذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: مواعده بالبعث. فيه التفات عن الخطاب، ويحتمل أن يكون من كلامه تعالى.

والغرض من الدعاء بذلك بيان أن همهم أمر الآخرة. ولذلك سألوها الثبات على الهداية لينالوا ثوابها.

روى الشيخان عن عائشة قالت: (تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ، إِلَى آخِرِهَا، وَقَالَ: ((إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ. فَاحْذَرُوهُمْ))). وروى الطبراني في (الكبير) عن أبي مالك الأشعري أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((ما أخافُ على أمتي إلا ثلاثَ خِلالٍ))، وذكر منها (أن يُفتحَ لَهُمُ الْكِتَابُ فَيَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ يَتَغَيَّ تَأْوِيلُهُ، وَلَيْسَ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ. وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا. وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْأَلْبَابِ) الحديث^(١).

وقول المؤلف: (أصله المُعْتَمَد): تفسير لأم الكتاب، وهي: الآيات المحكمات؛ لأنها واضحة؛ فهي بينات مبيّنات؛ لذلك تُرد إليها الآيات المتشابهات.

وقوله: (لا تُفهم معانيها): هذا أحد الأقوال في المتشابه من الآيات، ولهذا مُثِّل له بأوائل السور؛ يعني: الحروف المقطعة التي قال فيها فيما تقدم: «الله أعلم بمراده»^(٢) والصواب: أنه ليس في القرآن ما لا معنى له، وما لا يفهمه أحد، لكن الآيات المتشابهات ما يشتهب معناها على بعض الناس، ويخفى معناها المراد؛ فتحتاج إلى ما بيّنه^(٣).

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٣٤٤٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٢٨): «فيه محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه ولم يسمع من أبيه»، وقال ابن كثير في التفسير (١١/٢) غريب جداً، وأعله الألباني بثلاث علل في الضعيفة (٥٦٠٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٥/١٩٩-٢٠١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣١٧٦).

(٣) ينظر: شرح العقيدة التدمرية (ص ٣٨٣).

وقوله: (وجعله كله مُحْكَمًا)... إلى آخره: يريد: أن يبين أن الأحكام والتشابه جاء عامًا؛ كما في الآية التي ذكرها، وجاء خاصًا؛ كما في آية آل عمران، فيجب الفرق بين الأحكام والتشابه الذي يعم القرآن، والأحكام والتشابه الذي يخص بعضه، وقد تقدم إيضاح ذلك.

وقوله: (لحبهم لها): يريد: أنهم يطلبون الفتنة وهي: إشاعة الشبهات والشكوك؛ لأنهم واقعون فيها؛ فيريدون أن يقع غيرهم مثلهم، فيجمعون بين الضلال والإضلال.

وقوله: (تفسيره): أي: تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، وما لا يعلمه إلا الله لا يجوز طلبه، وهذا مبني على قوله: (إنَّ المتشابه لا يفهمه أحد). وقوله: (الثابتون المتمكنون): يعني: في العلم والدين؛ فهم على يقين لا يخالطه أدنى ارتياب. وقوله: (مبتدأ): يريد: أن قوله «الراسخون» مبتدأ، وجملة «يقولون آمنا به» في موضع رفع خبر المبتدأ، وهذا على أن المراد بالتأويل: «الحقيقة» وأن الوقف على «إلا الله»، وأما إذا قيل: المراد بالتأويل: التفسير والوقف على العلم؛ ف«الراسخون» معطوف على «إلا الله».

وقوله: (أي: بالمتشابه)... إلى آخره: يبين أن الضمير في قوله: «آمنا به» يعود إلى الموصول في قوله: «ما تشابه»، لكن يحتمل أن الضمير يعود إلى الكتاب^(١)، ويؤيده قوله: «كل من عند ربنا»؛ أي: المحكم والمتشابه، وقول المؤلف: (ولا نعلم معناه)؛ أضاف إلى الراسخين في العلم ما ذهب إليه في المراد بالمتشابه، وليس هذا بسديد؛ بل الراسخون في العلم يؤمنون به، ويفهمون معناه.

وقوله: (من المحكم والمتشابه): تفسير لتكوين العوض في قوله: «كل».

(١) ينظر: مشكل إعراب القرآن (١/ ١٥٠)، والبحر المحيط (٣/ ٣٠).

وقوله: (بادغام التاء)... إلى آخره: لأن أصل الكلمة «يتذكر»؛ فسكنت التاء، وقُلبت ذالاً، وأدغمت التاء في الذال، ومعنى يتذكر؛ يتعظ، والجملة مستأنفة.

وقوله: (أصحابُ العقول): لأنَّ اللب يعبر به عن العقل، ولب الشيء: خالص الشيء وأطيب ما فيه^(١)، وأولو الألباب هم أهل التفكير والتذكر؛ كما ذكرهم الله في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقوله: (ويقولون)... إلى آخره: ينبه بهذا على أنَّ قول الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، إلى آخر الدعاء، مقول قول محذوف؛ تقديره: ويقولون^(٢)، وأنَّ قولهم هذا يكون منهم؛ إذا رأوا أهل الزيغ يتبعون المتشابه، ويطلبون تأويله الذي لا يعلمه إلا الله؛ فعند ذلك يطلبون ثبات قلوبهم على الحق، وألا يزيغ الله قلوبهم؛ كما أزاغ قلوب أولئك.

وقوله: (أرشدتنا إليه): فسّر الهداية بهداية الدلالة والإرشاد، والصواب: أنها شاملة لنوعي الهداية: هداية الدلالة، وهداية التوفيق^(٣).

وقوله: (تثبيتاً): هذا تفسير للرحمة ببعض ما تدل عليه؛ فإنَّ الرحمة شاملة لكل خير في الدنيا والآخرة.

وقوله: (تجمعهم): يبين: أنَّ جامع: يفيد الاستقبال؛ فمعناه: إنك تجمع الناس يوم القيامة ذلك اليوم الذي لا ريب فيه.

وقوله: (أي: في يوم): يبين أنَّ اللام هي الدالة على الوقت؛ فهي ظرفية؛ كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]^(٤).

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ١١٠)، والمفردات (ص ٧٣٣).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٣١).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٢٢٨)، وتفسير البغوي (٢/ ١١).

(٤) وهو قول الطبري (٥/ ٢٣٤)، وتنظر أوجه أخرى في: التبيان في إعراب القرآن

(١/ ٢٤٠)، والبحر المحيط (٣/ ٣٣).

وقوله: (فُتْجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ)... إلى آخره: بيان: لحكمة جمع الناس في ذلك اليوم وهي: المجازة على الأعمال.
وقوله: (مَوْعِدَهُ بِالْبَعْثِ): يبين: أَنَّ المراد لا تخلف وعدك لَأَنَّ «مَوْعِد» مصدر ميمي.

وقوله: (فِيهِ التَّفَاتِ)... إلى آخره: الالتفات هو: الانتقال من أسلوب إلى أسلوب؛ كالانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب^(١)، والمؤلف يقول: إِنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، يحتمل أنه متصل بكلام الراسخين بالعلم؛ فيكون فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، إذ لم يقولوا: إنك لا تخلف الميعاد؛ يقول: ويحتمل أن جملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، جملةٌ مستأنفةٌ من كلام الله تعالى؛ يخبر تعالى عن نفسه أنه لا يخلف الميعاد؛ وعلى هذا فلا التفات^(٢).

وقوله: (وَالْغَرَضُ مِنَ الدَّعَاءِ)... إلى آخره: يبين: وجه دعاء الراسخين في العلم؛ بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾، وهو الدلالة على أَنَّ أكبر همهم النجاة يوم القيامة؛ قال المؤلف: (ولذلك سألوا الثبات على الهداية لينالوا ثوابها).

وقوله: (عَنْ عَائِشَةَ)... إلى آخره: سبق ذكره.



(١) ولشيخنا تعليق في جواز باستعمال مصطلح «الالتفات» وغيره من المصطلحات البلاغية في كلام الله، ولا يلزم من ذكر هذه المصطلحات إضافة أفعالها إلى الله، بل تجعل هذه المصطلحات من أوصاف الألفاظ ودلالاتها. ينظر: نصوص وتعليقات (ص ٨١).
(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٣٧٩)، التبيان في إعراب القرآن (١/ ٢٤٠).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠) كَذَابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْتَقَاتِ فِتْنَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ [آل عمران: ١٠-١٣].

هذه الآيات متصلة في المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (٤) [آل عمران]، يخبر تعالى أنه لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً؛ فلا تنجيهم من عذاب الله ويؤكد تعالى ذلك؛ بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠)، والوقود: بفتح الواو ما توقد به؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، والوقود: بضم الواو اسم مصدر؛ بمعنى: الإيقاد^(١)، وقوله: ﴿كَذَابٌ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، الجار والمجرور خبر مبتدأ محذوف، والدأب: الشأن؛ فالتقدير: شأنهم؛ كشأن آل فرعون، لاستحقاق العقاب، وعدم إغناء الأموال والأولاد عنهم؛ فلم تمنعهم من عذاب الله، وقيل: الدأب السُّنة الماضية الدائمة؛ فالمعنى: ما جرى من العقوبة على الكافرين المكذبين برسالة محمد ﷺ، هو من سُنَّة الله الماضية؛ كسُنَّتِهِ فِي آلِ فِرْعَوْنَ، والذين من قبلهم، لما كذبوا بآيات الله، أخذهم الله بذنوبهم بعقوبات شديدة؛ لأنه تعالى شديد العقاب^(٢)، ثم أمر الله نبيه أن

(١) ينظر: المفردات (ص ٨٧٩)، ولسان العرب (٣/ ٤٦٥).

(٢) ينظر تحرير بديع للأقوال في معنى: «دأب» في النبوات لابن تيمية (٢/ ٩٦٧) وما بعدها، وقال (٢/ ٩٧٥): «الدأب: العادة، وهو مصدر يُضاف إلى الفاعل تارة، وإلى المفعول أخرى، فإذا أضيف إلى الفاعل، كان المعنى: كفعل آل فرعون، وإذا أضيف إلى المفعول، كان المعنى: كعادتهم في العذاب والمصائب التي نزلت بهم؛ يقال: هذه عادة هؤلاء لما فعلوه، ولما يصيبهم، وهي عادة الرب وسنته فيهم. والتحقيق: أن اللفظ يتناول الأمرين جميعاً».

يواجه الذين كفروا به؛ من أهل الكتاب والمشركين بالتهديد بالغلبة في الدنيا، وسوء المصير في الآخرة، وذلك قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(١)، المهاد؛ أي: الفراش الممهّد^(١)، وجملة ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: معطوفة؛ فتدخل في مقول القول الذي أمر به النبي ﷺ، أو مستأنفة؛ لتهويل عذابها وبيان شدته^(٢)، والخطاب في هذه الآية والتي بعدها لليهود، حسب ما ورد في سبب النزول، فقد روي أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشاً فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أن قتلت نفرًا من قريش، كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك -والله- لو قاتلنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا؛ فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٣)، إلى قوله: ﴿لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٤)، ولكن لفظها عام لجميع الكفار.

وهذا القول من اليهود، هو من جهلهم وغرورهم واستكبارهم، وإلا فوقعة بدر كافية في إرهابهم؛ ففيها آية يعتبر بها أولو الأبصار، ولكن اليهود ليسوا منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ إلى آخره، وهذا تنبيه من الله على ما في وقعة بدر، من الدلالة على قدرته تعالى وحكمته، وعلى صدق رسوله، وذلك فيما جرى يوم بدر من لقاء فئتي المؤمنين والكافرين، وما حصل في ذلك اللقاء من القتل والقتال؛ فكانت الغلبة لفئة المؤمنين؛ لأنها تقاتل في سبيل الله بقيادة الرسول ﷺ، وهزم الله فئة الكافرين من مشركي مكة، ومن عاونهم؛ لأنهم يقاتلون في

(١) ينظر: التفسير البسيط (٥/ ٧٦).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٤).

(٣) ينظر: أسباب النزول (ص ٩٨)، والعجاب في بيان الأسباب (٢/ ٦٦٥).

سبيل الطاغوت، هذا والفئة الكافرة ضعفاً عدد فئة المؤمنين، ولهذا قال تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مَثَلَهُمْ رَأَى الْعَيْنُ﴾، والضمير المرفوع يحتمل أن يكون للمسلمين، والضمير المنصوب للفئة الكافرة، ويحتمل العكس؛ فالمعنى: يرى المسلمون الكفار مثليهم، أو يرى الكفار المؤمنين مثليهم، ويؤيد الاحتمال الأول؛ ما جاء في السيرة أن عدد المسلمين كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر، وعدد الكافرين ألف أو تسع مئة^(١)، ويشكل على كل من الاحتمالين؛ قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي أَيُّكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَيُّنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]، والجواب: أن كلا من الفئتين ترى الأخرى في أول الأمر مثليها؛ فلما التحم الجيشان؛ قلل الله كلا من الفئتين في عين الأخرى؛ إغراء لكل فئة بالأخرى^(٢)، وقوله: ﴿رَأَى الْعَيْنُ﴾، معناه: أن الرؤية حقيقة بصرية، لا رؤيا منام، ولا رؤية قلبية، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾، وقد أعلمنا أنه لا ينصر إلا رسله وأتباعهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]، وهذه سنته تعالى في أوليائه وأعدائه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾، فمن علم هذه الآية، وكان من أولي الأبصار؛ أي: البصائر؛ فلا بد أن يحذر من أسباب العقوبات، ويأخذ بأسباب النصر والتمكين، وبهذا يكون من أولي الأبصار المعتبرين بسنن الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾، بفتح الواو: ما

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٢٤٥) وما بعدها، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٧-١٨).

(٢) ينظر: زاد المسير (١/ ٢٦٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٨).

يُوقَدُ بِهِ، دَابَّهِمْ ﴿كَذَّابٌ﴾: كَعَادَةٌ ﴿آلِ فِرْعَوْنَ، وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنْ الْأُمَمِ كَعَادِ وَثُمُودَ، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾: أَهْلَكَهُمْ ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾. وَالْجُمْلَةُ مَفْسَّرَةٌ لِمَا قَبْلَهَا. ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وَنَزَلَ لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْيَهُودَ بِالْإِسْلَامِ، مَرَجَعَهُ مِنْ بَدْرٍ، فَقَالُوا لَهُ: (لَا يَغْرَنَكَ أَنْ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ): ﴿قُلْ﴾ - يَا مُحَمَّدٌ - ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، مِنْ الْيَهُودِ: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ - بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ - فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَضَرْبِ الْجَزْيَةِ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ، ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ - بِالْوَجْهِينِ - فِي الْآخِرَةِ ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾، فَتَدْخُلُونَهَا، ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: الْفِرَاشُ هِيَ!

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾: عِبْرَةٌ - وَذُكِّرَ الْفِعْلُ لِلْفَصْلِ - ﴿فِي فِتْنَيْنِ﴾: فِرْقَتَيْنِ، ﴿التَّقَاتِ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ لِلْقِتَالِ، ﴿فِتْنَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: طَاعَتِهِ - وَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَكَانُوا ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، مَعَهُمْ فَرَسَانِ وَسِتُّ أَدْرُعٍ وَثَمَانِيَةُ سُيُوفٍ، وَأَكْثَرُهُمْ رَجَالَةٌ^(١) - ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ، يَرَوْنَهُمْ﴾ أَي: الْكُفَّارُ ﴿مِثْلِهِمْ﴾ أَي: الْمُسْلِمِينَ أَي: أَكْثَرُ مِنْهُمْ، وَكَانُوا نَحْوَ أَلْفٍ، ﴿رَأَى الْعَيْنُ﴾ أَي: رُؤْيَا ظَاهِرَةً مُعَايَنَةً. وَقَدْ نَصَرَهُمُ اللَّهُ مَعَ قَتْلِهِمْ. ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾: يُقَوِّي ﴿بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ نَصْرَهُ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾: لِذَوِي الْبَصَائِرِ، أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِذَلِكَ فَتَتَوَمَّنُونَ؟

وَقَوْلُ الْمُؤَلِّفِ: (تَدْفَعُ): يَبِينُ بِهَذَا التَّفْسِيرُ أَنَّ: «تَغْنِي» مِنَ الْغِنَى؛ الَّذِي هُوَ جَلْبُ نَفْعٍ، أَوْ دَفْعُ ضَرٍّ، وَلِهَذَا عُدِّيَ بِ: «عَنْ» فَظَهَرَ تَفْسِيرُ: «تَغْنِي» بِ- (تَدْفَعُ).

(١) ينظر: تفسير البغوي (٢/ ١٤).

وقوله: (أي: عذابه): يبين أن قوله تعالى: ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ على تقدير مضاف محذوف، والتقدير: لن تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً.

وقوله: (دأبهم): تقدير مبتدأ خبره كدأب.

وقوله: (كعادة): أي: السنة التي مضت في المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم؛ فالمعنى: ما جرى لهؤلاء الكفار، هو مثل ما جرى لآل فرعون ومن قبلهم؛ فسنة الله في الجميع واحدة، وهي: الإهلاك والتدمير.

وقوله: (أهلكهم): فسر الأخذ بالإهلاك، وهذا كثير في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٦٧]، أي: أهلكتهم، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ [هود: ١٠٢]، أي: أهلكهم^(١).

وقوله: (والجملة مفسرة لما قبلها): يريد بالجملة: قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ فإن إهلاك المكذبين بذنوبهم، هو سنة الله فيمن عصاه؛ فجملة: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ مفسرة لقوله تعالى: ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

وقوله: (ونزل)... إلى آخره: يذكر هنا سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، وما ذكره يقتضي: أنها نزلت في اليهود، ولكن لفظ الآية عام، والقاعدة: أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب؛ فالخطاب في الآية يتوجه إلى جميع الكفار، وحكم الآية يعمها.

وقوله: (من اليهود): هذا التفسير راجع إلى ما ذكره من سبب النزول.

وقوله: (بالتاء والياء): يشير إلى أن في الآية قراءتين: تغلبون، ويغلبون^(٢).

(١) ينظر: نزهة الأعين النواظر (ص ١٣٤).

(٢) ينظر: النشر (٢/ ٢٣٨).

وقوله: (في الدنيا)... إلى آخره: يبين أنهم تُوعَدُوا بأمرين؛ أحدهما في الدنيا، وهو الغلبة بالأمور التي ذكرها؛ من القتل والأسر وأخذ الجزية، والثاني في الآخرة، وهو الحشر إلى جهنم.

وقوله: (بالوجهين): يبين: أنَّ «يحشرون» فيها قراءتان: «تحشرون»، و«يحشرون»؛ كالوجهين في «تُغلبون»^(١).

وقوله: (هي): يعود الضمير إلى جهنم؛ لأنها المخصوص بالذم؛ فالتقدير: بئس المهاد جهنم. وقوله: (عبرة): يريد أنَّ هذه الآية فيها عبرة.

وقوله: (وَذُكِّرَ الْفِعْلُ لِلْفَصْلِ): يريد «كان»؛ لأنه ليس فيه علامة التانيث: التاء الساكنة، وسبب تذكير الفعل، هو الفصل بين الفعل والفاعل، بالجار والمجرور «لكم»؛ ولأنَّ الفاعل مؤنث مجازي.

وقوله: (فرقتين): أي: جماعتين مختلفتين.
وقوله: (طاعته): تفسير لسبيل الله؛ أي: يقاتلون طاعة لله، وإعلاء لكلمته.

وقوله: (وأكثرهم رجالة): أي: مشاة على الأقدام؛ لقلة الظَّهَر معهم.
وقوله: (أي: الكُفَّارُ): تفسير للضمير المنصوب؛ أي: يرى المسلمون الكفار مثليهم.

وقوله: (أي: المسلمين)... إلى آخره: يريد أنَّ المسلمين يرون الكفار أكثر منهم، وهو تفسير للضمير المرفوع في قوله: «يرونهم».

وقوله: (رُؤْيَا ظَاهِرَةً)... إلى آخره: أي: رؤية لا شك فيها؛ لأنها رؤية بالعين.

وقوله: (نَصْرَهُ): تقدير لمفعول: «يشاء»؛ المعنى: مَنْ يشاء الله نصره؛ فإنه ينصره.

(١) ينظر: النشر (٢/ ٢٣٨).

وقوله: (المذكور): أي: المذكور في الآية، هو مرجع الإشارة.
 وقوله: (أفلا تعتبرون بذلك فتؤمنون؟): يبين أن المراد من ذكر قصة
 الفتنين؛ الدعوة إلى الاعتبار والإيمان.



وقوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ
الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرْثِ ۚ ذَٰلِكَ مَتَّعُ
الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤْتِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ
اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَرْوَّاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا
فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّادِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِتَّةِينَ وَالْمُنْفِقِينَ
وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤-١٧].

يخبر تعالى في هذه الآية أنه زين؛ أي: حسن للناس؛ المراد: جنس
الناس. حب الشهوات؛ أي: المشتبهات، سميت شهوات من باب إطلاق
المصدر، أو اسم المصدر على اسم المفعول^(١)، والمزِين هو الله، وهو
تزيين كوني؛ لأنه خالق هذه الأشياء وجاعل محبتها في قلوب الناس،
وتعليق التزيين بحب الشهوات؛ لأنه مضمّن معنى حُب، وحُب: نائب
فاعل؛ فالمعنى: على هذا حُب إليهم حب الشهوات؛ فهم يحبون حبهم
لها، وهذا غاية في التزيين. قاله الرازي^(٢). وتعليق التزيين بالحب على
خلاف مقتضى الظاهر في نظم الكلام؛ فإنّ المعنى: زين للناس الشهوات
حباً لها؛ فأقيم المصدر مقام نائب الفاعل، وأضيف إلى الشهوات؛ قال ابن
عاشور: «وقد سكت المفسرون عن وجه نظم الكلام بهذا التعليق. والوجه
عندي: أن يجعل حب الشهوات مصدراً نائباً عن مفعول مطلق، مبيناً لنوع
التزيين: أي زين لهم تزيين حب، وهو أشد التزيين، وجعل المفعول المطلق
نائباً عن الفاعل، وأصل الكلام: زين للناس الشهوات حباً، فحوّل وأضيف
إلى النائب عن الفاعل، وجعل نائباً عن الفاعل، كما جعل مفعولاً في قوله

(١) ينظر: الدر المصون (٣/ ٥٧).

(٢) تفسير الرازي (٧/ ١٦١).

تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢...]^(١)، ومضمون كلامه: يؤول إلى قريب من معنى قول الرازي؛ وهو حُبُّ للناس حب الشهوات من أصناف متاع الدينا، وبينها قوله تعالى: ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾؛ فبدأ بالنساء؛ لأنها أعظم شهوات الرجال، وفتنة الرجال بهن أعظم من كل فتنة، كما يدل لذلك قوله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء»^(٢)، وقال ﷺ: «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»^(٣)؛ فخص النساء من بين شهوات الدنيا، ثم ذكر تعالى البنين وأنواع المال؛ لأنها زينة الحياة الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وذكر من أصناف المال خمسة: الذهب والفضة، وبدأ بهما؛ لأنَّ بهما يُتوصل إلى سائر الأموال والحاجات؛ لأنَّهما الأثمان، وبهما تقوم الأشياء، وأعظم ما تكون الرغبة في الكثير منهما؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾، والقناطر: جمع قنطار، واختلف المفسرون وأهل اللغة في مقداره على أقوال كثيرة، وروي في بعضها أحاديث مرفوعة^(٤)، ويجمعها المال الكثير^(٥)، والثالث: الخيل المسومة؛ أي: المعلّمة بعلامات، من السومة وهي: العلامة،

(١) التحرير والتنوير (١٧٩/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠) - واللفظ له - عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) منها حديث «القنطار اثنا عشر ألف أوقية»، وقد روي بلفظ: «القنطار ألفا أوقية» وقال الألباني: «وجملة القول؛ أن الحديث لا يصح مرفوعاً إلى النبي ﷺ بأي لفظ من الألفاظ المتقدمة؛ لشدة الاختلاف بينها، ووهاء أسانيدھا، والاختلاف في رفعها ووقفها ووصلها وإرسالها. وهو ما يشعر به صنيع الحافظ ابن جرير... فاعتمد في تفسير الآية على المعنى اللغوي، ولم يلتفت إلى شيء من تلك الأحاديث التي رواها؛ لما ذكرنا من عللها ووهائها» ينظر: الضعيفة (٤٠٧٦)، وعلل الدارقطني (١٤٨٦).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٢٥٤/٥ - ٢٦٠)، ولسان العرب (١١٨/٥ - ١١٩).

وقيل: المسوومة الراعية، من: أسام الماشية؛ إذا رعاها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل^(١)]، وقال المفسرون وأهل اللغة: سميت الخيل خيلاً من الخيلاء؛ لأنها تختال في مشيتها^(٢)، وكذا قد يختال راكبها، والرابع: الأنعام؛ وهي الإبل والبقر والغنم؛ والخامس: الحرث، وهي: الأرض المحروثة للزرع والغرس؛ فيدخل في ذلك البساتين والمزارع والنخيل والأشجار ذات الثمار، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: المذكور من هذه الشهوات متاع الحياة الدنيا؛ أي: يتمتع بها في هذه الدنيا، ثم تزول أو يزول عنها المتمتع بها، ولذا سماها متاعاً تزهداً فيها، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾^(٣)؛ أي: المرجع الحسن، وهو: الجنة^(٤)، وفي ذلك الوعد تزهد في شهوات الدنيا الفانية، وترغيب في الدار الآخرة الباقية؛ الجنة. وحب الشهوات، هو من الحب الطبيعي الذي لا يُمدح ولا يُذم إلا بحسب متعلقه، وبحسب الغاية من ذلك الحب؛ فمن كانت غايته التوصل بهذه الشهوات إلى ما يحب الله؛ كان حبه لها وتمتعه بها محموداً، ومن كانت غايته التوصل إلى ما يبغضه الله ولا يرضاه؛ كان حبه لها وتمتعه بها مذموماً، ومما يوضح هذا المعنى قوله ﷺ في الخيل: «الخيّل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر؛ فرجل ربطها في سبيل الله... ورجل ربطها تغنياً وسترًا وتعففًا، لم ينس حق الله في رقابها وظهورها؛ فهي له كذلك ستر، ورجل ربطها فخراً ورتاءً ونواءً لأهل الإسلام؛ فهي وزر على ذلك»^(٤)، ونحو ما قاله الرسول في الخيل؛ يقال في سائر الشهوات المذكورة؛ فمثلاً: مَنْ أراد بنكاح النساء

(١) وقيل غير ذلك. ينظر: تفسير الطبري (٢/ ٢٦١)، وزاد المسير (١/ ٢٦٥).

(٢) ينظر: التفسير البسيط (٥/ ٩٨)، ومقاييس اللغة (٢/ ٢٣٥).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٢٦٧)، والهداية (٢/ ٩٧٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٤٦) - واللفظ له -، ومسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إعفاف نفسه، وإعفاف زوجاته، وتحصيل الذرية التي يكثر بها أمة محمد ﷺ؛ كان مأجورًا، ومن أراد الفخر بكثرة الأزواج، وكثرة الأولاد؛ كان مأزورًا لا مأجورًا؛ وهكذا من أراد من البنين إعدادهم للجهاد في سبيل الله، وتعلم العلم وتعليمه؛ كان مأجورًا، ومن أراد الفخر بهم، والاستعانة بهم على شيء من المحرمات كان مأزورًا، وقل مثل ذلك في الذهب والفضة والأنعام والحرث؛ من أحبها للتوصل بها إلى ما يحب الله؛ من الإنفاق في وجوه البر؛ كان محمودًا ومأجورًا، ومن أحبها وطلبها للاستعانة بها على معاصي الله، والفخر بها على عباد الله؛ كان آثمًا ومذمومًا، وكانت هذه النعم والشهوات سبب شقائه، ثم أمر الله نبيه أن يقول للناس الذين زين لهم حب الشهوات: ﴿أُوْنِبْتُكُمْ﴾؛ أي: هل أخبركم؛ ﴿بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ﴾؛ أي: بخير مما ذكر من الشهوات، ثم بينه فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾، وهذا وعد للذين اتقوا ربهم، بفعل الحسنات، وترك السيئات؛ بأن لهم هذه الجنات الموصوفة بهذه الصفات: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، يدخلونها خالدين فيها، ولهم فيها أزواج مطهرة، وفوق ذلك كله: رضوان من الله كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، ومعلوم بالضرورة عند كل عاقل؛ أن الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وفيها الأزواج المطهرة، ورضوان من الله، خير من كل متاع الدنيا، ولكن كل ذلك النعيم مقصور على المتقين، كما يفيد تقديم الخبر في قوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ٥٥؛ أي: عليم بأعمالهم وأحوالهم، ويحتمل أن يراد بالعباد العموم، وعليه؛ فالعبودية هي العبودية العامة، وأن الله بصير بأعمالهم: خيرها وشرها^(١)، ويحتمل أن يراد من تقدم ذكرهم،

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٢٧١)، والمحرر الوجيز (٢/ ١٧٦).

وهم الذين اتقوا؛ فالعبودية على هذا هي العبودية الخاصة^(١)، وهذا أولى لنعتهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمَتَا﴾، وما بعده^(٢)، وهو ثناء من الله على العباد الذين اتقوا؛ بتوجههم إليه، سائلين إياه أن يغفر ذنوبهم، ويقيهم عذاب النار، متوسلين إليه بإيمانهم، ثم ذكر من نعتهم الحميدة خمس صفات؛ فقال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِتَّةِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾^(٣)، والصبر؛ يشمل أنواع الصبر الثلاثة على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله^(٤)، والصدق يشمل: الصدق في الأقوال والأعمال في عبادة الله، وفي معاملة عباد الله. والقنوت: دوام الطاعة^(٥)، وهو ثمرة الصبر والصدق. والإنفاق يشمل: الإنفاق الواجب والمستحب من غير إسراف ولا تقتير. والاستغفار بالأسحار يدل: على قيام الليل، وأنهم لا يهجعون؛ بل يصلون كما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾^(٦) وبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ^(٧) [الذاريات]، وذكره تعالى لهم بهذه الصفات بلفظ المشتق، دون الاسم الموصول، وعطف بعضها على بعض؛ يدل على أنها صارت نعتاً لازمة لهم، وصاروا معروفين بها^(٨)، والأسحار: جمع سحر، وهو جزء من الليل، قبيل الفجر، قدره بعضهم بسدس الليل الآخر^(٩).

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾: ما تشتهيه النفس وتدعو إليه، زينها الله ابتلاءً أو الشيطان، ﴿مِنَ النَّسَاءِ وَالْبَنِينَ، وَالْقَنَاطِيرِ﴾: الأموال الكثيرة

(١) ينظر: العبودية (ص ٥٠) وما بعدها، ومدارج السالكين (١/ ١٢٠).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٧/ ١٦٥)، والتحرير والتنوير (٣/ ١٨٤).

(٣) ينظر: عدة الصابرين (ص ٤٨).

(٤) ينظر: المفردات (ص ٦٨٤).

(٥) ينظر: الكشف (١/ ٥٣٤)، والتحرير والتنوير (٣/ ١٨٥).

(٦) ذكره الطبري (٢٥/ ٥١١) عن ابن زيد. وينظر: تفسير القرطبي (٤/ ٤٨).

﴿الْمُقَنْطَرَةُ﴾: المَجْمَعَة، ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾: الحِسانِ، ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ أي: الإبل والبقر والغنم، ﴿وَالْحَرْثِ﴾: الزرع. ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: يُتَمَتَّعُ بِهِ فِيهَا ثُمَّ يَفْنَى، ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾: المَرْجِع. وهو الجنة، فينبغي الرغبة فيه، دون غيره. ﴿قُلْ﴾ - يا مُحَمَّد - لقومك: ﴿أَأُنَبِّئُكُمْ﴾: أَخْبِرْكُمْ ﴿بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ﴾ المذكور من الشهوات؟ استفهام تقرير. ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشَّرَكَ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: خبر مبتدؤه ﴿جَنَّاتٌ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ﴾ أي: مقدِّرين الخلود ﴿فِيهَا﴾ إذا دخلوها، ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض وغيره ممَّا يُسْتَقْدَرُ، ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ - بكسر أوله وضمه لغتان - أي: رضا كثير ﴿مِنَ اللَّهِ - وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾: عالم ﴿بِالْعِبَادِ﴾، فيجازي كُلًّا منهم بعمله - ﴿الَّذِينَ﴾: نعت أو بدل من (الذين) قبله ﴿يَقُولُونَ﴾: يا ﴿رَبَّنَا، إِنَّنَا آمَنَّا﴾: صدَّقنا بك وبرسولك. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، الصَّابِرِينَ﴾ على الطاعة وعن المعصية: نعت، ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في الإيمان، ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾: المطيعين لله، ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾: المتصدِّقين، ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ الله بأن يقولوا: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا) ﴿بِالْأَسْحَارِ﴾: أواخر الليل. حُصِّتْ بالذكر لأنها وقتُ الغفلة ولذة النوم.

وقول المؤلف: (ما تشتهيه النفس): مضمونه: تفسير الشهوات بالمشتهيات.

وقوله: (زَيَّنَهَا اللَّهُ ابْتِلَاءً أَوْ الشَّيْطَانُ): بيان لفاعل التزيين؛ لأنَّ الفعل مبني للمجهول، وما ذكره من الاحتمال صحيح^(١)؛ فإنَّ تزيين الدنيا للكفار،

(١) ينظر: معاني القرآن للزجاج (١/٣٨٣)، والمحرر الوجيز (٢/١٧٠-١٧١).

وتزيين أعمالهم جاء مضافاً إلى الله، وهو من قبيل الابتلاء؛ كما قال المؤلف، وشاهده قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وجاء التزيين مضافاً إلى الشيطان، إضلالاً لمن زين له^(١)؛ كقوله تعالى: ﴿فَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ﴾ [النحل: ٦٣]، وقال تعالى عن الهدد في قصة بلقيس: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]؛ فالتزيين في الآيات يأتي مجملاً لم يصرح فيه بالفاعل؛ كما في آية آل عمران، وفي قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢]، ويأتي مفصلاً؛ كما في الآيات المتقدمة، ويأتي مفصلاً؛ أي: مسنداً للفاعل كما تقدم.

وقوله: (الأموال الكثيرة): تفسيرٌ للقناطير؛ لأنَّ القنطار هو المال الكثير من الذهب أو الفضة؛ فكيف إذا كانت قناطير ومقنطرة؛ أي: مجموعة^(٢).
وقوله: (الحسان): تفسيرٌ للمسومة، وتقدم أنَّ المسومة قيل: المعلمة، وقيل: الراعية، وما ذكره قريب من المعنى الأول؛ لأنَّ الحسان من شأنها أن تجعل لها علامات^(٣).

وقوله: (أي: الإبل والبقر والغنم): هذه الأصناف هي المراد بالأنعام، ويدل له قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشًا﴾ [الأنعام: ١٤٢]، ثم ذكر الضأن والمعز، وهي: الغنم، ثم ذكر الإبل والبقر.

(١) وجاء في تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٥٠) عن الحسن أنه قال في هذه الآية: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾: قال: «زين لهم الشيطان».

(٢) ينظر: التفسير البسيط (٩٦/٥)، والمفردات (ص ٦٧٧).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢٦٥/٥)، وتفسير القرطبي (٣٤/٤).

وقوله: (الزرع): تفسير الحرث بالزراع، يدل له قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿ [الواقعة: ٦٣-٦٤]، ويراد بالحرث: الأرض المحروثة للزراع والغرس.
وقوله: (المذكور): بيان لمرجع اسم الإشارة، وهو ما ذكر من الشهوات.

وقوله: (يُتَمَتَّعُ بِهِ فِيهَا ثُمَّ يَفْنَى): فيه بيان وجه تسمية الشهوات متاعاً، وهو أنه يتمتع بها؛ أي: يتنفع بها في الدنيا، ثم تزول أو يفارقها صاحبها.
وقوله: (المرجع): لأنَّ المئاب اسم مكان، من آب؛ أي: رجع^(١)، والمراد بذلك المآب: الجنة. وقوله: (دون غيره): معناه: أنَّ المآب الحسن عند الله وحده؛ كما يفيد تقديم الظرف في قوله: «عنده».

وقوله: (لقومك): لو قال للناس؛ كان أولى؛ لأنه المناسب لأول الآية.
وقوله: (المذكور من الشهوات؟): بيان لمرجع اسم الإشارة.
وقوله: (استفهام تقرير): يريد قوله: ﴿أَوْ نَبِّئُكُمْ﴾؛ لأنَّ المراد: أن يقرأوا بأنَّ ما سيذكر خيرٌ من هذه الشهوات.

وقوله: (الشرك): هذا التخصيص خلاف ظاهر الآية؛ فإنَّ الآية مطلقة في كل ما يجب اتقاؤه من الذنوب^(٢)، وأول ذلك وأعظمه الشرك؛ فاتقاؤه شرط دخول الجنة؛ فإنَّ الجنة محرمة على مَنْ أشرك، وكل مَنْ مات لا يشرك بالله شيئاً؛ دخل الجنة^(٣)، وكأنَّ المؤلف لاحظ هذا المعنى، وأنَّ ترك الشرك شرط لدخول الجنة.

وقوله: (خبر مبتدؤه): يريد أنَّ الظرف «عند» خبر مقدم، و«جنات» مبتدأ.

(١) ينظر: لسان العرب (١/ ٢١٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٢٧٠).

(٣) ينظر: الكشف عن مقاصد أبواب ومسائل كتاب التوحيد (ص ٤٤).

وقوله: (أي: مقدِّرين الخلود): يريد أنَّ قوله: ﴿خَالِدِينَ﴾ حال مقدرة من فاعل فعل تضمنه الكلام، وتقديره: يدخلونها خالدين^(١)، والحال المقدرة هي الوصف الذي سيكون، وليس موجوداً وقت حصول عاملها، ولهذا قيل: خالدين حال مقدرة: لأنَّ حقيقة الخلود ليست حاصلة وقت الدخول؛ وإنما تكون بعدُ، بطول المقام بالجنة؛ فمعنى قول المؤلف: (مقدِّرين الخلود) أنهم يدخلونها في حال أنهم سيخلدون.

وقوله: (إذا دخلوها): يريد أنهم حين الدخول مقدِّرين الخلود؛ أي: أنهم سيخلدون.

وقوله: (من الحيض)... إلى آخره: يريد أنهم مُطَهَّرَات من عيوب نساء الدنيا الخَلْقِيَّة، وكذلك هن مُطَهَّرَات من العيوب الخَلْقِيَّة.

وقوله: (بكسر أوله)... إلى آخره: يريد أنَّ «رضوان» فيها لغتان، بكسر الراء وضمها^(٢)، وهما قراءتان^(٣).

وقوله: (رضًا كثير): لو قال: كبير؛ كان أولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وهذا المعنى مستفاد من التنكير.

وقوله: (عالم): تفسير لبصير، وفَسَّرَه بعالم؛ لتعدية الوصف بالباء. وقوله: (فِيْجَازِي كُلًّا مِنْهُمْ بِعَمَلِهِ): يقتضي أنه فَسَّرَ العباد بالمعنى العام.

وقوله: (نعت أو بدل من (الذين) قبله): يريد أنَّ الموصول في قوله: «الذين آمنوا» نعت أو بدل من الموصول، في قوله: «الذين اتقوا».

وقوله: (يا): يريد؛ أنَّ المعنى: «يا ربنا».

(١) ينظر: الدر المصون (٣/ ٦٧-٦٨).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٤/ ٣٢٤).

(٣) ينظر: الشرح في القراءات العشر (٢/ ٢٣٨).

وقوله: (صدقنا بك وبرسولك): بيان لمتعلق الإيمان، وهذا الإيمان يتضمن الإقرار بالشهادتين.

وقوله: (على الطاعة وعن المعصية): إشارة إلى أنواع الصبر.

وقوله: (نعت): يريد أن الصابرين وما عطف عليها نعت للذين آمنوا.

وقوله: (الله بأن يقولوا: «اللهم اغفر لنا»): بيان لصفة الاستغفار، وأن الله هو المسؤول لمغفرة الذنوب.

وقوله: (أواخر الليل): بيان: لوقت الأسحار.

وقوله: (خُصَّت بالذكر)... إلى آخره: بيان: لحكمة تخصيص الأسحار بالاستغفار.



وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِعَايَةِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ [آل عمران: ١٨-١٩].

يخبر تعالى بشهادته لنفسه، وشهادة ملائكته وأولي العلم، بتفرده بالإلهية؛ إعلام للعباد ليشهدوا به، فإنَّ الإعلام بهذه الشهادة يتضمن الأمر بها، فما شهد الله به لنفسه يجب على العباد أن يشهدوا به، وهذه الشهادة من الله: أجل شهادة من أجل شاهد بأجل مشهود به، وقد بعث الله رسوله من أولهم إلى آخرهم، وأوحى إليهم بما شهد به لنفسه؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء]، وقال تعالى لموسى: ﴿وَأَنَا اخْزَنْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (٢٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٦﴾ [طه]، ومقتضى هذه الشهادة: إفراده تعالى بالعبادة؛ بأن لا يُعبد معه غيره، ولهذا كان الأمر بذلك مفتاح دعوة الرسل؛ فكل رسول يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال تعالى عن جملة الرسل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وحقيقة هذه الشهادة: الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، وهذه هي العروة الوثقى التي لا تنقسم بمن تمسك بها، وهي: أصل دين الإسلام الذي بعث الله به رسله ولا يقبل من أحد ديناً سواه، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥) [آل عمران]، وقال تعالى بعد ذكر شهادته وشهادة ملائكته وأولي العلم بأنه لا إله إلا الله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، وقد دل على حقيقة هذه الشهادة؛ آيات الله الكونية، وهي: مخلوقاته، وآياته الشرعية، وهي: كتبه المنزلة على رسله، فتبين أنه تعالى شهد لنفسه بالإلهية قولاً وفعلاً؛

فشهادته بالفعل: خلقه للآيات الكونية، وشهادته بالقول: إنزاله الكتب التي هي كلامه وأعظمها القرآن، وقد وردت كلمة التوحيد في القرآن أكثر من ثلاثين مرة^(١)، وكلها شهادة منه تعالى لنفسه بالتفرد بالإلهية، وفي كل هذه الآيات معنى الأمر بعبادته وحده لا شريك له، وجاء الأمر به صريحاً في آيات أخرى كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ومن ذلك قول الرسل لأممهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ونظائر ذلك كثيرة، وهذه الشهادة هي الحق والعدل؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، فجعل هذه الشهادة قيام بالقسط؛ أي: العدل؛ فالتوحيد أعدل العدل، وضده الشرك أظلم الظلم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقال تعالى عن لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ونزه نفسه عن الشرك به؛ فقال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣]، ولِعَظُم شأن التوحيد قرن الله شهادة الملائكة وأولي العلم بشهادته، وقد وردت كلمة التوحيد في هذه الآية مرتين بلفظ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهي: جملة خبرية مركبة من نفي وإثبات؛ فالنفي: يدل على بطلان إلهية كل ما سوى الله، فلا شريك له تعالى في إلهيته، وأما الإثبات: فيدل على ثبوت الإلهية له تعالى، وهو ما يفيد الاستثناء وأكثر ما يرد الاستثناء في كلمة التوحيد بحرف الاستثناء: «إلا»، والمستثنى بعدها مرفوع إما اسم ظاهر كقولك: «لا إله إلا الله» وإما ضمير منفصل للغائب كما في قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وإما ضمير منفصل للمتكلم؛ كقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [النحل: ٢]، أو ضمير منفصل

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص ٣٨).

للمخاطب كقول يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، والإله؛ بمعنى: المألوه؛ أي: المعبود من «إله» بمعنى: عُبد؛ فيكون معنى: «لا إله إلا الله»: لا معبود بحق إلا الله، وقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، حال من فاعل: ﴿شَهِدَ﴾، وقيل: حال من الضمير المنفصل، وهو: مذهب نحاة البصرة، قاله ابن جرير^(١) ورجحه شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢)، ووجه الترجيح عنده: أن الاستثناء يكون دالاً على إثبات الوصفين الإلهية والقيام بالعدل، وقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تذييل^(٣) للكلام بما يدل على ما يقتضي تقرير مضمون ما سبق من تفردته تعالى بالإلهية؛ لأنَّ ذا العزة المطلقة، والحكمة المطلقة، هو المستحق للإلهية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، كلام مستأنف لبيان أنَّ الدين الحق المرضي عند الله هو الإسلام؛ أي: الاستسلام له تعالى بعبادته وحده لا شريك له، وبطاعته وطاعة رسله، والدين في هذه الآية؛ بمعنى: الذل والخضوع^(٤)، وفي هذا التركيب حصر الدين في الإسلام؛ فكل دين سوى الإسلام فليس بدين عند الله فلا يقبله الله، ويفسر هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران]، وقراءة الجمهور بكسر همزة ﴿إِنَّ﴾، على أنه كلام مبتدأ، وقرأ بعضهم بفتح «أَنَّ»^(٥) على أنها المشهود به، وقيل: إِنَّ الجملة معطوفة على «أَنَّهُ» مع حذف حرف العطف؛ ذكر ذلك كله ابن جرير^(٦)، والصواب قراءة الجمهور فظهر مما تقدم: أنَّ

(١) تفسير الطبري (٢٧٨/٥).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١٧٥/١٤).

(٣) وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها للتأكيد. ينظر: عروس الأفراح (٦١١/١).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٢٨٠/٥).

(٥) وهو الكسائي. ينظر: النشر في القراءات العشر (٢٣٨/٢).

(٦) تفسير الطبري (٢٧٦-٢٧٨/٥).

الآية السابقة تمهيد لما دلت عليه هذه الآية بذكر أصل دين الإسلام، وهو: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب بعدما جاءهم العلم، وأنَّ اختلافهم بسبببغي بعضهم على بعض، والأظهر أنَّ المراد: بالكتاب في هذه الآية: «الإنجيل»^(١)؛ لأنَّ هذه الآية أول آية من الآيات النازلة في وفد نجران من النصارى حين دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام فقالوا: «نحن مسلمون»، فأكذبهم النبي ﷺ، وبين لهم أنهم مشركون بتأليههم المسيح وعبادة الصليب^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١٩)، هذا تهديد لمن كفر بآيات الله من النصارى وغيرهم، بأنَّ الله سيحاسبهم ويجزيهم على كفرهم بالعذاب في نار جهنم خالدين فيها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾^(٦) [البينة].

﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾: يَبَيِّنُ لَخَلْقِهِ بِالدَّلَائِلِ وَالآيَاتِ ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ﴾: معبود في الوجود بحق ﴿إِلَّا هُوَ، وَ﴾ شهد بذلك ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ بالإقرار، ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ من الأنبياء والمؤمنين بالاعتقاد واللفظ، ﴿قَائِمًا﴾ بتدبير مصنوعاته - ونصبه على الحال، والعامل فيها معنى الجملة أي: تفرد - ﴿بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرره تأكيداً، ﴿الْعَزِيزُ﴾ في ملكه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه.

﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ المرصِيَّ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ هو ﴿الإِسْلَامُ﴾ أي: الشرع المبعوث به الرسل المبني على التوحيد - وفي قراءة بفتح (أن) بدل من (أنه) آخره بدل اشتمال - ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾: اليهود

(١) وهو قول محمد بن جعفر بن الزبير واختاره الطبري. ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٢٨٢).

(٢) ينظر: أسباب النزول (ص ٩٧)، ولباب النقول (ص ٥٠).

والنصارى في الدين، بأن وَّحَدَ بعض وكفر بعض، ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بالتوحيد، ﴿بَغْيًا﴾ من الكافرين ﴿بَيْنَهُمْ - وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: المُجَازاة له-.

وقول المؤلف: (بَيِّنَ)... إلى آخره: يشير إلى أن الشهادة من الله؛ هي: إقامة الأدلة القولية والفعلية، وهي: الآيات الكونية والآيات الشرعية. وقوله: (معبود في الوجود بحق): تفسيرٌ لكلمة التوحيد: «لا إله إلا هو»، وتفسير «إله» بمعبود، وقد أحسن في هذا وهذا. وقوله: (شهد بذلك): يريد أن الملائكة معطوف على الله؛ فالمعنى: وشهدت الملائكة.

وقوله: (بالإقرار): بيان لصفة شهادة الملائكة، وأن معنى شهادتهم: إقرارهم.

وقوله: (من الأنبياء والمؤمنين)... إلى آخره: بيان للمراد بأولي العلم، وأن المراد بهم: أولو العلم من البشر، وأفضلهم الأنبياء ثم العلماء من المؤمنين.

وقوله: (بتدبير مصنوعاته): تفسير يخالف ظاهر لفظ الآية، ولو قال: في تدبير مصنوعاته؛ لاستقام مع لفظ الآية، إذ يكون المعنى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: العدل في تدبير مصنوعاته.

وقوله: (ونصبه)... إلى آخره: يريد أن قوله تعالى: ﴿قَائِمًا﴾: منصوب على الحال، وكلامه يقتضي أنه حال من الضمير المنفصل الواقع بعد إلا؛ فهو مذهب البصريين.

وقوله: (والعامل فيها): أي: في الحال. (معنى الجملة): أي: جملة «لا إله إلا هو»، وبين معنى الجملة بقوله: (أي: تفرّد).

وقوله: (بالعدل): تفسير للقسط بالعدل، وهذا معناه في اللغة، وفي القرآن ومنه قوله تعالى: ﴿لَيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]^(١)، وقوله: (كرّره تأكيداً): يريد أن جملة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ في آخر الآية تكرر مع الجملة في أولها، فهي مؤكدة لها.

وقوله: (في ملكه): يبين أن العزة -وهي: القوة والغلبة- من أوصاف الملك.

وقوله: (في صنعه): يريد أن صنعه جار على وفق الحكمة، وهي: وضع الأشياء في مواضعها ولغايات محمودة.

وقوله: (المَرْضِيّ): بيان لمتعلق الظرف عند.

وقوله: (هو): هذا تقدير مبتدأ محذوف خبره الإسلام.

وقوله: (الشرع)... إلى آخره: تفسير للإسلام بشرائع الأنبياء؛ لأنّ دين الأنبياء كلهم واحد وهو الإسلام.

وقوله: (وفي قراءة)... إلى آخره: يفهم منه أن قراءة الجمهور بالكسر، وعلى القراءة بفتح «أن» على كلام المؤلف تكون الجملة بدلاً من جملة: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الأولى؛ يقول: «بدل اشتمال»؛ لأنّ دين الإسلام مشتمل على شهادة أن لا إله إلا الله، فتكون الجملة خبرية مستأنفة لتأكيد ما سبق من شهادة أن لا إله إلا الله^(٢).

وقوله: (اليهود والنصارى)... إلى آخره: تضمن كلامه تفسير: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: باليهود والنصارى، وهذا صحيح، ولكن هذه الآية أخص بالنصارى لأنها نزلت فيهم، وفُسِّر اختلافهم بإيمان بعضهم وكفر بعضهم، ويشهد لهذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

(١) ينظر: لسان العرب (٧/ ٣٧٧)، والمفردات (ص ٦٧٠).

(٢) ينظر: الدر المصون (٣/ ٨٣).



وقوله: (بالتوحيد): لا داعي لهذا التقييد؛ فالعلم الذي جاءهم شامل للتوحيد والشرائع.

وقوله: (من الكافرين): يبين أنَّ البغي كان من الكافرين على المؤمنين.

وقوله: (المُجازاة له): فسر الحساب بالمجازاة؛ لأنَّ المقصود من الحساب الجزاء.



وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۖ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسَلَّمْتُ فَإِنْ أَاسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَغْيًا حَقًّا وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١١ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَأْلَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿١١﴾ [آل عمران: ٢٠-٢٢].

يأمر الله نبيه إذا جادله أهل الكتاب - خصوصاً النصارى - الذين نزلت فيهم هذه الآيات، إذا جادلوه في أمر الدين والتوحيد أن يقول لهم: ﴿أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾؛ أي: استسلمت لأمره، وانقدت لحكمه، وتوجهت بقلبي ووجهي إليه، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾؛ أي: وأسلم من اتبعني كما أسلمت، فلا نعبد إلا الله وحده، ولا نخالف أمره، وأن يقول لجميع الناس: من أهل الكتاب والأُميين؛ أي: الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم: ﴿أَسَلَّمْتُ﴾؟ كما أسلمنا فنكون جميعاً من المهتدين، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَاسَلَّمُوا﴾؛ أي: دخلوا في الإسلام، فقد اهتدوا، وإن أبوا وتولوا عن الدخول في الإسلام فلا يضرك إصرارهم على الكفر؛ لأنه لا يجب عليك إلا البلاغ، ولست مسؤولاً عنهم، وليس عليك هداهم. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾؛ أي: عالم بأحوالهم وأعمالهم يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، بحسب ما تقتضيه حكمته البالغة، وسيجزئهم على أعمالهم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بَغْيًا حَقًّا﴾ الآية: فيها وعيد بالعذاب الأليم؛ أي: الموجه للذين تمادوا في الكفر بآيات الله واتبعوا أسلافهم في ذلك، وفي قتل الأنبياء، وقتل الذين يأمرهم بالقسط من الناس؛ أي: بالعدل وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته وطاعة رسوله، وهؤلاء هم اليهود الذين كانوا حول المدينة في عهد النبي ﷺ،

فإنهم كفروا بآيات الله وجحدوا نبوة محمد ﷺ، ومالؤوا المشركين على حربته، وتآمروا على قتله، فأخزاهم الله، ونصر نبيه وحزبه عليهم، وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١): خبر ﴿إِنَّ﴾، واقترن بالفاء لتضمن الموصول اسم معنى الشرط (١)، وأصل التبشير الإخبار بما يسر (٢)، وإطلاق التبشير على الإخبار بالعذاب يفيد التهكم بالكافرين (٣). ﴿أَلِيمٍ﴾: أي: مؤلم موجه، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ﴾: الإشارة إلى مَنْ تقدم وصفهم بالكفر بآيات الله، وقتل النبيين، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس. يخبر تعالى أنهم قد: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: أي: بطلت في الدنيا والآخرة، فلا ينتفعون منها بشيء، إن كانت لهم أعمال يظنون بها نفعاً، وهم الأخسرون أعمالاً، الذي ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرٍ﴾ (٤): تبيس لهم من الخلاص من عذاب الله بأنهم لا ناصر لهم يمنعهم من عذاب الله.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾: خاصمَكَ الكُفَّار - يا محمد - في الدين ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ﴾: انقذت له أنا ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾. وخصَّ الوجهُ بالذكر لشرفه، فغيره أولى. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: اليهود والنصارى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾: مشركي العرب: ﴿أَسَلَّمْتُمْ؟﴾ أي: أسلموا. ﴿فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ من الضلال، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾: التبليغ للرسالة. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فيجازيهم بأعمالهم. وهذا قبل الأمر بالقتال.

(١) ينظر: الدر المصون (٣/٩٣)، وإعراب القرآن الكريم للدعاس (١/١٩٢).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (١/٢٥١).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٣/٧٧)، والتحرير والتنوير (٣/٢٠٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُونَ﴾ - وفي قراءة (ويُقاتِلُونَ) -
 ﴿النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل ﴿مِنَ
 النَّاسِ﴾ - وهم اليهود. رُوي أَنَّهُمْ قَتَلُوا ثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ نَبِيًّا، فَنَهَاَهُمْ مِائَةٌ
 وَسَبْعُونَ مِنْ عِبَادِهِمْ فَقَتَلُوهُمْ مِنْ يَوْمِهِمْ^(١) - ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾: أَعْلِمْهُمْ
 ﴿بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾: مؤلم، وذكرُ البشارة تهكُّمُ بهم، ودخلت الفاء في خبر
 (إِنَّ) لَشَبَهِ اسْمِهَا الموصول بالشرط، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ﴾: بَطَلَتْ
 ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾: ما عملوا من خير، كصدقة وصلة رَحِمٍ ﴿فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ﴾، فلا اعتداد بها لعدم شرطها، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾:
 مانعين من العذاب.

وقول المؤلف: (خاصمك الكفار): أي: من أهل الكتاب، وهم
 النصارى؛ أي: جادلوك في الدين والتوحيد.
 وقوله: (انقذت له أنا): لأنَّ الإسلام هو: الاستسلام، وهو يتضمن
 الانقياد.
 وقوله: (وخصَّ الوجه) ... إلى آخره: بيان لحكمة تخصيص الوجه
 بالإسلام.
 وقوله: (اليهود والنصارى): بيان للمراد بالذين أوتوا الكتاب في هذه
 الآية، ويختلف المراد بهم باختلاف السياق.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٣٣٢)، وأخرجه البزار (١٢٨٥)، والطبري (٢٩١ / ٥)، وفيه:
 «فقام مئة رجل واثنا عشر رجلاً». وضعفه ابن حجر في الكاف الشاف (ص ٢٥ رقم
 ٢٠٧)، وينظر: الضعيفة (٥٤٦١).

وقوله: (مشركي العرب): الصواب: المراد بهم كل من ليس له كتاب من العرب وغيرهم، بدليل مقابلتهم بالذين أوتوا الكتاب^(١).
 وقوله: (أي: أسلموا): يبين أن المراد بالاستفهام الأمر.
 وقوله: (من الضلال): أي: نجوا من الضلال.
 وقوله: (عن الإسلام): أي: اعرضوا عن الإسلام.
 وقوله: (التبليغ للرسالة): يبين أن البلاغ اسم مصدر بمعنى التبليغ.
 وقوله: (فمجازيهم بأعمالهم): بيان للمراد بذكر اسم الله البصير، وأنه متضمن للوعد والوعيد. وقوله: (وهذا قبل الأمر بالقتال): يريد قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠] المعنى: ليس عليك قتالهم، وإنما عليك البلاغ.

وقول المؤلف: (وهذا قبل الأمر بالقتال): فيه نظر؛ لأن السورة مدنية^(٢)، وقد سبق الأمر بالقتال في سورة البقرة، وفي سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقوله: (وفي قراءة «وَيُقَاتِلُونَ»): ذكر هذه القراءة في: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾؛ سهو من المؤلف^(٣)، والصواب: ذكرها في: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾، وهو الذي ذكره ابن جرير^(٤)، وعليه؛ فـ «يَقْتُلُونَ» الأولى

(١) وهو ظاهر قول الطبري فقال: «من مشركي العرب» أي للتبعيض، ثم ساق قول محمد بن جعفر بن الزبير: أنهم لا كتاب لهم، وقول ابن عباس: الذين لا يكتبون، وقال أبو حيان الأندلسي: «والأمين هم مشركو العرب، ودخل في ذلك كل من لا كتاب له» ينظر: تفسير الطبري (٢٨٦/٥)، والبحر المحيط (٧٤/٣).

(٢) ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز (١٤٧/٢) الإجماع. وينظر: فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٣٦٥)، ولابن ضريس (١٧)، ومعاني القرآن للنحاس (١/٣٣٩).

(٣) ولم نجده حتى في كتب القراءات الشاذة، ولعل أول من ذكر ذلك هو أبو البقاء العكبري في التبيان في إعراب القرآن (٢٤٩/١) فقال: «ويقرأ: ﴿وَيُقَاتِلُونَ النَّبِيِّينَ﴾، ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ هو المشهور ومعناها متقارب».

(٤) تفسير الطبري (٢٨٩/٥).

ليس فيها إلا قراءة واحدة، ونظائرها في القرآن كثيرة، وكلها من القتل لا من القتال، وأما يقتلون الثانية ففيها قراءتان: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾، وهي: قراءة عامة القراء، و﴿يَقَاتِلُونَ﴾، وقرأ بها بعض المتأخرين^(١) ذكر ذلك ابن جرير، وصوب قراءة الجمهور^(٢).

وقوله: (بالعدل): تفسير القسط، وهو شامل لكل معروف؛ فمعنى: يأمرن بالقسط؛ يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر.

وقوله: (وهم اليهود): بيان للمراد: بالذين يقتلون من يأمر بالقسط.

وقوله: (رؤي)... إلى آخره: ما ذكره من الروايات الإسرائيلية، فلا يجزم بما ذكر من العدد، وأما أصل القتل فيقطع به لأنه صريح القرآن.

وقوله: (أعلمهم): بيان للمقصود من هذه البشارة.

وقوله: (مؤلم): مراده أن فعيل؛ بمعنى اسم الفاعل.

وقوله: (وذكر البشارة تهكم بهم): مراده: أن التعبير عن الإخبار بالعذاب بالبشارة يدل على التهكم بهم، والتهكم نوع من السخرية.

وقوله: (ودخلت الفاء)... إلى آخره: بيان لسبب اقتران خبر: ﴿إِنَّ﴾ بالفاء.

وقوله: (بطلت): المعنى: لا يتفعون بها في الدنيا ولا في الآخرة.

وقوله: (ما عملوا من خير)... إلى آخره: بيان للمراد بالأعمال الحابطة، وهي: أعمال الخير التي يظنون أنها تنفعهم.

وقوله: (فلا اعتداد بها)... إلى آخره: بيان لسبب حبوطها، وهو: عدم الإيمان والتوحيد. وقوله: (مانعين من العذاب): بيان: لنوع النصرة.



(١) وهو حمزة. ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٨).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٢٩٠).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٥].

الاستفهام للتعجب والتقرير، وفيه معنى: «النفى» ولمَّا دخل على النفي أفاد الإثبات والتقرير^(١)، والرؤية علمية وعدي بـ«إلى» لتضمنه معنى: الانتهاء إلى الشيء^(٢)؛ فمعنى الآية: قد انتهى علمك إلى الذين أُوتوا نصيبًا من الكتاب، وهو الكتاب الذي أنزل على موسى -الذي هو التوراة-؛ فالمراد بالموصول: هم اليهود الذي كانوا حول المدينة في عهد النبي، وقوله: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾: أي: يدعون إلى الإيمان بكتاب الله، والتحاكم إليه، وهو: القرآن، فلا يستجيبيون، ثم يذهب فريق منهم، وهم: أحبارهم ورؤسائهم، يذهبون، وهم: معرضون عن الإيمان بالرسول وبالقرآن، وعن الرضا بحكم الكتاب وحكم الرسول، ويحتمل: أن يراد بكتاب الله: التوراة التي يؤمنون بها، ويعلمون ما فيها^(٣)، وقوله: ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾: حال مؤكدة لفعل «يتولوا»، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾: اسم الإشارة راجع لما تقدم من فعل اليهود؛ من التولي والإعراض عن حكم الله، والباء سببية؛ فالمعنى: توليهم وإعراضهم بسبب قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، وهي: سبعة أيام بزعمهم^(٤)؛ فحكموا لأنفسهم

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٠٨/٣).

(٢) قرره الزمخشري (٨٥/٢) في آية النساء رقم (٤٤)، والسمين الحلبي في الدر المصون

(٢/٥٠٥) في آية البقرة رقم (٢٣٤)، وينظر: التحرير والتنوير (٢٠٩/٣).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢٩٢/٥)، وزاد المسير (٢٦٩/١).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٢٨/٢)، وذكر هذا القول الطبري في موضع آخر من تفسيره

(٢/١٧٥-١٧٦) وجاءت روايات أخرى أنها أربعين يومًا، وسيأتي في كلام المؤلف.

ينظر: تفسير الطبري (١٧١/٢) وما بعدها، (٢٩٧/٥).

بالنجاة من النار، إلا في هذه الأيام المعدودات، وهذا افتراء من عند أنفسهم؛ فغرم افتراءهم فتجرؤا على الكفر بالله، والتكذيب بآياته، وقتل الأنبياء والذين يأمرون بالقسط من الناس، وقوله: ﴿وَعَرَّهْمَ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤): المعنى: أن افتراءهم الكذب أوجب لهم غرورًا في دينهم، حتى زعموا أنهم أولياء الله، وأن الدار الآخرة لهم خالصة من دون الناس؛ فأكذبهم الله وفضحهم، وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: هذا استفهام تهويل وتهديد؛ المعنى: كيف تكون حالهم إذا جمع الله الناس للحساب والجزاء، وقد بين تعالى أن مصيرهم إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة)، وقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٥): معناه: وفيت كل نفس من المؤمنين والكفار جزاء أعمالهم ثوابًا وعقابًا، وهم لا يُظلمون في ذلك، فلا يُنقص محسنٌ من حسناته، ولا يُزاد مسيء في سيئاته؛ فلا يُعاقب أحدٌ بغير ذنب، أو بذنب غيره.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: تنظر ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا﴾: حظًا ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾: التوراة، ﴿يُدْعَوْنَ﴾: حال، ﴿إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿عَنْ قَبُولِ حُكْمِهِ﴾. نزل في اليهود، زنى منهم اثنان فتحاكما إلى النبي ﷺ، فحكم عليهما بالرجم فأبوا، فجيء بالتوراة فوجد فيها، فرُجما فغضبوا. ﴿ذَلِكَ﴾: التولي والإعراض ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾: أي: بسبب قولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أربعين يومًا مُدَّةَ عِبَادَةِ آبَائِهِمُ الْعَجَل، ثُمَّ تَزُولُ عَنْهُمْ. ﴿وَعَرَّهْمَ فِي دِينِهِمْ﴾: متعلق بقوله ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من قولهم ذلك. ﴿فَكَيْفَ﴾ حالهم، ﴿إِذَا جُمِعْنَا لَهُمْ لَيَوْمٍ﴾ أي: في يوم ﴿لَا رَيْبَ﴾: شك ﴿فِيهِ﴾ - هو يوم القيامة -

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من أهل الكتاب وغيرهم جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾: عملت من خير وشر، ﴿وَهُمْ﴾ أي: الناس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص حسنة أو زيادة سيئة؟

وقول المؤلف: (تنظر): تفسير لـ «تري»؛ فجعل الرؤية بصرية، ويحتمل أن تكون علمية وهو أقرب.
وقوله: (التوراة): هذا يقتضي أنه جعل «أل» للعهد الذهني، ويحتمل أن تكون «ال» للجنس؛ فيشمل كل الكتب المنزلة من الله، وعلى هذا فنصيبهم من الكتاب هو التوراة.
وقوله: (حال): يريد: أن جملة «يدعون» حال من الموصول؛ فهي في موضع نصب.

وقوله: (عن قبول حكمه): بيان: لمتعلق الإعراض.
وقوله: (نزل في اليهود)... إلى آخره: بيان لسبب نزول هذه الآيات، وهو يدل على أن الحكم الذي لم يقبلوه هو حد الزنا^(١).
وقوله: (التولي والإعراض): بيان لمرجع اسم الإشارة.
وقوله: (بسبب قولهم): يفيد أن الباء سببية.
وقوله: (أربعين يومًا)... إلى آخره: بيان لعدة الأيام التي يعذبون بها في النار على ما جاء في الروايات الإسرائيلية.

وقوله: (متعلق)... إلى آخره: يريد أن فاعل «غرهم» هو الاسم الموصول في قوله: ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أي: الذي كانوا يفترونه، ويحتمل

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٠٠)، والعجائب في بيان الأسباب (٢/ ٦٨٤). وجاءت روايات أخرى في سبب النزول تنظر في: زاد المسير (١/ ٢٦٩).

أن تكون: «ما» مصدرية؛ فيكون الفاعل هو المصدر المؤول؛ أي: غرهم افتراؤهم^(١).

وقوله: (حالهم): يقتضي أن «كيف» - عنده - خبره مقدم، و«حالهم» مبتدأ.

وقوله: (أي: في يوم): يبين أن اللام هي اللام الدالة على الوقت؛ كقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقوله: ﴿أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٤-٥].

وقوله: (هو يوم القيامة): يريد تعيين ذلك الاسم المبهم في قوله: «ليوم».

وقوله: (من أهل الكتاب وغيرهم جزاء): يبين أن هذا العموم شامل لجميع الأمم من الكتابيين والأمة.

وقوله: (عملت من خير وشر): يبين بذلك أن الجزاء الذي يُوفَّونه شامل للثواب والعقاب. وقوله: (أي: الناس): أي: المكلفون.

وقوله: (بنقص حسنة أو زيادة سيئة؟): بيان لنوعي الظلم، وأن الظلم منفي بنوعيه.



(١) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٨٣)، والدر المصون (٣/ ٩٦).

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٢٦ ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٢٧ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

يأمر الله نبيه أن يتوجه إليه متوسلاً إليه باسمه مالك الملك، المتصرف فيه بما يشاء، الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، وهو الذي بيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير، وأنه لذلك يولج الليل في النهار؛ فيطوّل الليل ويُقصر النهار، ويولج النهار في الليل؛ فيطوّل النهار ويُقصر الليل، يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويرزق من يشاء بغير حساب، وكل هذا راجع إلى كمال ملكه، وكمال قدرته، فتضمنت الآية: الدلالة على تصرفه تعالى بالمكان والزمان، وبالحيوان، وبالخفص والرفع، وبالعطاء والمنع، يخفض ويرفع، ويحيي ويميت، يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويعطي ويمنع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ويرزق من يشاء بغير حساب، وقوله: ﴿اللَّهُمَّ﴾: معناه: يا الله؛ فحذف حرف النداء وعوض عنها الميم في آخر الاسم، وقد أطال ابن جرير^(١) في الكلام على هذه الميم، وذكر اختلاف النحويين فيها، وأشار إلى ما في هذه الآية من الرد على اليهود في شأن نبوة محمد ﷺ، واصطفاه من العرب، ووجه ذلك: أن كمال تصرفه تعالى في الملك، وكمال قدرته شامل لنقل النبوة من بني إسرائيل إلى العرب، باصطفاء محمد ﷺ منهم، وإرساله إلى العالمين، واستنكار اليهود لذلك هو من الحسد الذي عرفوا به؛ كما قال تعالى في اليهود: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ

(١) تفسير الطبري (٢٩٩/٥).

مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥١﴾ [النساء]، وروى عن مجاهد: أن المراد بالملك في هذه الآية: النبوة^(١)، وأشار إلى ما في الآية من الرد على النصارى في تأليههم المسيح **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وذلك فيما رواه عن محمد بن جعفر بن الزبير^(٢)، ومضمونه: أن عيسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وإن أقدره الله على إحياء الموتى، وخلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص، فلم يقدره تعالى على إيتاء الملك ونزعه، وإيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل؛ فتبين بذلك أنه ليس بإله؛ بل عبد لله، ورسوله إلى بني إسرائيل، واختار في قوله تعالى: **﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾** [يونس: ٣١]، إخراج الناس والأنعام الأحياء من النطف، وإخراج النطف من الناس والأنعام؛ فقال **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «وأولى التأويلات التي ذكرناها في هذه الآية بالصواب تأويل من قال: يُخرج الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء من النطف الميتة، وذلك إخراج الحي من الميت، ويُخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء»^(٣)، واستشهد لذلك بقوله تعالى: **﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾** [البقرة: ٢٨]: يعني: في الأصلاب والأرحام فأحياكم^(٤)؛ قال: «وأما تأويل من تأوله بمعنى الحبة من السنبل، والسنبل من الحبة، والبيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، فإن ذلك وإن كان له وجه مفهوم، فليس ذلك الأغلب الظاهر في استعمال الناس في الكلام، وتوجيه معاني كتاب الله **عَزَّ وَجَلَّ** إلى الظاهر المستعمل في الناس أولى من توجيهها إلى الخفي القليل في الاستعمال»^(٥).

(١) تفسير الطبري (٣٠٤/٥).

(٢) تفسير الطبري (٣٠٤/٥).

(٣) تفسير الطبري (٣١٢/٥).

(٤) ينظر: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ٨١).

(٥) تفسير الطبري (٣١٢/٥).

ونزل لما وعدَ النبي ﷺ أمته مُلكَ فارسَ والروم، فقال المنافقون: «هيهات»: ﴿قُلْ: اللَّهُمَّ﴾: يا الله ﴿مَالِكِ الْمُلْكِ، تُؤْتِي﴾: تُعطي ﴿الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ من خلقك، ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعْزُ مَنْ تَشَاءُ﴾ بإيتائه، ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بنزعه منه. ﴿بِيَدِكَ﴾: بِقُدْرَتِكَ ﴿الْخَيْرُ﴾ أي: والشرُّ. ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُؤَلِّجُ﴾: تُدْخِلُ ﴿الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ﴾: تُدْخِلُهُ ﴿فِي اللَّيْلِ﴾، فيزيد كلَّ منهما بما نقص من الآخر، ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾، كالإنسان والطائر من النُطفة والبيضة، ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ كالنطفة والبيضة ﴿مِنَ الْحَيِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: رزقاً واسعاً.

وقولُ المؤلِّف: (ونزل)... إلى آخره: إشارة إلى سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ﴾^(١).
وقوله: (يا الله): يريد أنَّ معنى: ﴿اللَّهُمَّ﴾: يا الله.
وقوله: (بإيتائه)، وقوله: (بنزعه منه): يبيِّن أنَّ معنى الجملتين مترتب على معنى الجملتين الأوليين.

وقوله: (بِقُدْرَتِكَ): ظاهره تفسير اليد بالقدرة، وهذا يجري على مذهب مَنْ ينفي حقيقة اليمين عن الله، ويؤولهما بالقوة أو القدرة، وهو مذهب المعطلة لصفات الله، الذين يجمعون بين التعطيل والتحريف^(٢)، وإن

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٠٠)، والعجاب في بيان الأسباب (٢/ ٦٧٤).

(٢) وينظر الرد على تحريفهم لدلالة الآيات في: مجموع الفتاوى (٦/ ٣٦٢-٣٧٢)، ومختصر الصواعق (٣/ ٩٤٦).

أراد المؤلف أن الخير لا يحصل إلا بقدرته ومشيئته؛ لأنه مالكه ومالك كل شيء، ويكون ذلك تفسيراً الجملة: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾؛ فهو حق؛ كقوله تعالى: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقد جاء في السنة قوله ﷺ: «والخير في يديك»^(١) لذلك يحتمل أن الآية بمعنى الحديث؛ فيكون معناه: في يدك الخير. والله أعلم.

وقوله: (والشر): هذا مناسب لتفسير اليد بالقدرة؛ لأن كل شيء في الوجود راجع إلى قدرته ومشيئته، ومن ذلك: الخير والشر، ويشهد له قوله تعالى في الحسنة والسيئة: ﴿قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].
وقوله: (فيزيد)... إلى آخره: معناه: أن ولوج الليل في النهار نقص في النهار وزيادة في الليل، وولوج النهار في الليل نقص من الليل وزيادة في النهار.

وقوله: (كالإنسان)... إلى آخره: معناه: خروج الإنسان وهو حي من النطفة، وهي: ميتة، والطائر وهو حي من البيضة، وهي: ميتة.
وقوله: (كالنطفة والبيضة): تمثيل لإخراج الميت من الحي عكس إخراج الحي من الميت.
وقوله: (رزقاً واسعاً): هذا من التفسير باللازم؛ لأن ما يعطى بغير عد ولا إحصاء يكون كثيراً.



(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ ۝٢٨﴾ قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ ۖ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ [آل عمران: ٢٨-٢٩].

هذا نهى من الله لعباده المؤمنين، عن أن يتخذوا الكافرين أولياء في المودة والنصرة من دون المؤمنين، إلا أن يخافوا شرهم فيداروهم باللسان اتقاء شرهم، وقوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ﴾: ناهية والفعل المضارع مجزوم، وعلامته السكون على الذال، وكُسرت لاتقاء الساكنين، وقوله: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: أعوان وأنصار، وقوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: يوالون الكافرين ولا يوالون المؤمنين، وَمَنْ يتخذهم أولياء، إثاراً لهم على المؤمنين في المودة والنصرة لا اتقاء لشرهم وظلمهم: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾؛ أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه، وَمَنْ برئ الله منه فليس ولياً لله، وليس له من دون لله ولي ولا نصير، وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ معناه؛ يقول تعالى: احذروني؛ يعني: خافوني؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُون﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران]، لأنه تعالى شديد العقاب؛ عزيز ذو انتقام، والنفوس؛ هي: الذات؛ فنفس الله ذاته^(١)، وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝٢٨﴾؛ المعنى: إلى الله وحده يصير العباد يوم المعاد، وكل شيء يصير إليه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى]، وفي تحذيره تعالى وتذكيره بالمصير إليه؛ تحذيرٌ من مخالفة أمره ونهيه، ومن ذلك نهيه تعالى عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

(١) ينظر: بيان تلبيس الجهمية (٧/ ٤٢٧) وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تَخْضَعُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ...﴾ الآية، يأمر الله نبيه أن يخبر الناس أو المؤمنين خاصة بعلمه تعالى بما في صدورهم، أعلنوه أو أخفوه، وأنه تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض، ثم أخبر تعالى بقدرته على كل شيء، كما أخبر بإحاطة علمه بكل شيء، فإنه تعالى بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وهذان عمومان لا مخصص لهما.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ يُوَالُونَهُمْ﴾ من دون أي: غير المؤمنين - ومن يفعل ذلك أي: يوالهم فليس من دين الله في شيء - إلا أن تتقوا منهم ثقاة: مصدر تقيته، أي: تخافوا مخافة، فلكم موالاتهم باللسان دون القلب. وهذا قبل عزة الإسلام، ويجري فيمن هو في بلد ليس قويا فيها. ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ﴾: يخوفكم ﴿اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أن يغضب عليكم، إن واليتموهم، ﴿وإلى الله المصير﴾: المرجع فيجازيكم. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنْ تَخْضَعُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: قلوبكم، من موالاتهم، ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾: تظهروه، ﴿يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ و هو ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. والله على كل شيء قدير، ومنه تعذيب من والاهم.

وقول المؤلف: (يوالونهم): تفسير لاتخاذهم أولياء، يوالونهم بالمودة والنصرة.

وقوله: (يوالهم): بيان لمرجع اسم الإشارة ولو قال: «موالاة الكافرين» كان أولى.

وقوله: (دِين): يبين أنَّ قوله: «ليس من الله» على حذف مضاف، والتقدير: ليس من دين الله في شيء.

وقوله: (مصدر تَقِيَّتُهُ): يريد أنَّ تقاه مصدر تقاه يتقيه، والأقرب: أنه اسم مصدر من اتقى يتقي، بدليل أنَّ المضارع تتقوا^(١).

وقوله: (أَي: تخافوا)... إلى آخره: يبين أنَّ المقصود: جواز موالاة الكفار باللسان إذا خيف شرهم، ويبين أيضاً أنَّ هذا الحكم قبل عزة الإسلام؛ وهكذا البلاد التي يكون الإسلام فيها ضعيفاً.

وقوله: (يُخَوِّفُكُمْ)، وقوله: (أَنْ يَغْضِبَ)... إلى آخره: يريد أنَّ المعنى: يحذركم الله غضبه.

وقوله: (الْمَرْجِعُ فَيَجَازِيكُمْ): يبين أنَّ المراد بالمصير الرجوع إلى الله يوم القيامة، الذي هو يوم الجزاء.

وقوله: (لَهُمْ): بيان أنَّ المعنيين بهذا الخطاب هم مَنْ تقدم ذكرهم، وهم: المؤمنون.

وقوله: (قُلُوبِكُمْ): فسَّرَ الصدور: بالقلوب؛ لأنَّ الصدور محل القلوب.

وقوله: (مَنْ مُوَالَاتِهِمْ): بيانُ للمراد بالموصول في قوله: ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾.

وقوله: (هُوَ): يبين أنَّ جملة «يعلم» خبر لمبتدأ محذوف؛ تقديره: هو يعلم.

وقوله: (وَمِنْهُ تَعْذِيبٌ مِّنْ وَالَاهُمْ): ينبه إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: متضمن لتهديد مَنْ والى الكافرين.



وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣٠) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) [آل عمران: ٣٠-٣٢].

يذكر تعالى يوم القيامة اليوم العظيم الذي يحضر فيه الأولون والآخرون، وتُحضر لهم أعمالهم حسننها وسيئها؛ فيحاسبون عليها ويُجزون بها؛ فمن كان عمله صالحاً فرح به واستبشر، وهو الذي يُعطى كتابه بيمينه، ويقول: ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيَّةٌ﴾ (١) إِنْ ظَنَنْتُ أَنْي مُلِقٌ حِسَابِيَّةٍ (٢) [الحاقة]، ومن كان عمله سيئاً فهو الذي يُؤتى كتابه بشماله: ﴿فَقُولْ يَلِّتَنِي لَأُوتِيَ كَنْيَّةً﴾ (٣) وَلَمْ أَدرِ مَا حِسَابِيَّةٍ (٤) يَلِّتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَّةُ (٥) [الحاقة]، وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَمَا عَمِلْتُمْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾: يعني: تتمنى نفسه أنها لم تر ذلك العمل، وأن يكون بينها وبينه أمدًا بعيدًا من الزمان والمكان، وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (٦): أي: يخوِّفكم، وهو تأكيد لما قبله، وفيه وعيد لمن خرج عن طاعة الله بالكفر أو العصيان، وقوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٧): بشارة ووعد بعد الوعيد، والرافة؛ هي: الرحمة مع اللطف والإحسان (٨)، والعباد هم: جميع الناس فالعبودية هي العامة، والرحمة هي: الرحمة العامة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٩) [البقرة]، وللمؤمنين رحمة خاصة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (١٠) [الأحزاب]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾: هذا أمر من الله لنبيه أن يقول للمدعين محبة الله: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾؛ فإنَّ اتباعه هو البرهان على صدقكم في دعوكم وصحة محبتكم لله تعالى، ومن صدق قوله بعمله في دعوى المحبة أحبه

اللهُ وغفر ذنوبه، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، وتسمى هذه الآية آية المحنة^(٢)؛ لقول بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فامتنعهم بهذه الآية^(٣)، ثم أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله فَإِنَّ بِذَلِكَ تحقيق الاتِّباع، ثم أخبر عمن يُعرض عن طاعة الله ورسوله مطلقاً بأنَّ الله لا يحبه فإنه كافر من الكافرين، وذلك قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾^(٤)، وهذا خطاب لمن أمر بطاعة الله ورسوله، وقوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾: أي: تتولوا؛ أي: تعرضوا وهو فعل مضارع حذف منه إحدى التائين، ويحتمل أنه التفات من الخطاب إلى الغيبة وعليه فالفعل ماضٍ؛ قال أبو السعود^(٥): ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ إمَّا من تمام مَقول القول؛ فهي صيغة المضارع المخاطب بحذف إحدى التائين؛ أي: تتولوا، وإمَّا كلام متفرِّع عليه مَسْوق من جهته تعالى؛ فهي صيغة الماضي الغائب، وفي ترك ذكر احتمال الإطاعة؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾: تلويح إلى أنه غير محتمل منهم^(٦).

(١) ينظر: مدارج السالكين طبعة الصميعي (٥/ ٢٨٠٦) وأثبتوا: (المحبة)، وأشاروا للنسخة (المحنة)، وأورد بعدها ابن القيم أثراً عن أبي سليمان الداراني وفيه: «لما ادعت القلوب محبة الله: أنزل الله لها محنة»، وهذا الأثر سقط من طبعة المجمع (٣/ ٣٨٧)، وأورد العبارة ابن القيم أيضاً في طريق الهجرتين (٢/ ٦٥٦) بلفظ: «ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحبة» ونسبها للجنيد.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٣٢٤-٣٢٦).

(٣) أبو السعود: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي المفسر الفقيه الحنفي، ولد سنة (٨٩٦هـ) وأخذ عن جماعة من أهل العلم منهم والده، وانتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه، له مصنفات منها: التفسير المسمى بـ «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، توفي سنة (٩٨٢هـ). ينظر: طبقات المفسرين للأذنه وي (ص ٣٩٨ رقم ٥٤٠)، والفوائد البهية في تراجم الحنفية (ص ٨١).

(٤) تفسير أبي السعود (٢/ ٢٥).

اذكُرْ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ هـ ﴿مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا، وَمَا عَمِلَتْ﴾ هـ ﴿مِنْ سُوءٍ﴾: مبتدأ خبره ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾: غاية في نهاية البعد، فلا يصل إليها. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ - كُرِّرَ للتأكيد - ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

ونزل لما قالوا: «ما نعبد الأصنام إلا حُبًّا لله، ليقربونا إليه»: ﴿قُلْ﴾ لهم، يا محمد: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي، يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ بمعنى أنه يثيبكم، ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾. والله غفورٌ ﴿لَمَنْ اتَّبَعَنِي مَا سَلَفَ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ﴾، ﴿رَحِيمٌ﴾ به. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، فيما يأمركم به من التوحيد. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا عن الطاعة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾. فيه إقامة الظاهر مقام المضمر أي: لا يحبهم بمعنى أنه يعاقبهم.

وقول المؤلف: (اذكُرْ): يقتضي أَنَّ ﴿يَوْمَ﴾: مفعول به لا ظرف، والأمر بذكره تذكيرٌ به وحثٌ على العمل له، ولو قدر المؤلف العامل: «اذكروا» كان أولى ليتناسب مع ما قبله وما بعده من ضمير جمع المخاطبين^(١)، وقوله تعالى: ﴿مَا عَمِلْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾: العائد على الموصول محذوف؛ تقديره: وما عملته، وقوله: ﴿وَمَا عَمِلْتُمْ مِنْ سُوءٍ﴾: العائد على الموصول محذوف؛ تقديره: وما عملته من سوء.

وقوله: (مبتدأ خبره): يريد بالمبتدأ الاسم الموصول في قوله: ﴿وَمَا عَمِلْتُمْ مِنْ سُوءٍ﴾، وخبره جملة «تود».

(١) ينظر: معاني القرآن للأخفش (١/٢١٩)، وتفسير الثعلبي (٨/٢٣٤).

وقوله: (غايةً في نهاية البعد، فلا يصل إليها): تفسير لقوله تعالى: ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾.

وقوله: (كُرِّر للتأكيد): يريد قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

وقوله: (ونزل)... إلى آخره: إشارة إلى بعض ما روي في سبب نزول هذه الآية^(١)، وهو بعيد لأن الآية مدنية، وهذه الرواية تقتضي أنها مكية لذكر الأصنام فيها، وقد روي أنها نزلت في نصارى نجران لما قالوا: «إنا نعظم المسيح حباً لله تعالى»^(٢).

وقوله: (لهم، يا محمد): يريد: قل للذين ادعوا محبة الله من النصارى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

وقوله: (بمعنى أنه يُشَبِّهكم): هذا يتضمن تفسير محبة الله بالثواب، وهذه طريقة مَنْ ينفي عن الله حقيقة المحبة ثم يفسر ما ورد في النصوص إما بالإرادة وإما بالثواب، فيجمع بين التعطيل والتحريف الذي يسمونه تأويلاً، وهذه الطريقة هي مذهب الجهمية وَمَنْ تبعهم من المعتزلة وغيرهم، ومذهب أهل السنة: إثبات حقيقة المحبة، فيؤمن بأن الله يُحِبُّ وَيُحَبُّ، وليست محبته كمحبة العباد، فتنبه^(٣).

وقوله: (لمن أتبعني)... إلى آخره: يبين أن الوعد بالمغفرة هو من جزاء اتباع الرسول ﷺ.

وقوله: (لهم): أي: قل للذين ادعوا محبة الله من النصارى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٠٣)، والعجاب في بيان الأسباب (٢/ ٦٧٨).

(٢) ينظر: أسباب النزول (ص ١٠٣-١٠٤)، والعجاب (٢/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٣) تقدم في الجزء الأول من التعليق والإيضاح على تفسير الجالين: الفاتحة والبقرة (ص ٤٠٧)، (ص ٤٧٢)، وينظر: شرح العقيدة الطحاوية لشيخنا (ص ١٩٨ - ١٩٩).

وقوله: (فيما يأمركم به من التوحيد): بيان لأول ما تجب فيه طاعة الله والرسول؛ وهو التوحيد الذي هو أصل دين الإسلام.

وقوله: (فيه إقامة الظاهر مقام المضمرة): يريد قوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ بدل: «لا يحبهم»؛ لأن الأصل أن يقال: فإن الله لا يحبهم؛ أي: المتولين.

وقوله (بمعنى أنه يعاقبهم): انظر التعليق على قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦] ^(١).



(١) تقدم في الجزء الأول من التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ٦٣٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتْ أُمُّرَاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَمْرِؤُنِي لَكَ هَذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٧].

يخبر تعالى أنه اصطفى؛ أي: اختار من الناس آدم، وهو أبو البشر كلهم، فالناس كلهم بنو آدم، واصطفى نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض^(١)، وهو الأب الثاني للبشرية لأن جميع الناس بعده هم من ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات]، واصطفى آل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو إبراهيم الخليل وأهل بيته، وأخصهم بهذا الاصطفاء بعد إبراهيم: إسماعيل وإسحاق، وجميع الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت]، وأفضلهم على الإطلاق: خاتمهم محمد ﷺ، واصطفى سبحانه آل عمران؛ قيل: إنه نبي^(٢)، وقيل: رجل صالح من بني إسرائيل أو خبر من أحبارهم^(٣)، وآل عمران؛ هم: عمران وأهل بيته وأخصهم بالاصطفاء الصديقة مريم بنت عمران وابنها عيسى بن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وآل عمران من آل إبراهيم؛ فعطفهم

(١) كما في حديث الشفاعة الطويل وفيه: «فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرِّسَالِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ» أخرجه البخاري (٣٣٤٠) - واللفظ له -، ومسلم (١٩٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) وهو قول ابن عباس والحسن. ينظر: تفسير الطبري (٣٢٨/٥)، وتاريخ دمشق (٧٧/٧٠).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز (١٩٨-١٩٩/٢)، والتحرير والتنوير (٢٣١/٣).

عليهم من عطف الخاص على العام، ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: عالمي أهل زمانهم، وإذا كان الأنبياء بعد إبراهيم، ومنهم محمد ﷺ كلهم من آل إبراهيم فتفضيلهم على العالمين مطلقاً^(١). وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ: يعني: اذكر حين قالت، وهي تناجي ربها^(٢)، وجعله ابن جرير متعلق بسميع في قوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾^(٣). ﴿رَبِّ﴾: أي: يا ربي، ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾: أي: أوجبت على نفسي أن يكون ما في بطني من الحمل: ﴿مُحَرَّرًا﴾؛ قال المفسرون^(٤): أي: موفرًا مُفَرَّغًا لخدمة بيت المقدس، وعبر كثير من المفسرين الذين روى عنهم ابن جرير^(٥): لخدمة الكنيسة، وهذا يدل على أن مثل هذا النذر مشروع في شريعتهم، وليس هذا التحرير مأمور به في شريعتنا فلا يكون نذره مشروعاً فإنَّ أحداً من الأبوين لا يملك منافع ولده فيتصرف فيها؛ بل أصل النذر منهى عنه في شريعتنا^(٦)، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾: أي: وضعت ما في بطنها، ولَمَّا كان أنثى رد الضمير إليه مؤنثاً، وقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾: تشكو إلى ربها أن كان حملها أنثى، وكانوا لا يندرون بخدمة الكنيسة إلا الذكور، ولهذا قالت: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾، لأنَّ المرأة يصيبها الحيض والنفاس^(٧)، وكذلك لا يجوز أن تختلط بالرجال، وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: الجملة اعتراض بين كلامها من قول الله تعالى رفعاً لما يتوهم من قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾، ولذا قرأ الجمهور بإسكان التاء

(١) ينظر: المحرر الوجيز (١٩٨/٢).

(٢) ينظر: معاني القرآن للزجاج (٤٠٠/١)، والدر المصون (١٢٩/٣).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٣٣٠/٥).

(٤) ينظر على سبيل المثال: تفسير الثعلبي (٢٥١/٨)، والقرطبي (٦٦/٤)، وابن كثير (٣٣/٢).

(٥) (٣٣٢/٥) وما بعدها.

(٦) ينظر: المغني (٦٢١/١٣).

(٧) ينظر: تفسير الطبري (٣٣٧-٣٣٨/٥).

على أنه خبر من الله تعالى، وقرأ بعضهم بضم التاء على أنه من جملة كلام امرأة عمران^(١)، ورجح ابن جرير قراءة جمهور القراء كعادته^(٢)، وقوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾: الأظهر أن ذلك من كلام المرأة^(٣)، ويحتمل أن يكون من كلام الله متصل^(٤) بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ على قراءة الجمهور؛ المعنى: أن الذكر خير من الأنثى؛ لأنه أقوى وأقدر على الخدمة، وقوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾؛ قال القرطبي: مريم معناه في اللغة العبرانية «خادم الرب»^(٥)، وقد دلت الآية على أن مريم ابنة عمران؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ أُمُّرَاتُ عِمْرَانَ﴾، وقد جاء التصريح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتُ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحریم: ١٢]، وقوله تعالى عن امرأة عمران أم مريم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٦)، تعويد من امرأة عمران لمريم وذريتها وهو عيسى عَلَيْهِ السَّلَام؛ فمعنى الكلام: ربي أعذها وذريتها من الشيطان، وقد أجاب الله دعائها حتى عصمهما الله عند الولادة من طعنة الشيطان؛ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ؛ فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ، إِلَّا ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾»^(٦)، وقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾؛ أي: قبل مريم قبولاً حسناً يتضمن قبول نذر أمها امرأة عمران وإجابة دعائها، وقوله:

(١) ينظر: الشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٣٣٦)، وينظر على سبيل المثال ترجيح الطبري لقراءة الحجة في: (٧/ ٦٣١)، (٨/ ٢٩٩)، (٩/ ٤٥٤).

(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٢/ ٩٩٥)، والتفسير البسيط (٥/ ١٩٦).

(٤) ينظر: تفسير البضاوي (٢/ ١٤)، والبحر المحيط (٣/ ١١٨).

(٥) تفسير القرطبي (٤/ ٦٨).

(٦) أخرجه البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦) واللفظ له.

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ أي: نشأها نشأةً حسنة في خلقها وخلقها، في بدنها ونفسها، ورباها على الطهر والعفاف والاستقامة على الدين حتى بلغت مرتبة الصديقية، ووهب لها ذرية؛ هو عيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾؛ أي: جعل الله زكريا النبي كافلاً لها؛ أي: ولياً عليها معنياً بشأنها، قائماً مقام أبيها الذي مات، وهي في بطن أمها؛ كما ذكر المفسرون^(١)، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾؛ ﴿كُلَّمَا﴾: كلمة تدل على تكرار الفعل، و﴿الْمِحْرَابَ﴾؛ هو: مكان العبادة يتخذه العابد للخلوة فيه^(٢)، والآية تدل على أن مريم اتخذت محراباً، وكان زكريا يدخل عليها في محرابها، وكان في كل مرة يجد عندها رزقاً طعماً أو فاكهة؛ فكان زكريا يسألها: ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا﴾؛ أي: من أين لك؟ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣)، ووجه استغراب زكريا لهذا الرزق؛ قال المفسرون: إنه يجد عندها فاكهة الشتاء في وقت الصيف، وفاكهة الصيف في وقت الشتاء^(٤). وهذا لا يمكن الجزم به لأنه من الروايات الإسرائيلية، وقولها: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ أي: عطاءٌ محضٌ من الله لا منة فيه لأحد، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٥)؛ أي: بغير إحصاء، والجملة مستأنفة يحتمل أن تكون من تمام كلام مريم، ويحتمل أن تكون من كلام الله^(٦).

(١) ينظر على سبيل المثال: تفسير الطبري (٥/٥٣٢)، والثعلبي (٨/٢٥٤)، والتفسير البسيط (٥/١٩٤).

(٢) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ١٠٤)، وغريب القرآن للسجستاني (ص ٤٥٥).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥/٣٥٣-٣٥٧)، وابن أبي حاتم (٢/٦٤٠).

(٤) والثاني هو اختيار الطبري (٥/٣٥٩)، وينظر: التفسير البسيط (٥/٢١٠)، والمحزر الوجيز (٢/٢٠٦).

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى﴾: اختار ﴿آدَمَ وَنُوحًا، وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾
بمعنى: أنْفُسَهُمَا ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، بجعل الأنبياء من نسلهم، ﴿ذُرِّيَّةً
بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ ولد ﴿بَعْضٌ مِنْهُمْ﴾. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

اذكُرْ ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ حَتَّى، لَمَّا أَسْنَتْ وَاشْتَاقت للولد،
فَدَعَتْ اللَّهَ وَأَحْسَتْ بِالْحَمْلِ: يَا رَبِّ، إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَجْعَلَ لَكَ مَا
فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾: عتيقًا، خالصًا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس.
﴿فَتَقَبَّلَ مِنْيَ. إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ للدُّعاء، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالنيات. وهَلَكَ
عِمْرَانُ وَهِيَ حَامِلٌ. ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾: وَلَدَتْهَا جَارِيَةً، وَكَانَتْ تَرْجُو أَنْ
يَكُونَ غَلَامًا إِذْ لَمْ يَكُنْ يُحَرَّرُ إِلَّا الْغُلَامُ، ﴿قَالَتْ﴾ مُعْذِرَةً: يَا رَبِّ،
إِنِّي وَضَعْتُهَا أَنْثَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّ عَالَمٍ ﴿بِمَا وَضَعْتُ﴾: جَمْلَةٌ
اعترض من كلامه تعالى. وفي قراءة بضم التاء. ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ﴾ الذي
طلبت ﴿كَالْأُنْثَى﴾ التي وَهَبْتُ^(١)، لَأنَّه يُقْصَدُ لِلْخِدْمَةِ وَهِيَ لَا تَصْلُحُ لَهَا
لِضَعْفِهَا وَعُورَتِهَا، وَمَا يَعْتَرِيهَا مِنَ الْحَيْضِ وَنَحْوِهِ - ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا
مَرْيَمَ، وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾: أَوْلَادَهَا ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾:
الْمَطْرُودِ. فِي الْحَدِيثِ «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُوَلَّدُ
فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا [مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ]، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا». رَوَاهُ الشَّيْخَانُ^(٢).

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ أَيُّ: قَبِلَ مَرْيَمَ مِنْ أُمِّهَا ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ، وَأَنْبَتَهَا
نَبَاتًا حَسَنًا﴾: أَنْشَأَهَا بِخَلْقٍ حَسَنٍ، فَكَانَتْ تَبْتَ فِي الْيَوْمِ كَمَا يَنْبَتُ

(١) فِي نَسْخَةِ قِبَاوَةَ (وَهَبْتُ)، وَسَيَأْتِي التَّعْلِيقُ عَلَى ذَلِكَ.

(٢) بَنَحُوهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ، وَالْمُؤَلَّفُ صَادِرٌ عَنْ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ (٢/ ٣٤) وَهُوَ أَحَدُ الْمَصَادِرِ
الثَّلَاثِ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا الْمُؤَلَّفُ. يَنْظُرُ: التَّعْلِيقُ وَالْإِيضَاحُ عَلَى تَفْسِيرِ الْجَلَالِينَ:
الْفَاتِحَةُ وَالْبَقَرَةُ (ص ١١).

المولود في العام - وأتت بها أمُّها الأخبارَ سَدَنَةً بيت المقدس، فقالت: دُونَكُمْ هذه النذيرة. فتنافسوا فيها لأنها بنت إمامهم، فقال زكرياءُ: أنا أحقُّ بها لأن خالتها عندي. فقالوا: لا حتَّى نقترعَ. فانطلقوا، وهم تسعة وعشرون، إلى نهر الأردنِّ وألقوا أقلامهم، على أن مَنْ ثَبَّتَ قلمه في الماء وصعدَ فهو أولى بها. فثَبَّتَ قلم زكرياء فأخذها، وبنى لها غُرفة في المسجد بسُلم، لا يصعد إليها غيره - وكان يأتيها بأكلها وشربها وذهنها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، كما قال تعالى ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾: ضمَّها إليه. وفي قراءة بالشديد ونصب «زكرياء» ممدودًا ومقصورًا، والفاعلُ الله، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾: الغُرفة - وهي أشرف المجالس - ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا. قَالَ: يَا مَرْيَمُ، أَنَّى﴾: من أين ﴿لَكَ هَذَا؟ قَالَتْ﴾ وهي صغيرة: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يأتيني به من الجنة. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ رزقًا واسعًا بلا تبعة.

وقول المؤلف: (اختار): تفسير «اصطفى»، ولا يختار الله من عباده إلا الأختيار، وكل من ذكر من الأختيار.

وقوله: (بمعنى: أنفسهما): يريد أن آل إبراهيم وآل عمران؛ هما نفس إبراهيم ونفس عمران. وقوله: (بجعل الأنبياء من نسلهم): يبين أن اصطفاءهما كان بجعل الأنبياء من ذريتهما.

وقوله: (اذكر): المعنى: اذكر حين قالت امرأة عمران، وفي ذكر هذا الحين؛ ذكر لامرأة عمران ونذرهما ما في بطنها، ووضعها لمريم، وما انتهى إليه أمرها.

وقوله: (حَنَّةٌ...) إلى آخره: هذا اسم امرأة عمران؛ أم مريم، وما بعده من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب^(١).

وقوله: (يا): يريد أن المعنى: يا ربي.

وقوله: (أَنْ أَجْعَلَ): هذا مصدر مؤول قدره مفعولاً لـ «نذرت»، وجعل ينصب مفعولين، وهما على هذا التقدير: الاسم الموصول؛ «ما في بطني» هو المفعول الأول، ومحَرَّرًا؛ هو المفعول الثاني؛ فيكون تقدير الجملة: «نذرت أن أجعل لك يا الله ما في بطني محرراً»^(٢).

وقوله: (عَتِيقًا)... إلى آخره: تفسير: ﴿مُحَرَّرًا﴾؛ ومعناه: أنه يكون مفرغاً من شواغل الدنيا وموفرًا لخدمة بيت المقدس^(٣).

وقوله: (لِلدُّعَاءِ): يبين أن: السميع؛ بمعنى: المجيب.

وقوله: (بِالنِّيَّاتِ): معناه أن العليم؛ العالم بكل شيء، ومنها النيات التي في الصدور.

وقوله: (وَهَلَكَ عِمْرَانٌ وَهِيَ حَامِلٌ): عمران: أبو مريم، وهذا مما نقله المفسرون عن أهل الكتاب، ويصدق قوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقوله: (وكفلها زكريا): بتشديد الفاء وتخفيفها؛ قراءة ثان^(٤).

وقوله: (وَلَدَتْهَا جَارِيَةً): معناه: وضعت ما في بطنها جارية؛ أي: أنثى بدليل تأنيث الضمير وعاد الضمير إلى الموصول باعتبار المعنى.

(١) تنظر بعض هذه الآثار في: تفسير الطبري (٥/ ٣٣٢)، والثعلبي (٨/ ٢٥٣)، والدر المشور (٢/ ١٨٠).

(٢) وقيل غير ذلك في نصب «محرراً». ينظر: الدر المصون (٣/ ١٣٠).

(٣) ينظر: غريب لقرآن لابن قتيبة (ص ١٠٣)، والبيان في تفسير غريب القرآن (ص ١٢١).

(٤) ينظر: الشرح في القراءات العشر (٢/ ٢٣٩).

وقوله: (وكانت ترجو أن يكون غلامًا): بدليل أسفها؛ في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾، وقولها: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾.

وقوله: (إذ لم يكن يُحرَّرُ إِلَّا الغلمانُ): أي: لخدمة الكنيسة - رواه ابن جرير عن قتادة والسدي -^(١) لأنهم أقوى على ذلك ولا يعرض للذكر ما يعرض للأنثى من الحيض والنفاس، وقوله: (مُعتذرة): بيان لمقصودها في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾.

وقوله: (يا): تقدير لحرف النداء المحذوف.

وقوله: (أي: عالمٌ): هذا صرف لصيغة «أفعل التفضيل» إلى صيغة «اسم الفاعل»؛ وهذا خطأ، فإنَّ «عالم» لا تدل على فضل علم الله على علم المخلوق.

وقوله: (جملةً اعتراض) ... إلى آخره: يريد أن جملة «والله أعلم بما وضعت» جملة معترضة في كلام امرأة عمران وهذا على القراءة بسكون التاء أما على القراءة بضم التاء فلا تكون الجملة معترضة؛ بل من كلام امرأة عمران.

وقوله: (الذي طلبتُ: لو قال: الذي رجوتُ؛ كان أولى).

وقوله: (التي وهبتَ) ... إلى آخره: المعنى: أن الذكر الذي رجوتُ أن أضعه؛ ليس كالأنثى التي وهبت لي؛ لأنَّ الذكر لا يعرض له ما يعرض للأنثى من الحيض ونحوه، وهي عورةٌ لا ينبغي أن تختلط بالرجال.

وقوله: (أولادها): بيان: للمراد بذريتها، وهم: من تلدهم مريم، وهذا لا يصدق إلا على عيسى عَلَيْهِ السَّلَام ولهذا شملته التعويذة فلم ينخسه الشيطان عند ولادته؛ كما جاء في الحديث: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان... إلا ابن مريم وأمه...» الحديث.

(١) تفسير الطبري (٥/ ٣٣٤).

وقوله: (المطرود)... إلى آخره: بيان لمعنى ﴿الرَّحِيمِ﴾، ثم أشار إلى الحديث الذي تقدم ذكره. وقوله: (أي: قَبْلَ مَرِيَمَ مِنْ أُمِّهَا): معناه: أَنَّ اللهَ قَبْلَ نَذْرِ امْرَأَةِ عِمْرَانَ وَتَقَرُّبِهَا؛ بِتَحْرِيرِ مَا فِي بَطْنِهَا لخدمة بيت المقدس، وأسند القبول إلى مريم؛ لأنها هي المنذورة، فتقربت أمها بها إلى الله فقبلها الله منها، وَمَنْ قَبْلَ الله عمله أثابه وبلغه مراده، ومن آثار هذا القبول الحسن أن رباها الله فأحسن خلقها وخلقها، وحبها إلى الصالحين من بني إسرائيل، حتى تنافس الأخبار في كفالتها^(١).

وقوله: (أنشأها بخلق حسن)... إلى آخره: هذا التفصيل مما نقله المفسرون^(٢) عن بني إسرائيل، ولا يثبت منه إلا ما دل عليه القرآن؛ مثل: أَنَّ الأخبار استهموا على كفالتها، وَأَنَّ كفالتها صارت إلى زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما سوى ذلك لا يصدق ولا يكذب.

وقوله: (ضمَّها إليه): بيان للمراد بالكفالة؛ المعنى: أَنَّ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ ضمَّ إلى ولايته رعاية شؤون مريم.

وقوله: (وفي قراءة بالتشديد)... إلى آخره: أي: بتشديد الفاء في قوله: «كفلها»، وعلى هذه القراءة: «زكريا» منصوب؛ فالمعنى: كَفَّلَ الله مَرِيَمَ زَكْرِيَا؛ أي: جعله كافلاً لها، والأصل عند المؤلف: القراءة بتخفيف الفاء، وعلى هذه القراءة يكون زكريا فاعلاً، والقراءة الأولى: هي قراءة الجمهور^(٣)، ورجحها ابن جرير^(٤)، وبها يحصل التناسب مع الجمل قبلها؛ فالأفعال الثلاثة: تقبلها، وأنبتها، وكفلها؛ مسندة إلى الله.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: تفسير الثعلبي (٨/ ٢٦٣)، والتفسير البسيط (٥/ ٢٠٢).

(٣) ينظر: الشرح في القراءات العشر (٢/ ٢٣٩).

(٤) (٥/ ٣٤٥).

وقوله: (الغرفة): تفسير للمحراب، التي بناها زكريا لمريم في بيت المقدس؛ فاتخذتها متعبداً لها، ولهذا سُميت محراباً.

وقوله: (من أين): تفسير لأداة الاستفهام ﴿أَنَّى﴾؛ لأنها يُستفهم بها عن المكان؛ فالمعنى: هذا الرزق من عند مَنْ؟ فلهذا قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ ليس من عند أحد من الناس، وسؤال زكريا عن هذا الرزق يدل على أنه غريب نادر، ولهذا قال المفسرون في تفسير الرزق: «أنها فاكهة الشتاء يجدها عندها في الصيف، وفاكهة الصيف يجدها عندها في الشتاء»، والله أعلم.



وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۖ وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعْثِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۝٤١﴾ [آل عمران: ٣٨-٤١].

يخبر تعالى أن زكريا عليه السلام لما رأى حال مريم وما هي عليه من الصلاح والعبادة، وما حصل لها من الكرامة؛ اشتاق إلى أن يكون له ولد صالح يرث منه العلم؛ فدعا ربه وهو في المحراب لم يخرج: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٨﴾، فأجاب الله دعاءه، وأرسل إليه ملكاً يبلغه البشري من الله بسلام اسمه: يحيى، وأن الله لم يجعل له من قبل سمياً؛ أي: مسمى بمثل اسمه يحيى، أو سمياً؛ أي: شبيهاً في علمه وخلقه ودينه، كما جاء ذلك في سورة مريم^(١)، وقال تعالى في هذه السورة: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ۖ﴾؛ أي: الملك، ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ۖ﴾؛ وهو: عيسى عليه السلام وسيداً؛ أي: شريفاً عالي القدر، ﴿وَحَصُورًا ۖ﴾؛ قيل؛ معناه: الذي لا يأتي النساء لأنه لا رغبة له فيهن طبعاً، أو لا رغبة له فيهن اشتغالاً عن ذلك بعبادة ربه، أو تعليم الناس، والحكم بينهم، وهذا هو اللائق لأنه امتناع من إتيان النساء اختياراً فيكون مدحاً، وأما عدم إتيان النساء لعدم الشهوة؛ فذلك عجز ونقص لا يمدح به^(٢)، وقوله: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٣٩﴾؛ بشارة بنوته، وهي بشارة أخرى زائدة؛ أي: البشارة بالولد، وهي تتضمن إجابة دعائه في توريث النبوة والعلم؛ في قوله تعالى في سورة

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٥/٤٦١)، وزاد المسير (٣/١٢٠).

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٢/٣٥)، والمحزر الوجيز (٢/٢١١-٢١٢).

مريم: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ يَرْتَضِي وَيَرْثُ مِنْ أَل يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ [مريم]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]، وهذا استفهام تعجب؛ أي: كيف يولد لي غلام وأنا بهذا السن من الكبر، وامرأتي عاقرة؛ أي: لا تلد؛ فأجيب بأن الله يفعل ما يشاء ولا يعجزه شيء، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾؛ المعنى: اجعل لي علامة أعلم بها تحقق البشارة بالولد، فأوحى الله إليه: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾؛ أي: إشارة؛ فصار لا يستطيع أن يكلم الناس إلا بالإشارة، مع سلامة أعضاء نطقه، وهذا معنى: ﴿سَوِيًّا﴾ ﴿١٠﴾ في سورة مريم؛ أي: لا آفة بك^(١)، ويقدر على الذكر والتسبيح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ ﴿٤١﴾، فهو يذكر ربه ويسبحه، وإذا أراد أن يكلم الناس لم يستطع إلا بالإشارة، مكث على ذلك ثلاثة أيام بلياليها؛ لأنه قال في هذه السورة: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾، وفي سورة مريم: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: لما رأى زكرياء ذلك، وعلم أن القادر على الإتيان بالشيء في غير حينه قادر على الإتيان بالولد على الكبر، وكان أهل بيته انقرضوا، ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾، لما دخل المحراب للصلاة جوف الليل، ﴿قَالَ: رَبِّ، هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾: من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾: ولدًا صالحًا. ﴿إِنَّكَ سَمِيعٌ﴾: مُجِيبُ الدُّعَاءِ. فنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴿أَي: جبريل، وَهُوَ قائمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي: المسجد ﴿أَنْ﴾ أي: بأن - وفي قراءة بالكسر بتقدير القول - ﴿اللَّهُ يُبَشِّرُكَ﴾، مثقلًا ومخففًا، ﴿بِحَيِّ مُصَدَّقًا بِكَلِمَةٍ﴾ كائنة ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ أي: بعيسى أنه روح الله - وسُمِّي كلمة لأنه

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ٢٧٣).

خُلِقَ بِكَلِمَةِ «كُنْ» - ﴿وَسَيِّدًا﴾: متبوعًا، ﴿وَحَصُورًا﴾: مَمْنُوعًا^(١) من النساء، ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. رُوي أنه لم يعمل خطيئة، ولم يَهَمَّ بها^(٢).

﴿قَالَ: رَبِّ أَنَّى﴾: كيف ﴿يَكُونُ لِي غَلامٌ﴾: ولد، ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ﴾ أي: بلغت نهاية السنِّ مائةً وعشرين سنة، ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ بلغت ثمانِي وتسعين سنة؟ ﴿قَالَ﴾: الأمر ﴿كَذَلِكَ﴾ مِنْ خَلْقِ غَلامٍ مِنْكُمْ. ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ لا يُعجزه عنه شيء. ولإظهار هذه القُدرة العظيمة ألهمه السؤال لِيُجَابَ بها. ولَمَّا تَأَقَّتْ نفسه إلى سرعة المُبَشِّر به ﴿قَالَ: رَبِّ، اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة على حمل امرأتي. ﴿قَالَ: آيَتُكَ﴾ عليه ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أي: تمتنع من كلامهم، بخلاف ذِكْرِ الله تعالى، ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: لباليها، ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾: إشارة. ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا، وَسَبِّحْ﴾: صَلِّ ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾: أواخر النهار وأوائله.

وقول المؤلف: (أي: لما رأى)... إلى آخره: بيان لسبب دعاء زكريا وهو أمران:

الأول: ما رأى من قدرة الله على خلق العادة في الرزق، الذي يأتي لمريم.

(١) في نسخة قباوة: (مَمْنُوعًا) وأشار لنسخة (ممنوعًا)، كما هو في بعض الشروح والمطبوعات، وهو الذي رجحه شيخنا.

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢٣٥٨)، والطبراني في الكبير (١٢٩٣٨)، والدارقطني في الأفراد (٧٠ / ٣ / رقم ٢٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: وقال الهيثمي في المجمع (٢٠٩ / ٨ / رقم ١٣٨٠١): «رواه البزار والطبراني، وفيه علي بن زيد بن جدعان وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات»، وينظر: تخريج الكشاف للزيلعي (١٦٠).

الثاني: انقراض أهل بيته، فلم يبق منهم من يرث العلم من بعده.
وقوله: (لما دخل المحراب للصلاة جوف الليل): هذا التفصيل في
صفة دعاء زكريا، هو من المرويات الإسرائيلية^(١).

وقوله: (ولداً صالحاً): بيان للمراد: «بالذرية» التي طلبها زكريا، وأنه
ولد واحد يرث بعده النبوة، وهذا معنى قوله في سورة مريم: ﴿فَهَبْ لِي
مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥-٦].

وقوله: (مجيب): بيان للمراد بالسمع، وهو: إجابة الدعاء، لا السمع
الذي هو مجرد إدراك الصوت، ولهذا قيده بقوله: ﴿سَمِعُ الدُّعَاءَ﴾^(٢).

وقوله: (أي: جبريل): يبين أن المراد: ﴿الْمَلَأْنِكَ﴾: ملك واحد وهو
جبريل، عبّر عنه بلفظ الجمع^(٣). وقوله: (أي: المسجد): بيان للمراد
بالمحراب، وهو مسجد زكريا الخاص، الذي يصلي فيه ويخلوا فيه؛ كما
قال تعالى في شأن داود: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾
[ص: ٢١]: أي: المكان الذي اتخذته داود مصلى.

وقوله: (بأن): يبين أن المصدر المؤول من: ﴿أَنَّ﴾ واسمها وخبرها
على تقدير حرف جر محذوف وهو الباء.

وقوله: (وفي قراءة بالكسر): أي: بكسر همزة «أن» وبين المؤلف وجه
هذه القراءة^(٤) بقوله: «بتقدير القول»؛ لأنَّ همزة «إن» تكسر بعد القول؛
فالمعنى: فنادته الملائكة؛ قالت: إِنَّ الله.

(١) ذكرها بعض المفسرين في سورة مريم. ينظر: تفسير الثعلبي (١٧/٣٢٨)، والمحرر
الوجيز (٧/٦).

(٢) ينظر: التفسير البسيط (٥/٢١٦)، والبحر المحيط (٣/١٢٧).

(٣) ينظر توجيه ذلك في: تفسير الطبري (٥/٣٦٣).

(٤) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/٢٣٩).

وقوله: (مَثَقَلًا وَمَخْفَفًا): يشير إلى القراءتين في «يُشْرِكُ» بضم الياء وتشديد الشين من التبشير، وهي: قراءة الجمهور ورجحها ابن جرير^(١)، والثانية: بفتح الياء وضم الشين مخففة، من بَشَرَهُ يَبْشُرُهُ بَشْرًا إذا سره^(٢).

وقوله: (كَائِنَةً): تقدير لمتعلق من الله.

وقوله: (بَعِيسَى أَنَّهُ رُوحُ اللَّهِ): تفسير لقوله: «بِكَلِمَةٍ»؛ لأنَّ عيسى هو كلمة الله، وسمي كلمة لأنه خُلِقَ: «بكن»، ويحيى قد وُلِدَ قبل عيسى، ولما جاء عيسى رسول من الله صدق به؛ بل قيل: إنه أول مَنْ صَدَّقَ به^(٣)، وهذا معنى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

وقوله: (مَتَّبِعَا): تفسير لـ (سَيِّدًا)، ومتَّبِعَ أحد معاني السيد^(٤).

وقوله: (مَمْنُوعَا^(٥) من النساء): هذا هو المشهور في معنى الحصور؛ أنه الذي لا يأتي النساء.

وقوله: (رُؤْيٍ)... إلى آخره: هذا من معنى قوله: ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وقوله: (كَيْفٍ): تفسير للاستفهام في قوله: ﴿أَنَّى﴾، وهو استفهام تعجب.

وقوله: (وَلَدٍ): تفسير للغلام، ولو قال: «ابن» كان أولى؛ لأنَّ الولد يُطلق على الذكر والأنثى، ومطلوبه: مَنْ يصلح أن يكون وليًّا.

(١) ينظر: الشرح في القراءات العشر (٢/ ٢٣٩).

(٢) (٣٦٩/٥).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٣٧٢).

(٤) ينظر: المفردات (ص ٤٣٢).

(٥) رجح شيخنا هذه اللفظة خلافًا للمثبت في نسخة قباوة، وهي مذكورة في بعض النسخ وفي بعض المطبوعات لتفسير الجلالين، كما قال قباوة.

وقوله: (أي: بلغت)... إلى آخره: تفسير لـ ﴿بَلَّغْنِي الْكِبَرُ﴾، ويقال: بلغني الكبر، وبلغتُ الكبر، وما ذكر من السن الذي بلغه من الروايات الإسرائيلية^(١).

وقوله: (بلغت)... إلى آخره: هذا من جنس ما قبله لم يذكر عليه دليلاً^(٢).

وقوله: (الأمر): هذا تقدير مبتدأ؛ خبره: ﴿كَذَلِكَ﴾: المعنى: قال الملك مبلغاً عن الله الأمر: كما بشرناك.

وقوله: (الله يفعل ما يشاء): جملة مستأنفة، مؤكدة لما قبلها.

وقوله: (من خلق غلام منكما): بيان لما في الموصول من إبهام، وهو؛ قوله: ﴿مَا يَشَاءُ﴾، فتقدير الكلام: الله يفعل ما يشاء من خلق غلام منكما.

وقوله: (لا يعجزه عنه شيء): هذا بعض ما يدل عليه قوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾؛ لأنَّ العاجز لا يفعل ما يشاء.

وقوله: (ولإظهار)... إلى آخره: بيان لحكمة الله في إلهام زكريا الدعاء لحصول الولد.

وقوله: (ولما تأقت)... إلى آخره: بيان للحامل لزكريا على طلب آية تدله على حصول الولد.

وقوله: (أي: علامة)... إلى آخره: تفسير للآية وبيان لما تدل عليه، وهو: حمل امرأة زكريا، والآية القرآنية مجملة ليس فيها ذكر لحمل المرأة،

(١) ينظر: تفسير الثعلبي (٨/ ٣١٢).

(٢) ينظر: تفسير الثعلبي (٨/ ٣١٢).

وما هو إلا من كلام بعض المفسرين، وقد يكون من المرويات عن أهل الكتاب^(١).

وقوله: (عليه): أي: على حصول الولد.

وقوله: (أي: تمتنع من كلامهم بخلاف ذكر الله تعالى): لوقال: ألا تقدر على تكليم الناس؛ لكان أولى في بيان المعنى.

وقوله: (أي: بلياليها): صحيح، لقوله تعالى في سورة مريم: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠].

وقوله: (إشارة): أي: باليد أو بالشفة، وهذه حال من يعجز عن الكلام. وقوله: (صل): تفسير لقوله: ﴿وَسَبِّحْ﴾، والصلاة تسمى تسبيحاً؛ لاشتغالها على التسبيح في الركوع والسجود، ولكن الآية عامة تشمل التسبيح بالصلاة، والتسبيح بقول: «سبحان الله». وقوله: (أواخر النهار وأوائله): لأنَّ العشي من الزوال إلى غروب الشمس، والإبكار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس^(٢).



(١) ينظر: تفسير الثعلبي (٨/ ٣١٥)، والتفسير البسيط (٥/ ٢٣٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٣٩١)، والكشاف (١/ ٥٥٧).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ
وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ٤٣﴾ يَمْرُؤُا أَفْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ
٤٣ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٤٤ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ
بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ الْمَقَرَّبِينَ
٤٥ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمَنْ الصَّالِحِينَ ٤٦ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ
يَمَسْسَنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ ٤٧
وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٤٨ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ
جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ
طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ
وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٤٩ وَمَصَدَقًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ
رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٥٠ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ
﴿٥١﴾ [آل عمران: ٤٢-٥١].

يفصل تعالى في هذه الآيات الخبر عما فصل به مريم بنت عمران بعد
إجماله في قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]؛
فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ﴾: أي: الملك وهو جبريل^(١)؛ المعنى:
واذكر -أيها النبي- للناس قول الملائكة حين قالت لمريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ
اصْطَفَاكِ﴾: أي: اختارك وطهرك من الأدناس، وعصمك من الشيطان،
وفضلك بهذا الاصطفاء على نساء العالمين؛ أي: عالمي زمانها^(٢)، ثم أمرها

(١) مثل ما تقدم وهو قول جماعة من المفسرين. وينظر: التفسير البسيط (٥/ ٢٤٥)، وزاد
المسير (١/ ٢٨١).

(٢) وهو قول ابن جريج والسدي، واختاره الطبري، وقول الأكثرين من أهل العلم. ينظر:
تفسير الطبري (٥/ ٣٩٣)، (٥/ ٣٩٦)، وابن أبي حاتم (٣٤٩١)، والتفسير البسيط
(٥/ ٢٤٥-٢٤٦).

الله بعد هذا الاصطفاء والتطهير والتفضيل بالقنوت، وهو: دوام الطاعة^(١)، والسجود والركوع، وهو الصلاة؛ فأمرها الله بواسطة الملك بما يكون شكرًا لله على ما أنعم به عليها، وما دلت عليه هذه الآية من أمر النبي بذكر مريم واصطفاء الله لها؛ هو نظير قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، وقوله: ﴿وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٢)؛ قيل؛ المعنى: كوني من المصلين؛ فالمعية معية موافقة بالفعل كقوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣) [التوبة]: وقيل: صلي مع المصلين في بيت المقدس فتصلي معهم، وهي في محرابها^(٤)؛ كما ذكر المفسرون؛ أن زكريا اتخذ لها غرفة في بيت المقدس فكانت تتعبد فيها^(٥).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾: اسم الإشارة راجع إلى مَنْ تقدم من قصة امرأة عمران ومريم، وقصة زكريا ويحيى، وهي: أخبار عجيبة فيها ذكر بعض آيات الله ونعمه على مَنْ شاء من عباده، ولهذا سمي الله هذه الأخبار أنباء؛ لأنَّ النبأ هو الخبر الذي له شأن^(٦)، وهي: من أنباء الغيب التي أطلع الله عليها نبيه بالوحي إليه، لأنه ﷺ لم يدركها فلم يحضرها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(٧): أي: ما كنت حاضرًا عند الأخبار، وهم يستهمون على كفالة مريم، ولا وهم يختصمون في ذلك، فعلم بإخباره ﷺ بهذه الأنباء من الغيب أنه نبي يتلقى ما يخبر به من عند الله؛ قال المفسرون: وصفة استهامهم أن يلقوا أقلامهم في النهر؛ قالوا: نهر الأردن، فمن ثبت قلمه ولم يدفعه الماء، كان أحق بكفالة مريم، فثبت قلم زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ كأنما غرز في

(١) تقدم في (ص ٢٩).

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٣٧/٢)، والكشاف (٥٥٧/١).

(٣) ينظر: تفسير الثعلبي (٨/٢٦٨-٢٧٠)، والتفسير البسيط (٥/٢٠٦).

(٤) ينظر: المفردات (ص ٧٨٨).

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]؛ أشارت إليه، وقالوا: ﴿كَيْفَ نُنَكِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]؛ فأنطقه الله ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]... إلى آخر ما ذكر الله في سورة مريم، والمهد: هو الفراش الذي يُعدُّ للطفل الرضيع، وفي قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾؛ إبطال لقول النصارى فيه؛ أنه الله، أو ابن الله، فافتتح كلامه بما يدل على هذا الأصل، وقوله: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: الصواب: في معنى ذلك أنه تعالى قضى في سابق علمه، وقدر في الكتاب الأول، أن يؤتیه الكتاب ويجعله نبياً^(١)، ويجعله مباركاً؛ أي: نفاعاً للخلق، بتعليمهم دينهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وإبرائهم من العاهات^(٢)، وقوله: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم: ٣١]، معطوف على «آتاني» و«جعلني»، وذلك راجع إلى معنى: القضاء والقدر - كما تقدم -، ليس كما قيل أنه أوتي الكتاب وجعل نبياً وهو في بطن أمه، أو وهو في المهد^(٣)، وقوله: ﴿وَكَهْلًا﴾: أي: يكلم الناس وهو كهلٌ؛ أي: يدعوهم إلى الله ويعلمهم، وذلك بعد نبوته، والكهولة: ما بين الشباب والشيخوخة^(٤)، وقوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٤٦]؛ أي: من أهل الصلاح في دينهم، العاملين بطاعة الله، الداعين إلى الله، وقد تضمنت هذه البشارة: حصول الولد، وأنَّ وجوده بمحض كلمة الله لا من أب، وذكر اسمه وصفته ونسبه ومنزلته عند الله، وقوله تعالى عن مريم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾؛ إخبار من الله عما قالت مريم

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥٢٩/١٥)، والمحزر الوجيز (٢٩/٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٥٣٠/١٥)، وتفسير السمعاني (٢٩٠/٣).

(٣) ينظر: تفسير البغوي (٢٣٠/٥)، وقال ابن عطية في المحزر الوجيز (٣١/٦): «وهذا

في غاية الضعف مصرَّح بجهالة قائله»، وأخرج ابن أبي حاتم (١٣١٢٤) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان عيسى بن مريم قد درس الإنجيل وأحكمه في بطن أمه». قال ابن

كثير (٢٢٩/٥) عن إسناد ابن أبي حاتم: «ويحيى بن سعيد العطار الحمصي: متروك».

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٤١٢/٥)، وتفسير القرطبي (٩٠/٤).

بعد البشارة؛ قالت متعجبة: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾؛ أي: بنكاح، وفي الآية الأخرى قالت: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم]: أي: زانية، فأجابها الملك: بأمر الله؛ قال: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَلَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: مثل خلق هذا الولد المبشّر به يخلق تعالى ما يشاء، وذلك هيّن عليه؛ لأنه تعالى إذا قضى أمرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٧)، فمّا قضى الله ما يكون بمحض كلمة الله: ﴿كُنْ﴾، وهكذا كان: خلق المسيح، ولهذا سماه الله كلمته كما تقدم، ومما قضاه الله وقال له: ﴿كُنْ﴾: ما يتوقف على وجود أسباب يخلقها الله، وهذه حال أكثر المخلوقات، وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، يحتمل أن يكون هذا من تمام البشارة، فيكون معطوف على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾، ويحتمل أن يكون كلامًا مستأنفًا لبيان ما يكرم الله به عيسى من النبوة والرسالة، وما يجريه الله على يده من الآيات وخوارق العادات^(١)، والكتاب؛ قيل: المراد به الكتابة، وهي: الخط بالقلم، وقيل: المراد به التوراة، ويشكل على هذا ذكر التوراة بعده، وقيل: المراد به جنس الكتاب^(٢)، والحكمة؛ قيل: هي السنة، وهي: ما يوحيه الله من الشرائع لا في كتاب، ويُحتمل أن يراد بها إصابة الصواب في القول والعمل^(٣)، والتوراة؛ هي: الكتاب المنزل على موسى، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مأمور باتباعها، والإنجيل: هو الكتاب المنزل على عيسى، وقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: معطوف على وجيهاً؛ فهو منصوب على الحال، ويحتمل: أن يكون مفعولاً به لفعل مقدر معطوف على «يُعَلِّمُ»؛ أي: يُعَلِّمُهُ الكتاب والتوراة والإنجيل ويجعله رسولاً^(٤)، والمعنى: واضح على الوجهين، ويشهد لهذه الآية قوله تعالى:

(١) ينظر: الكشف (١/٥٥٩).

(٢) ينظر: زاد المسير (١/٢٨٤)، والبحر المحيط (٣/١٥٨).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز (٢/٢٢٥)، والبحر المحيط (٣/١٥٨-١٥٩).

(٤) ينظر: الدر المصون (٣/١٨٦).

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٦]، وقوله: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾... إلى آخر الآية، تفسير لمضمون الرسالة على تقدير حرف جر محذوف، والتقدير: رسولا إلى بني إسرائيل بهذا القول؛ فيقول لهم: إني رسول الله إليكم، بأني قد جئتكم بآية من ربكم^(١)؛ أي: بآيات، وإفراد الآية للجنس، لا لدلالة على الوحدة^(٢)، وقوله: ﴿إِنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ﴾، المصدر المؤول بدل من آية؛ فهو مجرور بالباء المقدرة، وتقديره: بآية بخلقي من الطين^(٣) ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾؛ أي: كشكل الطير، والخلق؛ بمعنى التقدير^(٤)، وقوله: ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾؛ أي: ينفخ في الطير الذي قدّر شكله فهو طيرٌ بشكله لا بحياته وحركته، وقوله: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: بعد نفخ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بفمه من نفسه في الطير شكلاً يكون طيراً حقيقة حياً متحرراً، يطير كشأن الطيور، وقول المسيح: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: يبين أنما فعله في الطين من هيئة الطير، ونفخه فيه، هو بإذن الله الشرعي، وما وجد من حقيقة الطير هو بإذن الله الكوني فقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، يتضمن النوعين الإذن الكوني والشرعي، وقد فصل الله ذلك في خطابه لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، في قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَذْكَرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِكَ وَالذِّكْرِ﴾... إلى قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، وقوله تعالى في آية «آل عمران»: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]،

(١) ينظر: معاني القرآن للزجاج (١/ ٤١٣)، وقيل غير ذلك. ينظر: التبيان في إعراب القرآن (١/ ٢٦٢)، والدر المصون (٣/ ١٩٠).

(٢) ينظر: تفسير السمعاني (١/ ٣٢٠)، وتفسير الرازي (٨/ ٢٢٧).

(٣) هذا أحد الأوجه وقيل غير ذلك كما سيأتي. ينظر: التبيان في إعراب القرآن (١/ ٢٦٢)، والكتاب الفريد (٢/ ٥٥)، والدر المصون (٣/ ١٩١-١٩٢).

(٤) ينظر: التفسير البسيط (٥/ ٢٦٨)، والمحرر الوجيز (٢/ ٢٢٧).

الإذن في هذا الموضع كالذي قبله؛ فبرء الأكمه والأبرص، وحياة الميت يتحقق بإذن الله الكوني، وما يفعله عيسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** من المسح والدعاء هو تسبُّب بإذن الله الشرعي والكوني؛ كما قال تعالى في المائدة: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ نُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، وقوله: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ﴾، هذه هي الآية الرابعة من الآيات التي جاء به المسيح **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بني إسرائيل، وهي: أنه يخبرهم ببعض أمورهم الخاصة في بيوتهم، ولا يكاد يطلع عليها غيرهم، وهو: ما يأكلونه من قوتهم في يومهم، وما يدخرونه من طعامهم في بيوتهم لغدهم أو ما بعده، وهذا من الإخبار بالأمور المغيَّبة عن أكثر الناس، فيدل ذلك على نبوته **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وأنه يأتيه الوحي بما يخبر به من ذلك، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾، الإشارة إلى كل ما تقدم من الآيات، وقرئ: «آيات»^(١)، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)؛ جواب الشرط محذوف؛ يقدر بما يناسب المعنى؛ نحو: فتفكروا فيها^(٣)، وقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا﴾، معطوف على قوله: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ونُصب على الحال، والعامل فيها جئتكم، ومعناه: أنه مؤمن بالتوراة وشاهد بما فيها، وحاكم بها، وقوله: ﴿وَلِأَحْلَلْ لَّكُمْ﴾، معطوف على مُصَدِّقًا، ومتعلق بجئتكم؛ أي: ولأحل لكم شيئًا مما حُرِّم عليكم في التوراة، وهذا يدل على أن المسيح نسخ بعض ما في التوراة، قيل أحل لهم الشحوم، ولحوم الإبل، وبعض السمك، وبعض الطير^(٣)، وقوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ

(١) كما في مصحف ابن مسعود. ينظر: المحرر الوجيز (٢/ ٢٣١)، والبحر المحيط (٣/ ١٦٧)، وذكر بعض أهل العلم أنها قراءة ابن مسعود أو مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وليس في هذا الموضع. ينظر: مختصر شواذ القرآن (ص ٢٨)، وشواذ القراءات للكرمانى (ص ١١٣).

(٢) ينظر: الدر المصون (٣/ ٢٠١).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٤٣١-٤٣٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٥٥٦).

بِأَيَّةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴿١﴾، عطف على ﴿وَلَا أُحِلَّ لَكُمْ﴾، وهو تذكير بنعمة الله عليهم؛ فإنَّ الآيات نعمة لما تثمره من معرفة الحق والإيمان به، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر بالتقوى، وهي: اجتناب ما حرم الله مُفَرَّغٌ على ما ذكر من النعم والآيات، وقوله: ﴿وَاطِيعُونَ﴾ ﴿٢﴾: معطوف على قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، فأمر بحق الله، وهو التقوى، وأمر بحقه وهو الطاعة: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾؛ جملة مستأنفة تعليل لما قبلها، وتأصيل لما بعدها، وإقرار بربوبيته العامة وبالعبودية له، وفي ذلك إبطالٌ لِمَا تزعمه النصراني فيه من الإلهية والبنوة، وقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾؛ أمر بعبادته تعالى وحده مُفَرَّغٌ عن الإقرار بربوبيته، وقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٣﴾؛ اسم الإشارة راجع لما تقدم من تقرير ربوبيته تعالى وإلهيته، وصديق رسوله، ووجوب طاعته، هذا كله هو الصراط المستقيم؛ أي: الواضح البين المسلك الموصول إلى المطلوب^(١)، وما ختم به المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ كلامه من قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ﴾ ﴿٥٠﴾، إلى قوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٥١﴾، قد ذكر في ثلاثة مواضع في ثلاث سور: «آل عمران، ومريم، والزخرف»، وما تضمنه كلامه من الأمر بعبادة الله والإقرار بربوبيته، قد ذكر في موضعين أيضًا من سورة «المائدة»، وقد تضمنت هذه الآيات من سورة «آل عمران» بشارة الملائكة لمريم بالولد مع ذكر اسمه وصفته، من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكَ﴾، إلى قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، وقد تخلل ذلك مناجاة مريم لربها: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾، ثم ذكر ما يقوله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لبني إسرائيل من قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِأَيَّةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٥١﴾.

(١) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٤١٦).

تنبيه: تضمنت الآيات من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ أَمْرَأْتُ عِمْرَانُ﴾ [آل عمران: ٣٥]، قصتي زكريا ويحيى ومريم وعيسى، وقد ذكر الله القصتين مع البسط في هذه السورة وفي سورة مريم، وأشار إليهما في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، إلى قوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وبين القصتين تشابه وفروق، فأما التشابه؛ فمن وجوه:

أحدها: أن في كل منهما حصول ولدٍ ممن لا يتوقع منه؛ فولادتهما خارقة للعادة.

الثاني: أن الله بشر بكل من المولودين بواسطة ملائكته، وسماه ووصفه بالشرف والنبوة قبل خلقه والحمل به؛ لقوله في يحيى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٢٩]، وقوله في عيسى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [٤٥]، وقوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٤٦]، وقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

الثالث: أن كلا من زكريا ومريم تعجَّب من أمره، وذكر الداعي إلى العجب.

الرابع: أن كلا منهما أمره الله بعبادته، فأمر زكريا بذكره كثيراً والتسبيح بالعشي والإبكار، وأمر مريم بالقنوت والسجود، والركوع مع الراكعين. وأما الفروق فمنها:

الأول: أن ولادة عيسى عليه السلام أعظم خرقاً للعادة من ولادة يحيى عليه السلام؛ لأن ولادة عيسى لا نظير لها في بني آدم.

الثاني: أن الله سمى عيسى كلمة منه؛ لأن الله خلقه بـ «كن» من غير أب، ولم يكن يحيى كذلك.

الثالث: أن زكريا استبشر بما بُشِّر به من الولد، لأنه قد دعا الله أن يعطيه إياه، وأما مريم فقد أهتمها ما بُشِّرَتْ به لما تخافه من سوء الظن بها - كما حصل -، حتى قالت عند الولادة: ﴿يَلَيَّتَنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْ نَّسِيًّا ۝١٣﴾ [مريم].

الرابع: أن عيسى تكلم في المهد ولم يكن مثل ذلك ليحيى.
الخامس: أن عيسى رسول؛ بل من أولي العزم من الرسل، وأنزل عليه كتابًا، وهو الإنجيل، وأما يحيى فنبي من أنبياء بني إسرائيل كآبيه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ أَي: جبريلُ: ﴿يَا مَرْيَمُ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾: اختاركِ ﴿وَوَهَّجَكَ﴾ من ميسس الرجال، ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: أهل زمانك. ﴿يَا مَرْيَمُ، اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾: أطيعيه، ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أَي: صلي مع المصلين. ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور، من أمر زكرياء ومريم، ﴿مِّنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾: أخبار ما غاب عنك، ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾، يا محمد، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ فِي الْمَاءِ، يَقْتَرِعُونَ لِيُظْهَرَ لَهُمْ﴾ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ: يُرَبِّي مَرْيَمَ؟ وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿فِي كِفَالَتِهَا، فَتَعَرَّفَ ذَلِكَ فَتُخْبِرَ بِهِ. وَإِنَّمَا عَرَفْتَهُ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ.﴾

اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ أَي جبريلُ: ﴿يَا مَرْيَمُ، إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أَي: ولد ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ﴾ - خاطبها بنسبته إليها تنبيهاً على أنها تلده بلا أب، إذ عادة الرجال نسبُهم إلى آبائهم - ﴿وَجِيهًا﴾: ذا جاه، ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة والدرجات العُلا، ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله، ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ أَي: طفلاً قبل وقت الكلام ﴿وَكَهْلًا، وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿قَالَتْ: رَبِّ، أَنَّى:﴾ كيف ﴿يَكُونُ لِي وَلَدٌ، وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٌ﴾ بتزويج ولا غيره؟ ﴿قَالَ:﴾ الأمر ﴿كَذَلِكَ﴾ من خلق ولد منك بلا أب. ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾: أراد خلقه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ. فَيَكُونُ﴾ أي: فهو يكون. ﴿وَنُعَلِّمُهُ﴾ - بالنون والياء - ﴿الكِتَابَ﴾: الخط، ﴿وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَ﴾ نجعله ﴿رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ في الصِّبَا أو بعد البلوغ. فنفع جبريل في جيبِ درعها فحملت، وكان من أمرها ما ذكر في سورة «مريم».

فلما بعثه الله إلى بني إسرائيل قال لهم: إني رسول الله إليكم، ﴿أَنِّي﴾ أي: بأني ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَايَةً﴾: علامة على صدقي ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، هي ﴿أَنِّي﴾ - وفي قراءة بالكسر استئنافاً - ﴿أَخْلَقْتُ﴾: أَصَوَّرَ ﴿لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾: مثل صورته - فالكاف: اسمٌ مفعولٌ - ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾، وفي قراءة: «طائراً»، ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: بإرادته - فخلق لهم الخُفَّاش لأنه أكمل الطير خلقاً، فكان يطير وهم ينظرونه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً - ﴿وَأُبْرِئُ﴾: أَشْفِي ﴿الْأَكْمَةَ﴾: الذي وُلِدَ أعمى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ - وَخُصَّ بالذكر لأنهما داءا إعياء، وكان بعثه في زمن الطبِّ، فأبرأ في يوم خمسين ألفاً بالدعاء بشرط الإيمان - ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ - كرَّره لنفي توهم الألوهية فيه. فأحيا عازرَ صديقاً له وابنَ العجوز وابنةَ العاشر، فعاشوا وولِدَ لهم، وسامَ بن نوح وماتَ في الحال - ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ، وَمَا تَدْخِرُونَ﴾: تَخْبُؤُونَ ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ ممَّا لم أعيانه. فكان يُخبر الشخص بما أكل وبما يأكل بعد. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَايَةً لَّكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَ﴾ جئتكم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾: قبلي ﴿مِنَ التَّوْرَةِ، وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي

حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴿ فيها - فأحلّ لهم من السمك والطير ما لا صِصِيَّةَ له ^(١) .
وقيل: أحلّ الجميع، فبعض بمعنى: كل - ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ .
كرّره تأكيداً، وليُبينّي عليه: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَطِيعُوا ﴾ فيما أمركم به من
توحيد الله وطاعته. ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾، فاعبدوه. هذا ﴿ الذي أمركم
به ﴾ صراطٌ: طريق ﴿ مُسْتَقِيمٌ ﴾. فكذبوه ولم يؤمنوا به.

وقول المؤلف: (اذكر): بيان للعامل في الظرف «إذ». وقوله: (أي: جبريل): بيان للمراد بالملائكة وأنه من التعبير بالجمع عن الواحد، ويدل له قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ [مريم: ١٧]. وقوله: (من ميسيس الرجال): هذا تفسير قاصر، والصواب أن المراد: التطهير من سيئات الأعمال والأخلاق. وقوله: (أي: أهل زمانك): هذا هو التفسير المشهور، وهو أن المراد بالعالمين عالم زمانها. وقوله: (أطيعيه): هذا تفسير القنوت، وقد فُسر بالطاعة، ودوام الطاعة، والثاني: أشهر ^(٢). وقوله: (صَلِّي مع الْمُصَلِّين): بيان أن المراد بالسجود والركوع؛ الصلاة، لأنهما أهم أركانها، وقوله: (من أمر زكرياء ومريم): بيان للمراد باسم الإشارة. وقوله: (أخبار ما غاب عنك): تفسير قاصر؛ لأن المراد بالغيب ما غاب عن أكثر الخلق، وقوله: (في الماء)... إلى آخره: بيان لصفة اقتراعهم واستهامهم. وقوله: (يُرَبِّي): فسر: الكفالة بالتربية؛ لأنها المقصود من الكفالة.

(١) شوكة الديك التي في رجله. ينظر: تاج العروس (٢٧/١٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٣٩٧/٥)، وأحكام القرآن للجصاص (٢/٢٩٣).

وقوله: (في كفالتها)... إلى آخره: بيان لموضوع الخصومة، وهو ظاهر من لفظ الآية: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

وقوله: (اذكر): هذا نظير القول في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾.

وقوله: (أي جبريل): تقدم نظيره.

وقوله: (أي: ولد): بيان للمبشر به، وأنه ولد مخلوق بكلمة من الله.

وقوله: (خاطبها)... إلى آخره: بيان لحكمة التصريح، والنص على نسبته إليها.

وقوله: (ذا جاه): بيان لمعنى وجهه، وأنه ذو الواجهة والشرف والسيادة.

وقوله: (في الدنيا)... إلى آخره: بيان لمعنى وجاهته في الدنيا والآخرة.

وقوله: (كيف): تفسير لـ «أنى»، وهو استفهام للتعجب.

وقوله: (بتزوّج ولا غيره؟): بيان للمكنى عنه بقولها: ﴿وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وقوله: (الأمر)... إلى آخره: أي: الشأن هو كذا وكذا، وهو أن الله يخلق ما يشاء من أب وبغير أب.

وقوله: (أراد خلقه): تفسير لقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ [آل عمران: ٤٧]: أي: أراد خلق شيء.

وقوله: (أي: فهو يكون): يبين أن «يكون» خبر مبتدأ محذوف.

وقوله: (بالنون والياء): إشارة إلى قراءتين في الآية: بصيغة الجمع من المتكلم، وصيغة الإفراد بالإسناد إلى الاسم الظاهر؛ أي: ويعلمه الله^(١).

وقوله: (الخط): هذا أحد القولين في تفسير الكتاب، وعلى هذا فالكتاب هو الكتابة.

(١) ينظر: النشر (٢/ ٢٤٠).

وقوله: (نَجْعَلُهُ): تقدير للعامل في «رسول»، وهو معطوف على «نعلمه».

وقوله: (فِي الصَّبَا أَوْ بَعْدَ الْبُلُوغِ): إشارة إلى الخلاف في وقت نبوته وإرساله، والصواب: أن نبوته بعد البلوغ.

وقوله: (فَنفُخُ)... إلى آخره: بيان لما أجمل في هذه الآيات وفُصل في سورة مريم وغيرها، وقوله: (فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ)... إلى آخره بيان: لمضمون قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾، كما يدل لذلك قوله تعالى - في سورة الصف -: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٦]... الآية.

وقوله: (بَأْنِي): يبين أن جملة «أني»: في موضع جر بالباء السببية.

وقوله: (عَلَامَةٌ عَلَىٰ صَدْقِي): أي: على صدقي بأني رسول الله إليكم.

وقوله: (هِيَ): تقدير لمبتدأ محذوف خبره «من ربكم».

وقوله: (وَفِي قِرَاءَةِ الْكُسْرِ اسْتِثْنَاءً): يريد أن في الآية قراءة^(١) بكسر الهمزة من ﴿أَنِّي﴾، وعليه تكون الجملة مستأنفة، وعلى قراءة فتح الهمزة؛ تكون الجملة بدلاً من الجملة التي قبلها.

وقوله: (أَصَوْرٌ): بيان لمعنى: أخلق كهيئة الطير، وما كان على هيئة طير فليس بطير؛ بل صورة.

وقوله: (مِثْلَ صَوْرَتِهِ): هذا تكرار مع قوله: «أَصَوْرٌ»، وقد فسّر الكاف بمثل، والهيئة بالصورة. وقوله: (فَالْكَافُ: اسْمٌ مَفْعُولٌ): معناه أنها اسم بمعنى مثل، وهي في موضع المفعول به، والعامل فيها أخلق.

وقوله: (الضَّمِيرُ لِلْكَافِ): يريد أن الضمير المجرور بـ «في» يرجع إلى الكاف التي بمعنى: مثل. وقوله: (وَفِي قِرَاءَةِ «طَائِرًا»): ذكر ابن جرير أن

(١) ينظر: الشر (٢/ ٢٤٠).

(٢) ينظر: المبسوط في القراءات (ص ١٦٤).

هذه قراءة أهل الحجاز، والفرق بين الطائر والطيء؛ أنَّ الطير اسم جنس لما يطير، والطائر هو ما كان في حال طيران.

وقوله: (بإرادته): فسر الإذن بالإرادة، وهي: الإرادة الكونية.

وقوله: (فخلق لهم طيرًا هو الخفاش... إلى قوله: (سقط ميتًا): ليميّز فعل المخلوق من فعل الخالق، وما تضمنه هذا الكلام يحتاج إلى دليل، والغالب أنه منقول عن بني إسرائيل^(١)، وما كان من حديث بني إسرائيل من هذا النوع لا يُصدّق ولا يُكذّب، فنقول: الله أعلم بنوع الطير الذي يخلقه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بإذن الله، وكذلك لا نعلم مدة حياة هذا الطائر، وما دام أنَّ خلقه بإذن الله؛ فهو من خلق الله بفعل المسيح، وما فعل المسيح إلا سببًا، وقوله في الخفاش: (لأنه أكمل الطير خلقًا): يحتاج إلى دليل وتوضيح^(٢).

وقوله: (أشفي): بيان لمعنى أبرأ، والشفاء بمعنى: البرء، ويأتي فعل «شفي» لازماً ومتعدياً.

وقوله: (الذي وُلد أعمى): وعلى هذا تكون الآية في إبراء الأكمه أعظم من إبراء الأعمى الذي عماه طارئ.

وقوله: (وخصًا بالذكر)... إلى آخره: بيان لسبب ذكر هذين الداءين دون غيرهما.

وقوله: (فأبرأ في يوم خمسين ألفًا): هذا من أخبار بني إسرائيل التي لا تُصدّق ولا تُكذّب^(٣)، وفي هذا العدد مبالغة، والذي لا ريب فيه أنَّ الله هدى بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ الحواريين، وأنَّ بني إسرائيل صاروا في أمر المسيح طائفتين، وقد جاء بيان ذلك في سورة الصف، وفي تلك الآيات قال

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥/٤١٩-٤٢٠)، والتعليبي (٨/٣٣٢-٣٣٣).

(٢) ينظر توجيه ذلك في: تفسير التعليبي (٨/٣٣٢-٣٣٣)، والبحر المحيط (٣/١٦٤).

(٣) روي عن وهب بن منبه. ينظر: تفسير الطبري (٥/٥٢٤-٥٢٥)، والتعليبي (٨/٣٣٦).

الحواريون: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وقوله: (بالدعاء بشرط الإيمان): يفيد أنَّ بُرء الأكمه والأبرص لا يحصل بمجرد المسح عليهما؛ بل يكون بدعاء الله، ولا يحصل البرء إلا لمن آمن بالله وبرسوله - المسيح ابن مريم -.

وقوله: (كَرَّرَهُ لِنَفِي تَوْهَمِ الْأُلُوْهِيَّةِ فِيهِ): لو قال: لتأكيد نفي، كان أولى؛ لأنَّ نفي الإلهية قد فُهم مما قبله.

وقوله: (فأحيا عازر...) إلى قوله: (... ومات في الحال): هذا كله مما تُلقِي عن بني إسرائيل^(١)، فلا يصدِّق ولا يكذِّب، لكنَّ المقطوع به أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يُحيي الموتى، لكن لا نعلم عدد مَنْ أحيا ولا أسماءهم.

وقوله: (تَخْبُؤُونَ): تفسير لـ ﴿تَدْخِرُونَ﴾، وهو تفسير قاصر، فإنَّ الادخار حفظ الشيء وإبقاؤه للانتفاع به في المستقبل وقت الحاجة، وتخية الشيء: إخفاؤه، وقد يكون للادخار وقد يكون لغيره.

وقوله: (مِمَّا لَمْ أَعَانِيهِ): بيان لما يدل عليه قوله: ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾، وأنه يخبرهم بأشياء غائبة عنه من تصرفاتهم في بيوتهم.

وقوله: (المذكور): بيان لمرجع اسم الإشارة، وهو كل ما تقدم من الخوارق.

وقوله: (جئكم): تقدير للعامل في الحال مصدقاً؛ المعنى: وجئكم مصدقاً.

وقوله: (قبلي): بيان لمعنى بين يدي، وهو التوراة؛ لأنها مُنزلة على موسى، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يؤمن بالتوراة ويشهد بصدقها، وقد ذكر الله هذا المعنى في آيات أخرى؛ كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ

(١) ينظر: تفسير الثعلبي (٨/ ٣٣٦-٣٣٨).

آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴿[المائدة: ٤٦]﴾، وقال تعالى في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ [الصف: ٦].

وقوله: (وقيل: أحل الجميع): أي: جميع ما حُرِّمَ عليهم في التوراة، والصواب: أنه أحل لهم بعض الذي حُرِّمَ عليهم، كما هو ظاهر الآية، ولا موجب للعدول عن ظاهرها، فالـ ﴿بَعْضُ﴾ على حقيقته، لا بمعنى «كل»، وتعيين هذا البعض يحتاج إلى دليل، وما ذكره المؤلف هو من الإسرائيليات^(١).

وقوله: (كرّره تأكيداً): لأنه قد مضى قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

وقوله: (وليُنبئ عليه): أي: ليُنبئ عليه ما بعده من الكلام، وهو قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾: ولهذا يقال: الفاء للتفريع.

وقوله: (فيما أمركم به): بيان لمتعلق الطاعة، وقوله: (الذي أمركم به): بيان لمرجع اسم الإشارة ﴿هَذَا صِرَاطٌ﴾.

وقوله: (طريق) تفسير للصراط، ولكنه تفسير بالمعنى الأعم، فإن الصراط طريق خاص، وهو الطريق الواسع المسلك الواضح الموصل للغاية.

وقوله: (فكذبوه ولم يؤمنوا به): هذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ [آل عمران: ٥٢].



وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَهُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٨].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾؛ أي: ظهر لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من بعض بني إسرائيل من الأعمال والأقوال ما يدل على كفرهم به، قال عيسى لبني إسرائيل: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: مَنْ ينصرني ويتوجه معي إلى الله؛ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾؛ أي: أصحاب عيسى، وسُمُّوا حواريين؛ قيل: لأنهم يلبسون البياض^(١)، ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾؛ أي: أنصار دينه ورسوله على أعداء الله، وقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾؛ أي: صدقنا وأيقنَّا بالله ربًّا وإلهًا، وقوله: ﴿وَأَشْهَدُ﴾؛ أي: قال الحواريون لعيسى: اشهد علينا بأننا آمنَّا وأسلمنا؛ فنحن مسلمون؛ أي: مستسلمون لله بعبادته وحده لا شريك له، منقادون لأمره، وقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوهًا﴾؛ أي: مكر الكفار من بني إسرائيل بعيسى، وهم اليهود، والمراد: أنهم دبَّروا تدبيرًا خفيًّا لقتله؛ ﴿وَمَكْرَهُ اللَّهُ﴾؛ أي: دبر تعالى تدبيرًا خفيًّا أبطل به مكر اليهود، وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾؛ لأن مكره تعالى كله

(١) وهو قول ابن جبير ورواه عن ابن عباس أيضًا. ينظر: تفسير الطبري (٥/٤٤٢)، وابن أبي حاتم (٣٥٦٨).

عدل ومحقق الأثر^(١)، فخاب وخسر من مكر الله به، ويفسر هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وجاء في التفسير: أنه أُلقي شبه المسيح على أحد تلاميذه؛ وقيل: على أحد فريق اليهود الذين جاؤوا لقتله؛ فقتلوه ظناً أنه المسيح^(٢)، ولا ريب أن هذا من أعظم المكر بأعداء الله الذين هموا بقتل المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأبطل الله مكرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾؛ المعنى: مكر الله بهم حين قال الله: ﴿لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾؛ أي: قابضك من بين بني إسرائيل، ورافعك إليّ وأنت حي وليس المراد: التوفي بالموت، وقيل: متوفيك بالنوم، ﴿وَرَأَيْكَ إِلَىٰ﴾ نائماً^(٣)، ﴿وَمُطَهَّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: مُخْلَصَكَ من الذين كفروا، فلا ينالونك بشرٍّ، ﴿وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾؛ أي: وجاعل الذين آمنوا بك، وهم الحواريون ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم اليهود، فكانوا أذلة تحت سلطان الذين اتبعوا المسيح من بني إسرائيل أو ممن بعدهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَنَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، ويدخل في الذين اتبعوه: أمة محمد ﷺ؛ فإنهم يؤمنون بعيسى رسول من الله، وبالدين الذي جاء به، وهو الإسلام، فلا يزال المسلمون فوق اليهود إلى يوم القيامة، وليس النصارى المنتسبون إلى المسيح -حتى يسمون أنفسهم مسيحيين- ليسوا من الذين اتبعوه؛ لأنهم في الحقيقة كافرون به ومشركون؛ لأنهم اتخذوه وأمه إلهين من دون الله، وقالوا: إنه ابن الله، وعلى هذا؛ فليسوا هم الموعودين بهذه الفوقية خلافاً لما يتوهمه بعض

(١) ينظر: توضيح مقاصد العقيدة الواسطية (ص ٩٢-٩٣).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٥٦٠)، وزاد المسير (١/ ٤٩٤).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٤٤٧)، وزاد المسير (١/ ٢٨٧).

الناس، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم إلى الله بالموت ثم البعث، فيجتمع في ذلك اليوم المؤمنون والكفار؛ فيحكم تعالى بينهم، فيتبين المحق من المبطل، ويجزون على أعمالهم، فأما الذين كفروا فيعذبهم الله عذاباً شديداً وما لهم في ذلك اليوم من ينصرهم فيدفع عنهم عذاب الله، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيه الله أجورهم كاملة غير منقوصة ويدخلهم الجنة، وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾؛ يعني: الكافرين^(١)؛ بل ييغضهم ويسخط عليهم ويعذبهم في نار جهنم، وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: الذي ذكر من القصص، فاسم الإشارة يعود على ما تقدم، و﴿تَتْلُوهُ﴾: نقرؤه، والتالي جبريل كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قَوْلَهُ﴾ [القيامة]، و﴿مِنْ﴾: بيانية، و﴿وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ﴾؛ هو: القرآن، والحكيم: الحاكم، وهذا ثناء من الله على كتابه تعظيماً له، وإرشاد للعباد أن يعظموه، وحكيم: من الحكم والحكمة، والقرآن حاكم ومشمئل على الحكمة.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾: عَلِمَ ﴿عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾، وأرادوا قتله، ﴿قَالَ: مَنْ أَنْصَارِي﴾: أعواني ذاهباً ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لأنصر دينه؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾: أعوان دينه - وهم أصفياء عيسى أول من آمن به، وكانوا اثني عشر من الحوَر، وهو البياض الخالص. وقيل: كانوا قصارين يُحوِّرون الثياب أي: يُبيضونها - ﴿آمَنَّا﴾: صدقنا ﴿بِاللَّهِ﴾. واشهدْ - يا عيسى - ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا، آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ من الإنجيل، ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ عيسى. ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق.

(١) ينظر: تفسير البغوي (٢/٤٧)، والتيسير في التفسير (٤/٧٨).

قال تعالى: ﴿وَمَكَّرُوا﴾ أي: كُفَّارُ بني إسرائيل بعيسى، إذ وكلوا به من يقتله غيلة، ﴿وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ بهم بأن ألقى شبه عيسى على من قصد قتله فقتلوه، ورُفِعَ عيسى، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾: أعلمهم به. اذكر ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ: يَا عِيسَى، إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾: قابضك، ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ﴾ من الدنيا من غير موت، ﴿وَمُطَهَّرُكَ﴾: مُبْعِدُكَ ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾: صَدَقُوا بنبوتك من المسلمين والنصارى ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وهم اليهود، يعلونهم بالحُجَّة والسيف ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ، فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي وأخذ الجزية، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالنار، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾: مانعين منه، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ﴾ - بالياء والنون - ﴿أُجُورَهُمْ. وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: يعاقبهم. روي أنَّ الله أرسل إليه سحابة فرفعته، فتعلقت به أمه وبكت، فقال لها: إِنَّ الْقِيَامَةَ تَجْمَعُنَا. وكان ذلك ليلة القدر بيت المقدس، وله ثلاث وثلاثون سنة، وعاشت أمه بعده ست سنين. وروي الشيخان^(١) حديث «أَنَّهُ يَنْزِلُ قُرْبَ السَّاعَةِ وَيَحْكُمُ بِشَرْعَةِ نَبِيْنَا، وَيَقْتُلُ الدَّجَالَ وَالْخَنَزِيرَ وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَضَعُ الْحِزْبَةَ». وفي حديث مسلم^(٢) أَنَّهُ يَمْكُثُ سَبْعَ سِنِينَ - وفي حديث عند أبي داود الطيالسي^(٣): أربعين سنة - ويُتَوَفَّى وَيُصَلَّى عليه. فيحتمل أنَّ المُراد مجموع لُبثه في الأرض قبل الرفع وبعده.

(١) بنحوه في البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس فيه ذكر الدجال في هذا السياق.

(٢) برقم (٢٩٤٠) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) برقم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من أمر عيسى ﴿تَتْلُوهُ﴾: نقضه ﴿عَلَيْكَ﴾ - يا محمد - ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾: حال من الهاء في «تتلوه» وعامله ما في «ذلك» من معنى الإشارة، ﴿وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ﴾ المُحْكَمُ أي: القرآن.

وقول المؤلف: (عَلِمَ): أي: بالأمارات الدالة على كفرهم من الأقوال والأعمال.

وقوله: (وَأَرَادُوا قَتْلَهُ): يبين أن الذين كفروا بعيسى لم يقتصروا على الكفر؛ بل أرادوا قتله، وهم اليهود.

وقوله: (أَعْوَانِي ذَاهِبًا): تفسير للأنصار؛ لأن أعوانه ينصرونه على من كفر به، وذهابًا؛ تقدير لمتعلق «إلى»؛ فالتقدير: من ينصروني وأنا ذاهب إلى الله بطاعته والدعوة لدينه.

وقوله: (لَأَنْصُرَ دِينَهُ؟): يبين أن نصره لله هو نصر دينه.

وقوله: (أَعْوَان دِينَهُ): معناه: متعاونون على إقامة دين الله.

وقوله: (وَهُمْ أَصْفِيَاءُ عِيسَى): معناه: خاصة أصحابه، وهذا أحسن ما

قيل في تفسير الحواريين؛ لأن الحوارية هو النصير، كما قال ﷺ: «لكل نبي حوارية، وحوارية الزبير»^(١)، ولذلك سُمي أصحاب المسيح بالحواريين؛ لأنهم نصروه لما استنصرهم، وقالوا نحن أنصار الله.

وقوله: (مِنَ الْحَوَرِ): معناها: سُموا حواريين من الحور، وهو البياض،

قيل: كانوا يلبسون البياض من الثياب، وهذا أشهر الأقوال، وقيل: كانوا قصارين يبيضون الثياب، والأول أولى، وهو أنهم سُموا الحواريين؛ لأنهم خاصة أصحاب عيسى وأنصاره^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٧٢٦١)، ومسلم (٢٤١٥) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: معاني القرآن للزجاج (٤١٧/١)، وتفسير ابن كثير (٤٦/٢).

وقوله: (صدّقنا): فسّر الإيمان بأشهر معانيه اللغوية^(١)، وهو التصديق، والصواب: أن المراد: الإيمان الشرعي، وهو التصديق المتضمن للانقياد، ولهذا قالوا: ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

وقوله: (من الإنجيل): بيان للكتاب المنزل على عيسى عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقوله: (لك بالوحدانية)... إلى آخره: معناه: من الشاهدين بالحق. وقوله: (أي: كفّار بني إسرائيل)... إلى آخره: بيان لمرجع الضمير في قوله: ﴿وَمَكْرُؤًا﴾: وهم الذين أحس منهم الكفر، وبيان لصفة مكرهم. وقوله: (بهم بأن ألقى)... إلى آخره: بيان لصفة مكر الله بهم. وقوله: (أعلمهم به)، هذا تفسير ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، يعني: أنه أعلم الماكرين بالمكر، وهو - تعالى - أقدرهم عليه، وأشدّهم مكرًا مع العدل، والحكمة؛ فتفسيره بأعلم تفسير قاصر.

وقوله: (اذكر): بيان لمتعلق الظرف «إذ»، وقيل متعلق بالفعل من قوله: ﴿وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾^(٣).

وقوله: (قابضك): هذا أحد الأقوال في معنى: التوفي في الآيّة؛ أي: ذاهب بك من بين بني إسرائيل، وقيل: معنى التوفي: النوم؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]؛ فيصير المعنى: مُنِيْمُك ثم رافعك نائمًا، وهذا أقرب الأقوال وهو الصحيح، وتفسير التوفي بالموت ضعيف. وقوله: (من الدنيا)... إلى آخره: هذا يوافق تفسير «التوفي» بالنوم. وقوله: (مبعدك)؛ أي: بالرفع، فلا يقدرّون على أن ينالوك بسوء.

(١) ينظر: لسان العرب (٢٣/١٣).

(٢) ينظر: الإيمان لابن تيمية (ص ١٠١)، (ص ٢٢٩).

(٣) ينظر: الكتاب الفريد (٢/٦٠)، والدر المصون (٣/٢١٣).

وقوله: (صَدَّقُوا بُنْيُوتَكَ)... إلى آخره: بيان للمراد بالذين اتبعوه لأنه يشمل كل مَنْ آمَنَ به من المتتبعين إلى شريعته؛ كالمؤمنين من النصارى، ويشمل المسلمين لأنهم يؤمنون بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله: (بِكَ وَهُمْ الْيَهُودُ): خص اليهود؛ لأنهم أول مَنْ كفر بعيسى، وفي حكمهم الذين كفروا به من النصارى حتى جعلوه إلهًا، وقالوا: المسيح ابن الله.

وقوله: (يَعْلُونَهُمْ بِالْحُجَّةِ وَالسِّيفِ): هذا تفسير لقوله: ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]، والمراد: أَنَّ الذين آمنوا بعيسى يجعلهم الله فوق الذين كفروا به؛ أي: يغلبونهم بالحجة والقوة كما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وقوله: (مَنْ أَمَرَ الدِّينَ)؛ كاختلافهم في أمر عيسى في رسالته وفي قتله وصلبه.

وقوله: (بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَأَخَذِ الْجَزِيَّةِ)، هذا بعض ما يُعَذَّبُ به الكفار في الدنيا وهي العقوبات الشرعية، ويُعَذَّبُونَ أيضًا بأنواع من العقوبات الكونية، كما قال الله في آل فرعون: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وكما أرسل الرجز على الذين ظلموا من بني إسرائيل، وكما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقوله: (مَانِعِينَ مِنْهُ): معناه: ما للكفار مَنْ يمنعهم من عذاب الله؛ بل يحل بهم ولا يقدر أحد على دفعه.

وقوله: (بالياء والنون): يريد أن فيها قراءتين: فيوفيههم، فنوفيههم؛ الأولى بضمير الغيبة، والثانية: بضمير المتكلم^(١).

وقوله: (أي: يُعاقبهم): انظر التعليق على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]^(٢).

وقوله: (رُوي أن الله أرسل إليه سحابة فرفعته)؛ إلى قوله: (وعاشت أمه بعده ست سنين): هذا التفصيل في صفة رفع المسيح عليه السلام هو من أخبار بني إسرائيل التي تُذكر ولا تُصدق ولا تُكذب^(٣)، والقرآن أخبر برفعه عليه السلام، ولم يخبر بكيفية رفعه، فالجواب هو الإيمان برفعه، وأما كيفية رفعه فالجواب: تفويض علم ذلك إلى الله - تعالى -.

وقوله: (وروي الشيخان)... إلى آخره: استدل أهل السنة بهذا الحديث على: أن المسيح عليه السلام ينزل في آخر الزمان قبيل خروج الدجال، وأن نزول المسيح ابن مريم، وخروج المسيح الدجال من أشراط الساعة، وقد أحسن المؤلف في ذكر هذا الحديث في هذا الموضع، لأنه مصدق للقرآن في رفع المسيح.

وقوله: (وفي حديث مسلم)... إلى آخره: ما ثبت من هذه الأحاديث وجب الإيمان به، وما رواه مسلم في مدة مكث المسيح مقدّم على ما رواه الطيالسي.

وقوله: (فيحتمل)... إلى آخره: هذا احتمال بعيد؛ لأنه خلاف ظاهر الحديث وسياقه، فالصواب: أن المراد لبثه في الأرض بعد نزوله^(٤).

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٤٠).

(٢) التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ٦٣٥).

(٣) ينظر: تفسير الثعلبي (٨/ ٣٦٩)، وزاد المسير (١/ ٢٨٧). ولم نجد قوله: «القيامة تجمعن» فيما تيسر لنا من مراجع.

(٤) ينظر: مرقاة الصعود (٣/ ١٠٩٢-١٠٩٣).



وقوله: (المذكور من أمر عيسى): يريد أن اسم الإشارة راجع إلى ما تقدم في الآيات في شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَام من البشارة به وإرساله، ودعوته ورفعته.

وقوله: (نقصه): تفسير للتلاوة بالقصص، وهو ذكر الأخبار والأوامر والنواهي.

وقوله: (حال من الهاء)... إلى آخره: يبين أن الجار والمجرور في قوله: ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾، حال من الضمير المنصوب في قوله: ﴿نَتْلُوهُ﴾، يقول: والعامل في الحال عامل معنوي، وهو ما دل عليه اسم الإشارة. وقوله: (المُحَكَّم أي: القرآن): يبين أن المراد بالذكر: القرآن، وهو اسم من أسمائه، والحكيم: المحكم؛ أي: المتقن.



وقوله تعالى: ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ وَمِنْ تَرَابٍ ثُوِّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠) ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦١) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٣) [آل عمران: ٥٩-٦٣].

يخبر تعالى مبيناً أن صفة خلق عيسى في حكم الله وتقديره وخلقته؛ مثل صفة خلق آدم؛ أي: على غير الصفة التي يخلق الله بها نوع الإنسان؛ بل خلق آدم وعيسى؛ بقوله: ﴿كُنْ﴾، ولذا كان خلق عيسى من أمّ بلا أب، وخلق آدم من تراب بلا أم ولا أب، ولذا شبه الله خلق عيسى بخلق آدم، وبين سبحانه وجه الشبه؛ بقوله: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩)، وقال تعالى لمريم: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٦٧) [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: ما ذكر من صفة خلق آدم وعيسى؛ هو الحق جاءك من ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠)؛ أي: لا تكن من الشاكين^(١)؛ بل من المؤمنين الموقنين، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾؛ أي: فإن حاجك النصارى القائلون: بأن المسيح ابن الله، وجادلوك في شأنه، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم من بعد ما جاءك من العلم الحق في شأن المسيح؛ فادع أولئك المجادلين إلى المباهلة، وهو معنى قوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]؛ أي: تعالوا نجتمع ثم نبتهل إلى الله؛ أي: ندعو الله؛ أي: يجعل لعنته على الكاذبين نحن أو أنتم^(٢)، فدعا النبي ﷺ الوفد من نصارى نجران

(١) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن (ص ١٢٥).

(٢) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ١٠٦).

إلى المباهلة فأبوا؛ لعلمهم أنهم هم الكاذبون، وخافوا أن تحل عليهم لعنة الله لو باهلوا النبي ﷺ فيهلكوا^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾؛ أي: هذا الذي قصصناه عليك -أيها النبي- من شأن عيسى وحقيقة أمره، وما تفعله مع المجادلين لك فيه؛ هو القصص الحق، وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ أي: ما من أحد يستحق العبادة إلا الله؛ فإنه الإله الحق: ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣)؛ أي: القوي الغالب^(٢)، وله الحكم والحكمة في تقديره وتديره، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾؛ أي: أعرض هؤلاء النصارى عن الإيمان والانقياد للحق والاستجابة للمباهلة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾^(٤)؛ فيجزئهم على إفسادهم، وفي هذا تهديد للمفسدين وحكم على أولئك النصارى المعرضين عن الحق بأنهم مفسدون بإصرارهم على الكفر.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى﴾: شأنه الغريب ﴿عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾: كشأنه في خلقه من غير أب -وهو من تشبيه الغريب بالأغرب، ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس- ﴿خَلَقَهُ﴾ أي: آدم أي: قلبه ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾، ثُمَّ قَالَ لَهُ: ﴿كُنْ﴾ بشراً. ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: فكان. وكذلك عيسى قال له: كن من غير أب. فكان. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾: خبر مبتدأ محذوف أي: أمر عيسى. ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: الشاكين فيه.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾: جادلَكَ من النصارى ﴿فِيهِ، مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأميره، ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿تَعَالَوْا، نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ فنجمعهم، ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾: نتصرع في

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨٠) عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: نونية ابن القيم (٣/ ٧١١).

الدعاء، ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ بأن نقول: اللهم العن الكاذب في شأن عيسى. وقد دعا ﷺ وفد نجران لذلك لما حاجوه فيه، فقالوا: حتى ننظر في أمرنا ثم نأتيك. فقال ذو رأيهم: لقد عرفتم نبوته، وأنه ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا، فوادعوا الرجل وانصرفوا. فأتوه وقد خرج، ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلي، وقال لهم: «إِذَا دَعَوْتُ فَأَمِّنُوا». فأبوا أن يباهلوا، وصالحوه على الجزية^(١). وعن ابن عباس: لو خرج الذين يباهلون لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً^(٢). وفي رواية: لو خرجوا لاحترقوا^(٣).

﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ﴾: الخبر ﴿الْحَقُّ﴾: الذي لا شك فيه، ﴿وَمَا مِنْ﴾: زائدة ﴿إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا عن الإيمان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾، فيجازيهم. وفيه وضع الظاهر موضع المضمَر.

وقول المؤلف: (شأنه الغريب): يريد شأنه في صفة خلقه الذي ليس له نظير في خلق بني آدم، إذ كان من أم بلا أب. وقوله: (كشأنه في خلقه)... إلى آخره: يبين أن شأن عيسى في خلقه من أم بلا أب؛ كشأن آدم المخلوق من تراب بلا أب ولا أم، وإذا كان خلق عيسى غريباً؛ فخلق آدم أغرب، وإذا لم يكن آدم إلهاً ولا ولداً لله؛ فأولى ألا يكون عيسى كذلك.

(١) ينظر: دلائل النبوة لأبي نعيم (٢٤٥). وقد عزا له كما في بعض النسخ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٢٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٩٩٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٦).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٤٧١).

وقوله: (قالبه): معناه: خلق قالبه؛ شكله وصورته.

وقوله: (بشراً): أي: قال الله للصورة المصورة من تراب: كن بشراً، الأمر أمر تكوين، فصار الشكل المصور من تراب؛ بل من طين حمي^(١) فصار بشراً؛ أي: لحمًا وعظمًا كما أمر الله وأراد، ويفسر هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

وقوله: (أي: فكان) أي: وقع ووجد في الحال كما أراد الله، وكما قال.

وقوله: (وكذلك عيسى)... إلى آخره: ينبه إلى التشبيه في الآية، ووجه الشبه في الخلق بين عيسى وأدم.

وقوله: (أي: أمر عيسى): المراد: ما ذكر من قصة خلقه وإرساله ورفعته هو الحق الذي لا ريب فيه.

وقوله: (الشاكّين فيه): لأنّ الممتري من المرية، وهي: الشك.

وقوله: (جادلك من النصارى): تفسير للمحاجة بالمجادلة.

وقوله: (بأمره): أي: بشأنه؛ يعني بشأن عيسى.

وقوله: (لهم): أي: المجادلين لك من النصارى.

وقوله: (فَجَمَعَهُمْ): بيان: لمقصود الدعوة، وهو الاجتماع للمباهلة.

وقوله: (نتضرّع في الدعاء): بيان لمعنى: نبتهل.

وقوله: (بأن نقول)... إلى آخره: بيان لصفة المباهلة، وذكر لما جاء في السيرة في شأن وفد نجران من النصارى.

وقوله: (المذكور): يريد أن اسم الإشارة يرجع إلى المذكور في الآيات السابقة في شأن المسيح، وشأن المجادلين فيه من النصارى.

(١) أي: الطين الأسود. ينظر: لسان العرب (١/ ٦١).

وقوله: (الخبر): تفسير للقصص؛ لأنَّ المخبر يقص الأخبار؛ أي: يتلوها ويرويها.

وقوله: (الذي لا شك فيه): تفسير للحق؛ بأنه الأمر المحقق الذي لا يتطرق إليه شك.

وقوله: («من»: زائدة): المراد: زائدة في اللفظ لا في المعنى، فإنَّ (من) الزائدة: إذا دخلت على النكرة أفادت تأكيد العموم، وصارت النكرة نصًّا في العموم^(١).

وقوله: (في ملكه): أي: ذو عزة في ملكه؛ أي: قوة وغلبة.
وقوله: (في صنعه): أي: ذو حكمة فيما يصنعه تعالى؛ أي: يخلقه.
وقوله: (أعرضوا عن الإيمان): تفسير للتولي بالإعراض، وهو كثير في القرآن.

وقوله: (فيجازيهم): إشارة إلى أنَّ التعقيب بذكر العلم تنبيه إلى ترتب الجزاء، فلا يظن المفسدون أنَّ أمرهم يخفى على الله فينجون من عقابه^(٢).
وقوله: (وفيه وضع الظاهر موضع المضمَر): يريد أنَّ الأصل: فإنَّ الله عليم بهم، أي: المتولين عن الحق فوضع لفظ «المفسدين» وهو اسم ظاهر موضع الضمير^(٣)، وفيه النص على أنَّ المتولين عن الحق مفسدون.



(١) ينظر: البحر المحيط (٤/ ١٥٠).

(٢) ينظر: معاني القرآن للزجاج (١/ ٤٢٤)، والبحر المحيط (٣/ ١٩٣).

(٣) ينظر: تفسير البضاوي (٢/ ٢١)، والبحر المحيط (٣/ ١٩٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٤-٦٨].

يأمر الله نبيه بدعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له وترك الشرك به، وهذه الآية أخص بالنصارى؛ لأن الآيات التي قبلها نزلت فيهم كما تقدّم في سبب نزولها، وهم: وفد نجران^(١)، ثم أمر الله نبيه والمؤمنين إن أعرض أهل الكتاب عما دُعوا إليه؛ أن يثبتوا على دينهم وتوحيدهم، ويظهروا استسلامهم لله غير مباينين بالمعرضين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾، والكلمة التي أمر الله نبيه بدعوة أهل الكتاب إليها؛ هي كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله» المتضمنة لإفراده تعالى بالإلهية ونفي إلهية ما سواه، ثم أنكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى زعمهم أن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيًا وم حاجتهم في ذلك، وما وجدت اليهودية ولا النصرانية إلا بعد إبراهيم؛ فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾، ثم وبّخهم تعالى على المحاجة فيما ليس لهم به علم دون ما تحاجوا فيه بعلم؛ فقال تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، وقوله:

(١) تنظر: (ص ١٠٦).

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١٦)، إرشاد لهم إلى تفويض ما لا علم لهم به إلى الله تعالى العالم بكل شيء، ثم صرح تعالى بتنزيه خليفه إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بإبطال ما زعمته اليهود والنصارى فيه؛ فنزهه تعالى عن اليهودية والنصرانية، وأخبر تعالى أن دينه الإسلام وبرّاه من الشرك؛ فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٧)، ثم أخبر تعالى أن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه على الإسلام والملة الحنيفة، ومن أولياء إبراهيم هذا النبي محمد ﷺ والمؤمنون معه، وهم داخلون في الذين اتبعوه؛ فعطفهم عليهم من عطف الخاص على العام^(١)؛ فهؤلاء كلهم أولى بإبراهيم من اليهود والنصارى، والله ولي جميع المؤمنين، وهم أولياؤه.

﴿قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: اليهود والنصارى، ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾: مصدرٌ بمعنى مُستوٍ أمرها ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، هي ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كما اتخذتم الأحرار والرهبان. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا عن التوحيد ﴿فَقُولُوا﴾: أنتم لهم: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾: موحدون.

ونزل، لما قال اليهود: «إبراهيم يهودي ونحن على دينه»، وقالت النصارى كذلك ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، لِمَ تُحَاجُّونَ﴾: تُخاصمون ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ بزعمكم أنه على دينكم، ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ بزمان طويل، وبعد نزولهما حدثت اليهودية والنصرانية؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بطلان قولكم؟ ﴿هَا﴾: للتنبيه ﴿أَنْتُمْ﴾: مبتدأ يا ﴿هَؤُلَاءِ﴾ والخبر: ﴿حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ من أمر موسى وعيسى، وزعمتم

(١) ينظر: الكشاف (١/٥٦٨)، وتفسير الألوسي - ط المنيرية - (٣/١٩٣).

أنكم على دينهما. ﴿فَلِمَ تَحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ من شأن إبراهيم؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ شأنه، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هـ. قال تعالى تبرئة لإبراهيم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾: مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم، ﴿مُسْلِمًا﴾: موحّداً، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ﴾: أحقّهم ﴿بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه، ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ محمّد لموافقته له في أكثر شرعه، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ من أمته - فهم الذين ينبغي أن يقولوا: «نحن على دينه»، لا أنتم - ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ناصرهم وحافظهم.

وقول المؤلف: (اليهود والنصارى): بيان للمراد بأهل الكتاب؛ فأهل الكتاب؛ يُطلق على هؤلاء وهؤلاء، ولكن في بعض الآيات يُراد بهم خصوص اليهود، وفي بعضها خصوص النصارى، وهذه الآية أخص بالنصارى. وقوله: (مصدر) ... إلى آخره: يريد أن «سواء» أصلها مصدر، وهو بمعنى اسم الفاعل^(١)، والأظهر أن «سواء» اسم مصدر^(٢). وقوله: (هي)؛ أي: الكلمة؛ يريد أن «هي» مبتدأ، و«بيننا وبينكم» خبر. وقوله: (كما اتخذتم الأخبار والرهبان): هذا مثال لاتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً؛ كما في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وقوله: (موحدون): فسر الإسلام بالتوحيد؛ لأنَّ الإسلام استسلام لله وحده.

(١) ينظر: البحر المحيط (٣/ ١٩٤).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٩).

وقوله: (ونزل)... إلى آخره: إشارة إلى سبب نزول الآية^(١).

وقوله: (تُخَاصِمُونَ): يعني: تُنازِعُونَ وتُجادِلُونَ في أَنَّ إبراهيم كان يهوديًا أو كان نصرانيًا.

وقوله: (بزعمكم أنه على دينكم): بيان لموضوع المحاجة، وهو نسبة إبراهيم إلى دين اليهودية والنصرانية.

وقوله: (بزمن طويل)... إلى آخره: بيان لوجه الرد على أهل الكتاب في زعمهم أَنَّ إبراهيم كان على دين اليهودية أو النصرانية، وذلك أَنَّ اليهودية أو النصرانية متأخرة، فكيف يقال أَنَّ إبراهيم وهو متقدم كان على اليهودية أو النصرانية، هذا لا يُعقل، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ توبيخًا لهم.

وقوله: (بُطْلَانٌ قولكم؟)؛ أي: لا تدركون بطلان زعمكم في إبراهيم لأنه متقدم، واليهودية والنصرانية مِلَّتَانِ متأخرتان.

وقوله: (للتنبية): وما بعده إعراب لهذه الجملة.

وقوله: (من أمر موسى وعيسى)... إلى آخره: بيان: لما جادلوا فيه بعلم، وهو أَنَّ موسى وعيسى رسولان من الله، وأنهما جاءا بالتوراة والإنجيل من عند الله، وهذا حق، فجداهما في ذلك بعلم، وأما جدالهما في إبراهيم لأنه كان يهوديًا أو نصرانيًا؛ فجداً بغير علم، ولذا أنكر الله ذلك عليهم.

وقوله: (من شأن إبراهيم؟): بيان لمتعلق جدالهم بغير علم.

وقوله: (شأنه): يعني: شأن إبراهيم، ولذا بيّن حقيقة دين إبراهيم؛ فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾.

وقوله: (تبرئة لإبراهيم)؛ أي: تنزيهاً لإبراهيم مما نسبوا إليه من اليهودية والنصرانية.

(١) ينظر: العجّاب غي بيان الأسباب (٢/٦٨٨).



وقوله: (مائلاً)... إلى آخره: لأنَّ أصل الحنف الميل في القدم، ويقال: في الوصف منه أحنف^(١). وقوله: (مُوحِّدًا)؛ أي: مفردًا لله بعبادته وحده، وهذا هو الاستسلام لله.

وقوله: (أَحَقَّهُمْ): يريد أحقهم بولاية إبراهيم.
 وقوله: (في زمانه): تقييد، والأولى عدم التقييد ليعم كل مَنْ آمن به واتبعه على التوحيد، وعطف «هذا النبي والذين آمنوا» على «الذين اتبعوه» من عطف الخاص على العام.
 وقوله: (ناصرهم وحافظهم): فسر الولي بالحافظ والناصر؛ لأنَّ الولاية تتضمن الأمرين^(٢).



(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ١١٠)، والمفردات (ص ٢٦٠).

(٢) ينظر: الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ١٧٤)، ولسان العرب (١٥/ ٤٠٦-٤٠٧).

وقوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٩) يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ لِحَقٍّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٧١﴾ [آل عمران: ٦٩-٧١].

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب، وهم كثير، أنهم يودون إضلال المؤمنين عن دينهم، وأنهم بهذه المودة لا يضلون إلا أنفسهم، فسوء عاقبة ما يودونه من إضلال المؤمنين عائد إليهم، وهم لا يشعرون بسوء عاقبة نياتهم السيئة، وهذه الآية وما بعدها خاصة باليهود الذين كانوا حول المدينة؛ لأنَّ عداوتهم للرسول ﷺ والمؤمنين ظاهرة، وكيدهم معلوم، وقوله تعالى: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ﴾، فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، وهو إنكار على اليهود وتوبيخ لهم على كفرهم بآيات الله، وفي المراد: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ قولان^(١)؛ أحدهما أن المراد: ما في التوراة من الخبر ببعثة محمد ﷺ وصفته، وكفرهم بها، وكتمانهم لها وعدم الإيمان بما دلت عليه، وعلى هذا فمعنى: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾^(٢)؛ أي: وأنتم تعلمون أن التوراة جاء بها موسى، وأنها حق من عند الله^(٣)، والقول الثاني: المراد ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: آيات القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ وكفرهم بها: التكذيب بها، وجحد نبوة من جاء بها، وعلى هذا فمعنى: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾^(٤)؛ أي: وأنتم تعلمون أنه رسول الله حقاً، وما جاء به هو من عند الله؛ لأنكم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، وتعلمون صفته وأنه مبعوث لا محالة، وهذا غاية منكم في الكفر والعناد^(٥)، ثم قال تعالى منكرًا على أهل الكتاب وموبخًا لهم على لبس

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٥٦/٨)، والبحر المحيط (٢٠٦/٣).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٤٩١/٥).

(٣) ورجحه شيخنا كما سيأتي، وهو قول مقاتل والواحدي والكواشي. ينظر: تفسير مقاتل

(١/٢٨٣)، والتفسير البسيط (٣٤٥/٥)، وتفسير الكواشي (١/٣٦٨).

الحق بالباطل، وهو خلط الحق بالباطل؛ ليلبس الحق ويروج الباطل، ثم قيل المراد: خلط الإسلام باليهودية، وقيل: المراد إظهار الإيمان وإبطان الكفر، وهو النفاق^(١)، وقوله: ﴿وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ﴾؛ أي: تكتُمون صفة محمد ﷺ، وأنتم تعلمون صحة نبوته ﷺ، وتجحدونها بغياً وحسداً وعناداً فعلوا ذلك، وهم عالمون وعامدون.

ونزل، لما دعا اليهود مُعَاذًا وَحُذِيفَةً وَعَمَّارًا إلى دينهم: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن إثم إضلالهم عليهم، والمؤمنون لا يطيعونهم فيه، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: القرآن المشتمل على نعت محمد، ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: تعلمون أنه الحق؟ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، لِمَ تَلْبِسُونَ﴾: تخلطون ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ بالتحريف والتزوير، ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: نعت النبي، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق؟

وقول المؤلف: (ونزل)... إلى آخره: يشير: بذلك إلى سبب نزول الآية، وهو دعوة اليهود لمن ذكر من الصحابة لتركوا دينهم ويدخلوا في اليهودية، وقد ذكر هذا السبب البغوي^(٢) والواحي في «أسباب النزول»^(٣). وقوله: (لأن إثم)... إلى آخره: معناه: أن ضرر سعيهم في إضلال المؤمنين واقع عليهم ولا يضررون المؤمنين شيئاً، والإضلال: الإهلاك؛ فالمعنى: وما يهلكون إلا أنفسهم.

(١) وقيل غير ذلك. ينظر: تفسير الطبري (٤٩٢/٥)، وزاد المسير (١/٢٩٣).

(٢) تفسير البغوي (٥٣/٢).

(٣) أسباب النزول (ص ١٠٩).

وقوله: (بذلك): الإشارة إلى الضرر الواقع عليهم؛ فالمعنى: لا يعلمون سوء عاقبتهم، وهذه الآية كقوله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

وقوله: (القرآن)... إلى آخره: بيان: للمراد بآيات الله في قوله: ﴿تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وهذا هو الراجح؛ فإنَّ الآيات أو آيات الله إذا وردت في القرآن في مثل هذا السياق يُراد بها آيات القرآن.

وقوله: (المشتمل على نعت محمد): هذا: خلط من المؤلف بين القولين في المراد بالآيات؛ فإنَّ الآيات التي فيها نعت الرسول ﷺ وهي حجة على اليهود هي آيات التوراة، وقد كفروا بها بكتمانها وجحدهم نبوة النبي محمد ﷺ.

وقوله: (تعلمون أنه حق؟): تفسير للشهادة بالعلم؛ لأنَّ الشاهد بالشيء لا بد أن يكون عالم به، فيكون من التفسير باللازم^(١).

وقوله: (تخلطون): المراد: خلط الحق بالباطل، حتى لا يتميز أحدهما من الآخر، فيلبس الأمر على السامع والناظر، فيفضي إلى رد الحق أو قبول الباطل.

وقوله: (بالتحريف والتزوير): بيان لما يتوصلون به إلى لبس الحق بالباطل.

وقوله: (نعت النبي): المراد: لا يظهرون ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ؛ لأنَّ ذلك يكون حجة عليهم.

وقوله: (أنه حق؟): أي: أن نبوة محمد حق، وجحدهم لها عن عمد حسداً وبغياً.



(١) تنظر مراتب الشهادة في: مدارج السالكين (٤/ ٤٥١-٤٥٩)

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ٧٤﴾ [آل عمران: ٧٢-٧٤].

يخبر تعالى عن كيدٍ من كيد اليهود للمؤمنين، دعت إليه طائفة منهم، وهو أنهم قالوا لبعض أهل ملتهم: آمنوا بما أنزل على محمد ﷺ ﴿وَجَهَ النَّهَارِ﴾؛ يعني: أوله^(١)، واكفروا به آخر النهار؛ لعل أصحاب محمد يسيئون الظن بدينه؛ فيرجعون عنه اقتداءً بكم في إيمانكم أول النهار وكفركم آخره؛ لا اعتقادهم أنكم ما رجعتم عن الإيمان إلا أنكم علمتم أن دين محمد غير صحيح؛ فينفروا عنه، وهذا المكر غايته إضلال المؤمنين كما ذكر الله في الآية السابقة: ﴿وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩]؛ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، هذا من قول الطائفة الماكرة؛ يقولون: لأصحابهم «لا تؤمنوا»؛ أي: لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم وهو اليهودية. ثم أمر الله نبيه أن يقول: الهدى هدى الله؛ أي: البيان بيأنه تعالى، والدين الحق دينه؛ وهو ما أنزله على محمد ﷺ، وهذا توجيه من الله لنبيه ﷺ أن يعلن أن الهدى هو وحده هدى الله؛ وأن من لا يفى^(٢) إليه لن يجد الهدى أبداً في أي منهج، ولا في أي طريق، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾، تقرير جاء رداً على قول الطائفة الماكرة: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٧٢﴾: تحذيراً للمسلمين من تحقيق الهدف الخبيث، وهو الخروج من هدى الله كله، فلا هدى إلا هداة

(١) ينظر: غريب القرآن للسجستاني (ص ٤٧٩)، وتحفة الأريب (ص ٣٢١).

(٢) أي: يرجع. ينظر: لسان العرب (١/ ١٢٥).

وحده، وما سواه هو الضلال والكفر، وهو ما يريده بهم هؤلاء الماكرون، ويجيء هذا التقرير: ﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾، معترض قبل تمام قول الطائفة من أهل الكتاب^(١)، ثم يمضي سياق الآيات فيذكر فيه تمام قول الطائفة وهو قولهم: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾؛ فقولهم: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾، تعليل لقولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾؛ فمعنى الكلام: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وهو اليهودية؛ لألى يؤتى أحد مثل ما أوتيتم^(٢)، ومضمون هذا التعليل: الحسد أن يؤتى أحد مثل ما أوتي أهل الكتاب من النبوة والكتاب، والحامل لهم على ذلك: الخوف من أن يكون في الاطمئنان للمسلمين، وإطلاعهم على الحقيقة التي يعرفها أهل الكتاب، ثم ينكرونها عن هذا الدين؛ ما يتخذه المسلمون حجة عليهم عند الله، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، توجيه من الله أن يعلم أهل الكتاب والمسلمين حقيقة فضل الله، حين يشاء أن يمن على أمة برسالة وبرسول؛ فإن ذلك بيده وهو القادر عليه لا يقدر أحد على رد فضل الله عمن أراد الله أن يؤتيه، كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، وقوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدْ كَيْدٌ يَخِيرْ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وفي هذا التقرير: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾؛ رد لقول الطائفة: «أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم» من النبوة والكتاب، وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣)؛ أي: واسع الرحمة والعلم والفضل، عليم بمواضع فضله وبكل شيء كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: يخصص بالنبوة ويختار لها من يشاء من عباده، وقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٤)؛ خبر من الله بأن فضله عظيم لا يقدر العباد قدره.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥/٥٠١)، والمحزر الوجيز (٢/٢٥٤).

(٢) وهذه الآية من مشكلات القرآن، وأصعبه تفسيرًا. ينظر: إعراب القرآن للنحاس

(١/١٦٥)، والتفسير البسيط (٥/٣٤٩)، (٥/٣٥٩)، والدر المصون (٣/٢٥٠).

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود لبعضهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي
 أَنزَلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: القرآن ﴿وَجَهَ النَّهَارِ﴾: أوله، ﴿وَاكْفُرُوا﴾
 به ﴿آخِرَهُ، لَعَلَّهُمْ﴾ أي: المؤمنين ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عن دينهم - إذ يقولون:
 ما رَجَعَ هؤلاء عنه بعد دخولهم فيه، وهم أولو علم، إلا لعلمهم بطلانه -
 وقالوا أيضاً: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾: تُصَدِّقُوا ﴿إِلَّا لِمَن﴾ اللام زائدة ﴿تَبِعَ﴾:
 وافق ﴿دِينَكُمْ﴾ - قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم، يا محمد: ﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى
 اللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام، وما عداه ضلال. والجملة اعتراض - ﴿أَنْ﴾
 أي: بأن ﴿يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من الكتاب والحكمة والفضائل.
 وأن: مفعول «تؤمنوا»، والمستثنى منه «أحد» قُدِّم عليه المُسْتَثْنَى. المعنى
 لا تُقَرُّوا بأن أحداً يُؤْتَى ذلك إلا مَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ، ﴿أَوْ﴾ أن ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾
 أي: المؤمنون يغلبوكم ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يوم القيامة لأنكم أصح ديناً. وفي
 قراءة: «أَنْ» بهمزة التوبيخ أي: إيتاء أحد مثله تُقَرُّون به؟
 قال تعالى: ﴿قُلْ: إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ، يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. فمن أين
 لكم أنه لا يُؤْتَى أحد مثلاً ما أُوتِيتُمْ؟ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾: كثير الفضل،
 ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله.

وقول المؤلف: (اليهود لبعضهم): يبين أن هذه الطائفة الماكرة من
 اليهود، وتقدم أن هذه الآية كلها في اليهود من قوله: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ﴾.
 وقوله: (أي: القرآن): يبين أن المراد بالذي أنزل على الذين آمنوا: هو
 القرآن المنزل على محمد ﷺ.
 وقوله: (أوله): أي: أول النهار بدليل: ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾.

وقوله: (به)؛ أي: بالذي أنزل.

وقوله: (أي: المؤمنين)؛ أي: لعل المؤمنين.

وقوله: (عن دينهم)... إلى آخره: بيان لسبب رجوعهم عن دينهم، حسب ما ورد في سبب النزول^(١).

وقوله: (وقالوا أيضًا): يبين أن جملة: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾: مقول قول محذوف معطوف على: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ﴾.

وقوله: (تُصَدِّقُوا): فسر الإيمان في هذا الموضع بالتصديق، وهو المناسب^(٢) كقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، وهذا مطرد إذا عُدِّي الإيمان باللام.

وقوله: (اللام زائدة): الصواب: أنها لتقوية التعدية^(٣).

وقوله: (وافق): في هذا التفسير نظر^(٤)، والصواب: تبع دينكم؛ أي: آمن بدينكم اليهودية.

وقوله: (الذي هو الإسلام)... إلى آخره: فسر الهدى بالإسلام؛ لأن الهدى لا يكون إلا في الدين الحق، والدين الحق هو الإسلام^(٥)؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٠٩)، والعجاب في بيان الأسباب (٢/ ٦٩٣).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٥٠٠)، وتفسير البغوي (٢/ ٥٤).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٢١٢).

(٤) والمؤلف صادر عن تفسير الكواشي (١/ ٣٦٩) فقال: «وافق ملتكم»، وهو أحد مراجعه

في هذا التفسير. ينظر: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ١١).

(٥) وللشيخ العلامة عبد الرحمن بن حماد العمر رَحِمَهُ اللَّهُ كتابٌ مباركٌ بعنوان: «دين الحق»،

وقد اهتمَّ به العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، وأمر قسم الترجمة برئاسة الإفتاء بترجمته إلى

اللغات المُمكنة، فبلغت ترجماته أكثر من عشرين لغة. ولشيخنا- حفظه الله- تعليق

عليه سيخرج قريبًا بإذن الله.

وقول المؤلف: (وما عداه ضلال): مأخوذ من الحصر، الذي يدل عليه تعريف طرفي الجملة: ﴿الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾؛ فالمعنى: هدى الله لا غيره.

وقوله: (والجملة اعتراض): يريد جملة: ﴿الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾؛ معترضة في كلام الطائفة؛ لأنها جاءت قبل تمام كلام الطائفة من أهل الكتاب.

وقوله: (أي: بأن): الصواب أن يقال: «لأن»؛ لأن المقام مقام تعليل لقولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾؛ فالمعنى: «لأن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم»^(١)، وهذا ينبئ عن حسدهم للنبي ﷺ وللعرب.

وقوله: (من الكتاب والحكمة والفضائل): بيان لما أوتيته اليهود، وهم لا يريدون أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا من ذلك حسداً منهم.

وقوله: (وأن: مفعول «تؤمنوا»): الصواب أن المصدر المؤول في موضع جر بلام التعليل، والجار والمجرور متعلق بـ «تؤمنوا»^(٢).

وقوله: (والمُستثنى منه «أحد» قُدِّم عليه المُستثنى): المستثنى منه «أحد» في قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾، والمستثنى قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ﴾، ثم بيّن المعنى على هذا الوجه من الإعراب؛ فقال: (المعنى: لا تُقَرِّوا بأن أحداً يؤتى ذلك)؛ أي: الكتاب والحكمة، (إلا مَنْ تبع دينكم)؛ أي: من اليهود.

وقوله: (أن): يبيّن أن «ما» بعد «أو» مصدر مؤول معطوف على: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾؛ فصار المعنى: لألى يؤتى أحد أو لألى يحاجوكم.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣/ ٢٨١).

(٢) ينظر الخلاف في: الدر المصون (٣/ ٢٥٢).

وقوله: (أي: المؤمنون يغلبوكم): يبيّن أنّ المراد في الضمير في يحاجوكم؛ هم: المؤمنون، وفسر المحاجة بالغلبة؛ لأنها المحذور في المناظرة.

وقوله: (يوم القيامة): لأنه اليوم الذي يلتقي فيه المتخاصمون.
 وقوله: (لأنكم أصح ديناً): تعليل لقولهم: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.
 وقوله: (وفي قراءة)... إلى آخره^(١): استفهام التوبيخ هو من طائفة أهل الكتاب لمن قالوا لهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبَعَ دِينَكُمْ﴾.
 وقوله: (فمن أين لكم)... إلى آخره: يبين أنه لا برهان لهم على تحجير فضل الله الواسع، وفضل الله بيده يؤتیه مَنْ يشاء، ومن ذلك النبوة والكتاب، فإن الله يجعلهما فيمن شاء من عباده.
 وقوله: (كثير الفضل): تفسير لاسمه الواسع، وكثرة فضله يتضمن كثرة ما يعطي ومن يعطي.
 وقوله: (بمن هو أهله): يبيّن مناسبة اسمه العليم في ذكر الفضل، وأن علمه تعالى يقتضي أنه يضع فضله في المحل الذي يعلم أنه أهل له.



(١) وهي قراءة ابن كثير. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص ١٦٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكِ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَخَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٥-٧٨].

يخبر تعالى أن أهل الكتاب ليسوا سواء في أداء الأمانة؛ بل منهم الأمين ومنهم الخائن؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وهذه الآية نزلت في اليهود، وأن منهم ما لو أوثمن على قنطار من المال - وهو المال الكثير ذهباً أو فضة -^(١) لأداه لمن اتئمنه، ومنهم من لو أوثمن على دينار لم يؤده إلا أن يكون الذي اتئمنه قائماً عليه ملازم له لا يفارقه^(٢)، وسبب ذلك أنهم يستحلون أموال من ليس من أهل الكتاب، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكِ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ﴾؛ أي: ليس علينا في خيانة الأميين في أموالهم أو دمائهم إثم ولا مؤاخذه، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾؛ بلى: حرف إبطال مختص بالنفي، وهو إبطال لقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ﴾؛ وتقرير لما بعدها، وهو قوله: ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾؛ المعنى: من أوفى بعهده مع الله واتقى الله باجتنب محارمه فإنه لا يخون الأمانة لذلك، فإن الله

(١) تقدم في (ص ٢٦) بيان معنى القنطار والخلاف فيه.

(٢) ينظر: العجاب في بيان الأسباب (٢/ ٦٩٥).

يحبّه وهو تعالى لا يحب الخائنين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ تهديد من الله لمن ينقض العهد الذي بينه وبين الله، أو بينه وبين العباد ويفجر في يمينه، ويبدلون ذلك ثمنًا في مقابل عرض من الدنيا قليل زائل توعدهم الله، ﴿أُولَئِكَ لَاحِقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي: لا نصيب لهم من الخير^(١)، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾، إهانة لهم إلا توبيخًا وتهديدًا، ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾: احتقارًا لهم، ﴿وَلَا يَرْكَبُ فِيهِمْ﴾؛ أي: لا ينقيهم من ذنوبهم فلا يغفر لهم، ولهم بعد ذلك: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢)؛ أي: مؤلم وهو عذابهم في جهنم، وهذه الآية نزلت في اليهود لنقضهم العهود^(٣)، كما سيأتي في آخر السورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]... الآية^(٤)، وقيل: نزلت في الأشعث بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كانت بينه وبين يهودي أو ابن عم له خصومة في أرض أو بئر، فجحدها فردت اليمين عليه، فخاف الأشعث أن يحلف خصمه فيذهب بأرضه؛ فنزلت الآية في الأشعث بن قيس مع خصمه؛ أخرجاه في الصحيحين^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفِرْقًا يَلُونُ أَلَيْسَتْ لَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾: يخبر تعالى أن فريقًا من أهل الكتاب اليهود، ﴿يَلُونُ أَلَيْسَتْ لَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾؛ أي: التوراة يقرؤونها بغير لفظها ليظن من لا علم عنده أنه من التوراة، وما هو من التوراة؛ بل مما افتروه فيها، ثم يقولون أن هذا من عند الله، وما هو من عند الله؛ فجمعوا بين التحريف لكتاب الله والكذب على الله ليضلوا الناس عن هدى الله، وهذا من جملة مكائدهم كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٩]... الآية، وقوله:

(١) ينظر: غريب القرآن للسجستاني (ص ٢٠٥)، التبيان في تفسير غريب القرآن (ص ١٢٥).

(٢) ينظر: العجائب في بيان الأسباب (٢/ ٦٩٨).

(٣) تنظر: (ص ٢٩١).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٥٦ و ٢٣٥٧) (٢٤١٦ و ٢٤١٧)، ومسلم (١٣٨).

﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٢]^(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنهُ بِقِنطَارٍ﴾ أي: بمال كثير ﴿يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ لأمانته، كعبد الله بن سلام، أودعه رجل ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأداها إليه، ﴿وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ لخيانته، ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾ لا تفارقه. فمتى فارقه أنكره، كعبد بن الأشرف، استودعه قرشي ديناراً فجحده. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ترك الأداء ﴿بأنهم قالوا﴾ بسبب قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ﴾ أي: العرب ﴿سَبِيلٌ﴾ أي: إثم. لاستحلالهم ظلم من خالف دينهم، ونسبوه إليه تعالى. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في نسبة ذلك إليه، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون. ﴿بَلَى﴾ عليهم فيهم سبيل، ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ الذي عاهد عليه، أو بعهد الله إليه من أداء الأمانة وغيره، ﴿وَاتَّقَى﴾ الله بترك المعاصي وعمل الطاعات، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المضمَر أي: يُحبهم بمعنى: يُثيبهم.

ونزل في اليهود، لما بدّلوا نعت النبي وعهد الله إليهم في التوراة، أو فيمن حلف كاذباً في دعوى أو في بيع سلعة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾: يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ إليهم، في الإيمان بالنبي وأداء الأمانة، ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾: حلفهم به - تعالى - كاذباً، ﴿ثُمَّناً قَلِيلاً﴾ من الدنيا، ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ﴾: نصيب ﴿لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ غضباً عليهم، ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾: يرحمهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: يُطهرهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مؤلم. ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ﴾ أي: أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقٌ﴾: طائفة، كعبد بن الأشرف، ﴿يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أي:

(١) تنظر: (ص ١١٦)، (ص ١١٩).

يعطفونها بقراءته عن المُنزَل إلى ما حَرَّفوه، من نعت النبي ﷺ ونحوه، ﴿لِتَحْسِبُوهُ﴾ أي: المُحَرَّفَ ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ الذي أنزله الله، ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقُولُونَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

وقول المؤلف: (بمال كثير): يريد من أي أنواع المال، والأكثر استعماله في الكثير من الذهب والفضة، كما قال تعالى في أول السورة: ﴿وَالْفَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤] ^(١). وقوله: (لأمانته)... إلى آخره: لأنه لا يؤدي المال الكثير إلا مَنْ يكون أمينًا، وأشار المؤلف لقصة عبد الله بن سلام إلى سبب النزول ^(٢). وقوله: (لخيانته): لأنَّ مَنْ لا يؤدي الأمانة، وإن كانت يسيرة لا بد أن تكون الخيانة سجيته. وقوله: (لا تفارقه)... إلى آخره: «لا تفارقه»: هو معنى: ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾، وما ذكره من قصة كعب بن الأشرف؛ بيان للمراد بالصنف الثاني في الآية؛ وهو الخائن. وقوله: (ترك الأداء): بيان للمشار إليه بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾؛ فالمعنى: تركهم أداء الأمانة بسبب قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾. وقوله: (بسبب قولهم): يبين أنَّ الباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ سببية. وقوله: (أي: العرب): بيان للمراد بالأميين، وقيل: للعرب أميون؛ لأنهم ليس لهم كتاب ^(٣)، ولهذا يقابل الله بينهم وبين أهل الكتاب، كما قال تعالى في أول السورة: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيْنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

(١) تنظر: (ص ٢٦).

(٢) ينظر: العجائب في بيان الأسباب (٢/ ٦٩٥).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٥١١)، والمحمر الوجيز (٢/ ٢٦٢).

وقوله: (أي: إثم)... إلى آخره: يبين أن المراد ليس علينا سبيل؛ أي: إثم في ظلم الأُميين، ومعناه: أن الله لم يحرم علينا ذلك فافتروا على الله الكذب، ولهذا عَقَبَ الله قولهم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: (في نسبة ذلك إليه): لأن قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾، يتضمن أن الله أباح لنا ظلم الأُميين، وذلك كذب على الله فلم يُبَحِّحَ الله الظلم في شريعة من شرائع الأنبياء؛ بل كلها متفقة على تحريمه. وقوله: (أنهم كاذبون): بيان أن كذبهم على الله لم يكن عن جهل. وقوله: (عليهم فيهم سبيل): هذا مدلول «بلى»، فإنها حرف جواب لإبطال النفي قبلها، وهو قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾؛ فكانت النتيجة: (عليهم فيهم سبيل) كما قال المؤلف.

وقوله: (الذي عاهد عليه)... إلى آخره: يبين أن العهد في الآية يشمل معاهدة العبد لربه، ومعاهدة الله إليه في شأن الأمانة؛ فعلى الأول يكون العهد مصدر مضاف إلى فاعله، وعلى الثاني يكون مصدرًا مضافًا إلى مفعوله^(١)، ثم فُسِّرَ التقوى باجتناب المعاصي، ومنها خيانة الأمانة. وقوله: (فيه وضع الظاهر موضع المضمَر): يريد أن الأصل: أن الله يحبُّهم فوضع المتقين مكان المضمير^(٢).

وقوله: (يحبُّهم بمعنى: يُشيههم): فيه: تأويل المحبة بالشواب، وهذا نظير ما قاله المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وسبق التعليق عليه فانظره^(٣).

(١) ينظر: التفسير البسيط (٥/ ٣٧٠)، والمحرر الوجيز (٢/ ٢٦٣).

(٢) ينظر: التبيان في إعراب القرآن (١/ ٢٧٣)، والكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٧٦/ ٢).

(٣) تنظر: (ص ٦١).

وقوله: (ونزل في اليهود)... إلى آخره: يشير إلى سبب نزول الآية؛ ف قيل: في اليهود عامة، وقيل: في قضية خصومة خاصة، وقيل: فيمن حلف في قضية خصومة خاصة^(١).

وقوله: (يستبدلون): الاستبدال أخذ شيء بشيء، والاشتراء هو: استبدال المبيع بالثمن، وقد يعبر عن الاشتراء بالبيع؛ لأنَّ كلاً من المتبايعين مشتري وبائع^(٢).

وقوله: (إليهم)... إلى آخره: فسّر العهد بعهد الله إلى اليهود؛ بما أوجب عليهم في التوراة، فلم يوفوا بعهد الله، والعهد على هذا مصدر مضاف إلى فاعله.

وقوله: (حلفهم به تعالى كاذباً): فسر الأيمان بالأيمان الكاذبة، وهي: الحلف بالله كذباً.

وقوله: (من الدنيا): وهو العوض الذي يأخذونه في مقابل نكث العهد والفجور في اليمين.

وقوله: (نصيب)؛ أي: لا نصيب لهم من الخير في الآخرة.

وقوله: (غضباً عليهم): بيانٌ لسبب ترك تكليمهم إهانة لهم وعقوبة على كفرهم.

وقوله: (يرحمهم): تفسير للنظر بالرحمة، وهذا من التفسير باللائم، فإنه نظرَه تعالى إلى عبده يتضمن كرامته عليه، وذلك يستلزم رحمته له. وقوله: (يطهرهم)؛ أي: من ذنوبهم بالمغفرة.

(١) ذكر هذه الأسباب وغيرها: الواحدي في أسباب النزول (ص ١١٠)، وابن حجر في العجايب في بيان الأسباب (٢/ ٦٩٨)، وينظر: تفسير الطبري (٥/ ٥١٢-٥٢١).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٤/ ٤٢٦).

وقوله: (مؤلم): فسر الأليم بالمؤلم^(١)؛ لأنَّ الأليم من ألم الثلاثي
اللازم، ومؤلم من ألم الرباعي المتعدي، والعذاب يؤلم ولا يألم.
وقوله: (أي: أهل الكتاب): بيانٌ لمرجع الضمير، وهو في قوله: ﴿وَمِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾.

وقوله: (طائفة؛ ككعب بن الأشرف): الطائفة قد تطلق على الواحد^(٢).
وقوله: (أي: يعطفونها بقراءته عن المنزل)... إلى آخره: يريد أنهم
يعطفون ألسنتهم بلفظ الكتاب؛ لتحريف اللفظ المؤدي إلى تحريف المعنى
فيما يتعلق بصفة النبي ﷺ.

وقوله: (الذي أنزله الله): يعني: التوراة.
وقوله: (أنهم كاذبون): يبين أنهم متعمدون على الكذب على الله، لم
يكن عن جهل؛ بل افتروا الكذب على الله، وهم يعلمون أنهم مفترون،
وهذا أقبح ما يكون من افتراء الكذب.



(١) ينظر: المحرر الوجيز (٢/ ٢٦٤).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٥٣٢)، والتبيان في تفسير غريب القرآن (ص ١٢٥).

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

يخبر تعالى أنه لا يصح ولا ينبغي لأحد من البشر اصطفاؤه الله، فأتاه الكتاب والحكم والنبوّة، ثم يدعو إلى عبادة نفسه؛ فيقول للناس: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فهذا القول ممتنع ممن اصطفاؤه الله، ولكن يقول للناس كونوا ربانيين؛ أي: علماء ربانيين، بتعليم الناس الكتاب وبما كنتم تدرسون؛ أي: تدرسون الكتاب، ومن الممتنع أن يأمر الناس باتخاذ الملائكة والنبیین أرباباً، فإن ذلك كفر بالله، والرسول لا يأمر الناس بالكفر، كيف وقد كانوا قبل ذلك مسلمين، وقد ذكر المفسرون^(١) في سبب نزول هذه الآية: أن نصارى نجران لما وفدوا على النبي ﷺ، وأمرهم بالإيمان به، وبطاعته ﷺ، قالوا له: أتريد أن نعبدك؟ فأنزل الله هذه الآيات منزهاً نبيه وكل نبي عن أن يأمر بعبادة غير الله من الملائكة والنبیین، فضلاً أن يدعو إلى عبادة نفسه، فإن ذلك كله كفر بالله، فيمتنع أن يصدر ممن أرسله الله لدعوة الناس إلى عبادته وحده لا شريك له، وأنه لا يليق به إلا أن يأمر الناس بالعلم والتعليم، فيكونوا علماء ربانيين، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾، هذا خبر من الله معطوف على قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، وتضمن الخبران تنزيه النبي من أن يدعو إلى عبادة نفسه، أو يأمر الناس باتخاذ الملائكة والنبیین أرباباً، وقوله:

(١) ينظر على سبيل المثال: تفسير الطبري (٥/ ٥٣٤)، والثعلبي (٨/ ٤٥٦)، والهداية إلى بلوغ النهاية (٢/ ١٠٦١).

﴿يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١)، الاستفهام للإنكار، ومعناه النفي^(٢)، وهو مؤكد للنفي في قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾، وفيه بيان أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر، فيمتنع أن يأمر به النبي ﷺ.

ونزل، لما قال نصارى نجران: «إِنَّ عِيسَى أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوهُ رَبًّا»، أو لما طلب بعض المسلمين السُّجود له ﷺ: ﴿مَا كَانَ﴾: ينبغي ﴿لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ﴾ أي: الفهم للشريعة ﴿وَالنَّبُوَّةَ﴾، ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ: كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ. وَلَكِنْ يَقُولُ: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾: علماء عاملين - منسوب إلى الربّ بزيادة ألف ونون تفخيماً - ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، بالتخفيف والتشديد، ﴿الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: بسبب ذلك: فَإِنَّ فَائِدَتَهُ أَنْ تَعْمَلُوا. ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾، بالرفع استثناءً أي: الله، والنصب عطفًا على «يقول» أي: البشر ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾، كما اتخذت الصابئة الملائكة، واليهود عُزيرًا، والنصارى عيسى. ﴿يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ، بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؟ لا ينبغي له هذا.

وقول المؤلف: (ونزل)... إلى آخره: يشير إلى سبب نزول هذه الآيات^(٢). وقوله: (ينبغي) لعلها لا ينبغي؛ لأن الآية فيها نفي. وقوله: (أي: الفهم للشريعة): تفسير للحكم، لأن معرفة الأحكام لا تحصل إلا بفهم الأدلة وفهم القضايا. وقوله: (يقول): بيان للقول المقدّر الذي يؤمر به النبي.

(١) ينظر: التفسير البسيط (٣٨٨/٥)، والبحر المحيط (٢٣٤/٣).

(٢) ينظر: أسباب النزول (ص ١١٢)، والعجاب في بيان الأسباب (٧٠٤/٢).

وقوله: (عُلِّمَاءُ عاملين)... إلى آخره: هذا: تفسير جامع لمعنى ربانيين^(١).

وقوله: (بالتخفيف والتشديد): إشارة إلى قراءتين؛ في قوله: «تعلمون»، فبتخفيف من العلم، وبالتشديد من التعليم^(٢).

وقوله: (أي: بسبب)... إلى آخره: يبين بذلك أن الباء في قوله: ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ﴾ سببية، ومعنى الكلام: أنكم تكونون ربانيين بسبب تعليمكم الكتاب ودراستكم إياه.

وقوله: (بالرفع)... إلى آخره: فيه إعراب الفعل والجملة، والإشارة إلى قراءتين^(٣)؛ بالرفع، والفاعل هو الله، والجملة مستأنفة، وبالنصب، والفعل معطوف على: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾، والفاعل هو البشر الذي آتاه الله النبوة^(٤).

وقوله: (كما اتخذت)... إلى آخره: بيان لما وقع من اتخاذ الملائكة والنبیین أرباباً.

وقوله: (لا ينبغي له هذا)؛ أي: لا ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة، أن يأمرهم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون.



(١) وهو قول الزمخشري في الكشاف (١/ ٥٧٤)، واختار الطبري أنه من الربان، وهو الذي يرب الناس ويصلح أمورهم، وينحوه قال شيخ الإسلام وأنه منسوب إلى ربان السفينة. ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٥٢٩-٥٣١)، وجامع المسائل (٣/ ٦٣-٦٦).

(٢) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٤٠).

(٣) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٤٠).

(٤) ينظر: مشكل إعراب القرآن (١/ ١٦٤-١٦٥)، وفي الدر المصون (٣/ ٢٧٩) أوجه أخرى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءِ اتَّيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْعُوثَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨١-٨٣].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾؛ أي: اذكروا، أو اذكر حين أخذ الله من النبيين؛ أي: من جميع النبيين.

﴿مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾؛ أي: العهد المؤكد^(١) من جميع النبيين.

﴿لَمَآءِ اتَّيْتُكُمْ﴾؛ أي: للذي آتيتكم من كتاب وحكمة، واللام: موطئة للقسم؛ فالمعنى: والله للذي آتيتكم من كتاب وحكمة ثم بعد هذا الإتياء جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، فقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ﴾ جواب القسم^(٢)، والخطاب للأنبياء، وفيه التفات من الغيبة إلى الحضور ثم قيل؛ المراد: أن يصدق بعضهم بعضاً وينصر بعضهم بعضاً؛ فمعنى الآية: بموجب هذا الميثاق يجب على كل رسول أن يؤمن بمن يجيء بعده وينصره، وعلى هذا فالرسول غير معين؛ بل هذا حكم كل رسول يجيء بعده رسول وهو حي، وقيل: المراد بالرسول -الذي إذا جاء وجب الإيمان به ونصره- هو محمد ﷺ فرض على كل رسول بموجب الميثاق إذا بُعث محمد ﷺ أن يؤمن به وينصره، وهذا هو المشهور عند السلف كما جاء عن علي وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ ذكر القولين ابن كثير، وذكر الأثرين عن علي وابن عباس، وهو أحسن من عبّر عن معنى هذه الآية مختصراً، وهذا نص كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ؛ قال: «يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عيسى

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٨٥٣).

(٢) ينظر: الكشف (١/ ٥٧٦)، والتحرير والتنوير (٣/ ٢٩٩).

عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْهُمَا آتَى اللَّهُ أَحَدَهُمَا مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، وَبَلَغَ أَيُّ مَبْلَغٍ، ثُمَّ جَاءَ رَسُولٌ مِنْ بَعْدِهِ، لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ، وَلَا يَمْنَعَهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّبُوءَةِ مِنْ اتِّبَاعٍ مِنْ بَعَثٍ بَعْدَهُ وَنَصْرَتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآتِيكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾؛ أَي: لَمْهُمَا أُعْطِيَتْكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنَنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ وقال ابن عباس، ومجاهد، والربيع، وقتادة، والسدي: يعني عهدي.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿إِصْرِي﴾؛ أَي: ثَقُلَ مَا حَمَلْتُمْ مِنْ عَهْدِي، أَي: مِيثَاقِي الشَّدِيدِ الْمُؤَكَّدِ.

﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ؛ أَي: عَنْ هَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨٢).

قال علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ، لِثَنِّ بَعْثِ مُحَمَّدٍ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ، وَأَمْرِهِ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ: لِثَنِّ بَعْثِ مُحَمَّدٍ (١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُمْ أَحْيَاءُ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ، وَقَالَ طَاوُوسٌ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَقَتَادَةُ: أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ أَنْ يَصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهَذَا لَا يُضَادُّ مَا قَالَهُ عَلِيُّ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَلَا يَنْفِيهِ، بَلْ يَسْتَلْزِمُهُ وَيَقْتَضِيهِ (٢).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أَي: مَنْ أَعْرَضَ بَعْدَ أَخْذِ الْمِيثَاقِ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ؛ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَهَذَا وَاضِحٌ إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْأُمَمُ الَّذِينَ أُمِرَ الْأَنْبِيَاءُ بِأَخْذِ الْمِيثَاقِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ التَّوَلَّى، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ بِهِمُ الْأَنْبِيَاءُ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ؛

(١) وفي طبعة طيبة بتحقيق السلامة (بعث محمدًا)، والمثبت من طبعة قرطبة.

(٢) تفسير ابن كثير - ط السلامة - (٢/ ٦٧-٦٨)، وطبعة قرطبة (٣/ ١٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿لَيْتَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾، الاستفهام للإنكار والتوبيخ^(١)؛ المعنى: أغير دين الله يبغون؛ أي: يطلبون، وهو دين الإسلام وهو الدين الحق، وكل دين سوى دين الإسلام باطل من اليهودية والنصرانية والوثنية؛ كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران]^(٢)، وقوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ [آل عمران: ٨٣]؛ أي: ولله أسلم من في السموات والأرض؛ أي: استسلم وانقاد، وهذا هو الاستسلام القهري العام فيدخل فيه البر والفاجر والمؤمن والكافر؛ لأنهم جميعاً خاضعون لحكمه الكوني^(٣) ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾؛ أي: طائعين وكارهين، ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]؛ أي: يوم القيامة فيحكم بينهم ويجزيهم بأعمالهم.

﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ﴾: حين ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾: عهدهم ﴿لَمَّا﴾ -بفتح اللام للابتداء وتوكيد معنى القسم الذي في أخذ الميثاق، وكسرِها متعلّقة بـ«أخذ». وما: موصولة على الوجهين - أي: للذي ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ إياه، وفي قراءة: «آتيناكم»، ﴿مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ﴿مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ - وهو محمد - ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾: جوابُ القسم، إن أدركتموه، وأمّمهم تبع لهم في ذلك. ﴿قَالَ﴾ تعالى لهم: ﴿أَقَرَرْتُمْ﴾ بذلك، ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾: قبلتم ﴿عَلَى ذَلِكَ إِصْرِي﴾: عهدي؟ ﴿قَالُوا: أَقَرَرْنَا. قَالَ: فَاشْهَدُوا﴾ على أنفسكم وأتباعكم بذلك،

(١) ينظر: تفسير الخازن (١/ ٢٦٥).

(٢) تنظر: (ص ١٤١).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٦٩)، وتفسير السعدي (ص ١٣٧).

﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عليكم وعليهم. ﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾: أعرض
 ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الميثاق ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.
 ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ بالياء أي: المتولون، والتاء، ﴿وَلَهُ أَسْلَمٌ﴾:
 انقاد ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، طَوْعًا﴾: بلا إباء، ﴿وَكَرْهًا﴾ بالسيف
 ومُعَايَنَةً مَا يُلْجِئُ إِلَيْهِ، ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء والياء. والهمزة للإنكار.

وقول المؤلف: (اذكر): جعل الخطاب للنبي ﷺ، وهذا التقدير يقتضي
 أن: «إذ» مفعول به.
 وقوله: (حين): بيان لمعنى: إذ، وأنه اسم زمان.
 وقوله: (عهدهم): بيان لمعنى: الميثاق فإنه العهد المؤكد.
 وقوله: (بفتح اللام)... إلى آخره: يبين معنى اللام على القراءتين^(١)
 بالفتح والكسر؛ فبالفتح هي لام التوكيد، وبالكسر حرف جر للتعليل،
 والجار والمجرور متعلق بالفعل أخذ، و«ما» اسم موصول بمعنى الذي^(٢).
 وقوله: (إيائه): تقدير لعائد الاسم الموصول، وذكر الضمير بلفظ
 المنفصل، والأولى أن يكون بلفظ المنفصل آتيتكموه.
 وقوله: (وفي قراءة: «آتيناكم»): بصيغة الجمع، والقراءة الأولى بلفظ
 المفرد «آتيتكم»^(٣).
 وقوله: (وهو محمد): هذا هو القول المشهور في المراد بالرسول في
 الآية، وهو المروي عن علي وابن عباس^(٤).

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٤١).

(٢) ينظر: الدر المصون (٣/ ٢٨٤).

(٣) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٤١).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٥٤٠-٥٤٢)، وتقدم قريباً النقل عن ابن كثير.

وقوله: (جوابُ القسم)... إلى آخره: يعني: القسم المفهوم من الميثاق، ووجوب الإيمان بالرسول ونصره على مَنْ أدركه وهو حي من الرسل وأممهم، هذا ما تضمنه كلام المؤلف.
وقوله: ﴿قَالَ﴾ تعالى لهم: بيان أنَّ الجملة التالية: مقول القول المذكور.

وقوله: (بذلك): أي: بما ذكر في الميثاق.
وقوله: (قَبِلْتُمْ): تفسير: لأخذتم؛ فسر الأخذ بالقبول؛ كقوله تعالى: كقوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤].
وقوله: (عهدي؟): فسّر الإصر بالعهد، لأنَّ الإصر هو الشيء الثقيل، والعهد المؤكد ثقيل؛ لِمَا يقتضيه من وجوب الوفاء^(١).

وقوله: (على أنفسكم وأتباعكم بذلك): جعل الخطاب للأنبياء.
وقوله: (بذلك): أي: بما أقرتم به.
وقوله: (عليكم): أي: بالدعوة والبلاغ.
وقوله: (وعليهم): بأنهم قد قامت عليهم الحجة.
وقوله: (أعرض): الإعراض يكون بالقلب بترك العلم وقبول الحق، ويكون بالبدن بترك العمل.

وقوله: (بالياء)... إلى آخره: يشير إلى قراءتين «يبغون» خبر عن الغائب «وتبغون» على وجه الخطاب^(٢).

وقوله: (انقاد): تفسيرٌ لأسلم.
وقوله: (بلا إباء) أي: بلا تمنع؛ بل استجابة برضا.
وقوله: (بالسيف)... إلى آخره: يريد أنَّ إسلامهم كان خوفاً من القتل.

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ١٠٧)، والمفردات في غريب القرآن (ص ٧٨).

(٢) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٤١).

وقوله: (بالتاء والياء): يشير: إلى قراءتين في الآية «ترجعون» على وجه الخطاب، و«يرجعون» على وجه الخبر عن الغائب^(١).
 وقوله: (والهمزة للإنكار): يريد همزة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ﴾، وكان المناسب أن يذكر ذلك في أول الجملة.



(١) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٤١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٤-٨٥].

هذا أمرٌ من الله لنبيه أن يقول مقرًّا ومبلِّغًا ومعلِّمًا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، وهو الكتاب والحكمة، ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ من الشرائع والكتب، ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة، ﴿وَعِيسَى﴾ وهو الإنجيل، ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: وما أُوتي النبيون من قبلهم، وهذا من عطف العام على الخاص.

وقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: نؤمن بجميعهم وبجميع ما أنزل عليهم، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤)؛ أي: ونحن لله مستسلمون منقادون لا نعبد غيره ولا نتبع إلا شرعه، وهذا هو الإسلام الذي هو دين الله، وهو ما بعث به رسله ولا يرضى دينًا سواه^(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ أي: ومن يطلب ويريد أن يدين بغير دين الإسلام؛ فلن يقبل الله منه؛ ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥) الخسران المبين؛ لأنه فاته كل خير، وباء بكل شر؛ نعوذ بالله من ذلك، وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦) [البقرة]، وقد دلت الآيتان على ثلاثة من أصول الإيمان نصًّا: وهي الإيمان بالله وكتبه ورسله، ودلَّتا بطريق اللزوم على سائر أصول الإيمان، وهي: الإيمان بالملائكة، وبالיום الآخر، وبالقدر خيره وشره.

وأما أصول الإسلام الظاهرة العملية؛ فقد جمعها النبي ﷺ بقوله: «بُني الإسلام على خمس؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام

(١) ينظر: شرح التدمرية لشيخنا (ص ٤٨٤).

الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»^(١)، وفسّر بها الإسلام في حديث جبريل^(٢).

﴿قُلْ﴾ لهم، يا محمد: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا، وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾: ﴿أَوْلَادِهِ﴾، ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴿بِالتَّصَدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ﴾، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون في العبادة.

ونزل فيمن ارتدّ ولحق بالكفار: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، لمصيره إلى النار المؤبدة عليه.

وقول المؤلف: (لهم)؛ أي: لمن تقدم ذكرهم.

وقوله: (يا محمد): بيان للمخاطب بهذا الأمر.

وقوله: (أولاده)؛ أي: أولاد يعقوب، وهم: الأسباط^(٣).

وقوله: (بالتصديق والتكذيب): بيان للمراد بالتفريق؛ أي: بتصديق بعضهم وتكذيب بعض.

وقوله: (مخلصون في العبادة): هذا تفسير للإسلام بأنه عبادة الله وحده لا شريك له.

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٦) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، (١٠) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم (٨) بسياق أطول عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) قال ابن عباس: «الأسباط: بنو يعقوب، كانوا اثني عشر رجلاً، كل واحد منهم ولد سبطاً؛ أمة من الناس» ينظر: تفسير الطبري (٢ / ٧ - ٨)، (٢ / ٥٩٧ - ٥٩٩)، (٥ / ٥٥٤).



وقوله: (ونزل)... إلى آخره: يبين بهذا سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(١).

وقوله: (لمصيره إلى النار المؤبدة عليه): الأولى أن تكون العبارة بالباء لا باللام؛ لأنَّ المقصود بيان سبب ذلك الخسران المذكور في قوله: ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.



(١) ينظر: العجّاب في بيان الأسباب (٧٠٧/٢).

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (٩٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۗ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٩١) ﴿آل عمران: ٨٦-٩١﴾.

يخبر تعالى عن بُعد هدايته تعالى لمن هذه صفتهم: من الكفر بعد الإيمان، وشهادتهم أن الرسول حق، وقد جاءتهم البينات وقامت عليهم حجج الله، وفي هذا تهديد لهم بأن لا يهديهم الله عقوبة على كفرهم، بعد تبين الحق لهم، فكان جزاؤهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فبعدوا عن رحمة الله وباؤوا بالعذاب خالدين في لعنة الله، بعيدين من رحمته، إلا من تاب منهم بأن رجع إلى الإيمان وعمل صالحاً؛ فإن الله يتوب عليه ويغفر له ما كان منه من الردة، ويرحمه فينجيه من العذاب لأنه تعالى غفور رحيم، ثم أخبر تعالى عن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفراً بأن تمادى في كفره حتى مات؛ فلن يقبل الله توبته يوم القيامة، وأن هؤلاء هم الضالون حقاً، ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الذين كفروا وماتوا وهم كفار؛ أن الله لا يقبل منهم الفداء لو افتدى بملء الأرض ذهباً؛ بل مصيرهم إلى العذاب الأليم وما لهم من ناصرين ينصرونهم فينقذونهم من عذاب الله، وهذا غاية الشقاء - عياداً بالله -.

﴿كَيْفَ﴾ أي: لا يهدي الله قوماً كفروا، بعد إيمانهم وشهدوا

أي: وشهادتهم ﴿أنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ، و﴾ قد ﴿جاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: الحجج

الظاهرات على صدق النبي، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين؟ ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: اللعنة أو النار المدلول بها عليها، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ، وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾: يُمهلون، ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَأَصْلَحُوا﴾ عملهم. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

ونزل في اليهود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعيسى ﴿بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ﴾ بموسى، ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد، ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا غَرَّغُوا أو ماتوا كُفْرًا، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ﴾: مقدار ما يملؤها ﴿ذَهَبًا، وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ -أدخل الفاء في خبر «إِنَّ» لشبه «الذين» بالشرط، وإيذاناً بتسبب عدم القبول عن الموت على الكفر- ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مؤلم، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾: مانعين منه.

وقول المؤلف: (أي: لا): يبين أن الاستفهام للإنكار، ومعناه: النفي^(١).
 وقوله: (أي: وشهادتهم): يبين أن فعل شهدوا في تأويل اسم معطوف على إيمان؛ المعنى: كفروا بعد إيمانهم بالله، وشهادتهم أن الرسول حق.
 وقوله: (قد): يريد أن يبين أن جملة: وجاءهم البينات حالية؛ فالتقدير: وقد جاءهم.

وقوله: (الحجج الظاهرات على صدق النبي): الحجج الظاهرات؛ تفسير للبيانات، وهي أدلة نبوته ﷺ الكونية والشرعية.

(١) ينظر: تفسير الثعلبي (٨/٤٨٦)، والقرطبي (٤/١٢٩).

وقوله: (أي: الكافرين؟): فسر الظلم بالكفر، وهو يوافق قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقوله: (أي: اللعنة أو النار المدلول بها عليها): بيان لمرجع الضمير المجرور في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، فذكر أن الضمير يرجع إلى اللعنة أو النار، وإن لم يذكر لفظ النار في الآية لكن يدل عليها ذكر اللعنة، فمن حقت عليه لعنة الله فهو في النار ولا بد^(١).

وقوله: (يُمهلون): تفسيراً لـ «ينظرون»؛ المعنى: أن الكفار إذا وردوا النار لا يُمهلون في دخولها؛ بل يدخلونها من أول وهلة.

وقوله: (عملهم): تقدير لمفعول «أصلحوا».

وقوله: (بهم): بيان لمتعلق المغفرة والرحمة، وهم الذين تابوا من الكفر، وأصلحوا العمل.

وقوله: (ونزل في اليهود): يشير إلى سبب نزول الآية، وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾^(٢).

وقوله: (بعيسى): خص كفرهم بعيسى بناءً على أن الآية نزلت في اليهود، وأول كفرهم كفرهم بعيسى عَلَيْهِ السَّلَام، والآية شاملة لأنواع كفر اليهود السابقة واللاحقة.

وقوله: (بموسى): إيمان بني إسرائيل بموسى لم يكن مستقرّاً؛ بل لم يؤمن به إلا ذرية من قومه؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ [يونس: ٨٣] الآية، وقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤]، ولما ذهب موسى لميقات ربه عبدوا العجل في غيبته عنهم.

(١) ينظر: التيسير في التفسير (٤/ ١٤١)، والمحرر الوجيز (٢/ ٢٧٩).

(٢) ينظر: أسباب النزول (ص ١١٥)، والعجاب في بيان الأسباب (٢/ ٧١٣).

وقوله: (بِمَحَمَّدٍ): المعنى: ازدادوا كفرًا على كفرهم السابق لما كفروا بالنبي محمد ﷺ، وهذه الآية تشبه قوله: ﴿فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] ^(١).

وقوله: (إِذَا غَرَّغَرُوا أَوْ مَاتُوا كَفَّارًا): بيان لوقت عدم قبول التوبة، وهو وقت غرغرة الروح في الحلقوم، وهو وقت الإشراف على الموت، وبعد الموت لا تُقبل التوبة من باب أولى، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

وقوله: (مَقْدَارٌ مَا يَمْلُؤُهَا): لأنَّ ملء الأرض ذهبًا ليس بواقع. وقوله: (أَدْخَلَ الْفَاءَ)... إلى آخره: يريد قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ﴾، ويبين أنَّ المقتضي لإدخال الفاء في خبر «إِنَّ»؛ كون الاسم الموصول «الذين» متضمن للشرط، وللدلالة على أنَّ عدم القبول مترتب على الموت على الكفر ترتيبَ الجزاء على الشرط ^(٢).



(١) قال شيخ الإسلام: «وأخبر أنهم باؤوا بغضب على غضب؛ فإنهم ما زالوا يفعلون ما يُغضب الله عليهم، فإما أن يراد بالثنية: تأكيد غضب الله عليهم، وإما أن يراد به مرتان، والغضب الأول: تكذيبهم المسيح والإنجيل، والغضب الثاني: لمحمد والقرآن». الجواب الصحيح (١/ ٣٩٨). وينظر: تفسير الطبري (٢/ ٢٥٠).

(٢) ينظر: الكشف (١/ ٥٧٩)، والتحريير والتنوير (٣/ ٣٠٥-٣٠٦).

وقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

يخبر تعالى مرغباً في الإنفاق في وجوه الخير؛ أنه لا يُنال العمل المبرور إلا بالإنفاق من المال الطيب المحبوب للناس؛ لأن ذلك أدل على الإيمان بوعده تعالى، والرغبة في ثوابه، ثم أخبر تعالى بأنه عليم بكل ما ينفقون قليلاً كان أو كثيراً، وعلیم بنياتهم في نفقاتهم، وسيجزئهم الجزاء الأوفى؛ بل يضاعفه؛ الحسنه بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء ما شاء.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ أي: ثوابه - وهو الجنة - ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا﴾: تَصَدَّقُوا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ من أموالكم، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، فيُجَازِي عليه.

وقول المؤلف: (وهو الجنة): فسّر البرّ بالجنة^(١)، وهو من تفسير السبب بالمسبب^(٢)؛ فالبر وهو كل عمل صالح يفضي بصاحبه إلى الجنة؛ كما قال ﷺ: «الصدق يهدي إلى البر، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنة»^(٣).
وقوله: (تَصَدَّقُوا): الصدقة: نوع من الإنفاق؛ فإنّ الإنفاق يكون: صدقة وصلة ونفقة في سبيل الله، وغير ذلك من وجوه البر.
وقوله: (من أموالكم): المال المحبوب عند صاحبه هو النفس الجيّد.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٥٧٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٠٣).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (٢/ ٢٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



وقوله: (فيُجازي عليه): يريد أن ذكر علمه تعالى بالشيء المنفق
يتضمن الوعد بالمجازاة عليه بالثواب، وفيه الحث على الإنفاق.



وقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٥].

يخبر تعالى أنه أحل لبني إسرائيل كل أنواع الطعام، إلا ما حرم إسرائيل وهو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد روي عن ابن عباس وغيره أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أصابه عرق النسا فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها تقرباً إلى الله تعالى^(١)؛ فكانت الإبل حراماً لحومها وألبانها على بني إسرائيل، وذلك قبل نزول التوراة، ثم بعد نزول التوراة حرم الله عليهم أشياء من الطيبات عقوبة على ظلمهم وبغيهم؛ كما قال تعالى: ﴿فِطْرًا مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقد ذكر ابن كثير^(٢) لمناسبة هذه الآية لما قبلها وجهين:

أحدهما: مناسبتها للآية التي قبلها: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وتظهر هذه المناسبة بما ذكر عن إسرائيل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ من تحريم لحوم الإبل وألبانها تقرباً إلى الله تعالى، وكانت أحب الطعام والشراب إليه.

الوجه الثاني: أن هذه الآية جاءت ردّاً على اليهود في إنكار النسخ وامتناعه على الله تعالى للتوصل إلى جحد نبوة محمد ﷺ، فأخبر تعالى أن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، وذلك قبل نزول التوراة، ثم حرم عليهم في التوراة أشياء من الأطعمة، بل من الطيبات،

(١) أخرجه أحمد (٢٤٨٣)، والترمذي (٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٩٠٢٤)، وينظر: الصحيحة (١٨٧٢).

(٢) (٧٦/٢).

وذلك نسخ؛ فردّ سبحانه في هذه الآية على اليهود فيما افتروه في شأن النسخ كما رد على النصارى في الآيات السابقة في شأن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٦)، فيما زعمتم ليظهر بطلان زعمكم أنّ ما حرّم في التوراة من الطعام كان حراماً قبل نزولها، فإنّ ذلك من افتراء الكذب على الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١٧)، فدلّت الآية على أنّ اليهود في إنكار النسخ مفترّون ظالمون؛ ثم قال تعالى لنبيه: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾؛ أي: في خبره أنّ كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل من قبل أن تنزل التوراة إلا ما حرم إسرائيل على نفسه؛ ثم أمر تعالى اليهود والنصارى بإتباع ملة إبراهيم التي هي الإسلام لا يهودية ولا نصرانية، ولهذا قال تعالى: ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٨)، وقال تعالى فيما تقدم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٩) [آل عمران].

ونزل، لما قال اليهود: «إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ لُحُومَ الْإِبِلِ وَالْبَنَاهَا»: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا﴾: حلالاً لبني إسرائيل، إلا ما حرّم إسرائيل: يعقوبُ ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ - وهو الإبل، لما حصل له عِرْقُ النِّسَاءِ، بالفتح والقصر، فنذر إن شُفي لا يأكلها فحرّم عليهم - ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾. وذلك بعد إبراهيم، ولم يكن على عهده حراماً، كما زعموا. ﴿قُلْ لَهُمْ﴾: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا﴾، ليتبين صدق قولكم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه. فبُهِتُوا ولم يأتوا بها. قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي: ظهور الحجة، بأنّ التحريم إنّما كان من جهة يعقوب، لا على عهد إبراهيم، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: المتجاوزون الحقّ إلى الباطل.

﴿قُلْ: صَدَقَ اللَّهُ﴾ في هذا، كجميع ما أخبر به. ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ التي أنا عليها، ﴿حَنِيفًا﴾: مائلاً عن كلِّ دين إلى الإسلام، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقول المؤلف: (ونزل)... إلى آخره: بيان لسبب نزول هذه الآية^(١).
 وقوله: (حلالاً): الحل والحلال معناهما واحد، وضدهما الحرام^(٢).
 وقوله: (يعقوب): بيان للمراد بإسرائيل؛ وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَام^(٣).
 وقوله: (وهو الإبل)... إلى آخره: بيان لما حرم يعقوب على نفسه، وبيان لسبب هذا التحريم.
 وقوله: (بافتح والقصر): ضبط لكلمة: «النَّسَا»، وأنها بفتح النون وقصر الألف.
 وقوله: (وذلك)... إلى آخره: يبين أن ما حرم إسرائيل على نفسه كان حلالاً لإبراهيم، وبهذا يثبت النسخ.
 وقوله: (لهم): بيان للمخاطبين بقوله: ﴿فَاتُّوا﴾، وهم اليهود.
 وقوله: (ليتبين صدق قولكم): بيان للغاية من طلب إحضار التوراة.
 وقوله: (فيه): يعني: فيما ادعوه.
 وقوله: (فبُهِتُوا ولم يأتوا بها): بيان لما وقع من اليهود بعد مطالبتهم بالتوراة.
 وقوله: (أي: ظهور الحجة)... إلى آخره: بيان لمرجع اسم الإشارة في قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾.

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١١٥)، والعجاب في بيان الأسباب (٧١٦/٢).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٦٧/١١).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (١/٥٩٣)، (٥/٥٧٧).

وقوله: (المتجاوزون)... إلى آخره: تفسير ﴿الظَّالِمُونَ﴾، ولو قال: «الكافرون» كان أولى.

وقوله: (في هذا)... إلى آخره: يُشير إلى ما أخبر الله به من حلّ جميع الطعام لبني إسرائيل قبل نزول التوراة، إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه، فقد حرّم عليهم؛ فمعنى كلام المؤلف: أنّ الله صادق في هذا الخبر كما أنه صادق في جميع أخباره.

وقوله: (التي أنا عليها): يريد أنّ اتباعهم لملة إبراهيم اتباع للرسول ﷺ لأنه على ملته.

وقوله: (مائلاً)... إلى آخره: تفسيرٌ للحنيف وهو من الحنف ميل يكون في القدم^(١).



وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

يخبر تعالى بأن أول بيت وضع في الأرض للعبادة فيه هو البيت الذي بناه إبراهيم وإسماعيل ببكة، وهي: مكة، وهما اسمان من أسماء البلد الأمين^(١)، الذي حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، وقد وصف الله هذا البيت بالبركة وهي كثرة الخير، وهو ما يحصل لِقَصَادِهِ من الأجور والمنافع الدينية والدنيوية؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧]، ووصفه الله بأنه هدى للعالمين؛ لأن قصده في حج أو عمرة من أجل الأعمال الصالحة التي يهدي الله بها ولها من شاء من عباده، وفيه وحوله شعائر الله وهي: معالم الدين؛ كالصفا والمروة، من عظمها كان من المتقين المهيدين المهتدين؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْكُمْ شَعْرًا فَيَنْهَاهُمْ عَنْ قَوْلِ الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾، خبر من الله بوعد من دخله بالأمن الكوني والشرعي، وهو ما دعا به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام بقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فأجاب الله دعاءه فسماه البلد الأمين، وسمى الكعبة البيت العتيق؛ قيل: أعتقه الله من كيد الجبارين المعتدين^(٢)، ومن ذلك إهلاكه أصحاب الفيل، وهذا من الأمن الكوني.

ومن الأمن الشرعي تحريم القتل والقتال في الحرم كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]، وقال ﷺ: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن

(١) ينظر: أخبار مكة للفاكهي - ط ٤ - (٢/ ٢٨٠).

(٢) ينظر: أخبار مكة للأزرقي (١/ ٢٨٠-٢٨٢).

أَحَدُ تَرْخُصَ لِقَاتِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا، فَقُولُوا: إِنْ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذِنَ لَكُمْ^(١).

ومن الأمن الشرعي الكوني ما كان عليه أهل الجاهلية من تعظيم الحرم، حتى إنَّ الرجل يلقى قاتل أبيه في الحرم فلا يعرض له، وذهب جمهور السلف والفقهاء أَنَّ مَنْ جَنَى خَارِجَ الْحَرَمِ ثُمَّ لَجَأَ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُقْتَصَّ مِنْهُ وَلَا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ فِي الْحَرَمِ؛ بَلْ يُضْطَرُّ إِلَى الْخُرُوجِ أَوْ يُخْرَجُ فَيُفْعَلُ بِهِ مَا وَجِبَ عَلَيْهِ، أَمَا مَنْ قَتَلَ، أَوْ أَحْدَثَ فِي الْحَرَمِ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ وَيُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ فِي الْحَرَمِ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي انْتَهَكَ حُرْمَةَ الْحَرَمِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ حُرْمَةٌ^(٢)، وينبغي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الْأَمْنَ الشَّرْعِيَّ يَجِبُ الْقِيَامُ بِهِ وَتَحْقِيقُهُ، وَأَمَّا الْأَمْنَ الْكُونِي فَهُوَ تَابِعٌ لِقَدْرِ اللَّهِ، وَالْغَالِبُ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - تَحَقُّقُهُ، وَقَدْ يَتَخَلَّفُ أحيانًا كما جرى في حوادث؛ أشدها وأشنعها ما فعله القرامطة سنة ثلاث مئة وسبعة عشر مِنْ قَتْلِ الْحُجَّاجِ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَقْلَعَهُمُ الْحَجَرُ الْأَسْوَدَ وَالذَّهَابَ بِهِ إِلَى دِيَارِهِمْ، وَلَمْ يَرُدُّوهُ إِلَّا بَعْدَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً^(٣)، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدٍ، وَلَهُ الْحَكْمَةُ الْبَالِغَةُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: هذه الآية هي الدليل من القرآن على فرض الحج في العمر مرة، والصحيح أَنَّ فرض الحج كان في السنة التاسعة^(٤)؛ فمعنى الآية: حُجُّ الْبَيْتِ حَقٌّ لِلَّهِ عَلَى الْمُسْتَطِيعِ مِنَ النَّاسِ، وَالْمُسْتَطِيعُ مَنْ وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى الْبَيْتِ وَهُوَ: الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ^(٥)، وَمَنْ وَجَدَ السَّبِيلَ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَحْجَّ بِيَدْنِهِ وَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ

(١) أخرجه البخاري (١٠٤)، (٤٢٩٥)، ومسلم (١٣٥٤) عن أبي شريح العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: المغني (٤٠٩/١٢)، (٤١٣/١٢)، وزاد المعاد - ط المجمع - (٥٤٦/٣) وما بعدها.

(٣) ينظر: البداية والنهاية (٣٧/١٥)، (٢٠٤/١٥).

(٤) ينظر: زاد المعاد (١٢٢/٢ - ١٢٣).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٦٠٩/٥).

يُنِيب مَنْ يَحِجُّ عَنْهُ، وإعراب الجملة: الجار والمجرور الأول: خبر مقدّم متعلق بمحذوف، واللام تفيد الاستحقاق والاختصاص كما يقتضيه تقديم الخبر^(١)، وقوله: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾: هذا هو اللفظ الدال على الوجوب فيفيد وجوب الحج على جميع الناس، ولذا كان الحج فرض عين، والحج لغة: القصد إلى معظم^(٢)، وفي الشرع: القصد إلى البيت الحرام والمشاعر العظام بذكر الله وفعل المناسك كما أمر الله وبيّن رسوله^(٣)، والحج هو المبتدأ، وفيه لغتان: فتح الحاء وكسرها، وقُرئ بهما في هذه الآية^(٤)، و«أل»: في البيت، للعهد الذكري لتقدّم قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾، و«مَنْ» في قوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ﴾، بدل من الناس؛ قيل: بدل بعض من كل، فيكون مخصّص لعموم الناس؛ فالتقدير: على المستطيع منهم، وقيل: الموصول بدل كل من كل، وعليه فالناس من العموم الذي أريد به الخصوص، وعلى الأوّل من العام المخصوص^(٥)، والضمير في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾، يحتمل أنه عائد إلى الحج، ويحتمل أنه عائد إلى البيت^(٦)، وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾؛ أي: بجحده وجوب الحج فمن جحد وجوب الحج كفر إجماعاً، ومن عزم على تركه أبداً فمختلف في كفره والأظهر أنه كالجاحد^(٧)، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١٧)؛ أي: لا يضره كفر الكافرين ولا معصية العاصين ولا تنفعه طاعة المطيعين، وذلك لكمال غناه عن كل ما سواه وهو الحميد؛ أي: المحمود فله الحمد كله في السموات والأرض والدنيا والآخرة.

(١) ينظر: الدر المصون (٣/٣٢٣)، وإعراب القرآن وبيانه (١/٥٦٨).

(٢) ينظر: العين (٣/٩).

(٣) ينظر: التعريفات للجرجاني (ص ٨٢).

(٤) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/٢٤١).

(٥) ينظر: الدر المصون (٣/٣٢١).

(٦) ينظر: الكشف (١/٥٩٤).

(٧) ينظر: الإيمان الكبير (ص ٢٣٧)، والإيمان الأوسط (ص ٥٥٤).

ونزل، لما قالوا: «قَبِلْنَا قَبْلَ قِبَلْتِكُمْ»: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ مُتَعَبِّدًا ﴿لِلنَّاسِ﴾ فِي الْأَرْضِ ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ - بِالْبَاءِ لُغَةً فِي «مَكَّةَ» سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا بَبُكُ أَعْنَاقِ الْجَبَابِرَةِ، أَيْ: تَدَقُّهَا. بَنَاهُ الْمَلَائِكَةُ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ، وَوُضِعَ بَعْدَهُ الْأَقْصَى، وَبَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ سَنَةً، كَمَا فِي حَدِيثِ الصَّحِيحِينَ. وَفِي حَدِيثٍ «أَنَّهُ أَوَّلُ مَا ظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، عِنْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، زُبْدَةٌ بَيْضَاءُ، فَدَحِيتِ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهَا» - ﴿مُبَارَكًا﴾: حَالٌ مِنَ «الَّذِي» أَيْ: ذَا بَرَكَةٍ، ﴿وَهَدَى لِلْعَالَمِينَ﴾ لِأَنَّهُ قَبِلْتَهُمْ - ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾، مِنْهَا ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَيْ: الْحَجَرُ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ عِنْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ فَاتَّرَ قَدَمَاهُ فِيهِ، وَبَقِيَ إِلَى الْآنَ مَعَ تَطَاوُلِ الزَّمَانِ وَتَدَاوُلِ الْأَيْدِي عَلَيْهِ، وَمِنْهَا تَضَعِيفُ الْحَسَنَاتِ فِيهِ وَأَنَّ الطَّيْرَ لَا يَعْلُوهُ، ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾: لَا يُتَعَرَّضُ إِلَيْهِ بِقَتْلٍ أَوْ ظُلْمٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ - ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ وَاجِبٌ - بِكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِهَا، لَغْتَانِ فِي مَصْدَرٍ: حَجٌّ قَصْدٌ - وَيُبَدَّلُ مِنَ «النَّاسِ» ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: طَرِيقًا، فَسَّرَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالزَّادِ وَالرَّاحِلَةِ. رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَغَيْرُهُ^(١). ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بِاللَّهِ أَوْ بِمَا فَرَضَهُ مِنَ الْحَجِّ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، وَعَنِ عِبَادَتِهِمْ.

وقول المؤلف: (ونزل)... إلى آخره: يشير إلى سبب نزول الآيات التالية^(٢)، والقائلون: «قَبِلْنَا قَبْلَ قِبَلْتِكُمْ» هم اليهود.

(١) برقم (١٦١٣)، (١٦١٤) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصححه، وروى عن ابن عمر وابن عباس وعائشة وجماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولكن ضعفه النقاد. ينظر: نصب الراية (٧/٣)، والإرواء (٩٨٨).

(٢) كذا في تفسير النسفي (١/٢٦٥)، وبنحوه في تفسير البغوي (٢/٦٩). وينظر: العجائب في بيان الأسباب (٧١٧/٢).

وقوله: (مُتَعَبِّدًا): بيان لحكمة وضع البيت.
 وقوله: (بالباء، لغة في «مكة»)... إلى آخره: هذا يدل على أنه لا فرق بين بكة ومكة؛ بل هما اسمان لمسمى واحد^(١)، ثم يبين معنى البك ولماذا سميت مكة بكة^(٢).

وقوله: (بناء الملائكة قبل خلق آدم): إلى قوله: ((زُبْدَةٌ بَيْضَاءُ، فَذُحِيتِ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ)). كل هذا من الروايات الإسرائيلية^(٣) التي لا تُصَدَّق ولا تُكذَّب، لكن قوله: (بناء الملائكة قبل خلق آدم)، يردُّه ما جاء في حديث أبي ذر في شأن بناء البيت والمسجد الأقصى قال: قلت: يا رسول الله كم بينهما؟ قال: «أربعون عامًا»^(٤).

وقوله: (حَالٌ)... إلى آخره: يبين أنَّ ﴿مُبَارَكًا﴾ منصوب على الحال، وصاحب الحال هو الاسم الموصول في قوله: ﴿لِلَّذِي﴾.
 وقوله: (لأنه قبلتهم): بيان لوجه وصف البيت بأنه هدى.
 وقوله: (منها): يريد أنَّ من الآيات البينات مقام إبراهيم.
 وقوله: (أي: الحجر)... إلى آخره: بيان للمراد بمقام إبراهيم وما ذكره صحيح إلا قوله: أنَّ الطيور لا تعلوه^(٥).
 وقوله: (لا يُتَعَرَّضُ إليه)... إلى آخره: بيان للمراد بالأمن الموعود به من دخل الحرم.

(١) على لغة مازن لأنهم يدلون الباء ميماً. ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ١٠٧)، والمحزر الوجيز (٢/ ٢٨٩).

(٢) ينظر: معاني القرآن للزجاج (١/ ٤٤٥)، وزاد المسير (١/ ٣٠٦).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٥٩١)، والثعلبي (٨/ ٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، (٣٤٢٥)، ومسلم (٥٢٠).

(٥) قال ابن عطية في المحزر الوجيز (٢/ ٢٩٢): «وهذا كله عندي ضعيف، والطيور تُعَايَن تعلوه».

وقولُه: (واجِبٌ)؛ أي: حج البيت واجب لله على الناس.
 وقولُه: (بكسر الحاء وفتحها)... إلى آخره: يبين أنَّ لفظ الحج مصدر
 لحج، وفيه لغتان فتح الحاء وكسرها، وقد قُرئ بهما، يعني: فيها قراءتان
 بكسر الحاء وفتحها.
 وقولُه: (طريقًا)... إلى آخره: بيان لمعنى السبيل في اللغة^(١)، ومعنى
 السبيل في الشرع.
 وقولُه: (بالله)... إلى آخره: يبين أنَّ الكفر في الآية فيه قولان؛ قيل:
 المراد به الكفر بالله، وقيل: جحد فرض الحج^(٢).
 وقولُه: (الإنسِ والجنّ)... إلى آخره: بيان للمراد بالعالمين.



(١) ينظر: لسان العرب (٣١٩/١١).

(٢) تنظر هذه الأقوال وغيرها في: تفسير الطبري (٦١٨/٥)، وزاد المسير (٣٠٩/١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩) [آل عمران: ٩٨-٩٩].

يأمر الله نبيه أن ينكر على أهل الكتاب، - وهم اليهود - كفركم بآيات الله التي جاء بها موسى، وهي: التوراة، والتي جاء بها محمد ﷺ وهي: القرآن، وأمره أن يوبّخهم على كفرهم، مع أن الله شهيد عليهم مطلع على أعمالهم، ثم أمره الله أن ينكر عليهم صدق من آمن بالله عن سبيل الله، وهي (١) دين الله الإسلام، وهي الصراط المستقيم، وذمهم تعالى بقبيح فعلهم وسوء قصدهم؛ فقال: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: تبغون لمن آمن الضلال، وهو الزيغ عن سبيل الحق (٢)، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾؛ أي: تفعلون ما تفعلون من الصد عن سبيل الله وأنتم تعلمون أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، ثم هددهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٣)؛ أي: والله غير غافل عن الذي تعملونه من الكفر بآيات الله والصد عن سبيله؛ بل هو تعالى حاضر مطلع على أعمالكم؛ أي: وسيجزيكم بها.

﴿قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: القرآن، ﴿واللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾، فيجازيكم عليه؟
 ﴿قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، لِمَ تَصُدُّونَ﴾: تَصْرِفُونَ ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾
 أي: دينه ﴿مَن ءَامَنَ﴾، بتكذيبكم النبي وكنتم نعتة، ﴿تَبْغُونَهَا﴾ أي: تطلبون السبيل ﴿عِوَجًا﴾: مصدر بمعنى: مُعَوَّجَةٌ أي: مائلة عن الحق، ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾: عالمون بأن الدين المرصّي هو القيم دين الإسلام، كما في

(١) أي: سبيل الله ويصح في «السبيل» التذكير والتأنيث. ينظر: لسان العرب (٣١٩/١١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦٢٦/٥).

كتابكم؟ ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، وإنما يُؤخركم إلى وقتكم فيجازيكم.

وقول المؤلف: (القرآن): بيان للمراد بالآيات.
 وقوله: (فيجازيكم عليه؟)، يشير إلى أن ذكر الشهود يتضمن الوعد بالجزاء ثواباً أو عقاباً بحسب المقام، والخطاب هنا لأهل الكتاب الكافرين بآيات الله، فجزاؤهم هو العقاب على كفرهم^(١).
 وقوله: (تصرفون): هذا تفسير لـ ﴿تَصُدُّونَ﴾؛ لأنَّ مَنْ صدَّ أحداً عن الطريق فقد صرفه عنه^(٢).
 وقوله: (عن دينه): تفسيرٌ للسبيل بالدين؛ لأنَّ الدين طريق يوصل سالكه إلى الله^(٣).
 وقوله: (بتكذيبكم)... إلى آخره: يريد أن صدَّهم المؤمنين عن سبيل الله يحصل بتكذيبهم الرسول ﷺ وكتهم لصفته.
 وقوله: (تطلبون): بيان لمعنى ﴿تَبْغُونَهَا﴾ فتبغون؛ أي: تطلبون، وضمير «ها» يعود إلى السبيل.
 وقوله: (مصدرٌ)... إلى آخره: يبيِّن أن أصل الكلمة مصدر فعل عَوَجَ^(٤)، ومعناه في الآية: صفة لسبيل؛ فمعنى الجملة: تريدون أن تكون السبيل معوجة؛ أي: مائلة عن الحق.

(١) ينظر: تفسير السمعاني (١/ ٣٤٤)، والمححر الوجيز (٢/ ٣٠٠).

(٢) ينظر: تفسير الثعلبي (٩/ ٦١)، والقرطبي (٤/ ١٥٤).

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٣٦٥)، ونزهة الأعين النواظر (ص ٣٦٤).

(٤) عَوَجَ كَفَرَحَ. ينظر: تاج العروس (٦/ ١٢٠).

وقوله: (عالمون)... إلى آخره: يبين أن معنى شهداء: عالمون؛
فالمعنى: تفعلون ما تفعلون من الصدّ وطلب الانحراف وأنتم تعلمون أن
الدين الحق هو الإسلام، وهو ما جاء به محمد ﷺ.
وقوله: (من الكُفر والتكذيب): بيان للمراد بعملهم في قوله: ﴿عَمَّا
تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله: (وإنما يؤخركم إلى وقتكم فيجازيكم): هذا بيان لقوله تعالى:
﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وأن تأخيرهم لا عن غفلة منه سبحانه؛ بل
ليبلغوا أجلهم، ونفي الغفلة يتضمن كمال العلم^(١).



(١) ومراد شيخنا أن كل نفي في صفات الله فإنه متضمّن لإثبات كمال، كما هو مقرر عند
أهل السنة والجماعة. ينظر: التدمرية بشرح شيخنا (ص ٢٢٠).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١].

يَحذَرُ الله عباده المؤمنين من طاعة كفرة أهل الكتاب؛ لأنهم يريدون أن يرتدَّ المؤمنون عن دينهم حسداً وبغياً، فلو أطاعهم المؤمنون فيما يدعونهم إليه؛ لردوهم عن دينهم فصاروا كفاراً مثلهم، ثم أنكر تعالى على المؤمنين أن يفعلوا ذلك والقرآن يُتلى عليهم، والرسول يبين أظهرهم؛ فقال تعالى: ﴿وَكَيفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ والاستفهام قيل: للإنكار على المؤمنين أن يفعلوا ذلك فيكون تأكيداً للتحذير من طاعة الكافرين، إذ من أقبح القبيح أن يطيعوا الكافرين في الردة عن الإسلام والقرآن يُتلى عليهم، والرسول بين أظهرهم^(١)، وقيل: الاستفهام لاستبعاد أن يكون ذلك من المؤمنين وهم بهذه الحال من ظهور الحجج عليهم، فهذا القرآن يُتلى وهذا الرسول موجود بين آيات القرآن^(٢)، وقوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: مَنْ يَحْتَمِي بالله ويتوكل عليه فقد هداه الله إلى الطريق القويم، فلا يطيع الكافرين؛ بل يثبت على دين الله ويستمسك بكتابه، وذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ونزل، لما مرَّ بعض اليهود على الأوس والخزرج فغاظه تألفهم، فذكروهم بما كان بينهم في الجاهلية من الفتن، فشاجروا وكادوا يقتتلون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ -استفهام تعجيب وتوبيخ-

(١) ينظر: الكشف (١/٥٩٩).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٣/٢٨٢).

﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ، وَفِيكُمْ رَسُولُهُ؟ وَمَنْ يَعْتَصِمْ﴾: يَتَمَسَّكُ
﴿بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقول المؤلف: (ونزل)... إلى آخره: يبين بذلك سبب نزول هذه الآية، وقد روى ذلك ابن جرير^(١).

وقوله: (استفهام تعجيب وتوبيخ): هذا يقتضي أنه وقع من المؤمنين الطاعة لفريق أهل الكتاب، وقيل: الاستفهام لاستبعاد أن يقع من المؤمنين ذلك، وهذا يقتضي أنه لم تقع الطاعة منهم.

وقوله: (يَتَمَسَّكُ): تفسير للاعتصام، وتفسير الاعتصام بالتمسك لا يناسب في هذا السياق، إذ لا يناسب أن تقول تمسك بالله إلا على تأويل، وإنما يليق هذا التفسير بقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٣].



وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) [آل عمران: ١٠٢-١٠٤].

يأمر الله عباده المؤمنين بأن يتقوه حق تقاته، وتقوى الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر أبداً^(١)، ولكن هذه الآية مقيدة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢)؛ معناه: استقيموا على الإسلام واثبتوا حتى يأتيكم الموت وأنتم على ذلك، وهذا ما وصى به إبراهيم بنيه ويعقوب: ﴿يَبْنِيْ إِنْ أَحَبَّ اللَّهُ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢) [البقرة]، وقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؛ أي: تمسكوا، ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾؛ أي: بدينه، وهو الإسلام وبكتابه وهو القرآن، وحبل الله قيل؛ الإسلام، وقيل القرآن^(٢)، وأصل الحبل: السبب الذي يتعلق به للوصول إلى مطلوب أو النجاة من مرهوب، وبه يكون الصعود^(٣). شبه به الإسلام والقرآن لأنهما أعظم سبب تُنال به سعادة الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؛ أي: تمسكوا بدين الله مجتمعين بأن تكونوا أمة واحدة على الحق لا متفرقين فرقا شتى، مختلفين فيما بينكم، فقد أنعم الله عليكم بهذا الدين وبالقرآن فأصبحتم بهذه النعمة إخوانا بعد أن كنتم قبل ذلك أعداء يقتل بعضكم بعضا؛ وقوله:

(١) وهذا تفسير ابن مسعود كما سيأتي. ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٦٣٧).

(٢) وقيل غير ذلك. ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٦٤٣)، وزاد المسير (١/ ٣١١).

(٣) ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (٢/ ٢٩٤).

﴿شَفَا حُفْرَةً﴾؛ أي: كتتم في الجاهلية على حافة^(١) حفرة من النار حين كتتم مشركين بالله، متفرقين فيما بينكم فأنقذكم الله من النار؛ بأن هداكم للإسلام، وآلف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١٣)؛ أي: مثل هذا البيان يبين الله لكم آياته ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١٣)؛ أي: تزدادوا علماً وإيماناً وتثبتوا على الهدى الذي آتاكم، وقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، أمر من الله للمؤمنين بأن تكون منهم جماعة متعاونة يدعون إلى الخير؛ أي: إلى الإيمان وكل عمل صالح، ويأمرون بالمعروف، وهو كل ما هو طاعة لله ورسوله، وينهون عن المنكر، وهو كل معصية لله ورسوله، وذلك كله من الدعوة إلى الخير، وذلك تفصيل بعد إجمال^(٢)، وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١٤)؛ بشارة لهذه الأمة بالفلاح، وهو: الفوز والظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب والخلود في السعادة والنعيم في جنات النعيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ بـ «أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعَصَى، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، وَيُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى» - فقالوا: يا رسول الله، ومن يقوى على هذا؟ فُسخ بقوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» - ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ١٠٨)، والمفردات في غريب القرآن (ص ٤٥٩).

(٢) وتعقب ابن المنير قول الزمخشري أنه من عطف الخاص على العام وقال: «... فالأولى في ذلك أن يقال: فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عامّاً، ثم مفصلاً. وفي تنبيه أن الذكر على وجهين ما لا يخفى من العناية والله أعلم، إلا أن ثبت عرف يخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ببعض أنواع الخير، فإذا ذاك يتم مراد الزمخشري، وما أرى هذا العرف ثابتاً، والله أعلم». ينظر: الكشاف (١/ ٦٠٦) والاتصاف لابن المنير المطبوع في حاشيته، وتفسير الرازي (٨/ ٣١٥).

وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾: مَوَحِّدُونَ، ﴿وَاعْتَصِمُوا﴾: تَمَسَّكُوا ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾: أَي: دِينِهِ ﴿جَمِيعًا﴾، وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿بَعْدَ الْإِسْلَامِ﴾، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾: إِنْْعَامَهُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ - يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ - ﴿إِذْ كُنْتُمْ﴾ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ﴿أَعْدَاءً﴾، فَالْفَ: جَمَعَ ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بِالْإِسْلَامِ، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾: فَصِرْتُمْ ﴿بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ فِي الدِّينِ وَالْوَلَايَةِ، ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا﴾: طَرَفِ ﴿حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾، لَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْوُقُوعِ فِيهَا إِلَّا أَنْ تَمُوتُوا كُفَّارًا، ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بِالْإِيمَانِ. ﴿كَذَلِكَ﴾: كَمَا بَيَّنَّ لَكُمْ مَا ذَكَرَ، ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ﴾، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢﴾.

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾: الْإِسْلَامِ، ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ - وَأُولَئِكَ﴾ الدَّاعُونَ الْأَمْرُونَ النَّاهُونَ ﴿هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾: الْفَائِزُونَ، وَمِنْ: لِلتَّبَعِضِ، لِأَنَّ مَا ذَكَرَ فَرَضَ كِفَايَةً لَا يَلْزَمُ كُلَّ الْأُمَّةِ، وَلَا يَلِيقُ بِكُلِّ أَحَدٍ كَالْجَاهِلِ. وَقِيلَ: زَائِدَةٌ. أَي: لَتَكُونُوا أُمَّةً

وقول المؤلف: (ب «أَنْ يُطَاعَ...»)... إِلَى آخِرِهِ: هَذَا التَّفْسِيرُ يَرُودُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا^(١) وَمَوْقُوفًا؛ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ»^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ الثَّعْلَبِيُّ (٧٢/٩)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ (٢٣٨/٧-٢٣٩)، وَأُورِدَهُ ابْنُ كَثِيرٍ (٨٧/٢)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ (٢٨٣/٢) عَنْ ابْنِ مَرْدَوَيْهِ وَالْحَاكِمِ مَرْفُوعًا، وَلَمْ نَجِدْهُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ مَرْفُوعًا، بَلْ أَخْرَجَهُ بِرَقْمٍ (٣١٥٩) مَوْقُوفًا عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ. وَقَالَ الْأَبَّانِيُّ: «مُنْكَرٌ مَرْفُوعًا». وَيَنْظُرُ: تَخْرِيجُ الْكَشَافِ لِلزَّيْلَعِيِّ (٢١٠/١)، وَالضَّعِيفَةُ (٦٩٠٩).

(٢) تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ (٨٧/٢) وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ فِي جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكْمِ (٤٠١/١): «الْمَوْقُوفُ أَصَحُّ».

وقوله: (فُنسخ بقوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ»): هذا النسخ ليس رفعاً لحكم الآية؛ بل بيان لمتعلقه وهو المستطاع^(١)؛ فالعبد مأمور بتقوى الله حق تقاته بقدر استطاعته؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقوله: (موحِّدون): فسر الإسلام بالتوحيد؛ لأنَّ التوحيد أصل دين الإسلام.

وقوله: (إنعامه): فسر النعمة بالإنعام؛ لأنها حصلت به. وقوله: (يا معشر الأوس والخزرج): بيان للمخاطبين بهذه الآية، وهم: الأنصار، فقد كانوا مشركين ومتفرقين، فهداهم الله للإسلام وألَّف بين قلوبهم حتى صاروا إخوة متحابين بعد أن كانوا أعداء يقتل بعضهم بعضاً. وقوله: (فصِرتم): يبين أنَّ «أصبح» هي التي من أخوات كان، وهي في هذا الموضع؛ بمعنى: صار.

وقوله: (في الدين والولاية): بيان لنوع الأخوة. وقوله: (طرف): تفسير لـ ﴿شَفَا﴾، والمراد: طرفها الذي من تجاوزه هوى فيها.

وقوله: (ليس بينكم)... إلى آخره؛ معناه: كنتم على الشرك ولو متم لكنتم في النار، فليس بينكم وبين النار إلا أن تموتوا، وفي هذا تشبيه للغائب بالحاضر.

وقوله: (بالإيمان): بيان لسبب النجاة من النار. وقوله: (كما يَنِّ لكم ما ذُكِر): بيان للمشبه به وهو ما تقدم من البيان؛ المعنى: يبين الله لكم آياته كما يبين من قبل.

(١) ينظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص ٢٨١)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص ٩٨).

وقوله: (الإسلام) فسّر الخير بالإسلام، ولا ريب أن الإسلام خير الأديان وفي أحكامه وشرائعه كل خير.
وقوله: (الداعون)... إلى آخره: بيان لمرجع اسم الإشارة في قوله: «أولئك».

وقوله: (الفائزون): فسّر الفلاح بالفوز، وهو الظفر بالمطلوب؛ فالمفلحون هم الفائزون، وذلك بالنجاة من النار ودخول الجنة كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقوله: (ومن: للتبعيض): يريد «من» في قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ﴾، وذكر في معناه قولين، الأول: أنها للتبعيض؛ لأنّ الذي يقوم بالدعوة والأمر بالمعروف بعض الأمة؛ لأنّ ذلك فرض كفاية، القول الثاني: أنها زائدة، فيصير المعنى «ولتكونوا أمة يدعون إلى الخير»^(١).

وقوله: (لأنّ ما ذكر)... إلى آخره: تعليل لجعل «من» للتبعيض.



(١) ينظر: التفسير البسيط (٥/ ٤٨٠)، والمحرر الوجيز (٢/ ٣١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَفَوْا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ [آل عمران: ١٠٥-١٠٩].

ينهى الله عباده المؤمنين عن مشابهة الذين تفرقوا في دينهم من المشركين وأهل الكتاب في تفرقهم ومخالفاتهم، ثم توعد الذين تفرقوا بعذاب عظيم، وفي هذا تأكيد للنهي عن التفرق وم مشابهة المتفرقين، وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾؛ معناه: أن العذاب العظيم يكون في ذلك اليوم الذي تبيض فيه وجوه وتسود وجوه، وهو يوم القيامة؛ تبيض فيه وجوه المؤمنين ومنهم أهل السنة والجماعة، وتسود فيه وجوه الكافرين وأشباههم من أهل البدعة والفرقة^(١)، ثم يقال للذين اسودت وجوههم توبيخاً لهم: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٠٦)، وأما الذين ابيضت وجوههم فإنهم يدخلون في رحمة الله، وهي الجنة وهم فيها خالدون، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾، الإشارة إلى الآيات السابقة المتضمنة للأمر والنهي والوعد والوعيد ﴿نَتْلُوهَا﴾؛ أي: يتلوها عليك جبريل مبلغاً لكلام الله^(٢)، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: آيات الله متضمنة للحق خبراً وأمراً، وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٨)؛ معناه: أن الله لا يريد ظلم أحد من العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (١٠٩) [الكهف]، فلا يعذب أحداً بغير ذنب، ولا يعذب أحداً بذنب غيره، ولا ينقص أحداً من حسناته،

(١) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٩٥٠)، والبغوي (٨٧/٢).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٦٩/٤)، والبحر المحيط (٢٩٧/٣).

ولا يزيد في سيئاته، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ معناه: أنه تعالى مالك السموات والأرض وما فيهن من العوالم وهو المدبر للأمر فيهما؛ يعطي ويمنع ويخفض ويرفع ويحيي ويميت، وإليه تنتهي جميع الأمور؛ فيحكم فيها بما شاء ويجزي العاملين بأعمالهم ثوابًا وعقابًا، فضلًا منه وعدلاً، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ عن دينهم، ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ فيه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾. وهم اليهود والنصارى. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ - وهم الكافرون - فيلقون في النار، ويُقال لهم توبيخًا: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾ يوم أخذ الميثاق؟ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ - وهم المؤمنون - ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: جنته، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه الآيات ﴿آيَاتُ اللَّهِ، تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ - يا محمد - ﴿بِالْحَقِّ. وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾، بأن يأخذهم بغير جرم، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وخلقًا وعبيدًا، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ﴾: تصير ﴿الْأُمُورُ﴾.

وقول المؤلف: (عن دينهم): أي: تفرقوا عن إقامة دينهم، فاتخذ كل فريق منهم له مذهبًا، عليه يوالي ويعادي.

وقوله: (فيه): أي: في دينهم فبغى بعضهم على بعض.

وقوله: (وهم اليهود والنصارى) كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، وهم الرسل والكتب المنزلة عليهم.

وقوله: (يوم القيامة): تفسير لليوم الذي تبيض فيه وجوه وتسود وجوه.

وقوله: (وهم الكافرون)... إلى آخره: بدليل قوله: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

وقوله: (ويقال لهم توبيخاً): يبين أن الاستفهام للتوبيخ.

وقوله: (يوم أخذ الميثاق؟): يعني: الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين استخرجهم من ظهره؛ فقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، قالوا: ﴿بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وليس هذا التفسير بمتعين؛ فالآية تعم كل من آمن ثم كفر، وهذه حال كثير من الكفار^(١).

وقوله: (وهم المؤمنون): بدليل ذكرهم في مقابلة الكفار الذين اسودت وجوههم.

وقوله: (أي: جنته): يدل لذلك الحديث القدسي أن الله قال للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشياء»^(٢).

وقوله: (أي: هذه الآيات)؛ أي: الآيات المتقدمة من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقوله: (يا محمد): بيان للمخاطب بالآية.

وقوله: (بأن يأخذهم بغير جرم): تفسير للظلم الذي نزه الله نفسه عنه.

(١) ينظر الخلاف في: تفسير الطبري (٥/ ٦٦٤)، وزاد المسير (١/ ٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



وقوله: (مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا): بيان لِمَا تدل عليه اللام في قوله:

﴿وَلِلَّهِ﴾.

وقوله: (تَصِيرُ): تفسير لترجع؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ

الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]؛ أي: تنتهي إلى الله.



وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ١١٠. لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١. ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ١١٢. [آل عمران: ١١٠-١١٢].

يخبر تعالى عن فضل هذه الأمة على مَنْ تقدّمها من الأمم، وأنها خير أمة أخرجت للناس والخطاب للصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والذين اتبعوهم بإحسان، ويذكر الله سبب هذا الفضل وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، وأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لو آمنوا لكان خيراً لهم، وأن منهم الذين آمنوا ومنهم الفاسقون؛ أي: الكافرون ثم يشير تعالى هذه الأمة بأن أهل الكتاب لن يضرّوهم إلا أذى، والأذى لا ضرر فيه، وأنهم إن قاتلوا المسلمين فسيؤولون الأدبار ثم لا ينصرون، وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾؛ قيل؛ معناه: ألزموا الهوان والخوف، فلا يفارقهم إلا أن يكون لهم حبل من الله وحبل من الناس فيأمنوا بسببه، وقيل: ضرب الذلة عليهم؛ المراد: فرض الجزية عليهم^(١) ذكره ابن جرير^(٢) ولم يذكر غيره، وضرِبُ الجزية يتضمن إلزامهم الصغار؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة]، وهذا الحكم - وهو ضرب الجزية - مختص باليهود الموجودين زمن النبي ﷺ فمن جاء بعده، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾؛ المعنى: أن ضرب الذلة لازم لهم إلا أن يكون لهم

(١) ينظر: تفسير الرازي (٣٢٨/٨)، والخازن (٢٨٦/١).

(٢) (٦٨١/٥).

حبل من الله وحبل من الناس يتمسكون به، وأصل الحبل السبب الذي يوصل به إلى مطلوب^(١)، فالمعنى: إلا بسبب من الله، والحبل من الله؛ قيل: هو الإسلام فإذا أسلموا عزوا وأمنوا ووضعت عنهم الجزية، وقيل: العهد الذي يكون به عقد الذمة لهم إذا أعطوا الجزية لأنه كان - بإذن الله - فإذا أعطوا الجزية كُفَّ عنهم فأمنوا على دماءهم وأموالهم وعلى أنفسهم وأهليهم^(٢)، والحبل من الناس العهد مع المسلمين بعقد الذمة إذا أعطوا الجزية أو بالصلح أو بالجوار وهذا يؤول إلى المعنى الثاني في تفسير الحبل من الله، وقيل: الحبل من الناس ما يعقدونه من حلف مع غير المسلمين من النصارى وغيرهم يستحقون بهذا الحلف حمايتهم والدفع عنهم؛ فالناس في القول الأول هم المسلمون، وفي الثاني غيرهم^(٣)، والواقع شاهد بأن اليهود في ذلة أينما وجدوا إلا أن يسلموا أو يعطوا الجزية كما تقدم، والله أعلم، والباء «بحبل» سببية؛ لأنَّ المعنى أنَّ الذلة لا ترتفع عنهم إلا بسبب حبل من الله وحبل من الناس، وقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾؛ أي: ضُرب عليهم الفقر، وهو فقر قلوبهم؛ فإنَّ الغنى غنى النفس، والفقر لازم لهم لا يفارقهم، ولذا يلهثون وراء المال، ولا سيما الذهب، فثروات الذهب أكثر ما توجد في أيديهم فهم كُنَّاز الذهب، ولعل هذا من حكمة أنَّ الله ذكر الكانزين للذهب والفضة بعد ذكر الأحابار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله كما في سورة براءة، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^(١٣)، اسم الإشارة الأول راجع إلى ما تقدم من

(١) ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (٢/ ٢٩٤).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٨/ ٣٢٩)، والخازن (١/ ٢٨٦).

(٣) ينظر: درج الدرر (٢/ ٥١٧)، والتحرير والتنوير (٤/ ٥٦).

ضرب الذلة والمسكنة عليهم؛ فالمعنى: أن ضرب الذلة والمسكنة عليهم بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق، وذلك الكفر والقتل بسبب عصيانهم وعدوانهم، فتضمنت الآية ذكر السبب وسبب السبب^(١).

﴿كُتِّمَ﴾ - يا أمة محمد- في علم الله تعالى ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ، أُخْرِجَتْ﴾
أي: أظهرت ﴿لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ. وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ﴾ الإيمان ﴿خَيْرًا لَهُمْ. مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾
كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: الكافرون.
﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ﴾ أي: اليهود -يا معشر المسلمين- بشيء ﴿إِلَّا أَذَى﴾
باللسان من سب ووعيد، ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾
منهزمين، ﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ عليكم. بل لكم النصر عليهم.
﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ، أَيْنَمَا تُقِفُوا﴾: حيثما وجدوا، فلا عز لهم
ولا اعتصام ﴿إِلَّا﴾ كائنين ﴿بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾: المؤمنين
-وهو عهدهم إليهم بالأمان على أداء الجزية- أي: لا عصمة لهم غير
ذلك، ﴿وَبَاؤُوا﴾: رجعوا ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾.
ذلك بأنهم ﴿أي: بسبب أنهم﴾ كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون
الأنبياء بغير حق. ذلك: تأكيد ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ أمر الله، ﴿وكانوا
يعتدون﴾: يتجاوزون الحلال إلى الحرام.

وقول المؤلف: (يا أمة محمد): بيان للمخاطب في قوله: ﴿كُتِّمَ﴾.
وقوله: (في علم الله تعالى): معناه: أن هذه الخيرية ثابتة لكم في علم
الله القديم، وبهذا يظهر معنى؛ قوله: ﴿كُتِّمَ﴾.

(١) ينظر: الكشاف (١/ ٦١٠)، والتحرير والتنوير (٤/ ٥٧).

وقوله: (أُظْهِرْتُ)؛ أي: أوجدت.

وقوله: (الإيمان): بيان لاسم كان.

وقوله: (كعبدِ الله بن سلام وأصحابه): عبد الله بن سلام كان من اليهود، ولما بُعِثَ النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة؛ أتاه عبد الله بن سلام فأسلم وحسن إسلامه، فصار من سادات الصحابة وعلمائهم وقصة إسلامه مشهورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١)، وقد دخل في الإسلام جماعة من اليهود^(٢) لكن أشهرهم عبد الله بن سلام.

وقوله: (الكافرون): يريد أنَّ الفسق في هذه الآية يُراد به الفسق الأكبر، وهو: الكفر.

وقوله: (أي: اليهود)... إلى آخره: بيان للمراد بالواو وبالكاف في قوله: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ﴾.

وقوله: (بشيء)؛ أي: بأي شيء.

وقوله: (من سبَّ ووعيد): مثلاً للأذى، والأذى هو ما يُكره ولا يضر، وأكثر ما يحصل باللسان؛ كالسب والوعيد كما ذكر المؤلف.

وقوله: (منهزمين): بيان للمراد بقوله: ﴿يُؤْثِرُكُمْ الْأَذْبَارُ﴾؛ لأنَّ المنهزم في القتال يولي دبره لمقاتله هارباً منه.

وقوله: (عليكم)... إلى آخره؛ أي: لا ينصر الكفار على المسلمين؛ بل النصر للمسلمين عليهم، ففي الآية وعد ووعد.

وقوله: (حيثما وجدوا)... إلى آخره: يريد أنَّ الذلة لازمة لهم وليس لهم ما يعتصمون به.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٩) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: سيرة ابن هشام (٥١٦/١).

(٢) منهم أسيد بن سعية، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد، وسعيد بن عامر، وعبد الرحمن بن سمالك. ينظر: الإصابة (١٠٨/١)، (٧٠/٢)، (٣٤٩/٤)، (٤٩٠/٦).

وقوله: (كائنين): بيان لمتعلق الجار والمجرور بحبل؛ أي: إلا معتصمين بحبل من الله.

وقوله: (المؤمنين)... إلى آخره: يريد أن المراد بالناس في الآية: المؤمنون، وعلى هذا؛ فالمراد بالحبل من الناس العهد الذي أباح الله للمسلمين إبرامه مع الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٤] إلى قوله: ﴿فَاتِّمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٤].

وقوله: (رجعوا): تفسير لـ «باؤوا»، وبَاءٌ يُفَسِّرُ بَرَجَعَ كَأَبٍ^(١)؛ المعنى: أن اليهود رجعوا من حربهم وكيدهم للمسلمين بغضب من الله عليهم، وهذا أعظم خسران.

وقوله: (بسبب أنهم): يريد أن الباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ سببية؛ فيكون المعنى: أن ضرب الذلة والمسكنة عليهم بسبب كفرهم.

وقوله: (تأكيد)؛ أي: تأكيد لاسم الإشارة السابق، وعلى هذا فتكون جملة: ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ تأكيد للجملة التي قبلها، وفي هذا نظر، والصواب: أن اسم الإشارة راجع إلى الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء، وعليه فما بعد اسم الإشارة من بيان سبب السبب فيكون من معنى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ويقال: من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإيضاح هذا؛ أن الكفر وقتل الأنبياء سبب لضرب الذلة والمسكنة، والمعاصي والعدوان سبب الكفر وقتل الأنبياء.

وقوله: (أمر الله): بيان لمفعول الفعل: ﴿عَصَوْا﴾، والمعصية مخالفة الأمر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦].
وقوله: (يتجاوزون الحلال إلى الحرام): يريد أنهم يتعدون حدود الله التي نهى عن اعتداها.



(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص ١٥٩)، (ص ٩٧).

وقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥].

يخبر تعالى أن أهل الكتاب ليسوا سواء؛ أي: ليسوا كفارًا وعصاة كلهم؛ بل فيهم صالحون يتلون آيات الله ويصلّون ويأْمُرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾، ثم أخبر تعالى أن ما يفعلون من الخير؛ وهو كل عمل صالح يقبله الله منهم ويشيهم عليه أجرًا عظيمًا؛ لأنه تعالى شكور يضاعف للمحسنين الأجور ولا يضيع أجر من أحسن عملاً، وهذا معنى قوله: ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾؛ أي: يُجْحَدُوه بترك ثوابهم عليه؛ بل يثابون بالأجر الجزيل على العمل القليل؛ ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾؛ أي: المتقين ربهم بفعل الصالحات وترك السيئات، يعلم ما يسرون وما يعلنون فيجازيهم بكل صغير وكبير، ولا نقيراً.

﴿لَيْسُوا﴾ أي: أهل الكتاب ﴿سَوَاءً﴾: مُستَوِينَ. ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾: مُستقيمة ثابتة على الحق، كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي: في ساعاته، ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: يُصَلُّونَ -حَالٌ- ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ. وَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكِرَ ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ومنهم من ليسوا كذلك وليسوا من الصالحين.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ - بالتاء أيها الأمة، والياء أي: الأمة القائمة - ﴿مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوا﴾. بالوجهين أي: تعدموا ثوابه، بل تجارون عليه.

وقول المؤلف: (أهل الكتاب): بيان لمرجع الضمير - الواو بعد ليس -؛ فالتقدير: ليس أهل الكتاب سواء. وقوله: (مُستوين): تفسير لـ ﴿سَوَاءٌ﴾؛ من وضع المصدر موضع اسم الفاعل.

وقوله: (مُستقيمة...) إلى آخره: يبين أن معنى: ﴿قَائِمَةٌ﴾ مستقيمة، لا بمعنى قيام الليل في الصلاة، ثم مثل للأمة القائمة بعبد الله بن سلام وأمثاله ممن دخل في الإسلام من اليهود في عهد النبي ﷺ. وقوله: (أي: في ساعاته): يريد أن: ﴿آنَاءٌ﴾ ظرف زمان، والأناء جمع آن، وهو الزمان.

وقوله: (يُصَلُّونَ): يبين أنه عبر بالسجود عن الصلاة كما يعبر عنها بالركوع والتسبيح. وقوله: (حَالٌ): بيان لموضع ﴿يَسْجُدُونَ﴾ من الإعراب؛ فالجمله حالية.

وقوله: (الموصوفون بما ذُكر): بيان لمرجع اسم الإشارة. وقوله: (ومنهم من ليسوا كذلك)... إلى آخره: يريد أن الآية تضمنت تقسيم أهل الكتاب قسمين؛ فبعضهم من الصالحين وهم من ذكرت صفتهم في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾... إلى آخر الآيات، ومفهوم ذلك أن بعضهم ليسوا من الصالحين.



وقوله: (بالتاء)... إلى آخره: يريد أنَّ فِعْلِي «يفعلوا ويكفروا» قرئاً بالتاء «تفعلوا وتكفروا» وقرئاً بالياء «يفعلوا ويكفروا»^(١) فعلى قراءة التاء: الخطاب لهذه الأمة، وعلى قراءة الياء: المراد الأمة القائمة من أهل الكتاب، ومعنى: ﴿فَلَنْ تُكْفَرُوا﴾: فلن تحرموا ثوابه؛ بل تجزون عليه.

(١) ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص ١٦٨).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ [آل عمران: ١١٦-١١٧].

يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله ورسله لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً؛ أي: لن تمنعهم من عذاب الله فإذا أراد الله بهم سوءاً فلا مردّ له، ولا بد أن يحل بهم عذاب الله ولن تدفعه عنهم أموالهم ولا أولادهم، وهؤلاء الكفار هم أصحاب النار وهم فيها خالدون، وقال في أول السورة عنهم: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠) [آل عمران: ١٠]، ثم أخبر تعالى عن حبوط أعمالهم وذهاب نفقاتهم، وضرب لهم مثلاً بريح باردة أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم فأتلفتة، فلم ينتفعوا منه بشيء، وذلك جزاء ظلمهم، وما ظلمهم الله ولكنهم هم الظالمون لأنفسهم بالكفر أو البخل بما أوجب الله جزاءً وفاقاً.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿شَيْئًا﴾ -وخصّهما بالذكر لأنّ الإنسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال، وتارة بالاستعانة بالأولاد- ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، مَثَلُ﴾: صفة ﴿مَا يُنْفِقُونَ﴾ أي: الكفار، ﴿فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، في عداوة النبي أو صدقة ونحوها، ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾: حرّ أو برد شديد، ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ﴾: زرع ﴿قَوْمٍ، ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعصية، ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ فلم ينتفعوا به.

فكذلك نفقاتهم ذاهبة لا ينتفعون بها. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بضياع نفقاتهم،
﴿وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر المُوجب لضياعها.

وقول المؤلف: (أي: عذابه)؛ لأنَّ عذاب الله هو المَخُوف، ويراد دفعه.

وقوله: (وخصَّهما بالذكر)... إلى آخره: يريد أنَّ الأموال والأولاد هما وسيلة الدفع عن الإنسان؛ إما بتقديم الفداء من المال، أو بنصرة الأولاد.
وقوله: (صفة): يبين أنَّ المَثَل -بفتح الميم والثاء- معناه الصفة؛ كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ [الرعد: ٣٥]؛ أي: صفة الجنة^(١).

وقوله: (الكُفَّارُ): بيان لمرجع الضمير «الواو» في قوله: ﴿يُنْفِقُونَ﴾.
وقوله: (في عداوة)... إلى آخره: يبين أنَّ الموصول عام لكل نفقاتهم في خير كانت أو شر.

وقوله: (حَرٌّ أو برد شديد): تفسير لـ ﴿صِرٌّ﴾؛ فالمعنى: ريح فيها حر شديد أو برد شديد^(٢).

وقوله: (بالكُفر والمعصية): يبين أنَّ الظلم في الآية يشمل ظلم النفس بالكفر، وهو أظلم الظلم، وظلم النفس بما دون الكفر من المعاصي.
وقوله: (فلم ينتفعوا به)... إلى آخره: بيان لوجه الشبه بين نفقات الكفار، وحرث أولئك الظالمين لأنفسهم بالتلف وعدم الانتفاع.
وقوله: (بضياع نفقاتهم): يبين أنَّ حبوط أعمالهم وذهاب نفقاتهم بلا أجر لم يكن ظلماً من الله؛ بل ذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم.

(١) ينظر: الوجوه والنظائر للدامغاني (ص ٤١٨).

(٢) ينظر: التفسير البسيط (٥/ ٥٢٥)، والمحرر الوجيز (٢/ ٣٢٩).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنَتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ سَّوَّهْمُ وَإِن تُصِبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تُصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

ينهى الله عباده المؤمنين أن يكون لهم أولياء يوالونهم في السر من دون إخوانهم المؤمنين، ويعظم الشر والفساد إذا كانت هذه البطانة من المنافقين الذين لا يقصرون فيما يضر المسلمين ويوقع الشر بينهم، ويؤدون كل ما فيه مشقة على المسلمين ويبغضونهم، ويظهر هذا البغض أحياناً على ألسنتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾؛ المعنى: أن ما في صدورهم من بغض المسلمين أعظم مما يبدو في كلامهم، وفي هذه الآيات بيان لما به صلاح جماعة المؤمنين، فالواجب عليهم أن يتدبروا هذه الآيات ويعملوا بها، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾، ثم يعاتب الله المؤمنين على موالات هؤلاء الأشرار ومحبتهم، وهم لا يحبون المؤمنين، بل يبغضونهم، ولهذا قال تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾، وهم لا يؤمنون منه بشيء، ولكنهم ينافقون فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا غابوا عن المؤمنين عضوا على أناملهم حقاً على المؤمنين، ومن عادة الناس: أن أحدهم إذا فعل شيئاً وندم عليه عضَّ على أنامله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾؛ أي: من شدة ما يجدون من الغيظ على المسلمين في صدورهم؛ ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا﴾

بَغِظُكُمْ؛ معناه: أَنَّ الغيظ الذي يجدونه في نفوسهم سيبقى معهم إلى الموت^(١)، ثم قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾**^(١٩)؛ معناه: أنه تعالى أخبر بأحوال هؤلاء المنافقين لأنه تعالى عليم بما في صدور العالمين؛ ثم أخبر تعالى عن بعض آثار هذا البغض، وهذا الغيظ على المسلمين؛ فقال تعالى: **﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾**؛ وهذا شأن العدو، ثم أرشد الله المؤمنين إلى ما يدفعون به ضرر المنافقين وهو الصبر والتقوى، وقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾**^(٢٠) تعليل لقوله: **﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾**؛ أي: لأنَّ الله بما يعمل الكافرون والمنافقون ضد المؤمنين محيط علمًا وقدرة لا تخفى عليه أعمالهم السيئة ولا يعجزونه، وهو قادر على إهلاكهم وإبطال كيدهم؛ فالواجب على المؤمنين أن يخافوا الله ولا يخافوهم، وهو تعالى حافظ المؤمنين من شر أعدائهم؛ فعليهم أن يتوكلوا على الله ولا يخافوا سواه؛ لأنه تعالى حسبهم ونعم الوكيل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً﴾: أصفياء تطلعونهم على سِرِّكم **﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾** أي: غيركم من اليهود والنصارى والمنافقين. **﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾** -نُصب بنزع الخافض- أي: لا يُقَصِّرون جُهدَهم لكم في الفساد، **﴿وَدُّوا﴾**: تمنَّوا **﴿مَا عَنْتُمْ﴾** أي: عَنَتُكم -وهو شدة الضرر- **﴿قَدْ بَدَتِ﴾**: ظهرت **﴿الْبَغْضَاءُ﴾**: العداوة لكم **﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾**، بالوقعة فيكم وإطلاع المشركين على سِرِّكم، **﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾** من العداوة **﴿أَكْبَرُ﴾**. قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ عَلَى عداوتهم، **﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾** ذلك فلا تُوالوهم.

(١) ينظر: تفسير البغوي (٢/٩٦)، وزاد المسير (١/٣١٩).

﴿ها﴾: للتنبيه ﴿أنتم﴾ يا ﴿أولاء﴾ المؤمنين ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾،
لقرابتهم منكم وصدافتهم، ﴿ولا يُحِبُّونَكُمْ﴾ لمخالفتهم لكم في الدين،
﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أي: بالكتب كلها ولا يؤمنون بكتابكم، ﴿وإذا
لَقوكم قالوا: آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل﴾: أطراف الأصابع،
﴿من الغيظ﴾: شدة الغضب، لما يرون من ائتلافكم. ويُعَبَّرُ عن شدة
الغضب بِعَضِّ الأنامل مجازًا، وإن لم يكن ثمَّ عَضٌّ - ﴿قُلْ: مُوتُوا
بَغِيظِكُمْ﴾ أي: ابقوا عليه إلى الموت فلن تروا ما يسركم. ﴿إنَّ اللهَ عَلِيمٌ
بذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما في القلوب، ومنه ما يُضْمَرُه هؤلاء - ﴿إنَّ
تَمَسَّكُكُمْ﴾: تُصَبِّكُم ﴿حَسَنَةً﴾: نعمة كنصر وغنيمة ﴿تَسُوْهُمْ﴾:
تُحَزِّنُهُمْ، ﴿وإنَّ تُصَبِّكُم سَيِّئَةً﴾ كهزيمة وجذب ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ - وجُملة
الشرط مُتَّصِلَةٌ بالشرط قَبْلُ، وما بينهما اعتراض. والمعنى أنهم مُتَنَاهَوْنَ
في عداوتكم. فَلِمَ تُؤَالِفُونَهُمْ؟ فاجتنبوهم - ﴿وإنَّ تَصْبِرُوا﴾ على أذاهم،
﴿وتَتَّقُوا﴾ اللهَ في مَوالِئِهِم وغيرها، ﴿لا يَضُرُّكُمْ﴾ - بكسر الضاد
وُسكون الراء، وَضَمُّهَا وتشديدِهَا - ﴿كَيْدُهُمْ شَيْئًا! إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾،
بالباء والتاء، ﴿مُحِيطٌ﴾: عالم فيجازيهم به.

وقول المؤلف: (أصفياء)... إلى آخره: هذا تفسير للبطانة التي نهى
المؤمنون عن اتخاذها، وأصفياء من الاصطفاء؛ أي: لا تتخذوا أصدقاء
تفضون إليهم بأسرار المؤمنين، وسمي الصديق الخاص ﴿بِطَانَةً﴾ تشبيه له
ببطانة الثوب، وهي الطبقة الداخلية^(١).

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥/٧٠٨)، والثعلبي (٩/١٨٥).

وقوله: (أي: غيركم): تفسير لـ «دون»؛ أي: لا تتخذوا أصفياء من غير المؤمنين؛ كأهل الذمة من اليهود والنصارى أو من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويطنون الكفر.

وقوله: (نُصِبَ بنزع الخافض): يريد خبالاً^(١)، وقدره بقوله: (لا يقصّرون جهدهم لكم في الفساد)؛ أي: في فساد أمركم^(٢).

وقوله: (تمنّوا)؛ أي: طلبوا وحرصوا على ما يشق عليكم؛ لأنهم يحبون ذلك، وذلك من آثار بغضهم لكم.

وقوله: (أي: عتّكم)؛ أي: ما يضركم وما يشق عليكم، وقدّر الجملة بمصدر؛ على أن ما في قوله: ﴿مَا عَتَيْتُمْ﴾ مصدرية^(٣).

وقوله: (بالوقية)... إلى آخره: بيان لما يكون بأفواههم من الكلام الذي يدل على البغض الذي في قلوبهم، وهو الوقية فيكم؛ أي: سبكم والطعن فيكم، وإفشاء سرهم لعدوكم من اليهود والمشركين.

وقوله: (من العداوة): يريد: ما في قلوبهم من العداوة والبغضاء لكم أعظم مما يظهر في كلامهم.

وقوله: (على عداوتهم): يريد: عرفناكم بعداوتهم وحذرناكم، وذكرنا لكم العلامات الدالة على صدق ما أخبرناكم به.

وقوله: (ذلك)... إلى آخره: اسم الإشارة منصوب بـ «تعقلون»، وهو راجع إلى ما تقدم بيانه في الآية من أمر أو نهى أو خبر.

وقوله: (للتنبية): هذا اصطلاح النحاة؛ يقولون: «ها» المتصلة باسم الإشارة أو ضمير المخاطب إنها للتنبية^(٤).

(١) ينظر: البحر المحيط (٣/٣١٧)، والدر المصون (٣/٣٦٤).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (٢/٣٣١).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٣/٣١٧)، والدر المصون (٣/٣٦٦).

(٤) ينظر: الجنى الداني (ص٣٤٦).

وقوله: (يا): هذا تقدير لحرف النداء؛ فالتقدير على قوله: ها أنتم يا مؤمنون؛ فحذف المنادى وحرف النداء.

وقوله: (لقرابتهم منكم وصدقتهم): بيان لنوع المحبة.

وقوله: (لمخالفتهم): بيان لسبب بغضهم لكم.

وقوله: (بالكتب كلها): يبين أن المراد بالكتاب اسم جنس فيشمل التوراة والإنجيل والقرآن، وأما اليهود فلا يؤمنون إلا بالتوراة.

وقوله: (أطراف الأصابع): المعنى: أنهم يعضّون بأسنانهم على أطراف أصابعهم تعبيراً عن شدة الحنق على من يبغضونهم، وهذا من العادات المعروفة عند الناس.

وقوله: (ويعبر...) إلى آخره: يبين أن هذا تعبير مجازي من أنه ليس هناك عَضّ حقيقي مشاهد.

وقوله: (أي: ابقوا عليه)... إلى آخره: معناه أن بغضكم لنا لا يضرنا، ونحن لا نبالي بكم.

وقوله: (بما في القلوب)... إلى آخره: بيان لإحاطة علمه تعالى بما في قلوب المنافقين من الانطواء على الكفر، والبغض للمؤمنين وفي هذا تهديد للمنافقين.

وقوله: (تصيبكم): إلى قوله: (فاجتنبوهم): بيان للمقصود بهذا الخبر من حال المنافقين مع المؤمنين، وقد بين المراد بالحسنة والسيئة.

وقوله: (وجملة الشرط): وهي قوله: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ﴾... إلى آخره: متصلة بالشرط وهو قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾... إلى آخره، وما بينهما اعتراض وهو قوله: ﴿قُلْ: مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١).

وقوله: (على أذاهم)؛ أي: أذى المنافقين بالقول أو الفعل.

(١) ينظر: فتح القدير (١/٤٣١).

وقوله: (في مَوالِاتهم وغيرها)؛ أي: تخافوا الله فلا تعصوه بمَوالِاتهم ولا غيره مما نهاكم الله عنه.

وقوله: (بكسر الضاد)... إلى آخره: يشير إلى قراءتين في الآية؛ إحداهما: بكسر الضاد وسكون الراء فعل مضارع من ضار، والآخرى بضم الضاد والراء فعل مضارع من ضَرَّ المضَعَّف^(١).

وقوله: (بالياء والتاء): يشير إلى قراءتين في ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ بالتاء خطاب للمؤمنين، وبالياء؛ خبر عن المنافقين^(٢).

وقوله: (عالم فيجازيهم به): يريد بذلك بيان أنَّ معنى: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ إحاطة علمه - سبحانه - كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وفي هذا تهديد للكافرين والمنافقين؛ لأنه تعالى سيجازيهم، وفي هذا تسلية للمؤمنين وتصبير لهم على كيد أعدائهم.



(١) ينظر: حجة القراءات (ص ١٧١)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٤٢).

(٢) وبالتاء قرأ: الحسن والأعمش وسهل. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص ١١٩).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ [آل عمران: ١٢١-١٢٣].

هذه أول الآيات النازلة في وقعة أحد من هذه السورة^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾؛ أي: اذكر - أيها الرسول - حين غدت؛ أي: خرجت ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾؛ أي: تجعل لكل واحد من الجند مكاناً يقعد فيه، يتهيأ له فيه قتال العدو، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم وأقوال عدوكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم، فيعلم ما تسرون وما تعلنون، ثم في هذا الوقت الذي كان الرسول يرتب فيه الجيش همت طائفتان من المؤمنين ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾؛ أي: تَجْبُنَا عن القتال فترجعان إلى المدينة، ولكن الله وليهما فثبت الله الطائفتين فتركا ما همما به، ثم أمر الله جميع المؤمنين بالتوكل عليه، وذلك من أعظم أسباب النصر ثم ذكر الله المؤمنين بنعمته عليهم يوم بدر، حين نصرهم مع قلتهم وذلتهم وقوة عدوهم وكثرتهم؛ فعل ذلك بهم ليشكروا؛ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٣)، وليراجع في تفصيل هذه الغزوة «زاد المعاد»^(٢)، و«تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي»^(٣).

﴿و﴾ اذكر - يا محمد - ﴿إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ من المدينة، ﴿تُبَوِّئُ﴾ تُنْزِلُ ﴿الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ﴾: مراكز يقفون فيها ﴿لِلْقِتَالِ﴾ - واللَّهُ سَمِيعٌ ﴿لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم. وهو يوم أحد، خرج النبي ﷺ بألف

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٢٠)، والعجاب في بيان الأسباب (٢/ ٧٤٠).

(٢) (٣/ ٢٢٥).

(٣) (ص ١٤٥).

أو إلا خمسين رجلاً، والمشركون ثلاثة آلاف^(١)، ونزل بالشعب يوم السبت
سابع شوال سنة ثلاث من الهجرة^(٢)، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وسوى
صفوفهم، وأجلس جيشاً من الرُّماة، وأمر عليهم عبد الله بن جبير بسفح
الجبل، وقال: «انْضَحُوا عَنَّا بِالنَّبْلِ لَا يَأْتُونَا مِنْ ورائنا، وَلَا تَبْرَحُوا غُلْبَنَا أَوْ
نُضِرْنَا»^(٣) - «إِذْ»: بدل من «إِذْ» قبله ﴿هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ﴾ بنو سَلِمة
وبنو حارثة جَنَاحَا العسكر ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾: تجبنا عن القتال وترجعاً، لما
رجع عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه، وقال: عَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا وَأَوْلَادَنَا؟
وقال لأبي جابر السلمي القائل له: «أَنْشِدُكُمْ اللَّهَ فِي نَبِيِّكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ»: «لو
نعلمُ قتالاً لا تبغناكم». فثبتهما الله ولم ينصرفا، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: ناصرهما.
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: ليثقوا به دون غيره.

ونزل، لما هُزموا، تذكيراً لهم بنعمة الله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ
بِئْدْرِ﴾ موضع بين مكة والمدينة، ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ بِقَلَّةِ العدد والسلاح -
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نِعَمَهُ.

وقول المؤلف: (اذكر - يا محمد-) : بيان للعامل في الظرف في قوله:
﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾؛ فالتقدير: اذكر حين غدوت.
وقوله: (تُنزل): لأنه من بَوَّاه المكان: أنزله، والمبوء: المنزل^(٤).
وقوله: (مراكز يقفون فيها): يبين أنه ليس المراد مقاعد من القعود؛
بل المراد مواقف يثبتون فيها استعداداً للقتال.

(١) ينظر: مغازي الواقي (١/ ٢٠٣)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٣٤) وما بعدها.

(٢) ينظر: مغازي الواقي (١/ ١٩٩)، والطبقات لابن سعد (٢/ ٣٣).

(٣) المؤلف صادر في بعض هذه الجزئيات عن تفسير البيضاوي (٢/ ٣٦). وينظر: الكشف (١/ ٦١٨)، وتخريج الكشف (١/ ٢١٧).

(٤) ينظر: لسان العرب (١/ ٣٩).

وقوله: (وهو يومٌ أحد)... إلى آخره: بيان لمتعلق هذه الآيات وما نزلت فيه، وهو غزوة أحد، وتلخيص لبعض ما جرى فيها من الترتيب والاستعداد.

وقوله: (بدل من «إذ» قبله): يبين أن الظرف في قوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ﴾ معمول للعامل في الظرف في قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتُ﴾ وأن وقت هم الطائفتين بالفشل هو وقت غدو النبي يئوي المؤمنين مقاعد للقتال؛ فتقدير الكلام: اذكر - يا محمد - حين غدوت تبوي المؤمنين حين: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ﴾... الآية.

وقوله: (بنو سلمة)... إلى آخره: بيان للمراد بالطائفتين، وهما طائفتان من الأنصار^(١)، و(جناحا العسكر): جانباه، وهذا يدل على أهمية موقعهما في الجيش^(٢)، ففشلهما يضر بالجيش ضرراً عظيماً، ولكن الله عصمهما. وقوله: (لما رجع عبد الله بن أبي)... إلى آخره: بيان لشيء من سبب تثبيت الله لطائفتين، وهو إنكار أبي جابر على عبد الله بن أبي حين رجع بمن معه^(٣).

وقوله: (ناصرهما): لأن من تولاه الله نصره. وقوله: (ليثقوا به دون غيره): بيان لحقيقة التوكل، وهو الاعتماد على الله وحده دون التفات إلى غيره.

وقوله: (ونزل)... إلى آخره: بيان لسبب نزول هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾^(٤)، وحكمة ذلك.

وقوله: (بقلة العدد والسلاح): بيان لسبب هذه الذلة.



(١) أخرجه البخاري (٤٠٥١)، ومسلم (٢٥٠٥) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (١٠٦/٢).

(٣) ينظر: سيرة ابن هشام (٦٤/٢)، وتخريج الكشاف (٢١٩/١).

(٤) ينظر: العجائب في بيان الأسباب (٧٤٥/٢).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَّكُمْ وَلِتُطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ١٢٦ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ١٢٧ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢٩﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٩].

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾، الظرف متعلق بنصركم؛ فالتقدير: نصركم الله حين تقول للمؤمنين، وقوله: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ الاستفهام للتقرير، وتقدير الكلام: أليس يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، وهذا وعد من الله للمؤمنين ليطمئنوا، وذهب جمهور المفسرين إلى أن ذلك كان في غزوة بدر، وهي الغزوة التي أمد الله فيها رسوله ﷺ والمؤمنين بالملائكة؛ كما ذكر الله ذلك في سورة «الأنفال» في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَسْتَعِثُونَ رَبَّنَا فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمَدِّدُكُمْ بِآفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ١﴾ [الأنفال]، وذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الوعد بالمدد من الملائكة كان في غزوة أحد، وعليه فالظرف متعلق بما تعلق به الظرف في قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ ٢﴾؛ والصواب الأول (٢)؛ لأن هذه الآية متصلة بذكر نصرهم في بدر، وقوله: ﴿بَلَىٰ ۚ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا﴾، هذا من تمام مقول قول النبي ﷺ وقد تضمن جواب الاستفهام، وهو أن الثلاثة تكفي، وتضمن وعداً آخر وهو المدد بخمسة آلاف، وذلك بثلاثة شروط؛ الصبر والتقوى

(١) ينظر: زاد المسير (١/ ٣٢٠).

(٢) وهو قول الحسن والشعبي، واختاره الطبري. ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٠)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١١٢).

وَأَنَّ يَأْتِيَ العدو من فورهم هذا؛ أي: من وقتهم الذي جرى فيه الوعد دون تأخير، وأصل الفور من فارت القَدْر^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾ [هود: ٤٠]^(٢)، ثم كُنِيَ به عن الإسراع والمبادرة إلى الشيء، ومنه قول الأصوليين: «الأمر على الفور»^(٣)، وقوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قرأ بفتح الواو بصيغة اسم المفعول المعلمين؛ أي: الله أعلمهم؛ أي: جعل لهم علامة، وبكسرهما بصيغة اسم الفاعل؛ أي: جعلوا لأنفسهم وخيولهم علامة^(٤)؛ قيل: من الصوف الأبيض، وقيل: بعمائم صفر^(٥)، وما دل عليه القرآن من عددهم وعلامتهم وجب الإيمان والقطع به، ولا تعارض بين ما جاء في هذه الآية من عدد المدد وما جاء في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُمِدِّكُمْ بِأَلْفٍ﴾ [الأنفال: ٩]، وجمع بين الآيتين بأنهم أُمِدُّوا بألف ثم أُمِدُّوا بخمسة^(٦)، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ [الأنفال: ١٠]؛ أي: ما جعل الله هذا المدد إلا بشارة لكم ولتطمئن قلوبكم بسببه، وليس النصر من الملائكة، وإنما النصر من عند الله، ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ أي: القوي الغالب، وهو الذي يعز وينصر مَنْ يشاء، ﴿الْحَكِيمِ﴾؛ أي: ذو الحكمة في تدبيره فينصر مَنْ هو أهلٌ للنصر ويخذل مَنْ يستحق الخذلان، وقوله: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: ليهلك بعض الكافرين فيموتوا على الكفر ﴿أَوْ يَكْتَبَتُهُمْ﴾؛ أي: يذلهم^(٧) فينقلبوا خائبين؛ أي: يرجعوا من غزوهم خائبين؛ أي: لم ينالوا خيرًا؛ فخسروا

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/٤٥٨)، ولسان العرب (٥/٦٧).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٦٤٧).

(٣) ينظر الخلاف في: البحر المحيط في أصول الفقه (٣/٣٢٦).

(٤) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/٢٤٢).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٦/٣٤-٣٧)، وزاد المسير (١/٣٢١).

(٦) ينظر: تفسير البغوي (٢/٩٨-٩٩)، وابن كثير (٢/١١٢).

(٧) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٦٩٥).

الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: ليس لك من أمر الهداية والإضلال، والرحمة والعذاب، شيء؛ بل ذلك لله وحده، يضل مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء ويعذب مَنْ يشاء ويرحم مَنْ يشاء، ويتوب على مَنْ يشاء، وإن عذب هؤلاء الكافرين من قريش ومن أعانهم؛ فإنهم مستحقون لذلك؛ لأنهم ظالمون بشركهم وحربهم للمؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، يخبر تعالى أن ما في السموات وما في الأرض ملكه؛ فهو المتصرف بهذه العوالم بمشيئته، يغفر لمن يشاء ويعذب مَنْ يشاء وهو الغفور الرحيم، وهذه الآية تأكيد لقوله تعالى لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ فالأمر لله وحده؛ لأن الملك كله له، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

﴿إِذْ﴾: ظرف لـ «نَصَرَ كُمْ» ﴿تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: تُوعِدُهُمْ تَطْمِينًا: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ﴾: يُعِينِكُمْ ﴿رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ، مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾؟ بالتخفيف والتشديد.

﴿بَلَى﴾: يكفيكم ذلك. وفي «الأنفال»: «بِالْفِ» لأنه أمدهم أولاً بها، ثم صارت ثلاثة، ثم صارت خمسة كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾ على لقاء العدو، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله في المخالفة، ﴿وَيَأْتُواكُمْ﴾ أي: المشركون ﴿مِنْ فَوْرِهِمْ﴾: وقتهم ﴿هَذَا، يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾، بكسر الواو وفتحها، أي: مُعَلِّمِينَ. وقد صبروا وأنجز الله وعدهم، بأن قاتلت معهم الملائكة على خيلٍ بُلُقٍ، عليهم عمامٌ صُفْرٌ أو بيض، أرسلوها بين أكتافهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾ بالنصر، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾: تسكن ﴿قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾، فلا تجزع من كثرة العدو وقتلكم.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ يؤتیه من يشاء، وليس بكثرة الجند.

﴿لَيَقْطَعَ﴾: متعلق بـ: «نَصَرَكم» أي: لِيُهْلِكَ ﴿طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر، ﴿أَوْ يَكْتَبُهُم﴾: يُذَلِّهِم بالهزيمة، ﴿فَيَنْقَلِبُوا﴾: يَرْجِعُوا ﴿خَائِبِينَ﴾. لم ينالوا ما راموه.

ونزل لما كُسرَت رِباعيته ﷺ وشجَّ وجهه يوم أُحُد، وقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجَهَ نَبِيِّهِم بِالْدَمِ» ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، بل الأمر لله - فاصبر - ﴿أَوْ﴾ بمعنى: إِلَى أَنْ ﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بالإسلام ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ - فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿بِالْكَفْرِ﴾ - وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿مُلَكًا وَخَلْقًا وَعِيدًا﴾، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ المغفرة له، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تعذيبه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لأوليائه، ﴿رَحِيمٌ﴾ بأهل طاعته.

وقول المؤلف: (ظرف لـ «نَصَرَكم»): معناه متعلق بفعل نصر في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقوله: (تَوَعَّدَهُم تَطْمِينًا): المناسب أن يُقال: تَعَدَّهُم ^(١) تَطْمِينًا أي: ليطمئنوا ويذهب عنهم الخوف.

وقوله: (يُعِينُكُمْ)؛ لأنَّ الإمداد بالمعاونين إعانة.
وقوله: (بالتخفيف والتشديد): يشير إلى القراءتين في قوله: «منزِلين» بتخفيف الزاي وتشديدها من أنزل، ونُزِّل ^(٢).

وقوله: (يكفيكم ذلك): يبين أنَّ: ﴿بَلَى﴾: جواب الاستفهام في قوله: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾؛ فالمعنى: بلى يكفكم.

(١) لأنها من الوعد، و«تَوَعَّد» من الوعيد. ينظر: جمهرة اللغة (٢/٦٦٨).

(٢) ينظر: معاني القراءات للأزهري (١/٢٧٢).

وقولُه: (وفي «الأنفال»)... إلى آخره: يشير إلى التعارض بين آية الأنفال وهذه الآيات في عدد المدد، ويذكر الجمع بينها، وهو أنهم أُمدوا بألف ثم بثلاثة ثم بخمسة.

وقولُه: (وقتهم): هذا هو الشرط الثالث من شروط الإمداد، وهي: الصبر، والتقوى، وحضور العدو في نفس الوقت، الذي جرى فيه الإعداد لمواجهته.

وقولُه: (بكسر الواو وفتحها): يشير إلى القراءتين في ﴿مُسَوِّمِينَ﴾؛ قرئ بكسر الواو بصيغة اسم الفاعل، وبفتحها بصيغة اسم المفعول. وقولُه: (وقد صبروا)... إلى آخره: بيان لما وقع من المسلمين وصفة المدد من الملائكة.

وقولُه: (أي: الإمداد): بيان لمرجع الضمير المنصوب في قوله: ﴿جَعَلَهُ﴾.

وقولُه: (بالنصر)؛ أي: الإمداد بشرى بحصول النصر. وقولُه: (تسكن)... إلى آخره: تفسير تطمئن، والسكون ضد القلق الناشئ عن الخوف بسبب كثرة العدو وقلة المسلمين. وقولُه: (يؤتيه من يشاء)؛ أي: النصر يحصل بمشيئة الله، لا بالعدد وكثرة الجنود.

وقولُه: (متعلق بـ: «نَصَرَكم» أي: لِيُهْلِكَ)؛ أي: نصركم ليهلك، واللام للتعليل.

وقولُه: (بالقتل والأسر): بيان لما يحصل به قطع الطرف؛ فالمعنى: يقطع طرفهم بالقتل والأسر.

وقولُه: (يُدْلَهُم بالهزيمة): تفسير للكبت بالهزيمة والإذلال.

وقوله: (يَرْجِعُوا): فسر الانقلاب بالرجوع، ومنه انقلب الرجل إلى أهله؛ أي: رجع إليهم، ومنه قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢] ^(١).

وقوله: (لم ينالوا ما راموه): هذا تفسير للخيبة؛ يقال: لمن طلب أمر ولم يظفر به خاب سعيه ^(٢).

وقوله: (ونزل)... إلى آخره: يشير: إلى سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وفي الصحيح: أنها نزلت لما لعن رسول الله ﷺ في الصلاة بعض صناديد قريش المشركين وسمّاهم بأسمائهم ^(٣).

وقوله: (بل الأمر لله - فاصبر -): بيان لمفهوم النفي في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وقوله: (بمعنى: إلى أن): بيان لمعنى «أو» الأولى، و«أو» الثانية تدل على التنويع؛ أي: منهم من يتوب الله عليه ومنهم من يعذبه.

وقوله: (بالإسلام)؛ أي: بالتوفيق للإسلام، وقد أسلم بعض من دعا عليهم الرسول ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومنهم من بقي على الكفر فاستحق العذاب ^(٤).

وقوله: (بالكفر)؛ لأن الكفر ظلم؛ بل أظلم الظلم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقوله: (ملكًا)... إلى آخره: بيان لمعنى اللام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾.

وقوله: (المغفرة له): تقدير لمفعول: يشاء، وكذلك قوله: (تعذيبه).

(١) ينظر: لسان العرب (١/٦٨٦).

(٢) ينظر: غريب القرآن للسجستاني (ص ٢٠٥)، والمفردات في غريب القرآن (ص ٣٠٠).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٩١)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرج البخاري (٤٠٦٩)، (٤٠٧٠)

(٤٥٥٩)، (٤٥٦٠)، ومسلم (٦٧٥) نحوه عن ابن عمر وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر:

أسباب النزول (ص ١٢١)، والعجائب في بيان الأسباب (٢/٧٤٦).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٦/٤٢).



وقولُه: (لأوليائه)، وقولُه: (بأهل طاعته): هذا التقييد لا داعي إليه؛
فمغفرة الله ورحمته أوسع من ذلك.



وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٢﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٣﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٤﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبَاطِمينَ الْعَظِيمِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَعْمَرُ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣٦].

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن أكل الربا على وجه المضاعفة والإكثار كما كان يفعل ذلك أهل الجاهلية، ثم أمرهم بتقوى الله، وذلك بفعل كل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه، ومنه أكل الربا، راجين الفلاح عند الله، ثم أمر باتقاء النار التي أعدها الله للكافرين، وذلك بترك الأسباب المفضية إليها، وهي: الكفر، والمعاصي، ثم أمر **سُبْحَانَكَ وَتَعَالَىٰ** بما تحصل به حقيقة التقوى، وهي: طاعة الله ورسوله، وبها تُنال رحمة الله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

ثم أمر سبحانه بالمسارعة إلى المغفرة والجنة، والمسارعة: هي الإسراع ضد التباطؤ والتأخر، والمراد: الإسراع إلى أسباب المغفرة والجنة من الأعمال الصالحة: القولية والفعلية من الفرائض والنوافل، وقُدِّمت المغفرة على الجنة؛ لأنَّ بالمغفرة النجاة من العذاب، وبالنجاة من النار ودخول الجنة الفوز العظيم؛ قال تعالى: ﴿فَمَن رُّحِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ووصف تعالى الجنة بالسَّعة؛ فقال: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

ثم أخبر أنه تعالى أعدها للمتقين، وذكر بعض صفاتهم وأعمالهم؛ فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، وكل هذه المذكورات من أنواع الإحسان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، ثم أثنى عليهم بالاستغفار من الذنوب صغيرها وكبيرها؛ فإذا فعلوا فاحشة، وهي: الفعل القبيحة، أو ظلموا أنفسهم ببعض الذنوب؛ ذكروا الله وحقه عليهم فهابوه فاستغفروا لذنوبهم مؤمنين أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا من الذنوب؛ أي: لم يديموا عليها بفعلهم ولا بعزمهم؛ بل ندموا فتابوا واستغفروا ثم أخبر بجزائهم، وهو: المغفرة من ربهم والجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وهذا جزاء عظيم أعده الله للعاملين الصالحات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ -بِالْفِ وَدُونِهَا- بَأَن تَزِيدُوا فِي الْمَالِ عِنْدَ حُلُولِ الْأَجْلِ، وَتُوَخَّرُوا الطَّلَبَ، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بِتَرْكِهِ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: تَفُوزُونَ، ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، أَن تُعَذِّبُوا بِهَا، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، وَسَارِعُوا﴾ -بَوَاوِ وَدُونِهَا- ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أَي: كَعَرْضِهِمَا، لَوْ وُصِلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى -وَالْعَرْضُ: السَّعَةُ- ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ اللَّهُ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمَعَاصِي، ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾، فِي طَاعَةِ اللَّهِ، ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾: الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ، ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾: الْكَافِينَ عَنِ إِمضَائِهِ مَعَ الْقُدْرَةِ، ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ مَمَّنْ ظَلَمَهُمْ أَي: التَّارِكِينَ عُقُوبَتَهُ -﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ بِهَذِهِ الْأَفْعَالِ، أَي: يُثِيهِمْ- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾: ذَنْبًا قَبِيحًا كَالزَّانِي، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِمَا دُونَهُ

كالقُبلة، ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ﴾ أي: وعيده ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ، وَمَنْ﴾ أي: لا أحد ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ؟ وَلَمْ يُصِرُّوا﴾: يُدِيمُوا ﴿عَلَى مَا فَعَلُوا﴾، بل أقلعوا عنه، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ الذي أَتَوْه معصية. ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ، وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا﴾: حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أي: مقَدَّرِينَ الخلود فيها إذا دخلوها. ﴿وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ بالطاعة هذا الأجر!

وقول المؤلف: (بألفٍ ودونها)... إلى آخره: يشير إلى القراءتين في «مضاعفة»؛ إحداهما: بضاد مفتوحة بعدها ألف، والأخرى بضاد مفتوحة بعدها عين مشددة^(١)، وفسره المؤلف بالزيادة في المال، وهو الدين وتأخير الطلب، وهو الزيادة في الأجل، وهذا ربا الجاهلية؛ يقول الدائن للمدين: «إما أن تقضي، وإما أن تربى»^(٢) وقد يكررون ذلك مرات فيؤول إلى أن يكون الربا أضعافاً، وخُصَّ بالنهي لأنه أعظم إثماً وأكثر ظلمًا، والمقصود: النهي عن الربا من أصله قليله وكثيره كما مر في سورة البقرة^(٣).

وقوله: (بتركه)؛ أي: بترك الربا، وخُصَّ المؤلف الأمر بالتقوى بترك الربا مع أنَّ الواجب تقوى الله بترك كل ما نهى عنه؛ لأنَّ النهي عن أكل الربا هو المتصل بالأمر بالتقوى^(٤).

وقوله: (تفوزون): فسر الفلاح بالفوز؛ لأنه الظفر بالمطلوب المحبوب والنجاة من المرهوب.

(١) ينظر: الوجيز في شرح قراءات القرآنة الثمانية (ص ١٥١).

(٢) ينظر: موطأ مالك (٤/ ٩٧٢ رقم ٢٤٨٢).

(٣) ينظر: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ٦٣١).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٥١)، والبعوي (٢/ ١٠٣).

وقوله: (أَنْ تُعَذِّبُوا بِهَا): مصدر مؤول، وهو: بدل اشتغال من النار.
 وقوله: (بِأَوٍّ وَدُونِهَا): يشير إلى قراءتين: إحداهما؛ بواو العطف
 ﴿وَسَارِعُوا﴾، والأخرى بدون واو ﴿سَارِعُوا﴾^(١).

وقوله: (أَيُّ: كعرضهما)... إلى آخره: يبين أنَّ معنى الجملة التشبيه،
 وتشهد له آية الحديد وهي نص في ذلك. وقول المؤلف: (العرض: السَّعة):
 يبين أنَّ المراد الدلالة على سعة الجنة، وأنَّ المراد بالعرض السعة لا العرض
 ضد الطول ثم يبين دلالة الكلام على السعة العظيمة؛ بقوله: (لو وصل
 بعضها ببعض)؛ فالمعنى: أنَّ سعة الجنة كسعة السموات لو بُسطت ووُصل
 بعضها ببعض، ويوضحه؛ قول ابن عباس: كوصل الثوب بالثوب^(٢)، ولا بن
 عاشور في هذا المقام كلام حسن يقرب هذه السعة للتصور^(٣)، وقد جاءت
 أحاديث تدل على سعة الجنة، ومن أصح ما ورد فيها قوله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ
 شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا»^(٤)، وقوله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ
 مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(٥).

وقوله: (اللَّهُ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمَعَاصِي): يبين أولاً: معمول اسم
 الفاعل «متقين»، ويبين ثانياً: ما به تتحقق التقوى؛ وهو فعل الطاعات وترك
 المعاصي.

وقوله: (فِي طَاعَةِ اللَّهِ)؛ أي: ينفقون في وجوه الإنفاق التي أمر الله بها.

(١) ينظر: الشر في القراءات العشر (٢/ ٢٤٢).

(٢) أخرجه بنحوه الطبري (٦/ ٥٣)، وينظر: الدر المشور (٢/ ٣١٥).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٤/ ٨٩)، (٢٧/ ٤٠٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٨١) - واللفظ له -، ومسلم (٢٨٢٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: (اليُسْر والعُسْر): تفسير للسَّراء والضَّرَّاء؛ فاليسر هو السراء، والعسر هو الضراء.

وقوله: (الكافِّينَ عن إمضاءه مع القُدرة): تفسير للكاضمين الغيظ، والغيظ هو الغضب في القلب^(١)، وكظم الغيظ: كَف النفس عن إمضاءه بالانتقام من المتسبب في الغضب^(٢).

وقوله: (مَمَّن ظلمهم)... إلى آخره: بيان لمتعلق العفو، وفَسَّر العفو بترك العقوبة.

وقوله: (بهذه الأفعال): يعني الأفعال المذكورة: من الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس؛ فإنَّ هذه الأفعال من أنواع الإحسان؛ فمن عمل بها كان من المحسنين.

وقوله: (أي: يُثيبهم): في هذا تفسير محبة الله للمحسنين بالإثابة، وهذا يتضمن نفي حقيقة المحبة، وتأويل ما في الآية بالإثابة جمع بين التعطيل والتحريف، وهذه طريقة الأشاعرة فيما وصف الله به نفسه من المحبة والرضا والغضب والسخط. وأما أهل السنة فيثبتون هذه الصفات لله على حقيقتها، ويجرون النصوص على ظاهرها^(٣).

وقوله: (ذنبًا)... إلى آخره: بيان لمعنى قوله تعالى: ﴿فَاعْلَوْا فَاِحْشَةً﴾؛ لأنَّ معنى الفاحشة الفعل القبيحة، ومن أنواعها الزنا.

وقوله: (بما دونه كالقُبلة): كل الذنوب ظلمٌ للنفس، ولكن المؤلف خصَّ ظلم النفس في الآية ببعض الصغائر؛ كالقُبلة التي من مقدمات

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٦١٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٧)، والتفسير البسيط (٥/ ٥٩٤).

(٣) تنظر: (ص ٦١).

الفاحشة لبيان الفرق بين قوله: ﴿فَعَلُوا فَاَحْشَۃً﴾، وقوله: ﴿ظَلَمُوا اَنْفُسَهُمْ﴾^(١).

وقوله: (وعيده): هذا من التفسير باللازم؛ لأنَّ مَنْ ذكر الله بعد الذنب ذكر وعيده فخاف ربه، وخاف عقوبته^(٢).

وقوله: (لا أحد): بيان لمعنى الاستفهام وأنه إنكارى معناه: النفي، ويعبر عنه بـ: «لا أحد»؛ مثل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٢]، ومثل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقوله: (يُديموا): تفسير: يصروا؛ فالإصرار على الذنب: الإدامة والاستمرار، وضد الإصرار: التوبة والاستغفار، وفي وصفهم بعدم الإصرار على الذنب تأكيد للثناء عليهم بالاستغفار.

وقوله: (أَنَّ الذي أتوه معصية): بيان لمتعلق العلم، وأقبح ما يكون الإصرار مع العلم بقبح الفعل، والواو للحال.

وقوله: (حَالٌ مُّقَدَّرَةٌ)... إلى آخره: الحال المقدرة؛ هي: المتأخر وقوعها بالفعل عن وقت عاملها، لكن وقت الفعل مقدر حصولها في المستقبل^(٣)؛ كما تقول: أقبل الحبيب محتفًا به، والاحتفاء به يكون عند وصوله لا وقت إقباله، وخالدين في الآية حال من الضمير المجرور في قوله: ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾، والعامل فيها فعلٌ مقدر يدل عليه الكلام، وتقديره: ويدخلون جنات، ومعلوم أَنَّ الخلود غير محقق وقت الدخول لكنه مقدَّر ذلك بالمستقبل^(٤).

وقوله: (بالطاعة): بيان لمعمول اسم الفاعل «عاملين».

(١) ينظر: تفسير البغوي (١٠٦/٢)، والوجيز للواحدي (ص ٢٣٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦٢/٦)، والتفسير البسيط (٦٠٣/٥).

(٣) ينظر: شرح كتاب الحدود في النحو (ص ٢٣٠).

(٤) ينظر: الدر المصون (٣٩٨/٣).

وقوله: (هذا الأجرُ!): بيان للمخصوص بالمدح، وهو المغفرة والجنات.



وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَنُفِئُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٤١].

يذكر الله تعالى في هذه الآيات -محذراً من المخالفات- بما جرى من العقوبات على من خالف أمره وعصى رسله؛ فإنها سنن تجري على كل من كذب وعصى؛ فقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾؛ أي: مضت السنن التي جرت على الأمم التي خلت من قبل، ثم أمر تعالى بالسير في الأرض لمشاهدة آثار سنن الله في المكذبين؛ ثم قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٨)، المشار إليه ما ذكر في الآية السابقة من خبر الأمم والسنن الخالية، فإنه بيان يُعرف به الحق من الباطل وهدى يهتدي به طالب الحق، وموعظة يتعظ بها المتقون ربهم بامثال أوامره واجتناب مناهيه؛ خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه، ثم نهى عباده المؤمنين عن الوهن في جهاد الكافرين والحزن على ما أصابهم، فإن هذا لا يليق بالمؤمنين، وهم الأعْلَوْنَ؛ لأن الله معهم، ومن كان الله معه فهو الأعلى والغالب، فإن الوهن والحزن لا يليق بالمؤمنين؛ فإن الإيمان يحمل على القوة في جهاد الأعداء والصبر على المصائب؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩)، ثم يذكر سبحانه وتعالى المؤمنين مصبراً لهم ومسلياً فيما أصابهم من القتل والجراح بأن القوم -وهم الكفار- قد أصابهم مثل ما أصاب المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾، ثم ذكر تعالى حكمته في مداولة الأيام بالنصر والهزيمة

بين المؤمنين والكفار؛ فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٥١﴾﴾، فذكر أربع حكم في هذه المداولة، وهي: علمه بالمؤمنين الإيمان الحق، واتخاذ الشهداء، وتمحيص المؤمنين، ومحق الكافرين.

ونزل في هزيمة أحد: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ طرائق في الكفار، بامهالهم. ثم أخذهم. ﴿فَسِيرُوا﴾ أيها المؤمنون - ﴿في الأرض، فانظروا: كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ الرُّسَل أَي: آخِرُ أمرهم من الهلاك؟ فلا تحزنوا لغلبتهم، فأنما أمهلهم لوقتهم - ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿يَبَيِّنُ لِلنَّاسِ﴾ كلهم، ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة، ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ منهم - ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: تضعفوا عن قتال الكفار، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما أصابكم بأحد، ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ بالغلبة عليهم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حقًا. وجوابه دلّ عليه مجموع ما قبله.

﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ﴾: يُصِيبُكُمْ بأحد ﴿قَرْحٌ﴾، بفتح القاف وضمها: جَهْدٌ مِنْ جَرَحٍ ونحوه، ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ﴾: الكفار ﴿قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ ببدر، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾: نُصِرْفُهَا ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ يومًا لفرقة ويومًا لأخرى، ليتعظوا ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ عِلْمَ ظُهُورِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أخلصوا في إيمانهم من غيرهم، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يكرمهم بالشهادة - ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: الكافرين، أي: يُعَاقِبُهُمْ، وما يُنْعِمُ بِهِ عَلَيْهِمْ - استدرج - ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ بما يُصِيبُهُمْ، ﴿وَيَمْحَقَ﴾: يُهْلِكُ ﴿الْكَافِرِينَ﴾.

وقول المؤلف: (ونزل في هزيمة أحد): يشير إلى سبب نزول هذه الآيات، وهو هزيمة المسلمين يوم أحد^(١)، وفيما ذكر في الآيات تسليّة للمؤمنين، وتحذير من المعصية التي كانت سبباً في الهزيمة، وبياناً لحكمة الله فيما جرى من ابتلاء المؤمنين، واستدراج الكافرين.

وقوله: (مضت): تفسير: لـ«خلت»، وفعل «الخلو» جاء في القرآن مضافاً إلى الأيام كما في هذه الآية، وفي قوله: ﴿كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وجاء مضافاً إلى الأمم؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٨]، وجاء مضافاً إلى الرسل في قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ومعنى ﴿خَلَتْ﴾ في هذه الآيات؛ أي: مضت^(٢).

وقوله: (طرائق في الكُفَّار)... إلى آخره: فسر السنن بالطرائق، والطريقة إذا كانت مستمرة ومعتادة تسمى سنة^(٣)، ولله في أعدائه سنن، وهي: الاستدراج والأخذ، وله في أوليائه سنن، وهي: الابتلاء والنصر، وقد مضت سنن الله في أوليائه وأعدائه.

وقوله: (أيُّها المؤمنون): خص المؤمنين؛ لأنهم المخاطبون في الآيات السابقة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ [آل عمران: ١٣٠]. وقوله: (الرُّسُل)... إلى آخره: الرسل: معمول اسم الفاعل: ﴿المُكَذِّبِينَ﴾، وعاقبة المكذبين الهلاك بعد الاستدراج.

(١) فسياق الآيات في غزوة أحد. وينظر: أسباب النزول (ص ١٢٤)، والعجاب (٢/ ٧٥٨).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٢٩٧).

(٣) ينظر: لسان العرب (١٣/ ٢٢٦).

وقوله: (القرآن): جعل اسم الإشارة للقرآن جملة؛ لأنَّ القرآن كله بيان وهدي وموعظة.

وقوله: (كلهم): تنبيهٌ على إفادة العموم، وأنَّ القرآن بيانٌ لجميع الناس.

وقوله: (من الضلالة): معناه: أنَّ القرآن يُخرج أهل الضلال من الضلالة فيصيروا مهديين.

وقوله: (منهم)؛ أي: من الناس؛ المعنى: أنَّ القرآن موعظة للمتقين من الناس.

وقوله: (تضعفوا عن قتال الكفار): فسر الوهن بالضعف، ويكون في القلب والبدن^(١)، ويمنع من الجهاد؛ لأنه ضد القوة والشجاعة.

وقوله: (على ما أصابكم بأحد): بيانٌ لمتعلق الحزن، وهو مستفاد من سبب نزول هذه الآيات.

وقوله: (بالغلبة عليهم): معناه: أنكم أعلى من الكفار بنصر الله لكم فتغلبونهم.

وقوله: (حقاً)؛ أي: إيماننا كاملاً؛ فإنَّ أهل الإيمان الكامل لا يضعفون عن الجهاد، ولا يحزنون على ما فات.

وقوله: (وجوابه)... إلى آخره؛ أي: جواب الشرط محذوف، دل عليه ما تقدم من قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾؛ تقديره: إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا^(٢).

وقوله: (يُصِيبُكُمْ بأحد)؛ المعنى: إن كان قد أصابكم في أحد قرح فقد أصاب أعداءكم قرح مثله، وفي هذا تسلية للمؤمنين، وهو نظير قوله تعالى:

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٨٨٧).

(٢) ينظر: الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٢/ ١٣٣)، والدر المصون (٣/ ٤٠٦).

وقوله: (بفتح القاف)... إلى آخره: يبين أنَّ في هذا الحرف قراءتين^(١)،
 ويفسر القرح بالجهد وهو المشقة وبالجرّاح^(٢).
 وقوله: (ببدر): المعنى: أنَّ الكفار قد أصابهم ببدر مثل ما أصابكم في
 أحد، فقد قُتل منهم ببدر سبعون^(٣).
 وقوله: (نُصِرَّفَهَا)؛ أي: نصرف الأيام بتصرف الحوادث فيها من
 النصر والهزيمة؛ فيوم لهؤلاء ويوم لهؤلاء، وهذا معنى مداولة الأيام.
 وقوله: (يَوْمًا لِفِرْقَةٍ)... إلى آخره: تفسيرٌ لمداولة الأيام، وقد تقدم.
 وقوله: (عِلْمَ ظُهُورٍ): علم الظهور؛ هو: علم الشيء موجودًا، وهذا
 العلم يكون بعد الوجود^(٤).
 وقوله: (أَخْلَصُوا فِي إِيْمَانِهِمْ)؛ أي: أَخْلَصُوا لِلَّهِ فِي إِيْمَانِهِمْ ضِدَّ
 المنافقين.
 وقوله: (مَنْ غَيْرِهِمْ): متعلق بفعل تضمنه قوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ﴾، وهو:
 يميز، وتقديره: وليميز الله الذين آمنوا من غيرهم^(٥).
 وقوله: (يُكْرِمُهُم بِالشَّهَادَةِ): فمعنى الآية: ويصطفي منكم مَنْ يكرمه
 بالشهادة؛ فيقتل في سبيل الله.
 وقوله: (الكَافِرِينَ): فسر الظالمين بالكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ
 هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

-
- (١) ينظر: الشر في القراءات العشر (٢/ ٢٤٢).
 (٢) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ١١٢).
 (٣) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٧١٤).
 (٤) ينظر: الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٥٠٩-٥١١). ولشيخنا فتوى محررة في
 موقعه الرسمي بعنوان: «الرد على من توهم أنَّ الله تعالى يستفيد بالاختبار علمًا لم
 يكن يعلمه».
 (٥) ينظر: الكشف (١/ ٦٣٣)، والدر المصون (٣/ ٤٠٥) وما بعدها.

وقوله: (أي: يُعاقبهم): هذا من التفسير باللازم إذ يلزم من نفي المحبة العقاب، وانظر التعليق على آية رقم: «٢٧٦» من سورة البقرة^(١).

وقوله: (وما يُنعم به عليهم استدراج): في هذا دفعٌ لتوهم أن يكون الإنعام عليهم إكراماً لهم، وهو من عقابهم.

وقوله: (يُطهّروهم من الذنوب بما يُصيبهم): هذه هي الحكمة الثالثة فيما جرى على المسلمين من المصيبة في أحد، وهي: تطهيرهم من الذنوب، وهو معنى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: يطهرهم من ذنوبهم بما أصابهم كما قال المؤلف، ومن رحمة الله أن المصائب -صغيرة أو كبيرة- يكفر الله بها السيئات.

وقوله: (يُهلك): هذا معنى يمحق؛ فالمحق الإهلاك، وهذه هي الحكمة الرابعة فيما جرى يوم أحد من انتصارٍ وغلبةٍ للمشركين؛ ابتلاءً للمؤمنين واستدراجاً للكافرين، مما يجعلهم يتمادون في الكفر والطغيان والبغي والعدوان، وذلك سبب لإهلاكهم والنقمة منهم، وهذا معنى محققهم في قوله: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، ففيما جرى يوم أحد خير للمؤمنين وشر على الكافرين.



(١) ينظر: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ٦٣٥).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٤٢) ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (١٤٣) [آل عمران: ١٤٢-١٤٣].

قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾؛ أي: أم ظننتم، وأم هي المنقطعة المؤولة بـ «بل» وهمزة الاستفهام^(١)؛ المعنى: بل أظننتم، والاستفهام إنكاري معناه: النهي^(٢)؛ أي: لا تظنوا أن تدخلوا جنة المجاهدين؛ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٤٢)، موجودين وهذا العلم هو علم الظهور؛ أي: علم الشيء ظاهراً موجوداً، وقد علم الله أنه سيوجد، فإن الله يعلم الأشياء على ما هي عليه؛ فيعلم ما سيوجد معدوماً، فإذا وجد علمه موجوداً، والجزاء على الأعمال مرتب على ما وجد منها لا على ما علم الله أنه سيوجد^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾؛ أي: تتمنون لقاء العدو فتقاتلونهم ويقاتلونكم ويقتلونكم، وذلك من باب تمنى الشهادة، ولكن ليس كل من تمنى الشهادة يصبر عند لقاء العدو، وقد ذكر ابن جرير^(٤) وغيره^(٥) أن هذه الآية نزلت في الذين لم يحضروا بدرًا، كانوا يتمنون أن يكون لهم يوم كيوم بدر يلقون فيه العدو؛ فيقتلون ويقتلون، فابتلاههم الله يوم أحد فأصيبوا بأيدي المشركين، وقتل منهم سبعون^(٦)، وفر كثير ممن

(١) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٣٥٩)، والدر المصون (٣/ ٤٠٩).

(٢) ينظر: تفسير الراغب الأصبهاني (٣/ ٨٩٤)، والكشاف (١/ ٦٤٣).

(٣) تقدم قريباً أن لشيخنا فتوى محررة في موقعه الرسمي بعنوان: «الرد على من توهم أن الله تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه».

(٤) (٩٣/ ٦).

(٥) ينظر على سبيل المثال: التفسير البسيط (٦/ ٣٤)، والبغوي (٢/ ١١٢)، والمحزر الوجيز (٣٦٩-٣٧٠).

(٦) أخرج البخاري (٤٠٧٨) عن أنس أنه قال: «قتل منهم (أي: الأنصار) يوم أحد سبعون». قال ابن حجر: «وظاهره أن الجميع من الأنصار وهو كذلك إلا القليل». فتح الباري (٣٧٥/ ٧). وينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٢٢) وما بعدها.

كانوا يتمنون الموت، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُوتَ عَلَى أَحَدٍ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، فعاتبهم الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(١)، قيل: رأيتم أسبابه، وهي السيوف في أيدي الفرسان والشجعان، وهو ما يفعله العدو بكم حين صُرفتم عنه من القتل والجراح^(٢)، وقيل: رأيتم الموت حين رأيتم القتل، فلم تصبروا حينئذ، بل فررتم^(٣)، وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٤) أي: وأنتم تنظرون هجوم الأعداء عليكم بالقتل والتجريح، وهو تأكيد لقوله: ﴿رَأَيْتُمُوهُ﴾؛ كقول القائل: رأيناه عياناً^(٥).

﴿أَمْ﴾: بل أ ﴿حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، وَلَمَّا﴾: لم ﴿يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ علم ظهور، ﴿وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾ في الشدائد؟ ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ﴾ - فيه حذف إحدى التاءين في الأصل - ﴿الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾، حيث قلت: ليت لنا يوماً كيوم بدر، لننال ما نال شهداؤه. ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: سببه الحرب ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي: بُصراء تتأملون الحال كيف هي؟ فلم انهزمتم؟

وقول المؤلف: (بل)... إلى آخره: بيان لمعنى: ﴿أَمْ﴾، وأنها المنقطعة المؤولة بـ «بل» وهمزة الاستفهام، ولهذا قال: (بل أ ﴿حَسِبْتُمْ﴾). وقوله: (لم): تفسير لـ «لَمَّا» بـ «لم»، وهذا تفسير قاصر، فإن كما تدل على نفي مدخولها وتوقعه، بخلاف: «لم» فإنها لا تفيد إلا النفي.

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء (١/٢٣٦)، والتفسير البسيط (٦/٣٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/٩٣)، وابن كثير (٢/١٢٧).

(٣) ينظر: معاني القرآن للزجاج (١/٣٧٤)، والتفسير البسيط (٦/٣٥).

وقوله: (عِلْمَ ظُهُورٍ): بيانٌ للمراد بعلم الله، وأنه العلم بالشيء موجوداً، وقد علم الله قبل ذلك أنه سيوجد.

وقوله: (في الشدائد): بيانٌ لمحل الصبر ومتعلقه.

وقوله: (فيه حذف إحدى التاءين في الأصل): يشير إلى أن أصل الفعل: «تتمنون» بتاءين؛ تاء المضارعة وتاء الفعل الأصلية.

وقوله: (حيث قلتم)... إلى آخره: يشير إلى سبب نزول هذه الآية، وهو أن الذين لم يحضروا وقعة بدر كانوا يقولون: ليت لنا يوم كيوم بدر نلقى فيه العدو، وننال الشهادة^(١).

وقوله: (أَي: سَبَبُ الْحَرْبِ): بيان للمرئي، وهو سبب الموت؛ لأن حقيقة الموت لا تُرى، وسبب الموت هو الحرب.

وقوله: (أَي: بُصْرَاءُ)... إلى آخره: بيان لمعنى: وأنتم تنظرون؛ أي: ترون ما يجري حال القتال عياناً بأبصاركم متفكرين فيه بعقولكم.



(١) تقدم قريباً. وينظر: العجايب في بيان الأسباب (٢/ ٧٦١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [١٤٤] وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٥].

يخبر تعالى بأن الرسول محمداً ﷺ واحد من رسل الله، يجوز عليه ما جاز عليهم من الموت والقتل، و﴿قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: مضت من قبله جميع الرسل، وهو خاتمهم، ثم أنكر تعالى على مَنْ إذا مات النبي، أو قُتل انقلبوا على أعقابهم مرتدين عن دينهم، ثم أخبر تعالى أن مَنْ يرتد لن يضر الله شيئاً؛ بل يعود ضرر ردتهم عليهم، وقوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [١٤٤]؛ أي: سيجزي الشاكرين على ثباتهم وصبرهم وشكرهم لله على ما أولاهم، ثم أخبر تعالى أن كل نفسٍ لها أجل مكتوب لن تموت قبله، وموتها بإذن الله، ثم وعد مَنْ يريد ثواب الدنيا، وَمَنْ يريد ثواب الآخرة أن يؤتیه من مراده، وقد بين تعالى في آية أخرى: أَنَّ مَنْ أَرَادَ عَمَلَ الْآخِرَةِ زَادَهُ مِنْ فَضْلِهِ فَيُضَاعَفُ حَسَنَاتُهُ وَيَعْظَمُ أَجْرُهُ، وَمَنْ أَرَادَ عَمَلَ الدُّنْيَا آتَاهُ مِنْهَا، وذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى]، وقوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [١٤٥]، وعدُّ من الله للشاكرين بأن يجازيهم؛ فيشيهم ويزيدهم من نعمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ونزل في هزيمتهم، لَمَّا أَشِيعَ أَنَّ النَّبِيَّ قُتِلَ، وقال لهم المنافقون: «إِنْ كَانَ قُتِلَ فَارْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ. أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ كغيره ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: رجعتكم

إلى الكُفْر؟ والجُملة الأخيرة محلّ الاستفهام الإنكاري، أي: ما كان معبودًا فترجعوا، ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾! وإنما يضرّ نفسه، ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ نِعَمَهُ بالثبات، ﴿وما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: بقضائه، ﴿كِتَابًا﴾: مصدرٌ أي: كَتَبَ اللَّهُ ذلك، ﴿مُؤَجَّلًا﴾: مُؤَقَّتًا لا يتقدّم ولا يتأخّر. فلم انهزمتم، والهزيمة لا تدفع الموت، والثبات لا يقطع الحياة؟ ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ بعمله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أي: جزاءه منها ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ما قُسم له ولا حظّ له في الآخرة، ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: من ثوابها. ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.

وقول المؤلف: (ونزل)... إلى آخره: يبين بذلك سبب نزول هذه الآيات^(١).

وقوله: (كغيره): هذا بيان لمعنى الآية، وأنه يجوز على النبي ﷺ ما جرى على مَنْ قبله من الرسل من الموت أو القتل.
وقوله: (رجعتم إلى الكُفر): بيان لمعنى: انقلبتم.
وقوله: (والجُملة الأخيرة)... إلى آخره: يعني: جملة جواب الشرط، وهي: «انقلبتم»، فإنها محلّ الاستفهام الإنكاري؛ أي: متعلقة؛ فإنّ الانقلاب على الأعقاب - وهو: الرجوع إلى الكفر - هو المنكر؛ لذلك كان الاستفهام الإنكاري متعلقًا به^(٢).

وقوله: (ما كان معبودًا فترجعوا): يريد ما كان النبي ﷺ معبودًا حتى يرجعوا عن دينه بسبب موته؛ هذا المعنى مقتبس من قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٢٥)، والعجاب في بيان الأسباب (٧٦٣/٢).

(٢) ينظر: تفسير الكواشي (٤٠٨/١)، والكشاف (٦٣٧/١).

في خطبته: «من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» ثم تلا هذه الآية (١).

وقوله: (وإنما يضر نفسه): بيان لمن يعود عليه ضرر الردة عن الإسلام، وهو المرتد نفسه، والله تعالى غني عنه، لا يضره كفر الكافرين أو معصية العاصين.

وقوله: (نعمه بالثبات): بيان لمتعلق الشكر، وهو النعم، وما به الشكر، وهو الثبات والصبر عند المصيبة.

وقوله: (بقضائه): يبين أن المراد بالإذن: الإذن الكوني.

وقوله: (مصدر)... إلى آخره: بيان لإعراب «كتابًا»، وأنه مصدر لفعل محذوف؛ تقديره: «كتب الله ذلك كتابًا» فهو منصوب على المفعول المطلق (٢).

وقوله: (مؤقتًا)... إلى آخره: معناه: أن الموت مقدر في وقت لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فلا يترك واجب الجهاد خوفًا من الموت؛ فالقتال لا يعجله والقيود عن الجهاد لا يؤخره.

وقوله: (بعمله)... إلى آخره: الجزاء العاجل، وهو ثواب الدنيا نعطيها منها؛ أي: بعض ما أراد لا كله.

وقوله: (ما قسم له)؛ أي: ما قدر له؛ معناه: لا يعطى مما أراد من الدنيا إلا ما قدر له.

وقوله: (ولا حظ له في الآخرة): دليله قوله تعالى في سورة الشورى:

﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].



(١) أخرجه البخاري (١٢٤١ و ١٢٤٢)، (٣٦٦٨)، (٤٤٥٤) عن عائشة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: التبيان في إعراب القرآن (٢٩٧/١)، والدر المصون (٤١٩/٣).

وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

يخبر تعالى بأن كثيراً من الأنبياء الذين مضوا كان يقاتل مع النبي منهم جموعٌ كثيرة - وهم: الربيون^(١) - من أتباعهم فيصابون بالقتل أو بقتل نبيهم، ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾؛ أي: ما ضعفوا بسبب ما أصابهم ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾؛ أي: ما ذلوا، والوهن: في القلوب، وهو ضعف العزيمة، والضعف: في الأبدان^(٢)، والاستكانة: الذل والاستسلام للعدو^(٣)، وقوله: «قاتل» فيها قراءتان: قُتِلَ وَقَاتَلَ؛ فعلى القراءة بالألف فالربيون فاعل، ومن قرأ «قُتِلَ» بالبناء للمفعول فنائب الفاعل إما الربيون، وإما ضمير مستتر يعود إلى النبي؛ فيكون المعنى: كثير من النبيين قتل^(٤)، وهذا هو المناسب للمقام، فإن الآية نزلت بمناسبة ما أشيع من قتل النبي ﷺ^(٥)، فقليل للمؤمنين تصبيراً وتسلياً لهم: كم من نبي قُتل ومعه أتباع كثيرون^(٦) ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾، من قتل نبيهم، ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، فأنتم أولى بالصبر والمضي في الجهاد؛ فتضمنت الآية: تسلياً

(١) أي جماعات كثيرة. ويقال: الألوْف. وأصله من الرِّبَّة. وهي الجماعة. ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ٤١٣)، وتفسير الطبري (٦/ ١١١-١١٣).

(٢) ولمثل هذا التفريق ذهب الواحدي وابن عاشور وذكره الرازي احتمالاً واستحسنه. ينظر: التفسير البسيط (٦/ ٥٦)، وتفسير الرازي (٩/ ٣٨١)، والتحرير والتنوير (٤/ ١١٨-١١٩).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ١١٧)، ومعاني القرآن للزجاج (١/ ٤٧٦).

(٤) ينظر: الحجة للقراء السبعة (٣/ ٨٢)، وحجة القراءات (ص ١٧٥).

(٥) ينظر: أسباب النزول (ص ١٢٥).

(٦) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ١٢٠).

للمؤمنين فيما أصابهم من القرع بالقتل والجراح، وعتباً على الذين تولوا يوم
التقاء الجمعان؛ ومعنى الآية: فهلا كنتم مثل أولئك الذين أصيبوا في سبيل الله،
فما وهنوا لما أصابهم وما ضعفوا وما استكانوا فصبرتم صبرهم، وقتلتم كما
قالوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧)، فصبروا والله يحب الصابرين، وأحسنوا والله يحب
المحسنين، ﴿فَاتَّاهَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ﴾، فجمع الله لهم
بين ثواب الدنيا والآخرة، وثواب الدنيا: ما حصل لهم من النصر على الأعداء
والظفر بمطلوبهم والغنيمة، وثواب الآخرة هو أحسن الثواب؛ من رحمة الله
ورضوانه وكرامته في جنات النعيم وقبل ذلك محبة الله لهم وثنائوه عليهم،
وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٨)، إشارة إلى أنهم قد أحسنوا العمل؛ فأحبهم
الله لأنه يحب المحسنين.

﴿وَكَايْنٍ﴾: كم ﴿مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ﴾ - وفي قراءة: «قاتل» والفاعل
ضميره - ﴿مَعَهُ﴾: خبرٌ مبتدؤه ﴿رَبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾: جموعٌ كثيرة، ﴿فَمَا
وَهَنُوا﴾: جبنوا، ﴿لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من الجراح وقتل أنبيائهم
وأصحابهم، ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن الجهاد، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: خضعوا
لعدوهم، كما فعلتم حين قيل: قُتل النبي! - ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾
على البلاء، أي: يثيبهم - ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾ عند قتل نبيهم، مع ثباتهم
وصبرهم، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا: رَبَّنَا، اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا﴾: تجاوزنا الحدَّ
﴿فِي أَمْرِنَا﴾، إيذاناً بأن ما أصابهم لسوء فعلهم وهضمًا لأنفسهم،
﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾ بالقوة على الجهاد، ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.
فاتاهم الله ثواب الدنيا: النصر والغنيمة، ﴿وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ﴾
أي: الجنة. وحسنه: التفضل فوق الاستحقاق. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقول المؤلف: (كم): يبين أنَّ: «كأين» بمعنى: «كم» الخبرية التي تدل على التكثير؛ فيؤول المعنى: كثير من الأنبياء قُتل.

وقوله: (وفي قراءة)... إلى آخره: يفيد أنَّ الآية فيها قراءتان «قُتل» بالبناء للمفعول، وأنها الأصل عند المؤلف^(١)، والقراءة الأخرى «قاتل» بالألف، والفاعل على ما مشى عليه المؤلف ضمير مستتر يعود على النبي، وجملة: ﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ مبتدأ وخبر، والظاهر خلاف قول المؤلف؛ فـ «ربيون»: فاعل قاتل، وعلى قراءة «قُتل» بالبناء للمفعول؛ الصواب: أنَّ نائب الفاعل ضمير مستتر يعود على النبي، وجملة: ﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ مبتدأ وخبر؛ فـ «معه»: خبر مقدم، و«ربيون»: مبتدأ مؤخر^(٢).

وقوله: (جموعٌ كثيرة): هو معنى ربيون كثير. وقوله: (جَبُنُوا): تفسيرٌ للوهن بلازمه، وهو الجُبْن؛ لأنَّ الوهن ضعف في القلب يمنع من الإقدام للقاء العدو.

وقوله: (من الجراح)... إلى آخره: بيانٌ لعموم الاسم الموصول. وقوله: (خضعوا)... إلى آخره: بيانٌ لمعنى الاستكانة؛ لأنَّ الخضوع للعدو يورث الذل والاستسلام.

وقوله: (أي: يُشبههم): يريد أنَّ معنى يحبهم: يشبههم، وهذا يقوله مَنْ ينفي حقيقة المحبة عن الله وهي طريقة المعطلة من الجهمية ومَنْ تبعهم من المعتزلة ثم الأشاعرة. ونفي المحبة وتفسيرها بالثواب جمعٌ بين التعطيل والتحريف، والواجب إجراء كلام الله على ظاهره وذلك بإثبات حقيقة

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. ينظر: المبسوط (ص ١٦٩)، وتقدم توجيه القراءتين قريباً.

(٢) ينظر الخلاف في: البحر المحيط (٣/ ٣٦٩)، والدر المصون (٣/ ٤٢٦).

المحبة، والإيمان بأنه تعالى يُحِبُّ وَيُحَبُّ كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]^(١).

وقوله: (عند قتل نبيهم)... إلى آخره: يبين أن ذلك القول منهم قالوه حين قُتل نبيهم، فمع صبرهم وثباتهم دعوا بهذا الدعاء الجامع لطلب المغفرة والثبات أمام العدو والنصر عليهم.

وقوله: (تجاوزنا الحدَّ): بيانٌ لمعنى الإسراف بأنه مجاوزة الحد بارتكاب الكبائر.

وقوله: (إيذاناً)... إلى آخره: يبين أن دعاءهم المذكور يتضمن اعترافهم بأنَّ ما أصابهم بسبب ذنوبهم.

وقوله: (بالقوة على الجهاد): تفسيرٌ لثبوت الأقدام؛ لأنَّ ثبات الأقدام دليل على القوة في مواجهة العدو، وضد ثبات الأقدام الفرار عن المواجهة.

وقوله: (النصر والغنيمة): هذا من الثواب المعجَّل للمجاهدين في الدنيا.

وقوله: (الجنة)... إلى آخره: بيانٌ للمراد بحسن ثواب الآخرة، وإضافة الحسن إلى الثواب من إضافة الصفة إلى الموصوف^(٢)، ومعلوم أن الجنة أحسن الثواب.



(١) ينظر: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ٦٣٥)، وتنظر: (ص ٦١).

(٢) ينظر: فتح القدير (١/ ٤٤٣).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِءِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٩-١٥٢].

ينهى الله المؤمنين عن طاعة الكافرين ويحذرهم من سوء عاقبة طاعتهم وهو الخسران المبين، ويذكرهم سبحانه ولايته لهم ونصره إياهم حتى لا يخافوا الكافرين، ومن نصر الله للمؤمنين: إلقاء الرعب في قلوب الكافرين بسبب شركهم؛ كما قال ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»^(١)، ﴿وَمَا أُولَهُمُ النَّارُ﴾: في الآخرة، ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، النار؛ ثم أخبر تعالى أنه صدق المؤمنين وعده بالنصر، وذلك في أول الأمر في غزوة أحد حين شد المؤمنون على الكفار بالقتل فانهزموا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾؛ أي: تقتلونهم^(٢)، ﴿بِإِذْنِهِ﴾؛ أي: بمشيئته وأمره، ولكن لما وقعت المعصية من الرماة حين أخلوا المكان الذي أمرهم النبي ﷺ أن يلزموه ولا يبرحوه؛ كرّ الكفار على المسلمين؛ فقتل من المسلمين سبعون، وقتل: حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وطمع بعض المشركين بقتل النبي ﷺ ولكن الله حال بينهم وبينه؛

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥) - واللفظ له -، ومسلم (٥٢١) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ١١٣)، والمفردات في غريب القرآن (ص ٢٣١).

فشجوا رأسه وكسروا رباعيته^(١)، وصاح الشيطان قتل محمد، وفر كثير من المسلمين^(٢)، وذلك قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾؛ أي: جبتكم، ﴿وَتَنَزَعْتُمْ﴾، وهو تنازع الرماة مع أميرهم في أمر الذهاب إلى ساحة القتال، وترك المكان حين رأوا الغلبة للمؤمنين، والدائرة على الكافرين ﴿فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْكَبْتُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ منكم من يريد الدنيا؛ وهم الرماة الذين تركوا المكان، ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾؛ وهم الذين بقوا مع أميرهم، ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: صرف وجوهكم فوليتم العدو ظهوركم، وذلك حين انهزم المسلمون، وفر من فر منهم مصعدين في الوادي هارين لا يلوي أحد على أحد؛ أي: لا يعطف عليه ولا يلتفت إليه، ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، وعند ذلك تولى كثير من المسلمين عن قتال الكفار، وتلك زلة أوقعهم فيها الشيطان، ولكن الله برحمته عفا عنهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٤) [آل عمران] (٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيما يأمرونكم به ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ إلى الكفر، ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾. بل الله مولاكم: ناصركم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾. فأطيعوه دونهم. ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، بسكون العين وضمتها: الخوف - وقد عزموا بعد ارتحالهم من أحد على العود واستئصال

(١) ينظر هامش (ص ١٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٠٩)، وابن أبي حاتم (٤٣٢٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الحاكم (٣١٦٣). وينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٤).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ١٢٨).

المسلمين، فَرَعِبُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا- ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾: بسبب إشراكهم ﴿بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: حُجَّة على عبادته -وهو الأصنام- ﴿وَمَا أَوَاهُمُ النَّارُ، وَبِئْسَ مَثْوًى﴾: مأوى ﴿الظَّالِمِينَ﴾: الكافرين هي!

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ إِيَّاكُمْ بِالنَّصْرِ، ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ﴾: تقتلونهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾: بإرادته. ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: جُيئتم عن القتال، ﴿وَتَنَازَعْتُمْ﴾: اختلفتم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أي: أمرِ النبيِّ بِالْمُقَامِ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ لِلرَّمِي، فَقَالَ بَعْضُكُمْ: نَذْهَبُ فَقَدْ نُصِرَ أَصْحَابُنَا. وَبَعْضُكُمْ: لَا نُخَالِفُ أَمْرَ النَّبِيِّ، ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أمره فتركتم المركز لطلب الغنيمة، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ﴾ اللَّهُ ﴿مَا تُحِبُّونَ﴾ من النصر. وجواب «إذا» دلّ عليه ما قبله أي: منعكم نصره -﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ فترك المركز للغنيمة، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فثَبَّتَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ، كعبد الله بن جُبَيْر وَأَصْحَابِهِ- ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ﴾: عطفٌ على جواب «إذا» الْمُقَدَّر، رَدَّكُمْ بِالْهَزِيمَةِ ﴿عَنْهُمْ﴾ أي: الْكُفَّارِ، ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: لِيَمْتَحِنَكُمْ فَيُظْهِرَ الْمَخْلَصُ مِنْ غَيْرِهِ. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ ما ارتكبتموه. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِالْعَفْوِ.

وقول المؤلف: (فيما يأمر ونكم به): بيان: لمتعلق الطاعة، وهو أمر الكفار المسلمين بترك دينهم ونصرة الرسول ﷺ.

وقوله: (إلى الكفر): بيان: للغاية التي ينتهي إليها طاعة الكفار، وهي: الردة عن الإسلام.

وقوله: (ناصركم): بيان: لمقتضى ولاية الله للمؤمنين، وهو: النصر بدليل قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

وقوله: (فأطيعوه دونهم): بيان لما توجهه ولاية الله ونصره، وهو شكره وإيثاره بالطاعة.

وقوله: (بسكون العين وضّمها): إشارة إلى قراءتين في الآية بسكون العين، وهي: قراءة الجمهور، وضمها على قراءة حمزة والكسائي^(١).
وقوله: (الخوف)... إلى آخره: بيان لمعنى الرعب، وأثر إلقائه في قلوب الكفار، وهو تركهم ما عزموا عليه من الرجوع لقتال المسلمين لاستئصالهم فكبتهم الله ورجعوا خائبين.

وقوله: (بسبب إشراكهم): بيان أن الباء سببية، وما مصدرية.
وقوله: (حُجّة على عبادته - وهو الأصنام-) : معناه: أن الله لم ينزل حجة تدل على صحة عبادة الأصنام، فلا حجة للمشركين على صحة دينهم فهو باطل، ومعبوداتهم باطلة.

وقوله: (مأوى): فسر: المثنوى بالمأوى، وهذا تفسير قاصر؛ فإنّ المثنوى يشعر بالإقامة والاستقرار، والنار مأوى للكافرين ومحل إقامة.

وقوله: (الكافرين): فسر الظالمين بالكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقوله: (هي!)؛ أي: النار بيان للمخصوص بالذم المستفاد من بئس.
وقوله: (إياكم بالنصر): بيان: لمفعولي وعد؛ فإنّ وعد يتعدى إلى مفعولين؛ فمعنى الآية: أن الله وعد المؤمنين النصر فحقق لهم ما وعدهم.
وقول المؤلف: «بالنصر»: لو قال النصر بدون حرف الجر كان أولى؛ لأنّ وعد يتعدى للمفعول الثاني بنفسه.

وقوله: (تقتلونهم): تفسير: للحس بالقتل؛ أي: تحسونهم بالسيوف.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٠).

وقوله: (بِإِرَادَتِهِ): يشمل: الإرادتين الكونية والشرعية؛ فَإِنَّ قَتْلَ الْكَفَّارِ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ فِي أَحَدٍ حَصَلَ بِالْإِرَادَتَيْنِ الْكَوْنِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِهِ شَرْعًا وَمَقْدَّرٌ كَوْنًا.

وقوله: (جُبْتُمْ عَنِ الْقِتَالِ): تفسير للفشل، وَمَنْ جَبَنَ عَنِ الْقِتَالِ لَا بَدَّ أَنْ يَفْشَلَ وَيَفُوتَهُ مَطْلُوبُهُ.

وقوله: (اِخْتَلَفْتُمْ): فسر: التنازع بالاختلاف؛ لِأَنَّ الْاِخْتِلَافَ يُؤْدِي إِلَى التَّنَازُعِ.

وقوله: (أَيُّ أَمْرِ النَّبِيِّ) ... إلى آخره: بيان: للمراد بالآية، وهو نزاع الرماة مع أميرهم في أمر الرسول ﷺ لهم في لزوم مكانهم في الجبل.

وقوله: (أَمْرُهُ) ... إلى آخره: بيان: لصفة المعصية التي وقعت من الرماة، وهو ترك المكان الذي أُمرُوا بلزومه.

وقوله: (وَجَوَابُ «إِذَا» ...) إلى آخره: يريد ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، ويبين أَنَّ جَوَابَهَا محذوف لدلالة ما قبله عليه ثم يقدر الجواب بقوله: (منعكم نصره).

وقوله: (فترك المركز للغنيمة): بيان: للمراد بالصنف الذي يريد الدنيا.

وقوله: (فُتِّبَ بِهِ) ... إلى آخره: بيان: للصنف الذي يريد الآخرة، وهم: مَنْ ثَبَتَ بِالْمَكَانِ الَّذِي أُمرُوا بلزومه من الجبل.

وقوله: (عَطْفٌ عَلَى) ... إلى آخره: يبين أَنَّ فعل: ﴿صَرَفَكُمْ﴾، المعطوف بـ «ثم»؛ معطوفٌ على جواب «إِذَا» المقدر الذي سبق، وهو قوله: منعكم النصر؛ فالتقدير: منعكم النصر، ثم صرفكم، ثم فسر قوله تعالى: ﴿صَرَفَكُمْ﴾؛ أي: ردكم بالهزيمة.

وقوله: (لِيَمْتَحِنَكُمْ) ... إلى آخره: بيان لمعنى: ﴿لِيَتْلِيَكُمْ﴾، وهو بيان لحكمة صرف المسلمين عن الكفار.

وقوله: (ما ارتكبتموه): بيان: لمتعلق العفو، وهو ما ارتكبه بعض الرماة من ترك المكان الذي أمروا بلزومه، وهو المعصية التي ذمهم الله بها في قوله: ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾.

وقوله: (بالعفو): بيان: للمراد بالفضل الذي من الله به على المؤمنين.



وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُوتَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَبِكُمْ فَأَتْبَكُمُ غَمًّا بَغْمٍ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ ۖ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٢﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٣-١٥٥].

﴿إِذْ﴾: ظرف متعلق بالفعل صرفكم؛ أي: ردكم عن قتال المشركين، وذلك حين كنتم ﴿تَصْعَدُونَ﴾؛ أي: تسرون في الوادي هارين، ﴿وَلَا تَلُوتَ﴾؛ أي: لا تلتفتون لأحد، ولا تميلون على أحد من شدة الخوف^(١)، وقوله: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَبِكُمْ﴾؛ أي: من ورائكم في آخر الجيش قائلاً: «إِلَيَّ عباد الله اثبتوا»^(٢)، والجملة حالية، وقوله: ﴿فَأَتْبَكُمُ﴾؛ أي: جزاكم، والجزاء بالشر قد يسمى ثواباً^(٣)، وقوله: ﴿بَغْمًا بَغْمٍ﴾؛ أي: غمًّا على غم، أو غمًّا موصولاً بغم^(٤)، والغم: ما يتألم منه في الوقت الحاضر، والحزن: الألم من مكروه في الماضي، والخوف: الألم

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٤٦/٦)، (١٤٨/٦).

(٢) جاء بنحوه عن ابن عباس والحسن وقتادة. ينظر: تفسير الطبري (١٤٦/٦) وما بعدها، والدر المشور (٣٥٠/٢).

(٣) ينظر: المفردات (ص ١٨٠).

(٤) ينظر: تفسير البغوي (١٢٠/٢).

من مكروهه في المستقبل^(١)، والغم الأول ما أشيع وتحدثوا به من أن النبي ﷺ قُتل، والغم الثاني ما أصابهم من القتل والجراح^(٢)، والغم الأول في لفظ الآية هو الثاني في الواقع فكان فيه تسلية مما أصابهم من القتل والجراح؛ لأن قتل النبي ﷺ أعظم في نفوسهم، فلما تبين أنه كذب كان في ذلك تسلية لهم عما فاتهم من النصر والغنيمة، وما أصابهم من القتل والجراح، ولهذا قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ﴾، والتعليل: للغم الأول؛ فالجار والمجرور متعلق بفعل أثابكم، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم علمًا تامًا بجميع أعمالكم الظاهرة والباطنة ما عملتم وما ستعملون، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً﴾؛ أي: أنزل الله عليكم من بعد الغم الأول والثاني ﴿أَمَنَةً﴾؛ أي: آمنا نعاسًا بدل منه، وعُبر عن النعاس بالأمن لأنه سببه، والنعاس مبدأ النوم، وهو لا يكون مع الخوف ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾؛ أي: ينزل على طائفة منكم، وهم الذين كروا بقتال العدو بعزم وصدق وإخلاص يريدون ثواب الآخرة، وقوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، هم فريق من المنافقين لما قتل من قتل من المسلمين ساء ظنهم بالله، ولم يكن لهم همٌّ في نصر دين الله فما أهمهم إلا أن تسلم نفوسهم من القتل، وهو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾؛ ظنًا ناشئًا من جهلهم، وهو ظنهم أن الله لا ينصر دينه ولما ظهر المشركون على المسلمين أول الأمر ظنوا أن الإسلام قد ذهب وزالت دولته، وشعروا بالذلة؛ فقالوا: ﴿هَلْ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾، وهذا استفهام إنكار واستنكار؛ معناه: النفي والعتب لعدم استشارتهم والرجوع إلى رأيهم، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، رد على المنافقين فكل ما جرى ويجري فهو

(١) ينظر: الفوائد (ص ٣٧-٣٨)، وطريق الهجرتين (٢/٦٠٦).

(٢) ينظر الخلاف في: تفسير الطبري (٦/١٥٠)، وزاد المسير (١/٣٣٦).

بقدر الله وتديره، وقوله: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، وهذا شأن المنافقين ثم فسر ما أخفوه؛ فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا﴾، وهذه شِشْنَةُ^(١) المنافقين؛ يقولون أقوالاً رجماً بالغيب، وهو نظير قولهم: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦]، ثم بيّن تعالى حكمته في جريان القدر بما قالوا ليكون ذلك حسرة في قلوبهم؛ أي: حزناً شديداً، ومشية الله نافذة بما قدره، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾، ثم بيّن تعالى أن من حكمته فيما جرى على المسلمين من الهزيمة أولاً، والقتل والجراح: أن يتلي ما في صدور المنافقين ويمحص ما في قلوبهم، فيظهر ما كانوا يُسرون ويخفون من العداوة للمسلمين فيظهرون على حقيقتهم ويمتازون عن المؤمنين، فيتبين أمرهم للمسلمين، وتصير سرائرهم علانية فيفتضحوا بذلك، ثم أخبر تعالى عن إحاطة علمه بما في صدور المنافقين فلم يتل تعالى ما في صدورهم ليعلم ما كان خافياً عليه؛ فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، يخبر تعالى في هذه الآية بسبب تولي الذين تولوا عن قتال المشركين يوم التقاء جمع المشركين وجمع المسلمين، وهو أن الشيطان استزلهم؛ أي: أوقعهم في الزلة، وهي: توليهم مدبرين وجرى ذلك بقدر الله بسبب بعض ما كسبوا من معصية الله؛ كما يدل له قوله تعالى فيما تقدم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرْسَلَكُمْ بِهِ مَا تُحِبُّونَ﴾، ثم أخبر تعالى بعفوه عنهم لأنه غفور حلیم، وفي هذا تأكيد لما سبق في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) والشِشْنَةُ: الطبيعة والخليقة والسجية. وفي المثل: «شِشْنَةُ أعرفها من أخزم». ينظر: لسان العرب (٢٤٣/١٣)، ومجمع الأمثال (٣٦١/١).

اذكروا ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: تُبْعِدُونَ في الأرض هارين، ﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾: تُعَرِّجُونَ ﴿عَلَى أَحَدٍ﴾، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ ﴿أَي: مِنْ وَرَائِكُمْ﴾، يقول: «إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، إِلَى عِبَادِ اللَّهِ»، ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾: فَجَازَاكُمْ ﴿غَمًّا﴾ بالهزيمة ﴿بِغَمٍّ﴾: بِسَبَبِ غَمِّكُمْ الرَّسُولَ بِالْمُخَالَفَةِ - وَقِيلَ: الْبَاءُ بِمَعْنَى: عَلَى، أَي: مُضَاعَفًا عَلَى غَمِّ قَوْتِ الْغَنِيمَةِ - ﴿لِكَيْلَا﴾، مُتَعَلِّقٌ بِ«عَفَا»، أَوْ بِ«أَثَابَكُمْ» فَ«لَا»: زَائِدَةٌ، ﴿تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ مِنْ الْغَنِيمَةِ، ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ مِنَ الْقَتْلِ وَالْهَزِيمَةِ. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً﴾: أَمْنًا، ﴿نُعَاسًا﴾: بَدَلٌ ﴿يَغْشَى﴾ - بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ - ﴿طَائِفَةٌ مِنْكُمْ﴾ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، فَكَانُوا يَمِيدُونَ تَحْتَ الْحَجَفِ وَتَسْقُطُ السِّيُوفُ مِنْهُمْ، ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أَي: حَمَلَتْهُمْ عَلَى الْهَمِّ، فَلَا رَغْبَةَ لَهُمْ إِلَّا نَجَاتُهَا دُونَ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ فَلَمْ يَنَامُوا - وَهُمْ الْمَنَافِقُونَ - ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنًّا غَيْرَ الظَّنِّ﴾ ﴿الْحَقُّ، ظَنٌّ﴾ أَي: كَظَنِّ ﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾، حَيْثُ اعْتَقَدُوا أَنَّ النَّبِيَّ قُتِلَ أَوْ لَا يُنْصَرُ، ﴿يَقُولُونَ: هَلْ مَا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ﴾ أَي: النَّصْرِ الَّذِي وَعَدْنَاهُ ﴿مِنْ﴾: زَائِدَةٌ ﴿شَيْءٍ؟ - قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ﴾، بِالنَّصْبِ: تَوَكِيدًا، وَالرَّفْعِ: مُبْتَدَأً وَخَبَرَهُ: ﴿لِلَّهِ﴾ أَي: الْقَضَاءُ لَهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ - ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ﴾: يُظْهِرُونَ ﴿لَكَ﴾، يَقُولُونَ: بَيَانٌ لِمَا قَبْلَهُ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أَي: لَوْ كَانَ الْاِخْتِيَارُ إِلَيْنَا لَمْ نَخْرُجْ فَلَمْ نُقْتَلْ. لَكِنْ أَخْرَجْنَا كُرْهًا.

﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾، وَفِيكُمْ مِنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْقَتْلَ، ﴿لَبَرَزَ﴾: خَرَجَ ﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾: قُضِيَ ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ مِنْكُمْ ﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾: مَصَارِعِهِمْ فَيُقْتَلُونَ، وَلَمْ يُنْجِهِمْ فُجُودُهُمْ، لِأَنَّ قَضَاءَهُ - تَعَالَى - كَائِنٌ لَا مُحَالَةَ، ﴿وَفَعِلَ مَا فَعِلَ بِأَحَدٍ﴾، ﴿لِيَتَلَيَّ﴾: يَخْتَبِرُ

﴿اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: قُلُوبِكُمْ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالنِّفَاقِ، ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾،
يَمِيزَ ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ: بِمَا فِي الْقُلُوبِ، لَا
يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ. وَإِنَّمَا يَبْتَلِي لِيُظْهِرَ لِلنَّاسِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾: عَنِ الْقِتَالِ، ﴿يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾:
جَمْعُ الْمُسْلِمِينَ وَجَمْعُ الْكَافِرِينَ بِأُحَدٍ -وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا اثْنِي عَشَرَ
رَجُلًا- ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمْ﴾: أَزَلَّهُمُ ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بَوَسْوَسَتِهِ، ﴿بِبَعْضِ مَا
كَسَبُوا﴾ مِنَ الذُّنُوبِ -وَهُوَ مُخَالَفَةُ أَمْرِ الرَّسُولِ- ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿حَلِيمٌ﴾: لَا يُعَجِّلُ عَلَى الْعَصَاةِ.

وقولُ المؤلَّف: (اذكروا): بيان: للعامل في الظرف عمل الفعل في
المفعول به.

وقوله: (تُبْعِدُونَ فِي الْأَرْضِ هَارِبِينَ): تفسير: للإصعاد بالإمعان في
الهرب بسبب شدة الخوف.

وقوله: (تُعَرِّجُونَ)؛ أي: تميلون.

وقوله: (أي: من ورائكم)... إلى آخره: تفسير: لقوله تعالى: ﴿فِي
أَخْرَاجِكُمْ﴾؛ أي: آخر الجيش، وبيان لما كان يدعوهم به ﷺ وهو قوله: «إِلَى
عِبَادِ اللَّهِ، إِلَى عِبَادِ اللَّهِ»^(١)؛ أي: ارجعوا إلي، ولا تفروا.

وقوله: (فجازاكم)؛ أي: جازاكم على التولي غمًّا، والجزاء بالشر قد
يسمى ثوابًا، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ
اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٠] ^(٢).

وقوله: (بالهزيمة): بيان: لسبب الغم.

(١) تقدم قريبًا.

(٢) ينظر: المفردات (ص ١٨٠).

وقوله: (وقيل: الباء)... إلى آخره: هذا هو الصواب؛ أي: جازاهم الله على المعصية بغم على غم^(١)، وهي: المصائب من الهزيمة وفوت الغنime والقتل والجراح، وما أشيع من قتل النبي ﷺ، وقد رفع الله عنهم هذه الغموم حين ثبت عندهم كذب الخبر بقتل النبي ﷺ، فهان عليهم كل فائت، وسلوا عن كل مصيبة إذ بقي الرسول بينهم ﷺ.

وقوله: (متعلق بـ«عفا»)... إلى آخره: يريد أن الجار والمجرور، وهما: لام التعليل، والمصدر المؤول يحتمل أنهما متعلقان بـ«عفا» في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، أو بـ«أثابكم»، وهذا هو الصواب^(٢)، وقوله «لا» زائدة قول مرجوح؛ والصواب: أنها نافية لأن المقصود نفي الحزن^(٣)؛ فالمعنى: أثابكم غمًا بغم لأجل ألا تحزنوا؛ لأن الغم الذي أصابهم ينسيهم ما فاتهم وما أصابهم فيذهب حزنهم.

وقوله: (من الغنime): لأنها أعظم ما يحزنون عليه عند فوته.
 وقوله: (من القتل والهزيمة): لأن أعظم مصيبة هي القتل والهزيمة.
 وقوله: (أمنًا): تفسير: لأمنة؛ لأن الأمن والأمنة مصدران لفعل أمن.
 وقوله: (بدل)؛ أي: بدل من أمنة، وسمى النعاس أمنة؛ لأن الأمن سبب النعاس فهو من التعبير بالمسبب عن السبب؛ لأن النعاس لا يجتمع مع الخوف.

وقوله: (بالباء والتاء): إشارة إلى القراءتين^(٤).

(١) وهو قول الأخفش في معاني القرآن (١/٢٣٦)، والطبري (٦/١٤٩)، وينظر: الدر المصون (٣/٤٤٢).

(٢) ينظر: الدر المصون (٣/٤٤٣).

(٣) وهو قول الزمخشري في الكشاف (١/٦٤٢)، وينظر: الدر المصون (٣/٤٤٣).

(٤) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/٢٤٢).

وقوله: (وهم المؤمنون)... إلى آخره: بيان: للمراد بالطائفة التي غشيها النعاس، وهم: المؤمنون الصادقون المخلصون في جهادهم، وذلك عندما كروا على المشركين، وبيان لأثر ذلك النعاس، وهو أنه يسقط السيف من يد أحدهم ثم يرفعه، ثم يسقط مرة بعد مرة كما حصل لأبي طلحة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) (١).

وقوله: (أَي: حَمَلْتَهُمْ)... إلى آخره: بيان: للمراد بالطائفة الأخرى، وأنهم المنافقون، ولهذا ما أهمهم إلا نجاة أنفسهم، ولذا لم يغشهم النعاس فلم يكن لهم حظ من هذا الأمن؛ بل الخوف لازم لقلوبهم. وقوله: (ظَنَّ): تقدير: للمصدر المحذوف الموصوف بغير. وقوله: (الظنَّ): تقدير: للمضاف إليه بعد غير الموصوف بالحق. وقوله: (كظنَّ): يبين أنَّ معنى ظن الجاهلية على تقدير حرف التشبيه، وهو صفة لمصدر محذوف، وتقدير الكلام: يظنون بالله ظناً غير الظن الحق ظناً كظن الجاهلية.

وقوله: (حيث اعتقدوا)... إلى آخره: بيان: لما ظنه المنافقون بالله، وهو ظن الجاهلية، وهو اعتقادهم أنَّ النبي قُتل أو أنه لا يُنصر. وقوله: (ما): يبين أنَّ الاستفهام بـ «هل» إنكاري؛ معناه: النفي. وقوله: (أَي: النصر الذي وَعَدْنَاهُ): معناه: أنَّ المراد بالأمر هو النصر الذي وعدهم الرسول ﷺ فيؤول المعنى ما لنا من النصر الذي وعدهنا شيء فيتضمن هذا الطعن في خبر الرسول ﷺ لكن تفسير الأمر بالنصر ليس بجيد؛ بل الصواب أنَّ المراد بالأمر هو تدبير أمر الجهاد؛ فمقصود أولئك المنافقين أنه لا رأي لنا ولا نُستشار، ولو كان لنا من الأمر شيء ما خرجنا.

وقوله: (زائدة): يريد أن «من» الداخلة على شيء، وهذا اصطلاح النحويين؛ يقولون في «من» الداخلة على النكرة؛ زائدة، لتأكيد العموم فليس المقصود أنها لا معنى لها في الكلام؛ بل معناها تأكيد عموم النكرة فتكون النكرة نصًّا في العموم^(١).

وقوله: (لهم)؛ أي: قل لهؤلاء المنافقين إنَّ الأمر كله لله فيأمر بما يشاء وينهى عما شاء، وينصر مَنْ يشاء، ويحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

وقوله: (بالنصب)... إلى آخره: يبين أن في «كل» قراءتين بالنصب والرفع؛ فعلى النصب تكون «كل» توكيدًا، وبالرفع تكون «كل» مبتدأ، وخبره لله^(٢).

وقوله: (بيان لما قبله): يريد أن قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، بيان لما قبله في الجملة السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

وقوله: (أي: لو كان الاختيار إلينا)... إلى آخره: بيان لمعنى: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، وهذا تفريع على قولهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾، فصار المعنى: ما لنا من تدير أمر القتال شيء، فلو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلنا فقد كان رأينا عدم الخروج، ولكن لم يُستجب لنا فأخرجنا بغير اختيارنا.

وقوله: (لهم): بيان: للمخاطبين بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾، وهم: المنافقون الذين قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا﴾، فأمر الله نبيه أن يقول لهم هذا القول.

(١) تنظر: (ص ١١٠).

(٢) ينظر: المبسوط (ص ١٧٠).

وقوله: (وفيكم من كتب الله عليه القتل): تقدير لجملة تناسب المقام، ويقتضيها جواب لو، وهو قوله: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾.

وقوله: (خرج): تفسير: لبرز، وهو من قيل التفسير باللازم؛ لأنَّ البروز هو الظهور في العراء، وهو لا يكون إلا بعد الخروج.

وقوله: (قُضِيَ) تفسير كُتِبَ؛ يبين المؤلف أنَّ الكتابة كونية قدرية لا الكتابة الشرعية؛ كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقوله: (منكم): يبين أنَّ الذين كُتِبَ عليهم القتل بعض المسلمين.

وقوله: (مصارعهم)... إلى آخره: تفسير: للمضاجع بالمصارع؛ لأنَّ المقتول يسقط على الأرض كالمضطجع، ثم يبين المؤلف ثمره هذا الخبر، وهو أنَّ قعودهم لم يغن عنهم من القتل شيئاً، لأنَّ مَنْ كتب الله عليه القتل لا بد أن يُقتل.

وقوله: (فَعِلْ مَا فُعِلَ بِأُحَدٍ): بيان لمتعلق التعليل في قوله: ﴿وَلَيَبْتَليَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وفسر الابتلاء؛ بالاختبار.

وقوله: (قُلُوبِكُمْ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالنِّفَاقِ): بيان: للمراد بالموصول في قوله: ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾، وقوله: ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

وقوله: (يَمِيزُ): يعني: يميز بين ما في قلوبكم من كفر وإيمان وشك ويقين وإخلاص ونفاق.

وقوله: (بما في القلوب)... إلى آخره: بيان: للمراد بالموصول في قوله: ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وأنَّ الله عليم به، لا يخفى عليه شيء مما في صدور العالمين، وأنَّ ابتلاءه لا ليعلم ما لم يكن عالمًا به.

وقوله: (عن القتال): بيان: لما تولوا عنه، وهو انهزامهم حين التقاء جمع المسلمين بجمع الكفار، ففروا عن وجه المشركين، وولوهم أدبارهم.

وقوله: (أزلهُم): تفسير: لقوله: ﴿اسْتَزَلَّهُمْ﴾، وهو يدل على أَنَّ السين والتاء ليست للطلب؛ بل لتأكيد الوصف بالزلل^(١).

وقوله: (بوسوسته): بيان: أَنَّ زللهُم حصل بوسوسة من الشيطان.
وقوله: (من الذُّنوب)... إلى آخره: بيان: لسبب ما حصل من الزلل بالتولي والفرار عن القتال، وهو الذنوب، ومنها: ترك بعض الرماة لمكانهم في الجبل.

وقوله: (للمؤمنين): يبين أَنَّ مغفرة الله مختصة بالمؤمنين، أما الكفار؛ فإنَّ الله لا يغفر لهم إلا إن تابوا.

وقوله: (لا يُعَجِّل على العصاة): بيان: لمعنى الحلم، وأنه الإمهال وعدم تعجيل العقاب.



(١) ينظر: التحرير والتنوير (٤/١٣٩-١٤٠).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ١٥٧ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ١٥٨﴾

[آل عمران: ١٥٦-١٥٨].

هذا نهى من الله للمؤمنين أن يتشبهوا بالكفار في الحكم على الغيب بما لا يعلمون، فيقولون عن إخوانهم إذا سافروا أو غزوا فماتوا أو قتلوا؛ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، وقولهم: ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾، بعد ذكر الضرب في الأرض والغزو لف ونشر مرتب، وذلك قول على الله بغير علم فما يدرهم فالموت يصيب القاعد والمسافر، ومن كتب عليه القتل قتل ولا بد، قعد أو غزى، ولكنهم بقولهم هذا يزدادون حسرة، ولذلك قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ من شاء؛ قعد أو خرج ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٥٦﴾، وهو سبحانه بصير بأعمال عباده، ونياتهم فيها، ثم أخبر تعالى بأن من قُتل أو مات مجاهداً في سبيل الله فله من الله المغفرة والرحمة، وذلك خير مما يجمع الناس، ويتنافسون فيه من متاع الدنيا، ثم أخبر تعالى أن من مات أو قُتل مسافراً أو مقيماً مجاهداً أو غير مجاهد؛ فهو محشور إلى الله ليجزئهم بأعمالهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: المنافقين، ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: في شأنهم، ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾: سافروا ﴿في الأرض﴾ فماتوا، ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾: جمع غازٍ، فقتلوا: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾، أي: لا تقولوا كقولهم، ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ القول في عاقبة أمرهم ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾. والله يُحْيِي وَيُمِيتُ، فلا يمنع

عن الموت قعودٌ، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ - بالتاء والياء - ﴿بَصِيرٌ﴾
 فيجازيكم به. ﴿وَلَئِنْ﴾: لأم قسم ﴿قَتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: الجهاد،
 ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ - بضم الميم وكسرها من: ماتَ يَمُوتُ وَيَمَاتُ - أي: أتاكم
 الموت فيه، ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ كائنة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ لذنوبكم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ منه لكم
 على ذلك، واللام ومدخولها جواب القسم، وهو في موضع الفعل مبتدأ
 خبره: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا، بالتاء والياء، ﴿وَلَئِنْ﴾: لأم قسم
 ﴿مُتُّمْ﴾ - بالوجهين - ﴿أَوْ قَتَلْتُمْ﴾ في الجهاد أو غيره ﴿لِلَّهِ﴾ لا
 غيره ﴿تُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم.

وقول المؤلف: (أي: المنافقين): فسر الذين كفروا بالمنافقين؛ لأنَّ
 سياق الآيات فيهم من قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].
 وقوله: (أي: في شأنهم): بيان: لمتعلق القول في قوله: (وقالوا) واللام
 للتعين.

وقوله: (سافروا): تفسير: ضربوا في الأرض، والضرب في الأرض
 يراد به السفر؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
 أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]^(١).

وقوله: (فماتوا): رتب: الموت على الضرب في الأرض، وهو السفر؛
 لأنَّ الموت يقع في السفر كثيرًا.
 وقوله: (جمع غازٍ): كرَّع جمع راعٍ، ورتب القتل على الغزو لأنه
 يحصل فيه غالبًا.

(١) ينظر: المفردات (ص ٥٠٥).

وقوله: (أي: لا تقولوا كقولهم): بيان: لمتعلق التشبه؛ فالمعنى: لا تكونوا كالذين كفروا في قولهم لإخوانهم.

وقوله: (القول في عاقبة أمرهم): بيان: لمرجع اسم الإشارة، وما يؤول إليه هذا القول، وهو الحسرة في قلوبهم.

وقوله: (فلا يمنع عن الموت قعود): بيان: لمقتضى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ فإنَّ المعنى: إذا كان الله يحيي مَنْ يشاء ويميت مَنْ يشاء فقد يحيي المسافر والغازي فيسلمهما من أسباب الموت والقتل، وقد يميت القاعد بما يقدره من أسباب الموت.

وقوله: (بالتاء والياء): إشارة إلى قراءتين؛ فعلى القراءة بالتاء ﴿تَعْمَلُونَ﴾ الخطاب للمؤمنين، وبالياء خبر عن المنافقين^(١).

وقوله: (فيُجازيكم به): بيان: لمقتضى أنه تعالى بصير بأعمال عباده، وهو مجازاتهم بها.

وقوله: (لأَمْ قَسَمَ): يريد اللام التي قبل أداة الشرط، وتقدير الكلام: والله لئن متم.

وقوله: (أي: الجهاد): بيان: للمراد بسبيل الله، وأنه الجهاد لإعلاء كلمة الله.

وقوله: (بضم الميم وكسرها)... إلى آخره: إشارة إلى قراءتين؛ فعلى قراءة ضم الميم؛ فتمم من: مات يموت بالواو، وبكسر الميم الفعل من مات يما^(٢).

وقوله: (كائنة): بيان: لمتعلق قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾؛ فالتقدير: لمغفرة كائنة من الله.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٠).

(٢) ينظر: معاني القراءات للأزهري (١/ ٢٧٨).

وقوله: (لذنوبكم): بيان: لمعمول مغفرة.
 وقوله: (منه لكم على ذلك): بيان؛ لمعنى: ورحمة معطوفة على
 مغفرة؛ فتقدير الكلام: لمغفرة من الله لذنوبكم ورحمة منه لكم.
 وقوله: (واللام ومدخولها)... إلى آخره: يريد اللام في قوله:
 ﴿لَمَغْفَرَةً﴾، ومدخولها؛ أي: ما دخلت عليه.
 وقوله: (جواب القسم): يريد القسم المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ
 قُتِلْتُمْ﴾.

وقوله: (وهو في موضع الفعل): يريد أنَّ جواب القسم، وهو جملة
 اسمية في موضع الفعل الذي يكون جواباً للقسم في الغالب؛ كما لو قيل:
 ليغفرن الله لكم.

وقوله: (مبتدأ خبره): يريد أنَّ جواب القسم، وهو: ﴿لَمَغْفَرَةً﴾ مبتدأ،
 وخبره: خير مما يجمعون.

وقوله: (من الدنيا): بيان: لما يجمعه الناس من أنواع متاع الدنيا من
 الذهب والفضة، والمراكب والمساكن.

وقوله: (بالتاء والياء): إشارة: إلى قراءتين تجمعون بلفظ الخطاب،
 ويجمعون بلفظ الخبر^(١).

وقوله: (لام قسم): ويقال لها الموطئة للقسم، وهي: اللام التي قبل
 أداة الشرط.

وقوله: (بالوجهين): يريد بضم الميم وكسرهما، وقد تقدم الوجهان في
 الآية السابقة؛ فبضم الميم من مات يموت، وبكسرهما من مات يمات.

وقوله: (في الجهاد أو غيره): يريد أنَّ القتل المذكور يعم القتل في
 الجهاد، وفي السفر وفي البلاد.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٠).



وقوله: (لا غيره)؛ أي: لا إلى غيره كما يفيدُه الحصر المدلول عليه
بتقديم الجار والمجرور.
وقوله: (في الآخرة فيُجازيكم): بيان: لوقت الحشر وغايته.



يُذَكِّرُ اللهَ نبيه برحمته إياه إذ جعله هَيْئًا لِيُنَاسِ بَفْظِ وَلَا غَلِيظٌ، والباء سببية، وما زائدة مؤكدة، وقوله: ﴿لَئِنْ لَهِمْ﴾؛ أي: رفقت بهم وحلمت عليهم ولا تغضبهم، وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾؛ المعنى: لو لم تكن سهلًا لينا حليمًا رفيقًا بهم؛ ﴿لَآ نَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾؛ أي: لانصرفوا من حولك، ولَمَّا ثَبَتُوا فِي الْجِهَادِ مَعَكَ، وقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، هذا أمر من الله لنبيه أن يعفو عن أصحابه؛ أي: لا يؤاخذهم على ما يكون منهم من خطأ وتقصير فيما يجب عليهم، وأن يستغفر لهم ويشاورهم في الأمور العامة تطيبًا لقلوبهم ولتجتمع الكلمة، وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾؛ أي: إذا اتضحت الخطة وتبين الصواب من الرأي فهناك العزم ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: اعتمد عليه في نُجْحِ مَطْلُوبِكَ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لَهُ، وهو يحب المتوكلين عليه، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾؛ هذا خبر من الله بما يؤكد الأمر بالتوكل عليه؛ لِأَنَّ مَنْ يَنْصُرْهُ اللَّهُ فَهُوَ الْغَالِبُ وَلَا أَحَدٌ يَغْلِبُهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ فَتَرَكَهُ وَلَمْ يَنْصُرْهُ فَهُوَ الْمَغْلُوبُ وَلَا أَحَدٌ يَنْصُرُهُ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ تَعَالَى وَحْدَهُ فَذَلِكَ أَعْظَمُ أَسْبَابِ النِّصْرِ، وَتَقْدِيمِ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ يَفِيدُ الْقَصْرَ، وَهُوَ قَصْرُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ وَالْخَيْرَ فِي يَدَيْهِ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ.

﴿فَبِمَا﴾ ما: زائدة ﴿رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ﴾ - يا مُحَمَّد - ﴿لَهُمْ﴾:
 أي: سَهَلْتَ أَخْلَاقَكَ إِذْ خَالَفُوكَ، ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾: سَيِّئَ الْخُلُقِ، ﴿غَلِيظَ
 الْقَلْبِ﴾: جَافِيًا فَأَغْلَظْتَ لَهُمْ، ﴿لَا نَفْضُوا﴾: تَفَرَّقُوا ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾.
 فاعفُ: تجاوزُ ﴿عَنَّهُمْ﴾ ما أَتَوْهُ، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذَنْبَهُمْ حَتَّى أَغْفِرَ
 لَهُمْ، ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾: اسْتَخْرِجْ آرَاءَهُمْ ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أي: شَأْنِكَ مِنَ
 الْحَرْبِ وَغَيْرِهِ، تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ وَلِيُسْتَنَّ بِكَ - وَكَانَ ﷺ كَثِيرَ الْمُشَاوَرَةِ
 لَهُمْ - ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ عَلَى إِمْضَاءِ مَا تُرِيدُ، بَعْدَ الْمُشَاوَرَةِ، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى
 اللَّهِ﴾: ثِقْ بِهِ لَا بِالْمُشَاوَرَةِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عَلَيْهِ.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾: يُعِينَكُم عَلَى عَدُوِّكُمْ كَيَوْمِ بَدْرٍ ﴿فَلَا غَالِبَ
 لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾: يَتْرُكْ نَصْرَكُمْ كَيَوْمِ أُحُدٍ ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ
 مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بَعْدَ خِذْلَانِهِ؟ أي: لَا نَاصِرَ لَكُمْ. ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لَا غَيْرِهِ
 ﴿فَلْيَتَوَكَّلْ﴾: لِيَتَّقِ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقول المؤلف: (يا محمد): بيان للمخاطب أنه النبي.
 وقوله: (أي: سَهَلْتَ)... إلى آخره: بيان لمعنى: ﴿لَنْتَ لَهُمْ﴾؛ فاللين
 هو سهولة الخلق.

وقوله: (سَيِّئَ الْخُلُقِ): تفسير فظ؛ وهو ضد لين الخلق.
 وقوله: (جافياً)... إلى آخره: الجفاء من الأخلاق السيئة؛ فكان
 المناسب إدخاله في تفسير قوله: ﴿فَظًّا﴾؛ فيكون معنى فظاً سَيِّئَ الْخُلُقِ
 جافياً، وأما غليظ القلب فمعناه: قاسي القلب لا يرحم؛ بل يغلظ القول،
 والرسول ﷺ بريء من هذا وهذا.

وقوله: (تفرّقوا): هو معنى انفضوا فإنّ سوء الخلق ينفر الأصحاب ويغضهم، وحسن الخلق على ضد ذلك يسبب المودة والألفة والتعاون.
 وقوله: (تجاوز): تفسير للعفو، والتجاوز ترك المؤاخذة.
 وقوله: (ما أتوه)؛ أي: ما فعلوه من المعصية والمخالفة لأمره.
 وقوله: (ذنبهم حتى أغفر لهم): معناه: أسأل الله أن يغفر لهم ذنبهم حتى يغفر لهم.

وقوله: (استخرج آراءهم): معناه: أسألهم أن يُبدوا آراءهم فيما فيه المصلحة.

وقوله: (أي: شأنك)... إلى آخره: تضمن بيان المراد بالأمر، وهو شأن الرسول، وهي الأمور التي مردّها إلى الرسول ﷺ؛ كالحرب والصلح وغيرهما، وبيان الحكمة من المشاورة، وهو تطيب قلوب الصحابة؛ لأنهم إذا استشيروا رضوا ونشطوا، وامتنال لأمر ربه كان رسول الله ﷺ يستشير الصحابة في مواضع كثيرة.

وقوله: (على إمضاء ما تُريد، بعد المشاورة): بيان: لمتعلق العزم، وهو إمضاء الأمر المراد، وهو إنفاذه وإتمامه.

وقوله: (ثِقْ به لا بالمُشاورة)؛ أي: كن واثقاً بوعد ربك لك بالنصر.

وقوله: (عليه): بيان لمعمول توكل.

وقوله: (يُعِزُّكم)... إلى آخره: فسر النصر بالإعانة؛ لأنّ النصر نوع من الإعانة.

وقوله: (يترك نصركم)... إلى آخره: بيان: لمعنى الخذلان، وهو ترك النصر كالذي حصل في غزوة أحد؛ فإنّ الله صرفهم ثم تولوا مدبرين.

وقوله: (أي: بعد خذلانه؟)... إلى آخره: يبين أنّ قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَهُ﴾ على تقدير حذف مضاف.



وقوله: (أي: لا ناصر لكم): تفسير: لقوله: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾؛ لأن الاستفهام إنكاري يفيد النفي.

وقوله: (لا غيره)؛ أي: لا على غيره، ويبين بذلك أن تقديم الجار والمجرور يفيد الحصر؛ أي: حصر التوكل في الله.

وقوله: (ليثق): تفسير لقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلْ﴾.



قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۖ﴾ (١٦١) ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا أُولَٰئُهَا جَهَنَّمُ ۖ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ۖ﴾ (١٦٢) ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٣) [آل عمران: ١٦١-١٦٣].

ينزه الله تعالى النبي عن الغلول، وأنه لا يصح منه؛ بل لا يمكن أن يقع منه، وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾، ومثل هذا التركيب يؤتى به للدلالة على أن الأمر المنفي مستحيل كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، والغلول أخذ شيء من الغنيمة قبل القسمة^(١)، ثم توعد الله مَنْ يَغْلُ؛ فقال: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، وقد جاء في الحديث أَنَّ مَنْ غَلَّ شيئاً جاء يوم القيامة يحمله، شاةً أو بعيراً أو ذهباً أو فضة^(٢)، وفي هذا تعذيب وفضيحة، وقوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾؛ أي: كلُّ يجزى بعمله خيراً أو شراً، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦١)، بزيادة سيئاتهم أو بالنقص من حسناتهم كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (١٦٢) [طه].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ الهمزة والفاء؛ يقول النحويون: إنهما على التقديم والتأخير؛ فالأصل: «فا آمن أتبع» قدمت همزة الاستفهام؛ لأن الاستفهام حقه التقديم، وهو استفهام إنكار يدل على النفي؛ فالمعنى: ليس مَنْ اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله، ومأواه جهنم فليس سواء لا في عقل ولا شرع؛ لأنهما نقيضان في الحال والمآل، فالمتبع لرضوان الله متق لله مطيع له، وعاقبته الفوز بالجنة ورضوان الله، وَمَنْ بَاءَ بسخط الله متبع لمساخط الله تارك لفرائضه مرتكب لمناهيهِ، وعاقبته السخط من الله ومأواه جهنم، وقوله تعالى: ﴿وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (١٦٢)؛ ذم لجهنم؛ فإنها أسوأ مصير، ولهذا كانت

(١) ينظر: لسان العرب (١١/٥٠٠).

(٢) أخرجه بمعناه: البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مشوى الظالمين - نعوذ بالله من سخط الله وعذابه، ونسأله جنته ورضوانه - فمن أثر سخط الله وعذابه على رضاه ورحمته؛ فهو أضل الناس وأخسرهم، وقوله تعالى: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ معناه: جميع الناس السعداء والأشقياء ليسوا سواء؛ فالسعداء درجات عند الله؛ أي: في حكمه وفي جزائه والأشقياء درجات، ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^(١)؛ أي: ذو علم تام بأعمال العباد، وهو يجزيهم بحسب درجات أعمالهم، فأعمالهم درجات وجزاؤهم درجات.

ونزل، لَمَّا فُقِدَتْ قَطِيفَةٌ حمراء يومَ بدر، فقال بعضُ الناس: «لعلَّ النبيَّ أَخَذَهَا»: ﴿وَمَا كَانَ﴾: ما ينبغي ﴿لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ﴾: يخون في الغنيمة - فلا تظنّوا به ذلك. وفي قراءة بالبناء للمفعول أي: يُنسب إلى الغُلُول - ﴿وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حاملاً له على عنقه، ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ الغالُّ وغيره جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾: عملت، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئاً.

﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ فأطاع ولم يغلّ، ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾: رجع ﴿بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ لمعصيته وغلّوله، ﴿وَمَا وَاهُ جَهَنَّمُ؟ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: المرجعُ هي! لا. ﴿هُم دَرَجَاتٌ﴾ أي: أصحابُ درجاتٍ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: مختلفو المنازل، فَمَنْ اتَّبَعَ رضوانه الثواب، وَلِمَنْ بَاءَ بِسَخَطِهِ الْعِقَابُ، ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيُجازيهم به.

وقول المؤلف: (ونزل)... إلى آخره: بيان: لسبب نزول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ﴾^(١)، والناس الذين قالوا: «لعل الرسول أخذ القطيفة» الأخرى

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٢٦)، والعجاب (٢/ ٧٧٥).

أنهم منافقون، وهل في جيش المسلمين في بدر منافقون؟ يقال: نعم لكنهم قلة مستخفون يدل لذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩] ^(١).

وقوله: (ما ينبغي): بيان لمعنى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ﴾، وكل من اللفظين يعبر به في الخبر عن المستحيل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢].

وقوله: (يخون في الغنيمة)... إلى آخره؛ لأنَّ الغلول أخذ شيء من الغنيمة خفية قبل أن تقسم، ولذا سماه المؤلف خيانة، وأشار المؤلف إلى القراءة الأخرى: «يُغَلُّ» بضم الياء وفتح الغين ^(٢)، وفسرها بقوله: (يُنسَبَ إلى الغلول)، وعلى كلٍّ من القراءتين؛ تدل الآية على تحريم نسبة الغلول إلى الرسول.

وقوله: (حاملاً له على عنقه): يدل له الحديث الصحيح؛ قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه» ^(٣).

وقوله: (الغال وغيره جزاء): بيان: لعموم كل نفس.

وقوله: (عملت): تفسير: لكسبت؛ لأنَّ الكسب والعمل مترادفان أو متقاربان.

وقوله: (شيئاً): بيان: لإطلاق النفي في قوله: ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقوله: (فأطاع ولم يغل): تفسير لقوله: ﴿اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾.

وقوله: (رَجَعَ): تفسير لـ «باء»؛ كما يقال: رجع من سفره بالخيبة.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٢٦/١١)، ومجموع الفتاوى (٢٠/١٣).

(٢) ينظر: النشر (٢٤٣/٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٣٢) عن أبي حميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: (لمعصيته وغلوله): بيان: لسبب سخط الله.
 وقوله: (المرجع): تفسير للمصير.
 وقوله: (هي؟)؛ أي: جهنم، وهي المخصوصة بالذم.
 وقوله: (لا): جواب: للاستفهام السابق: ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ
 كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ﴾؛ المعنى: ليس مَنْ اتبع رضوان الله كمن باء بسخط.
 وقوله: (أي: أصحاب درجات): صرف للكلام عن ظاهره، وتأويل لها
 بمعنى الآية الأخرى؛ لهم درجات عند ربهم، وأما المعنى المطابق للفظ
 الآية؛ فهو أَنَّ نفس الفريقين درجات؛ أي: أنهم متفاوتون في حكمهم
 ومنزلتهم عند الله، وللمؤمنين في الجنة درجات، وللكافرين في النار
 درجات.
 وقوله: (أي: مختلفو المنازل)... إلى آخره: يحتمل المعنيين المتقدمين
 في معنى الدرجات أو أنه متضمن للمعنيين، وتقدم ذكر الصواب في ذلك.
 وقوله: (فيُجازيهم به): يريد أَنَّ ذكر البصر يتضمن الوعد بالمجازاة
 ثوابًا أو عقابًا.



وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٦٥ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْقِي الْجُمُعَانِ فَيَا ذِئِنَّ اللَّهَ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٧ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَن أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران: ١٦٤-١٦٨].

يخبر تعالى عن نفسه بمنتها على المؤمنين ببعثة النبي الكريم خاتم النبيين؛ ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: من جنسهم يعرفون نسبه وسيرته، ويقدرّون على الأخذ عنه بخلاف لو كان ملكاً، وأخبر بحكمته تعالى في ذلك في قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، وقد كانوا قبل بعثته في ضلال مبين من الشرك والجهل، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ﴾: اللام لام القسم؛ لأنها تدل على أن الكلام متضمن لقسم، والجملة جوابه، وقد للتأكيد، والمن: الإنعام، والإنعام ببعثة الرسول خاص بالمؤمنين؛ لأنهم المتفعون برسالاته ﷺ، وإن كان ﷺ رحمة للعالمين لكن لا ينال هذه الرحمة إلا من آمن به ﷺ واتبعه^(١)، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾، الواو: للاستئناف، والأصل تقديمها على الاستفهام، وقُدِّم الاستفهام عليها؛ لأنَّ له الصدارة؛ فتقدير الكلام: وألما أصابتكم، والاستفهام للإنكار؛ أي: إنكار قولهم لَمَّا أصابتهم المصيبة ﴿أَنَّى هَذَا﴾؛ أي: من أين أصابنا ما أصابنا؟ فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: بسبب معصيتكم بمخالفة أمر الرسول ﷺ، وقد تقدم ذكر ذلك في قوله: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا

(١) ينظر: زاد المعاد (١/٨٣).

نُحِبُّونَ ﴿١﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا﴾؛ أي: أصبتم يوم بدر من المشركين ضعف ما أصابكم، ويان هذا أنه قتل من المسلمين في أحد سبعون، وقد قتل المسلمون من المشركين في بدر سبعين وأُسروا سبعين^(١)؛ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾: يدل على أن كل ما يحدث من النعم والمصائب مرده إلى قدرة الله ومشئته، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنُ اللَّهِ﴾: الخطاب للمؤمنين، يخبر تعالى أن ما أصابهم ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾؛ أي: جمع المسلمين وجمع المشركين في غزوة أحد؛ المراد: ما أصابهم من الفشل والقتل والجراح؛ ﴿فَيَا ذُنُ اللَّهِ﴾؛ أي: بمشيئته وتديره. ثم أخبر أن من حكمته تعالى أن يبين المؤمنون والمنافقون، الذين لما قيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، وهم: عبد الله بن أبي وأصحابه، ثم قال تعالى مخبراً بحقيقة أمرهم يوم قالوا ما قالوا: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾: معناه: أنهم أقرب إلى أن يكفروا فيرتدوا، وقيل؛ معناه: أنهم أميل إلى الكفر؛ أي: الكفار؛ ﴿مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ﴾؛ أي: المؤمنين، وقوله: ﴿يَقُولُونَ يَا فَوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: معناه: أن قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالَ لَا تَبْعَنَّاكُمْ﴾: كذب فعلم بذلك أن الله مطلع على سرائرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾، هذه صفة أخرى للمنافقين الذين: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالَ لَا تَبْعَنَّاكُمْ﴾، يعنون أصحابهم الذين خرجوا للجهاد وقتلوا، وقد أشاروا عليهم ألا يخرجوا ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾؛ أي: لو قبلوا مشورتنا في ترك الخروج، وقعدوا كما قعدنا لو فعلوا ذلك ما قتلوا، وقولهم هذا نظير قول آخرين منهم لإخوانهم: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا

(١) تنظر: (ص ٢١١)، (ص ٢١٣).

مَا مَا تَوُا وَمَا قُتِلُوا، فرد الله عليهم بقوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، وقال هنا: ﴿قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٦٨)؛ يعني: أن الموت نازل بكم ولا بد؛ فإن كانت لكم قدرة فادفعوه عن أنفسكم إن استطعتم، ومن أبلغ الرد على أقوال المنافقين التي يتحسرون فيها على مَنْ يقتل منهم؛ قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وكل أقوال المنافقين منشؤها الجهل وعدم الإيمان بالقدر وافتراء الكذب.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: عربياً مثلهم، ليفهموا عنه ويشرّفوا به، لا ملكاً ولا عجمياً، ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: القرآن، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: يطهرهم من الذنوب، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾: القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: السنة، ﴿وَإِنْ﴾ مخففة أي: إنهم كانوا من قبل ﴿أي: قبل بعثه﴾ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: بين.

﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ بأحد، بقتل سبعين منكم، ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ ببدر بقتل سبعين وأسر سبعين منهم، ﴿قُلْتُمْ﴾ متعجبين: ﴿أَنَّى﴾: من أين لنا ﴿هذا﴾ الخذلان، ونحن مسلمون ورسول الله فينا؟ والجملة الأخيرة محل الاستفهام الإنكاري. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، لأنكم تركتم المركز فخذلتم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومنه النصر ومنعه. وقد جازاكم بخلافكم.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾ بأحد ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾: بإرادته، ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ الله عِلْمَ ظُهُورِ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقاً، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ و﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾، لما أنصرفوا عن القتال، وهم عبدالله بن أبي وأصحابه: ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أعداءه، ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ عَنَّا

القوم بتكثير سوادكم، إن لم تُقاتلوا - ﴿قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ﴾: نُحَسِّنُ ﴿قِتَالًا لَا تَبْعَانَا﴾. قال تعالى، تكذيباً لهم: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، بما أظهروا من خذلانهم للمؤمنين، وكانوا قبل أقرب إلى الإيمان من حيث الظاهر. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، ولو علموا قتالاً لم يتبعوكم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق - ﴿الَّذِينَ﴾: بدل من «الذين» قبله أو نعت ﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في الدين، ﴿و﴾ قد ﴿تَعَدُّوا﴾ عن الجهاد: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ أي: شهداء أحد أو إخواننا، في القعود، ﴿مَا قَاتَلُوا. قُلْ﴾ لهم: ﴿فَادْرُؤُوا﴾: ادفَعُوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن القعود يُنْجِي منه.

وقول المؤلف: (أي: عريباً)... إلى آخره: بيان: للصلة بين الرسول والمرسل إليهم، وهي البشرية والعروبة، والحكمة في ذلك أنه لو كان ملكاً لم يمكنهم الأخذ عنه، ولو كان أعجمياً لما عرفوا لسانه ولا فهموا مراده. وقوله: (القرآن): بيان: للمراد بالآيات فآيات القرآن؛ هي: التي تتلى، فكل ما يذكر في القرآن من الآيات مقرون بالتلاوة فهي آيات القرآن، وهي: الآيات الشرعية أما الآيات الموصوفة بالخلق فيقال لها: الآيات الكونية كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقوله: (يُطَهِّرُهُم مِنَ الذُّنُوبِ): تفسير لقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، والطهارة أحد معنيي الزكاة^(١)، والذنوب نجاسة معنوية، واجتنابها طهارة، وتطهير النبي

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ١٧-١٨).

للمؤمنين نهيهم عن الذنوب فتحصل لهم الطهارة باجتنابها، وتركوا نفوسهم؛ أي: تصلح بالأعمال الصالحة، والطهارة والصلاح جماع معنى الزكاة. وقوله: (مُخَفَّفَةٌ أَي: إِنَّهُمْ): إن المخففة أصلها «إن» المشددة التي للتأكيد، فإذا كان اسمها ضميرًا وحذف خُففت، ولهذا قال المؤلف: إن مخففة أي: إنهم.

وقوله: (أَي: قَبْلَ بَعْثِهِ): يبين أنَّ قبلوا مقطوعًا عن الإضافة، وأن تقدير الكلام «وإنهم كانوا من قبل بعثه». وقوله: (بَيِّنْ)؛ أَي: ظاهر لا خفاء به، وهو شركهم بالله، وارتكاب الكبائر من الذنوب.

وقوله: (بِأَحَدٍ، بِقَتْلِ سَبْعِينَ مِنْكُمْ): بيان للمصيبة والغزوة التي وقعت فيها.

وقوله: (بِإِدْر)... إلى آخره: بيان: للغزوة التي أصاب المسلمون من المشركين مِثْلَي ما أصاب المسلمين في أحد، وبيانه: أنَّ المسلمين في أحد قُتِل منهم سبعون، وفي بدر قُتِل من المشركين سبعون وأسر سبعون. وقوله: (مُتَعَجِّبِينَ): يبين أنَّ الاستفهام للتعجب. وقوله: (مَنْ أَيْنَ لَنَا): بيان لنوع المستفهم عنه.

وقوله: (الْخِذْلَانُ)... إلى آخره: بيان للمشار إليه في قولهم: ﴿هَذَا﴾، وأنهم لا يعلمون له سبب؛ بل أسباب النصر فيهم أظهر من أسباب الخذلان. وقوله: (وَالْجُمْلَةُ الْآخِرَةُ مَحَلُّ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ): يريد بالجملة قولهم: ﴿أَنْتَى هَذَا﴾، ويريد بالاستفهام الالتهام الإنكاري في قوله: ﴿أَوَلَمْ آتَ﴾.

وقوله: (لَهُمْ): تعيين: للمخاطبين بقوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، وهم الذين قالوا: ﴿أَنْتَى هَذَا﴾.

وقوله: (لأنكم تركتم المركز فخذلتم): يشير: إلى ترك الرماة مركزهم الذي أمرهم النبي ﷺ بلزومه.

وقوله: (ومنه النصر ومنعه): يبين مناسبة إخباره تعالى عن عموم قدرته، وهو أن النصر ومنعه داخلان في عموم «كل».

وقوله: (وقد جازاكم بخلافكم): يعني: منعكم النصر حتى توليتم بسبب خلافكم مع أميركم، وهم الرماة.

وقوله: (بأحد): بيان: للغزوة التي حصل فيها ما حصل من المصيبة حين التقاء الجمعان؛ جمع المسلمين وجمع الكفار.

وقوله: (بإرادته): تفسير: للإذن بالإرادة، وهو الإذن الكوني والإرادة الكونية.

وقوله: (علمَ ظُهورٍ): بيان: للمراد بذلك العلم المستقبل، وهو علم الشيء موجوداً ظاهراً، أما قبل ذلك؛ فإن الله يعلمه سيوجد؛ بل لم يزل الله يعلم ما سيوجد أنه سيوجد^(١).

وقوله: (حقاً): بيان: أن المراد بالمؤمنين: المؤمنون حقاً؛ لا المنافقون الذين يدعون الإيمان كذباً.

وقوله: (الذين): يبين أن المعطوف اسم موصول، والجملة بعده صلة؛ أي: والذين قيل لهم.

وقوله: (لَمَّا أَنْصَرَفُوا)... إلى آخره: يبين متى قيل تعالوا قاتلوا في سبيل الله، ومن الذين قيل لهم ذلك، وبين أنهم عبد الله بن أبي وأصحابه^(٢).

وقوله: (أعداءه)؛ أي: أعداء الله، وأعداء رسوله، وأعداء مفعول قاتلوا.

(١) تنظر: (ص ٢١١).

(٢) ينظر: العجائب (٢/ ٧٨٣).

وقوله: (عنا القوم)... إلى آخره: بيان: للمدفع والمدفوع عنه، والمراد: دفع العدو عن المدينة لا بالقتال؛ بل بتكثير المسلمين.

وقوله: (نُحْسِنُ)؛ أي: نعرف كيف نقاتل، وهذا أحد القولين في معنى الآية، وقيل؛ معنى: لو نعلم قتالاً؛ أي: أنه سيكون قتال لا تبعناكم^(١).

وقوله: (قال تعالى)... إلى آخره: يبين أن المراد بقوله تعالى: ﴿هُم لِّلْكَفْرِ يَوْمٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِّلْإِيمَانِ﴾: هو تكذيب من الله للمنافقين في قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ﴾.

وقوله: (بما أظهروا)... إلى آخره: يبين أن سبب كونهم أقرب للكفر منهم للإيمان؛ هو ما أظهروا من خذلان المؤمنين يوم رجع عبد الله بن أبي أصحابه، وكانوا من قبل أقرب للإيمان بما كانوا يظهرونه من دعوى الإيمان.

وقوله: (ولو علموا قتالاً لم يتبعوكم): يبين بذلك معنى قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وأن قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ﴾؛ مجرد قول باللسان فليسوا بهذا القول صادقين فلذا كذبهم الله.

وقوله: (من النفاق): بيان: للذي يكتُمونه، والله عالم به، وهو النفاق. وقوله: (بدل)... إلى آخره: يبين أن الموصول في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في إعرابه وجهان: إما بدل من الموصول في قوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾، أو نعت له^(٢).

وقوله: (في الدين)؛ أي: منافقين مثلهم. وقوله: (قد): يبين أن الفعل الماضي على تقدير: قد؛ أي: وقد قعدوا فتكون الواو للحال، والجملة حالية.

(١) ينظر: زاد المسير (١/ ٣٤٥)، وتفسير البيضاوي (٢/ ٤٧).

(٢) ينظر: الدر المصون (٣/ ٤٧٩).



وقوله: (شهداء أُحَد)... إلى آخره: يبين مرجع الواو في قوله:
﴿أَطَاعُونَا﴾؛ أي: لو أطاعونا فيما دعوناهم إليه، وهو القعود عن الخروج.
وقوله: (لهم)؛ أي: للذين قالوا لإخوانهم لو أطاعونا.
وقوله: (ادفعوا): تفسير لـ «ادرؤوا»؛ أي: ادفعوا الموت إذا جاءكم فإنه
آتٍ ولا بد؛ فقعودكم لن ينجيكم كما تظنون.
وقوله: (في أن القعود يُنجي منه): بيان: لمتعلق الصدق في قوله
تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وليسوا بصادقين فما هو إلا الظن الكاذب،
حملهم على أن يقولوا ما قالوا.



وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ *يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شَيْءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَائِهِ هُوَ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٥].

ينهى تعالى عن أن يظن بأن الذين قُتلوا في سبيل الله أَمْوَاتًا؛ لأنهم أحياء عند ربهم يُرزقون، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح للخطاب، وقوله: ﴿قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: قُتلوا في قتالهم الكفار، قتلهم الكفار، وقوله: ﴿أَمْوَاتًا﴾؛ أي: كسائر الأموات، والنهي عن هذا الحساب يتضمن نفي الأمر المظنون؛ أي: فليسوا أَمْوَاتًا، وقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾؛ إضراب لإثبات حياتهم، وتأكيد لنفي موتهم، وتلك حياة لا حياتهم في الدنيا؛ بل حياة برزخية، وقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم^(١)، في شأن الذين قُتلوا في سبيل الله أن الله جعل أرواحهم في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩)؛ معناه: هو ما جاء في الحديث، وقوله: ﴿فَرِحِينَ﴾: حال من الذين عند ربهم يرزقون؛ أي: أنهم في سرور مما أعطاهم الله من الثواب فرحون به، وقوله: ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: بما أعطاهم الله من فضله من الثواب الذي هو غاية في النعيم، وقوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٠)؛ أي: يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)؛ أي: لا يضيع أجر المؤمنين.

(١) برقم (١٨٨٧) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ؛ أَي: ويفرحون بإخوانهم الذين فارقوهم أحياء في الدنيا، ولم يلحقوا بهم، وهم على المنهج الذي فارقوهم عليه، وهو الجهاد في سبيل الله مع الرسول ﷺ، ينتظرونهم أن يصيروا إليهم إذا استشهدوا فينالوا مثل ما نالوا من كرامة الله، ومن ذلك ﴿الْأَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٠)، وقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾؛ أَي: يفرحون بالنعمة التي أعطاهم الله، وبالفضل؛ أَي: الزيادة على هذه النعمة، وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١)؛ أَي: ويفرحون بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين؛ بل يشيهم أعظم ثواب على إيمانهم وجهادهم، وهذه الجملة تفصيل لما أجمل في قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وعلم أن الفضل في الآية الأولى البر والعطاء، والفضل الثاني هو الزيادة، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ الموصوف صفة للمؤمنين، والمراد بهم المؤمنون الذين استجابوا لدعوة الجهاد مرة ثانية؛ فإن الرسول ﷺ لما ذهب المشركون، ورجع المسلمون وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والجراح، استجابوا وخرجوا مع الرسول ﷺ لتعقب المشركين وإرهابهم استجابوا مع ما قد أصابهم من القرح، وذلك هو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢)، هذا وعد من الله للذين أحسنوا العمل بفعل الصالحات مخلصين لله، واتقوا ربهم باجتناب السيئات ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢)؛ أَي: ثواب كبير، وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أَي: من الذين استجابوا لله والرسول؛ فتضمنت الآيات عددًا من البشارات للذين استجابوا لله والرسول؛ منها: أنه لا يضيع أجرهم؛ بل يوفره لهم ويضاعفه، ومن هذه البشارات؛ أن من أحسن منهم واتقى؛ فله عند الله أجر عظيم، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١٢١/٢)، وتفسير الطبري (٢٣٩/٦).

قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ؛ المراد بالموصول: الرسول ﷺ وأصحابه، والناس الذين قالوا: هم مَنْ بعثهم أبو سفيان يخوف المسلمين، ويثبطهم عن غزوهم، والناس الذين جمعوا: هو أبو سفيان وأصحابه، وقوله: ﴿فَأَخْشَوْهُمْ﴾؛ أي: خافوهم، وارجعوا فإنه لا طاقة لكم في حربهم، هذا قول مبعوث أبي سفيان، ولمزيد توضيح تفسير هذه الآية نذكر شيئاً من كلام ابن جرير على الآية؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «و«الناس» الأول، هم قوم - فيما ذكر لنا - كان أبو سفيان سألهم أن يثبطوا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين خرجوا في طلبه بعد مُنصرفه عن أحد إلى حمراء الأسد.

و«الناس» الثاني، هم أبو سفيان وأصحابه من قريش، الذين كانوا معه بأحد»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾؛ أي: زاد المؤمنين الذين قيل لهم: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فزادهم هذا القول إيماناً بوعد الله أن ينصر دينه وحزبه، ولذلك قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١٧٢)؛ أي: كافينا الله عدونا، وكل ما أهمنا ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١٧٣): الله، فإنه كافي مَنْ توكل عليه، وهو على كل شيء قدير، وقوله تعالى: ﴿فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: رجع الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة، بعدما خرجوا في أثر أبي سفيان حتى بلغوا حمراء الأسد، وقد مضى أبو سفيان هارباً إلى مكة، ورجع المسلمون سالمين آمنين، وذلك قوله: ﴿فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ﴾، فأرهبوا العدو، ولم يلقوا قتالاً، وقد اتبعوا رضوان الله بجهادهم وصبرهم واستجابتهم لله ورسوله، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^(١٧٤)؛ أي: ذو عطاء كثير، وجود واسع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي: إِنَّ ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ الذي جاء يخوف المؤمنين أوليائه المشركين الذي جاء يقول للمؤمنين: إِنَّ النَّاسَ قَدْ

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٤٤).

جمعوا لكم هو شيطان يخوف المؤمنين أولياءه المشركين^(١)، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(٧٥)؛ نهى وأمر؛ نهى عن خوف أولياء الشيطان، وأمر بخوفه وحده، فإن ذلك مقتضى الإيمان، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(٧٥).

ونزل في الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ - بالتخفيف والتشديد - ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لأجل دينه ﴿أَمْوَاتًا. بَلْ هُمْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أرواحهم في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، كما ورد في حديث، ﴿يُرْزَقُونَ﴾: يأكلون من ثمار الجنة، ﴿فَرِحِينَ﴾: حال من ضمير «يرزقون» ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: يفرحون ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من إخوانهم المؤمنين، ويبدل من «الذين»: ﴿أَنْ﴾ أي: بأن ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الذين لم يلحقوا بهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة - المعنى: يفرحون بأمنهم وفرحهم - ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ﴾: ثواب ﴿مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: زيادة عليه، ﴿وَأَنَّ﴾ - بالفتح عطفًا على «نعمة» والكسر استئنافًا - ﴿اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يأجرهم.

﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرُّسُولِ﴾ دُعاه بالخروج للقتال، لما أراد أبو سفيان وأصحابه العود، وتواعدوا مع النبي سوق بدر العام المقبل من يوم أحد، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ بأحد، وخبر المبتدأ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ بطاعته، ﴿وَاتَّقُوا﴾ مخالفته، ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هو الجنة، ﴿الَّذِينَ﴾: بدل من «الذين» قبله أو نعت ﴿قَالَ لَهُمُ

(١) وهو الصواب كما قرره شيخنا في الكشف عن مقاصد أبواب ومسائل كتاب التوحيد (ص ٥٦٢)، وينظر: معاني القرآن للفراء (١/ ٢٤٨)، وتفسير الطبري (٦/ ٢٥٥).

النَّاسُ ﴿ أَي: نُعِيم بن مسعود الأشجعي: ﴿ إِنَّ النَّاسَ ﴾: أبا سفيان وأصحابه ﴿ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ الجُمُوعَ ليستأصلوكم. ﴿ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ ولا تأتوهم. ﴿ فزادهم ﴾ ذلك القول ﴿ إِيْمَانًا ﴾ تصديقًا بالله ويقينًا ﴿ وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾: كافينا أمرهم ﴿ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾: الْمُفَوَّضُ إليه الأمر هو! وخرجوا مع النبي فوافوا سُوقَ بدر، وألقى الله الرُّعب في قلب أبي سفيان وأصحابه فلم يأتوا، وكان معهم تجارات فباعوا وربحوا. قال الله تعالى: ﴿ فَانْقَلَبُوا ﴾: رَجَعُوا من بدر، ﴿ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾: بسلامة وربح، ﴿ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ ﴾ من قتل أو جرح، ﴿ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ بطاعته ورسوله في الخروج. ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ على أهل طاعته. ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ ﴾ أي: القائل لكم «إِنَّ النَّاسَ» إلى آخره ﴿ الشَّيْطَانُ، يُخَوِّفُ ﴾كم ﴿ أَوْلِيَاءَهُ ﴾: الْكُفَّارَ. ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي ﴾ في ترك أمري، ﴿ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ حقًا.

وقول المؤلف: (ونزل في الشهداء): يشير: إلى سبب نزول هذه الآيات^(١). وقوله: (بالتخفيف والتشديد): يشير: إلى القراءتين في هذا الحرف: «قتلوا» قرأ بتشديد التاء المكسورة وتخفيفها^(٢).

وقوله: (أي: لأجل دينه): يبين أن المعنى: أنهم قتلوا مجاهدين نصره لدين الله.

وقوله: (هم): يبين أن «أحياء» خبر لمبتدأ محذوف؛ تقديره: «هم أحياء».

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٢٨)، والعجاب (٢/ ٧٨٣).

(٢) ينظر: المبسوط (ص ١٧١).

وقوله: (أرواحهم في حواصل)... إلى آخره: بيان لمعنى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وأشار إلى الحديث الذي هو مفسر لقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وقد تقدم ذكره قريباً^(١).

وقوله: (يأكلون من ثمار الجنة): هذا مما تضمنه الحديث.
 وقوله: (حال)... إلى آخره: بيان لإعراب فرحين.
 وقوله: (هم): بعد الواو يبين أنَّ الفعل المضارع خبر لمبتدأ محذوف؛ تقديره: وهم يستبشرون.

وقوله: (يفرحون): تفسير: لـ«يستبشرون»، والاستبشار الفرح.
 وقوله: (من إخوانهم المؤمنين): بيان: للمراد بالموصول في قوله: ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾.

وقوله: (ويُبدل من الذين)... إلى آخره؛ أي: يجعل المصدر المؤول من: أن وما دخلت عليه، من الجملة المنفية بدلاً من الموصول المجرور بالباء في قوله: ﴿بِالَّذِينَ﴾، فيكون التقدير يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم؛ بأن لا خوف عليهم؛ أي: يستبشرون بأن لا خوف عليهم؛ أي: على إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم.

وقوله: (أي: الذين لم يلحقوا بهم): بيان: لمرجع الضمير المجرور.
 وقوله: (في الآخرة)... إلى آخره: يريد أنَّ الشهداء السابقين يفرحون بأمن إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وبفرحهم؛ كما يدل له قوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقوله: (ثواب)، وقوله: (زيادة عليه): تفسير: للنعمة والفضل في قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

وقوله: (بالفتح)... إلى آخره: يشير: إلى أنه قُرئ بفتح همزة «أن»، وكسرها^(١)؛ فعلى الفتح الواو عاطفة والجملة معطوفة، وبالكسر الواو للاستئناف والجملة مستأنفة.

وقوله: (بل يأجرهم): إضراب لإثبات ضد المنفي فصد إضاعة الأجر حصول الأجر.

وقوله: (مبتدأ): هذا أحد الوجوه في إعراب الموصول، وقيل: إنه في موضع نصب صفة للمؤمنين أو منصوب على المدح بفعل محذوف يقدر بأعني أو أمدح^(٢).

وقوله: (دُعاه بالخروج)... إلى آخره: تقدير: لمفعول استجابوا مضمن معنى أجابوا؛ أي: أجابوا دعاء الرسول للخروج للجهاد إرهاباً للمشركين حتى بلغوا حمراء الأسد؛ فاستجابوا لدعوة النبي ﷺ مع ما بهم من الجراح.

وقوله: (وخبر المبتدأ): يريد الموصول في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾، وقد مشى على أنه مبتدأ، والجار والمجرور «للذين أحسنوا» خبره.

وقوله: (بطاعته): بيان: لما يكون به الإحسان، وهو طاعة الله ورسوله. وقوله: (مُخَالَفَتُهُ): بيان: لما يجب اتقاؤه، وهو مخالفة الله في أمره ونهيه، وهذا هو معصيته.

وقوله: (هو الجنة): تفسير للأجر العظيم؛ لأنها التي وعد الله بها المجاهدين؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

(١) قرأ الكسائي وحده بكسر الهمزة. ينظر: المبسوط (ص ١٧١).

(٢) ينظر: الدر المصون (٣/ ٤٨٧).

وقوله: (بدل)... إلى آخره: بيان: لإعراب الموصول في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾، وقد جعله بدلاً أو نعتاً للموصول الذي قبله، وهو الموصول المجرور باللام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾، وعلى هذا فكلا الموصولين في موضع جر.

وقوله: (نُعِيم)... إلى آخره: بيان: للمراد بـ «الناس» الأول، ونعيم هذا هو مبعوث أبي سفيان ليثبت المؤمنين؛ فهو القائل للرسول والصحابة: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾^(١).

وقوله: (أبا سفيان وأصحابه): بيان: للمراد بـ «الناس» الثاني في قوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾.

وقوله: (الجموع)... إلى آخره: هذا من كلام نُعِيم؛ كما ذكر في السيرة^(٢).

وقوله: (ولا تأتوهم): هذا استنباط من المؤلف يقتضيه قول نُعِيم: ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾.

وقوله: (ذلك القول): بيان: لفاعل زادهم، وهو قول الميثبط نعيم بن مسعود: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾.

وقوله: (تصديقاً بالله وقيناً): بيان: لنوع الزيادة، وهو الإيمان بالله، والتصديق بوعدده، واليقين بنصره.

وقوله: (كافينا أمرهم): تفسير: للحسب بالكافي، وبيان للأمر المحذور الذي تطلب له الكفاية من الله، وهو أمر العدو وكيده.

وقوله: (المُفَوَّضُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ): بيان: لمعنى الوكيل.

وقوله: (هو!)... إلى آخره؛ أي: الله، وهو المخصوص بالمدح، وتقدير الكلام: نعم الوكيل الله، ولكن جعله المؤلف ضميراً يعود على الله

(١) ينظر: العجائب (٧٩٢/٢).

(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (٣١٢/٤).

في قولهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، ثم أشار المؤلف إلى ما جرى في غزوة بدر الصغرى؛ لأنه قد تواعد المسلمون والمشركون ببدر، وأخلف أبو سفيان فلم يأت للموعد.

وقوله: (رجعوا من بدر): تفسير: لقوله تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا﴾؛ وفي هذا التفسير نظر، والصواب: أنهم رجعوا من مسيرهم في طلب أبي سفيان وأصحابه حتى انتهوا إلى حمراء الأسد؛ قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه-»^(١) بقوله: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ﴾، فانصرف الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، من وجههم الذي توجهوا فيه -وهو سيرهم في أثر عدوهم- إلى حمراء الأسد^(٢).

وأما خروجهم إلى بدر للموعد الذي تواعدوه فإنه في العام القابل^(٣). وقوله: (بسلامة وريح)؛ لأنهم لم يلقوا قتالاً وأرهبوا العدو. وقوله: (بطاعته ورسوله في الخروج)؛ لأن طاعة الله ورسوله سبب لرضوان الله.

وقوله: (على أهل طاعته): لا ريب أن أهل طاعة الله أعظم حظاً من فضل الله من غيرهم، كما هم أعظم حظاً من رحمته؛ فإن الله يختص برحمته من يشاء، ويؤتي فضله من يشاء.

وقوله: (أي: القائل)... إلى آخره: بيان: لما يعود إليه اسم الإشارة، وهو الناس في قوله: ﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾، وهو نعيم بن مسعود مبعوث أبي سفيان؛ سماه الله شيطاناً^(٤).

(١) هكذا في طبعة شاكر (٧/٤١٤)، والمثبت في طبعة التركي: (تعالى ذكره)، وشيخنا يعتمد في قراءته على الطبعة التي حققها محمود وأحمد شاكر.

(٢) تفسير الطبري (٦/٢٥٣).

(٣) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٠٩).

(٤) وقد أسلم ليالي الخندق، وهو الذي أوقع الخُلف بين الحيين: قريظة وغطفان في وقعة الخندق؛ فخالف بعضهم بعضاً ورحلوا، عن المدينة.. ينظر: الإصابة (١١/١٠٧).



وقوله: («يُخَوِّفُكُمْ»): ضمير جمع المخاطب هو المفعول الأول ليخوف، والمفعول الثاني: ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ فالمعنى الشيطان يخوف المسلمين أوليائه المشركين.

وقوله: (في ترك أمري)؛ أي: خافوني بسبب ترك أمري؛ فإنَّ ترك ما أمر الله به معصية، والمعصية توجب الخوف من الله؛ فعلى العاصي أن يخاف الله.

وقوله: (حقًّا)؛ أي: إيماننا حقًّا، وهو الإيمان المحقق بالعمل، ومن آثاره الخوف من الله.



وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلَ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلَ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ [آل عمران: ١٧٦-١٧٩].

ينهى الله نبيه عن الحزن على الكفار الذين يسارعون في الكفر ويبالغون في العناد والتكذيب، فإنهم لن يضرروا الله شيئاً، ولكن الله يريد أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة؛ أي: نصيباً من الخير؛ لذلك خذلهم فلم يوفقهم للإيمان بالرسول والقرآن؛ فإنه لا حظ في الآخرة إلا لمن آمن بالله ورسوله وكتابه، ثم توعدهم بعذاب عظيم، وهو عذاب النار، ثم أخبر تعالى عن الذين آثروا الكفر على الإيمان أنهم بهذا الإيثار لن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم، وهؤلاء الذين اشتروا الكفر بالإيمان هم الذين أخبر الله عنهم بأنهم يسارعون في الكفر، ثم توعدهم بعذاب أليم، وهو عذاب جهنم، ثم نهى تعالى الكفار عن الاغترار بحلمه وإملائه لهم؛ فلا يعاجلهم بالعقوبة، وهم مقيمون على الكفر بالله ورسله، فنهاهم تعالى أن يظنوا هذا الإمهال خيراً لهم؛ بل هو الاستدراج ليزدادوا إثماً بتماديهم في الكفر والفساد في الأرض، ولهم في الآخرة عذاب مهين، وهو عذاب النار فإنه عظيم وأليم ومهين، وبهذا يكون عذاباً للجسد والروح - عياداً بالله من سخطه وعذابه -، وقوله تعالى: ﴿كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾، ينزه تعالى نفسه عن أن يترك الذين سبق في علمه وكتابه أنهم يؤمنون مختلطين بالكفار حتى يميز الخبيث، وهم الكفار، من الطيب، وهم الذين سبقت لهم من الله

السعادة، وهذا التمييز بين الطيب والخبيث من الغيب، الذي لا يطلع عليه إلا مَنْ اجْتَبَى من رسله، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبَى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، وقال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٦١ إِلَّا مَنْ أَرَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن]، ثم أمر تعالى بالإيمان به وبرسله، ووعد مَنْ آمَنَ واتقى بأجر عظيم؛ فقال تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧١﴾، وهو ما أعده الله لأوليائه المتقين في جنات النعيم، وقال أكثر المفسرين أن المراد بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، أن الله لا يترك المؤمنين الصادقين المخلصين ملتبسين بالمنافقين؛ ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ﴾، وهم: المنافقون؛ ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾، وهم المؤمنون الصادقون بالابتلاء^(١)؛ كما حصل في غزوة أحد حين رجع عبد الله بن أبي بلث الجيش، وقالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، ولما أصيب المسلمون؛ قال المنافقون: ﴿لَوْ كَانْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقالوا لإخوانهم الذين خرجوا للجهاد وقتلوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وعلى هذا التفسير تكون الآية متصلة بالآيات التي سبقتها، ويؤيد هذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتْيِ الْجَمْعَانِ فِي إِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٣٦ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران]، وهذا هو التمييز في قوله: ﴿يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، فهذه هي الحكمة في الابتلاء يدل لذلك قوله تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت]، فيمتنع في حكمة الله أن يترك المؤمنين والمنافقين ملتبسًا بعضهم ببعض، حتى يميز المنافقين من المؤمنين، فيعرف هؤلاء من هؤلاء، فلولا الابتلاء لم يحصل التمييز، والنفاق غيب؛ لأنه مستور في الصدور لا يعلمه إلا الله، ولهذا قال

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/٢٦٢)، وزاد المسير (١/٣٥٢).

تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّكُمْ عَلَى الْغِيبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾، فيطلعه تعالى على ما يشاء، وقد أطلع الله رسوله على مَن شاء منهم فأسرَّ النبي ﷺ بأسماء بعضهم إلى حذيفة^(١).

﴿وَلَا يُحِزُّكَ﴾ - بضم الياء وكسر الزاي، وبفتحتها وضم الزاي من: حَزَنَهُ، لغة في: أَحْزَنَهُ - ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: يقعون فيه سريعاً بنصرتهم - وهم أهل مكة أو المنافقون - أي: لا تهتم لكفرهم. ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بفعلمهم! وإنما يضرّون أنفسهم. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا﴾: نصيباً ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: الجنة - فلذلك خذلهم - ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في النار. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: أخذوه بدله ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ بكفرهم ﴿شَيْئًا! وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مؤلم.

﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ﴾ - بالياء والتاء - ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَا نُمْلِي﴾ أي: إملأنا ﴿لَهُمْ﴾ بتطويل الأعمار وتأخيرهم، ﴿خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ﴾. و«أَنَّ» ومعمولها سدت مسدّ المفعولين في قراءة التحتانية، ومسدّ الثاني في الأخرى. ﴿إِنَّمَا نُمْلِي﴾: نمهل ﴿لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ بكثرة المعاصي، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: ذو إهانة في الآخرة.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ﴾: ليرك ﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ﴾ - أيها الناس - ﴿عَلَيْهِ﴾ من اختلاط المنافق بغيره، ﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾، بالتخفيف

(١) أخرج مسلم (٢٧٧٩) عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ... ولكن حذيفة أخبرني عن النبي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط». وينظر: دلائل النبوة (٥/٢٥٦).

والتشديد: **يَفْصِلَ ﴿الْخَيْثَ﴾: الْمُنَافِقَ ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾: الْمُؤْمِنِ،**
بِالتَّكْلِيفِ الشَّاقَّةِ الْمَبِينَةِ لَذَلِكَ، ففعل ذلك يوم أحد، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾، فتعرفوا المنافق من غيره قبل التمييز، ﴿وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَجْتَبِي﴾: يَخْتَارُ ﴿مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، فَيُطْلِعُهُ عَلَى غَيْبِهِ، كَمَا
أَطْلَعَ النَّبِيَّ عَنْ حَالِ الْمُنَافِقِينَ. ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَإِنْ تُمْنُوا وَتَتَّقُوا﴾
النِّفَاقِ ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقول المؤلف: (بضم الياء وكسر الزاي)... إلى آخره: أشار إلى
 قراءتين، ولغتين في: **﴿وَلَا يَحْزُنْكَ﴾**، الأولى: بضم الياء وكسر الزاي من
 الرباعي أحزنه يحزنه، والأخرى: بفتح الياء، وضم الزاي من حزنه يحزنه^(١).
 وقوله: (يقعون فيه سريعاً)... إلى آخره: يشير المؤلف إلى أن فعل:
 يسارعون ضمن معنى: يقعون، ولهذا عُدِّي يسارعون: بـ«في»، وحقه أن
 يُعْدَى بـ«إلى»^(٢)، وقد بين تعالى في سورة المائدة أن الذين يسارعون في
 الكفر هم: من المنافقين، ومن اليهود؛ قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا**
يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ
قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤١].

وقوله: (بفعلهم!): وهو: مسارعتهم في الكفر.
 وقوله: (وإنما يضرّون أنفسهم): بما يستوجبونه من العذاب العظيم،
 والله تعالى لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعة المطيعين.
 وقوله: (نصيلاً): تفسير: للحظ، والمراد: النصيب من الخير والثواب.

(١) ينظر: معاني القراءات للأزهري (١/ ٢٨١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٤/ ١٧٢).

وقوله: (أي: في الجنة): فسر: الآخرة بالجنة، والآخرة في القرآن يراد بها الجنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، ويراد بها الحياة الآخرة؛ أي: يوم القيامة، ومن شواهد هذا المعنى؛ قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَافِلَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٣]^(١).

وقوله: (فلذلك خذلهم)؛ أي: لم يوفقهم جزاء على مسارعتهم في الكفر.

وقوله: (في النار): فسر: العذاب العظيم بعذاب النار؛ فإنَّ عذاب النار أعظم عذاب.

وقوله: (أي: أخذوه بدله): تفسير: لا اشتراء الكفر بالإيمان، وهو من باب التشبيه؛ لأنهم لما آثروا الكفر على الإيمان أشبهوا مَنْ اشترى سلعة فأخذها، ودفع الثمن.

وقوله: (بكفرهم): يبين أنَّ كفر الكافرين لا يضر الله، ولا ينقص من ملكه لأنني غني عنهم، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وقوله: (مؤلم): يريد أنَّ أليم محول من مؤلم، ومؤلم؛ يعني: موجه، وهو اسم فاعل من ألمه^(٢).

وقوله: (بالياء والتاء): يشير إلى قراءتين^(٣)؛ فعلى القراءة بالياء تكون الآية نهياً للكفار عن هذا الحساب المتضمن للاغترار بالإمهال، وعلى القراءة بالتاء يكون الفعل خطاباً للنبي ﷺ ولكل مَنْ يصلح له، ويكون الموصول على القراءة الأولى في موضع رفع فاعل، وعلى القراءة بالتاء

(١) ولها أوجه أخرى تنظر في: نزهة الأعين النواظر (ص ١٤٩).

(٢) تنظر: (ص ١٣١).

(٣) ينظر: المبسوط (ص ١٧١).

يكون في موضع نصب مفعول به، والمصدر المؤول بدل منه^(١)، وعلى كل من المعنيين؛ فالمراد من الآية الإعلام بأن إِملاء الله للكفار ليس خيراً لهم كما يظنون أو يُظن؛ بل هو شر لهم؛ لأنهم يزدادون به إثماً بتماديهم في الكفر؛ فتكون حقيقة هذا الإِملاء هي الاستدراج، وهو نوع من مكر الله بالكافرين؛ ثم ينتهي أمرهم إلى العذاب المهين في نار جهنم.

وقوله: (إِملاءنا): يبين أن: «أَنَّ» وما دخلت عليه مصدر مؤول.

وقوله: (بتطويل الأعمار وتأخيرهم): بيان: لما يكون به الإِملاء.

وقوله: (و«أَنَّ» ومعمولاها)... إلى آخره: يبين إعراب: «أَنَّ» واسمها وخبرها؛ سد مسد مفعولي يحسبن، ولهذا قال على قراءة الياء، وفي موضع المفعول الثاني على القراءة بالتاء تحسبن.

وقوله: (نُْمهل): تفسير: ﴿نُْمَلِي﴾: بتطويل أعمالهم وتأخيرها.

وقوله: (بكثرة المعاصي)؛ لأنَّ المعاصي كلها إثم، فإذا كثرت زاد

الإثم.

وقوله: (ذو إهانة في الآخرة): يبين أنَّ هذا الوعيد في الآخرة.

وقوله: (ليترك): هو معنى ليزر.

وقوله: (أيُّها النَّاس): يبين أنَّ الخطاب عام لجميع الناس.

وقوله: (من اختلاط المنافق بغيره): تفسير: للموصول المجرور بعلى،

وهو اختلاط المنافقين بالمؤمنين.

وقوله: (بالتخفيف والتشديد: يَفْصِلَ): يشير: إلى قراءتين في الياء^(٢)،

ومعناها واحد؛ أي: يفصل بين المؤمنين والمنافقين فيعرف هؤلاء من هؤلاء.

(١) ينظر: الدر المصون (٣/٤٩٦).

(٢) ينظر: المبسوط (ص ١٧٢).

وقوله: (المُنافِقُ): تفسير: للخبيث، ثم فسر الطيب بالمؤمن.
 وقوله: (بالتكاليف الشاقة)... إلى آخره: بيان: لما حصل به التمييز
 بين المؤمن الصادق والمنافق، ومن ذلك ما فرض الله من الجهاد؛ كما
 حصل في غزوة أحد وغزوة الأحزاب، فقد ميز الله بهما بين المؤمنين
 والمنافقين.

وقوله: (فتعرفوا المُنافِقَ من غيره قبل التمييز): حقائق ما في صدور
 العباد من الإيمان والنفاق من الغيب الذي لا يطلع الله عليه إلا مَنْ اجتبي
 من رسله، فمن أطلعه الله على ما في صدور العباد عرف المؤمن من
 المنافق قبل التمييز بينهم بالابتلاء، ولكن الله لا يفعل ذلك لأحد إلا للرسول؛
 أي: الاطلاع على الغيب، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ
 عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].
 وقوله: (يختارُ): هو: معنى يجتبي.

وقوله: (فَيُطْلِعُهُ عَلَى غَيْبِهِ)... إلى آخره: معطوف على يجتبي في
 المعنى، ومرتب عليه؛ أي: مَنْ اجتباه من رسله أطلعه على ما شاء من غيبه،
 ومن ذلك إطلاع الله النبي على حال المنافقين، وتعريفه بهم حتى كان النبي
 يفضي إلى حذيفة بأسماء بعضهم.

وقوله: (النفاق): خص: النفاق من بين أنواع الكفر؛ لأنَّ السياق في
 شأن المنافقين، والإيمان والتقوى هما ركننا الولاية، فمن آمن واتقى كان
 ولياً لله، وكان له من الله أجر عظيم.



وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٨١ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝١٨٢﴾ [آل عمران: ١٨٠-١٨٢].

هذا نهي من الله للذين آتاهم الله المال فبخلوا بما فرض عليهم من الزكاة، أن يظنوا أن بخلهم هو خير لهم؛ بل هو شر لهم، إذ بخلوا بما أوجب الله عليهم، وقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ﴾، هذا خبر عما سيفعل بهم يوم القيامة، يوضحه الحديث الصحيح قال ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُوَدِّ زَكَاتَهُ مَثَلْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعًا أَقْرَع... فَيَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ -أي: شِدْقَيْهِ- فيقول: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ»^(١)، ومن الوعيد على البخل بالزكاة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤﴾ [التوبة]، وفي الحديث الصحيح: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأحمى عليها في نار جهنم؛ فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ معناه: أن الله وارث السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن؛ لأنه الباقي بعد فنائهن، وهذا البخيل سيفنى ويخلف ماله وراء ظهره فيرثه الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَرِثَهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨﴾ [مريم]، فهو تعالى وارث كل شيء،

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وللبخاري (١٤٠٢) مختصرًا وليس فيه ذكر الذهب والفضة.

والباقي بعد كل حي، وكل حي من الخلق يموت وهو سبحانه حي لا يموت، وكل ما على الأرض صائر إلى فناء، وله تعالى وحده البقاء؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن،] وقد قيل إن هذه الآية: «ولا يحسبن» نزلت في اليهود^(١)، وهم مشهورون بالبخل، ولهذا أخبر الله عن قول بعضهم: إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ؛ فقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وفي الإخبار بسمعه لقولهم تهديد لهم بالنقمة منهم لتقصهم رب العالمين بنسبة الفقر إليه، وهو تعالى الغني الجواد، ولهذا قال تعالى ردًّا على مَنْ نسبه إلى البخل من اليهود: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، فلعنة الله على اليهود الطاعنين في رب العالمين المشبهين له بالمخلوقين؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدُلُّ اللَّهُ مَعْلُوءَةً غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] الآية، وشبهة هذا الكافر الواصف لله بالفقر؛ هي: قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فقال اليهودي: إِنَّ اللَّهَ يَسْتَقْرِضُنَا أَمْوَالَنَا فهو فقير، ونحن أغنياء، روى ابن جرير هذا عن ابن عباس، ومجاهد وابن زيد وقتادة والحسن والسدي، ومن ذلك ما روي عن ابن عباس أَنَّ أَبَا بَكْرٍ دَعَا حَبْرًا مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَاسْمُهُ فَنَحَاصٌّ؛ فَقَالَ: مَا بَنَا إِلَى اللَّهِ مِنْ فَقْرٍ، وَإِنَّهُ إِلَيْنَا لَفَقِيرٌ! فَضْرَبَهُ أَبُو بَكْرٍ عَلَى وَجْهِهِ فَشَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا بَكْرٍ مَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ؟ فَذَكَرَ لَهُ مَا قَالَهُ فَنَحَاصٌّ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾^(٢).

(١) وروى عطية العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد ونبوته، والبخل على هذا كتمان العلم. ينظر: أسباب النزول (ص ١٣٢)، والعجائب (٧٩٩/٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٧٧-٢٨١).

وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١): تهديد لليهود بحفظ أقوالهم وأفعالهم القبيحة في كتاب، ومجازاتهم عليها بعذاب الحريق.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١٨٢)، اسم الإشارة راجع إلى عذاب الحريق؛ أي: ذلك العذاب بما قدمت أيديهم؛ أي: بسبب ما قالوا وفعلوا؛ كقوله: ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]؛ ثم نفى تعالى عن نفسه الظلم، فلا يعذب أحداً بغير ذنب، ولا يزيد في سيئات أحد، ولا ينقص من حسناته، ولا ينقص من ثوابه، وهو تأكيد؛ لقوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾.

﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ﴾ - بالتاء والياء - ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: بزكاته ﴿هُوَ﴾ أي: بخلهم ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾: مفعول ثانٍ والضمير للفصل، والأوّل «بخلهم» مقدّراً قبل الموصول على الفوقانيّة، وقبل الضمير على التحتانيّة. ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ﴾ أي: بزكاته من المال، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بأن يُجعل حيّة في عنقه تنهشه، كما ورد في الحديث، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يرثهما بعد فناء أهلهما، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ - بالتاء والياء - ﴿خَبِيرٌ﴾، فيجازيكم به.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ، وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. وهم اليهود قالوه، لما نزل «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا؟» وقالوا: لو كان غنياً ما استقرضنا. ﴿سَنَكْتُبُ﴾: نأمر بكتب ﴿مَا قَالُوا﴾ في صحائف أعمالهم، ليُجازوا عليه - وفي قراءة الياء مبنياً للمفعول - ﴿وَنَكْتُبُ قَتْلَهُمْ﴾، بالنصب والرفع، ﴿الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَنَقُولُ﴾ بالنون،

والياء أي: الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ
الْحَرِيقِ﴾: النار. ويقال لهم إذا ألقوا فيها:
﴿ذَلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ -عُبر بهما عن الإنسان
لأن أكثر الأفعال تُزاوَل بهما- ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ أي: بذى ظلم
﴿لِلْعَبِيدِ﴾، فيُعَذَّبُهُمْ بغير ذنب.

وقول المؤلف: (بالتاء والياء): يشير: إلى قراءتين^(١)؛ فعلى القراءة
بالياء تكون الآية نهياً للباخلين بما آتاهم الله عن هذا الحساب المتضمن
للاغترار بالمال باعتقاد أنه خير لهم، وهو شر لهم، وعلى القراءة بالتاء
يكون الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، ويكون الموصول على القراءة
الأولى في موضع رفع فاعل، وعلى القراءة بالتاء يكون في موضع نصب
مفعول به، والمصدر المؤول بدل منه^(٢)، وعلى كل من المعنيين؛ فالمراد من
الآية الإعلام بأن إيتاء الله المال لمن يبخل به، فلا يؤدي زكاته؛ ليس خيراً
لهم كما يظنون أو يظن، بل هو شر لهم إذ بخلوا بما أوجب الله عليهم فيه.
وقوله: (أي: بزكاته): بيان لمتعلق البخل الذي ذمهم الله به.
وقوله: (أي: بخلهم): يبين أن ضمير الفصل عائد إلى البخل المفهوم
من «يبخلون».

وقوله: (والأول «بخلهم»)... إلى آخره: يريد أن المفعول الأول
لتحسين هو بخلهم، والمناسب أن يقول: «بخل» من غير إضافة؛ لأنه مقدر
قبل الموصول مضافاً إليه، وهذا على القراءة بالفوقانية؛ أي: على القراءة

(١) ينظر: النشر (٢/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: الدر المصون (٣/ ٥١٠).

بالتاء «تحسبن»؛ فالتقدير: ولا تحسبن بخل الذين، وأما على القراءة بالتحنانية؛ «يحسبن»: فيقدر المفعول الأول بعد الموصول وصلته؛ فالتقدير: ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله بخلهم هو خيرًا لهم^(١).
وقوله: (أي: بركاته من المال): يبين أن الذي بخلوا به هو الزكاة، وأن الذي يطوقونه هو المال الذي بخلوا بركاته.

وقوله: (بأن يُجعل حيّة)... إلى آخره: يشير: إلى معنى الحديث المتقدم، وفيه: «إلا مثّل له يوم القيامة شجاعًا أقرع».
وقوله: (يرثهما بعد فناء أهلهما): بيان لمعنى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لأنه الباقي بعد فناء من في السموات والأرض.
وقوله: (بالتاء والياء): يشير: إلى قراءتين في الآية «تعملون» و«يعملون»^(٢).

وقوله: (فيُجازيكم به): يشير: إلى أن ذكر علم الله بأعمالهم يتضمن الوعد بالجزاء ثوابًا أو عقابًا، لأنه تعالى لا تخفى عليه من أعمالهم خافية حسنها وقيحها؛ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وقوله: (وهم اليهود)... إلى آخره: يبين بذلك سبب نزول هذه الآية، وهو قول بعض اليهود، وهو فنحاص: لو كان الله غنيًا ما استقرضنا. قال ذلك لما دعاه أبو بكر إلى الإسلام.

وقوله: (نأمر بكتب): تفسير لقوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾: يبين أن الذي تكون منه الكتابة؛ هم: الملائكة بأمر الله؛ كقوله تعالى: ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

(١) ينظر: الدر المصون (٣/ ٥١١).

(٢) ينظر: المبسوط (ص ١٧٢).

وقوله: (في صحائف أعمالهم): بيان: لما تكون فيه الكتابة.

وقوله: (ليُجازوا عليه): بيان: للحكمة من الكتابة، وهي: المجازاة.

وقوله: (وفي قراءة)... إلى آخره: يشير: إلى أنه قُرئ «نكتب» «يكتب» بالياء^(١) مضمومة على البناء للمفعول، ونائب الفاعل الاسم الموصول، وعلى القراءة بالنون «سنكتب» الموصول في موضع نصب مفعولاً به^(٢).

وقوله: ﴿وَنَكْتُبُ﴾: يبين أن: ﴿وَقَتْلَهُمْ﴾: معطوف على الموصول ما قالوا فهو منصوب بـ«نكتب»؛ فالتقدير: ونكتب قتلهم الأنبياء.

وقوله: (بالنصب والرفع): لأنه: معطوف على الموصول كما تقدم، وتقدم إعراب الموصول على القراءتين فعلى القراءة بالنون مفعول به، وعلى القراءة بالياء المضمومة نائب فاعل مرفوع.

وقوله: (بالنون، والياء): يشير: إلى أن فيها قراءتين؛ كالقراءتين في نكتب؛ لأنَّ «نقول»: معطوف على: «نكتب»^(٣).

وقوله: (أي: الله لهم)... إلى آخره: يريد أن الله يقول لهم، وهذا يقتضي أن فعل: «نقول» على القراءة بالياء مبني للفاعل؛ فتقدير الكلام: ويقول الله لهم، وهذه قراءة ضعفها ابن جرير؛ لأنه على هذه القراءة لا يستقيم عطف «يقول» على «نكتب» أو «يكتب»؛ فالصحيح من القراءة نقول أو يقال بالبناء للمفعول، ليتفق الفعلان المعطوف والمعطوف عليه في البناء للفاعل أو البناء للمفعول^(٤).

وقوله: (على لسان الملائكة)؛ أي: تقول لهم الملائكة بأمر الله، وهذا محتمل على القراءة بالنون «نقول»، وأما على القراءة بالياء مسنداً إلى الاسم

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٢).

(٢) ينظر: الدر المصون (٣/ ٥١٤).

(٣) ينظر: المبسوط (ص ١٧٢).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٨١-٢٨٢).

الشریف «الله»؛ أي: ويقول الله؛ فلا يناسب أن يقال: على لسان الملائكة؛ لأنه يجوز أن يكلمهم الله بنفسه؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَوْوا فِيهَا وَلَا تَكَلَّمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقوله: (النار): تفسير: للحريق بالنار؛ لأنَّ الحريق اسم من أسماء النار، وصفة من صفاتها؛ أي: محرقة، وإضافة العذاب إلى الحريق من إضافة الموصوف إلى صفته أو من إضافة الشيء إلى سببه.
وقوله: (ويقال لهم إذا أُلْقُوا فيها): يريد؛ أنَّ قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ يقال لهم حين يلقون في النار.
وقوله: (العذاب): بيان: لمرجع اسم الإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ﴾.

وقوله: (عُبر بهما)... إلى آخره: يبين أنَّ معنى: ﴿قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾؛ أي: قدمتم، وأسند الفعل للأيدي؛ لأنهما أداة أكثر الأفعال.
وقوله: (أي: بذى ظلم): يبين أنَّ صيغة المبالغة لا مفهوم لها، وأنَّ المراد نفي مطلق الظلم.
وقوله: (فَيُعَذِّبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ): بيان: لصورة الظلم.



وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِبْرَاهِيمَ عَهْدَ إِلَهِنَا آلَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ * لَسُبُّوا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَسْتُمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٣ - ١٨٦].

يخبر تعالى أن الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء هم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِبْرَاهِيمَ عَهْدَ إِلَهِنَا آلَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾، وقوله: ﴿عَهْدَ إِلَهِنَا﴾؛ أي: أوصانا أن لا نؤمن لرسول؛ ﴿حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾؛ أي: بآية، وهي أن تصدق بصدقة وقرب قرباناً فقبل منه نزلت عليها نار فأكلته، وهكذا كانت الغنائم، إذا حازها المجاهدون، ولم يكن منهم غلول تنزل عليها نار فتأكلها^(١)؛ فأمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالحجج الواضحات، ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾؛ أي: القربان الذي تأكله النار، ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٨٣﴾، فيما تزعمون أن الله عهد إليكم أن لا تؤمنوا الرسول إلا بذلك الشرط؛ ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾؛ أي: أصروا على التكذيب، ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: فلا تحزن، وفي هذا تسلية وتصبير للنبي ﷺ ﴿جَاءُوا

(١) كما في قصة يوشع بن نون التي أخرجها مسلم (١٧٤٧) وغيره عن أبي هريرة مرفوعاً وفيها: «فجمعوا ما غنموا، فأقبلت النار لتأكله، فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول». وينظر: الصحيحة (٢٠٢) وأشار إليها شيخنا في التعليق.

يَا بَلِيَّتٍ؛ أي: جاء الرسل بالبينات؛ أي: بالبراهين الساطعة، وبالزبر؛ أي: من الكتب المنزلة من السماء، والكتاب المنير؛ أي: الكتب التي تنير الطريق للسالكين الطالبين للحق المبين بالأخبار الصادقة، والأحكام العادلة المبينة للحلال والحرام والنافع والضار إذن؛ فلك أسوة بهم، فإن دأب الأمم مع رسلهم هو التكذيب مع ما جاء به الرسل من الحجج على صدقهم، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾؛ أي: كل حي من الناس وغيرهم سيموت من المؤمنين والكفار من الرسل وأعدائهم؛ فيجزون بما عملوا، فليست هذه الحياة بدائمة؛ بل لا بد من النقلة عنه إلى الدار الآخرة، فلذاتها منقطعة وشذائدها زائلة، وهذه تسلية أخرى للنبي ﷺ، ثم يبين تعالى الفائز في الآخرة؛ فقال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ وأما الحياة الدنيا فإنها متاع يغرُّ مَنْ ركن إليه وتعلق به، وإضافة المتاع إلى الغرور من إضافة الموصوف إلى صفته؛ فهو متاع خادع لكل مَنْ لم يفكر في العواقب.

ثم أخبر تعالى خبراً مؤكداً بالقسم بأنه سيبتلي المؤمنين في أموالهم وأنفسهم، وأنهم سيسمعون من الذين أوتوا الكتاب، ومن المشركين أذى كثيراً، وأن الصبر على ذلك مع التقوى من الأمور العظيمة التي تستحق المسارعة إليها، والعزم عليها.

﴿الَّذِينَ﴾ نعت لـ «الذين» قبله ﴿قَالُوا﴾ لمحمد: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ في التوراة ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾: نصدقه، ﴿حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾، فلا نُؤْمِنُ لك حتى يأتينا به. وهو ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله من نعمٍ وغيرها. فإن قُبِلَ جاءت نار بيضاء من السماء فأحرقتة. وإلا بقي مكانه. وعهد إلى بني إسرائيل ذلك إلا في المسيح ومحمد. قال تعالى:

﴿قُلْ﴾ لهم توبيخًا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾: بالمُعجزات، ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ كزكرياء ويحيى فقتلتموهم. والخِطاب لمن في زمن نبينا، وإن كان الفعل لأجدادهم، لرضاهم به. ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنكم تؤمنون عند الإتيان به؟ ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ، جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾: المُعجزات، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ كصُحف إبراهيم ﴿وَالكِتَابِ﴾ - وفي قراءة بإثبات الباء فيهما - ﴿الْمُنِيرِ﴾: الواضح - هو التوراة والإنجيل - فاصبر كما صبروا.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ﴾: جزاء أعمالكم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَمَنْ زُحِرَ﴾: بُعِدَ ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: نال غاية مطلوبه، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: العيش فيها ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾: الباطل، يُتَمَتَّع به قليلاً ثم يفنى.

﴿لِتُبْلُوهُمْ﴾، حُذِفَ منه نونُ الرفع لتوالي النونات، والواو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين: لَتُخْتَبَرَنَّ ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بالفرائض فيها والحوائج ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بالعبادات والبلاء، ﴿وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، اليهود والنصارى، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ من العرب، ﴿أَذَى كَثِيرًا﴾ من السب والطعن والتشيب بنسائكم. ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا﴾ على ذلك، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله، ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من معزوماتها التي يُعزم عليها لوجوبها.

وقول المؤلف: (نعتُ لـ «الذين» قبله): بيان: لموضعه الإعرابي، وهو الخفض؛ يقول المؤلف: إنه نعت للذين قبله؛ يعني؛ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وهو مخفوض بالإضافة، والموصول الذي قال فيه المؤلف إنه نعت؛ قيل: أنه بدل، وهو أولى، وقيل: في موضع

رفع خبر مبتدأ محذوف؛ تقديره: هم الذين، وقيل: في موضع نصب بفعل محذوف؛ تقديره: أعني أو أذم^(١).

وقوله: (لمحمد): بيان: للمخاطب في قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾.
وقوله: (في التوراة): بيان: لطريق العهد.

وقوله: (نصدقه): تفسير: لقوله: ﴿أَلَا نُؤْمِنُ﴾؛ أي: ألا نصدقه.
وقوله: (فلا نؤمن لك حتى تأتينا به): بيان: لمرادهم في قولهم للنبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ الآية.

وقوله: (وهو ما يقترب به)... إلى آخره: بيان: للمراد بالقربان الذي زعمت اليهود أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم به.
وقوله: (فإن قبل)... إلى آخره: بيان: لمعنى: ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾، فأكل النار للقربان علامة القبول.

وقوله: (إلا في المسيح ومحمد): عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: معناه أنه ليس في شريعتهما أن علامة القبول لما يقترب به إلى الله أن تنزل عليه نار فتأكله، وقد كان هذا في شريعة التوراة، ومثل ذلك الغنائم فلم تحل لأمة موسى، فكانوا إذا غنموا أموالاً جمعوها ولم يأخذوا منها شيئاً؛ فتنزل عليها نار فتأكلها، إلا أن يكون أحد قد غلّ منها شيئاً، فلا تنزل عليها النار كما جاء في حديث يوشع بن نون في «صحيح مسلم»^(٢). وأما عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فلم يكن في شريعته جهاد ولا غنائم. وأما محمد ﷺ فقد أُحِلَّتْ له ولأمته الغنائم، قال ﷺ: «أُعْطِيَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي...» الحديث، وفيه: «وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي»^(٣).

(١) ينظر: الدر المصون (٥١٦/٣).

(٢) برقم (١٧٤٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يأت في «مسلم» تسميته، ولكن في رواية الحاكم (٢٦١٨)، وينظر: الصحيحة (٢٠٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله: (قال تعالى): هذا مدخل لذكر الآية التالية: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي﴾ الآية.

وقوله: (لهم توبيخاً): بيان: لمن أمر الرسول ﷺ أن يخاطبهم بهذا القول: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي﴾ الآية، والضمير في لهم يعود إلى اليهود الذين قالوا: إن الله عهد إلينا.

وقوله: (بالمعجزات): تفسير: للينات جرياً على عادة المتكلمين، الذين يسمون براهين الأنبياء معجزات، وهي: الخوارق للعادة، والله سماها بينات، وهذا اللفظ أدل على المعنى المطلوب من معجزات^(١).

وقوله: (كزكرياء)... إلى آخره: تمثيل: ببعض الرسل الذين جاؤوا بقربان تأكله النار، ومعنى ذلك لم يؤمنوا بهم؛ بل قتلوهم، ومنهم زكريا ويحيى كما ذكر المؤلف^(٢).

وقوله: (والخطاب)... إلى آخره؛ يريد أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي﴾؛ لمن كان في زمن النبي ﷺ من اليهود، وفعل القتل إنما كان من أسلافهم، ولكنهم خوطبوا بذلك لرضاهم بما فعل أسلافهم. وقوله: (في أنكم تؤمنون عند الإتيان به؟): بيان: لمتعلق الصدق، وهو دعواهم أنهم إذا جاءهم رسول بقربان تأكله النار آمنوا به.

وقوله: (كصحف إبراهيم): هذا مثال للزبر، والزبر جمع زبور، وهو نوع من كتب الله، ومنه زبور داود: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وقوله: (وفي قراءة بإثبات الباء فيهما): يريد أنه قرأ، و«الزبر وبالكتاب»^(٣).

(١) ينظر: الجواب الصحيح (٥/٤١٢-٤١٩).

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٢/١٤٥)، والكواشي (١/٤٣٣).

(٣) قرأ ابن عامر وحده بزيادة «باء» في الزبر، وروي عن أحمد بن يزيد الحلواني أنه ذكر عن أهل الشام بزيادة الباء في الحرفين؛ ولم يعرفه أهل الشام؛ وقالوا: هو غلط لا شك. =

وقوله: (الواضح)... إلى آخره: لو قال الموضح لكان أولى؛ لأنَّ المنير؛ هو الذي ينير الطريق للسالك، ويميز بين الحق والباطل، ثم بيّن المراد بالكتاب، وأنه التوراة التي جاء بها موسى، والإنجيل الذي جاء به عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثم بيّن المراد من هذا الإخبار، وهو تصبير النبي وتسليته، ولهذا قال: (فاصبر كما صبروا).

وقوله: (جزاء أعمالكم): تفسير: لأجوركم ولو قال: ثواب أعمالكم كان أولى؛ لأنَّ الأجور مختصة بالثواب.

وقوله: (بُعْدَ): تفسير لزحزح، ولفظ الزحزحة يشعر بجهد في تبعيده عن النار، وأنه يكون قليلاً قليلاً^(١).

وقوله: (نال غاية مطلوبه)؛ لأنَّ: غاية المطلوب النجاة من العذاب، ونيل الثواب.

وقوله: (العيشُ فيها)؛ معناه: أنَّ المتاع بمعنى التمتع في الدنيا. وقوله: (الباطل)... إلى آخره: تفسير: للغرور، وإضافة المتاع إلى الغرور من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: المتاع الباطل، وسمي متاع الدنيا غروراً؛ لأنه يتمتع به قليلاً ثم يفنى، والباطل ما لا بقاء له.

وقوله: (حُذِفَ منه نونُ الرفع)... إلى آخره؛ لأنَّ: «تبلى» فعل مضارع مسند إلى واو الجماعة؛ فعلاية الرفع فيه ثبوت النون، واتصلت به نون التوكيد المشددة؛ لأنَّ الفعل المضارع جواب القسم فتوالت ثلاث نونات؛ فحذفت نون الرفع فاتصلت نون التوكيد بالفعل، وضمت الواو لالتقاء الساكنين.

وقوله: (بالفرائض فيها والجوائح): بيان: لِمَا يكون به الابتلاء في الأموال.

= وقال النيسابوري: «وتأملت مصاحفهم فرأيت فيها ﴿وَالْكِتَابِ﴾ بغير باء». ينظر: المبسوط (ص ١٧٢).

(١) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٨٨١).

وقوله: (بالعبادات والبلاء): بيان: لما يكون به الابتلاء في الأنفس، وليته لم يجعل العبادات من الابتلاء في الأنفس؛ فإنَّ العبادات - كالصلاة والصيام والذكر وتلاوة القرآن - نعيم قلوب المؤمنين، وقرة أعينهم.

وقوله: (اليهود والنصارى): تفسير: للذين أوتوا الكتاب، وهذا هو

المراد بالذين أوتوا الكتاب في جميع القرآن.

وقوله: (من العرب)؛ أي: مشركي العرب، وهم قريش وغيرهم من قبائل العرب، يُنعتون بالشرك لأنهم عباد أوثان، وهكذا إذا ذكر المشركون، وأهل الكتاب؛ فأهل الكتاب اليهود والنصارى، والمشركون عباد الأوثان من العرب وغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

وقوله: (من السب) ... إلى آخره: تفسير: للأذى، وهي: أنواع من الأقوال المؤذية لسامعها، وقوله: (التشبيب بنسائكم)؛ أي: التغزل كما كان يفعل كعب بن الأشرف اليهودي^(١).

وقوله: (على ذلك)؛ أي: على الأذى الكثير.

وقوله: ﴿وَتَتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: بفعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه.

وقوله: (أي: من معزوماتها) ... إلى آخره: تفسير: لعزم الأمور، ففسر العزم بالمعزوم عليه؛ لأنَّ العزم مصدر، ومعناه: الإرادة الجازمة، والصبر والتقوى من الأمور التي يجب العزم عليها، ولهذا قال المؤلف: «أي: من معزوماتها».



(١) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٥٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) [آل عمران: ١٨٧-١٨٩].

يذكر الله لنيه بأنه أخذ الميثاق على أهل الكتاب: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، أي: أعرضوا عنه، واستعاضوا عنه عرضاً من الدنيا، فبئس ما أخذوا عوضاً عن الإيمان بالكتاب، والعمل به؛ ثم نهى نبيه، وكل مؤمن أن يظنوا بالذين يفرحون بما أتوا إعجاباً بأعمالهم، ويحبون أن يحمداً بالباطل فيمدحوا بما لم يفعلوا؛ قيل: إنها نزلت في بعض المنافقين، وقيل: نزلت في بعض أهل الكتاب من اليهود^(١)، والثاني هو المناسب لسياق الآيات لتقدم ذكر الذين أوتوا الكتاب، ولا منافاة بين القولين لأن الآية عامة. قاله ابن كثير^(٢)، وقوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا﴾، من التخلف عن الجهاد أو الكذب على الرسول، ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾؛ أي: يمدحوا، ويذكروا بما لم يفعلوا من الصدق في الأخبار، والجهاد في سبيل الله، وهم: لم يصدقوا بل كذبوا، ولم يجاهدوا بل قعدوا؛ ثم قال تعالى: ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: لا تظننهم بمنجاة من عذاب الله، وفيه تهديد لهم بالعذاب، وقطع لطمعهم بالنجاة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨٨)؛ أي: مؤلم، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩)؛ أي: مالك السموات والأرض ومدبرهما لأنه خالقهما، والمتصرف فيهما بقدرته ومشئته، وهو على كل شيء قدير.

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٣٦)، والعجاب (٢/ ٨١١).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٨٢).

﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: العهد عليهم في التوراة، ﴿لَتُبَيِّنَنَّ﴾ أي: الكتاب ﴿لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ﴾ - بالياء والتاء في الفعلين - ﴿فَبَذَلُوهُ﴾: طرحوا الميثاق ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فلم يعملوا به، ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾: أخذوا بدله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الدنيا من سفلتهم، برياستهم في العلم، فكتموه خوف فوته عليهم. ﴿فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾: شراؤهم هذا!

﴿لَا تَحْسِبَنَّ﴾ - بالتاء والياء - ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾: فعلوا في إضلال الناس، ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ من التمسك بالحق وهم على ضلال، ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ﴾ - بالوجهين تأكيد - ﴿بِمَفَازَةٍ﴾: بمكان ينجون فيه ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ في الآخرة، بل هم في مكان يُعَذَّبُونَ فيه وهو جهنم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مؤلم فيها - ومفعولا «يَحْسِبُ» الأولى دلّ عليهما مفعولا الثانية على قراءة التحتائية، وعلى فوقانية حُذِفَ الثاني فقط - ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: خزائن المطر والرزق والنبات وغيرها، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومنه تعذيب الكافرين وإنجاء المؤمنين.

وقول المؤلف: (اذْكُرْ): بيان: لمتعلق الظرف ﴿وَإِذْ﴾. وقوله: (العهد)... إلى آخره: بيان: للمراد بالميثاق الذي أخذه الله على أهل الكتاب، وهم: اليهود، وأصل الميثاق العهد المؤكد^(١). وقوله: (أي: الكتاب): بيان: لمرجع الضمير المنصوب في قوله:

﴿لَتُبَيِّنَنَّ﴾.

(١) ينظر: المفردات (ص ٨٥٣).

وقوله: (بالياء والتاء في الفعلين): إشارة إلى قراءتين؛ بالياء على الغيبة، والتاء على الخطاب، والمراد بالفعلين «يبينه» و«يكتُمونه»^(١).
 وقوله: (طرحوا الميثاق): بيان: لمعنى النبذ، وهو الطرح، وبيان لمرجع الضمير المنصوب في قوله: (نبذوه): وهو الميثاق.
 وقوله: (فلم يعملوا به)؛ أي: لم يعملوا بالميثاق، وهذه حقيقة نبذهم إياه.

وقوله: (أخذوا بدله): تفسير: للاشتراء؛ لأنَّ حقيقته أخذ شيء، وبذل ثمنه.

وقوله: (من الدنيا)... إلى آخره؛ معناه: أنَّ أحبار اليهود أخذوا عرضاً من الدنيا من سفلتهم؛ أي: أشرارهم ليتركوا العمل بالميثاق، فلا يبينوا الكتاب؛ بل كتموه خوفاً على رئاستهم ومأكلهم.

وقوله: (شراؤهم هذا!): يبين أنَّ المخصوص بالذم الذي تفيده «بئس» هو صفقة البيع التي أخذوا فيها الثمن القليل ليتركوا العمل بالميثاق.

وقوله: (بالتاء والياء): يُشير إلى أنَّ في الآية قراءتين: «تحسبن» على الخطاب، و«يحسبن» على الغيبة^(٢)، والموصول على القراءة بالتاء في موضع نصب مفعول أول، وعلى القراءة بالياء الموصول في موضع رفع فاعل^(٣).

وقوله: (فعلوا من إضلال الناس): بيان: للموصول المبهم في قوله: ﴿بِمَا أَتَوْا﴾؛ أي: فعلوا.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٣).

(٢) ينظر: النشر (٢/ ٢٤٦).

(٣) وفيه أوجه أخرى تنظر في: الدر المصون (٣/ ٥٢٥).

وقوله: (من التمسك بالحق...) إلى آخره: بيان: للمراد بالذي يحبون أن يحمدوا به، ولم يفعلوه.

وقوله: (بالوجهين تأكيد): يريد أن إعادة الفعل تأكيد للفعل المتقدم، والوجهان: القراءتان بالتاء والياء^(١).

وقوله: (بمكانٍ ينجون فيه): معناه: أن مفازة اسم مكان من الفوز، ولا يكون الفوز إلا مع النجاة، ولهذا فسره آخرون بالمنجاة اسم مكان من النجاة. وقوله: (في الآخرة)... إلى آخره: يريد أن العذاب الذي نفى الله نجاتهم منه عذاب الآخرة، وهذا خلاف ما ذكره ابن جرير، فإنه فسر به عذاب الدنيا من الخسف والصيحة، وعليه فهو تهديد للمذكورين في الآية؛ بأن يصيبهم ما أصاب مَنْ قبلهم، وهذا هو الصواب، ويؤيده قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهو عذاب الآخرة^(٢).

وقوله: (مؤلم فيها)... إلى آخره؛ أي: في جهنم، وهو عذاب الآخرة، فجعل العذاب في الموضعين واحداً، والصواب: أن الأول عذاب الدنيا، والثاني عذاب الآخرة، ثم رجع المؤلف يذكر مفعولي تحسب؛ فقال: (ومفعولا «يحسب» الأولى دل عليهما مفعولا الثانية على قراءة التحتانية)؛ معناه: أن مفعولي يحسب الأولى محذوفان، دل عليهما مفعولا يحسب الثانية، وقوله: (على قراءة التحتانية)؛ يعني: الياء، ومفعولا يحسب الثانية ضمير الجمع المنصوب «هم»، وهو المفعول الأول، والمفعول الثاني الجار والمجرور «بمفازة».

وقوله: (خزائن المطر)... إلى آخره: لفظ الآية أعم مما ذكر المؤلف، ولعل الداعي لهذا التخصيص أن أهم ما يهتم الناس هو الرزق، فإذا علموا أن خزائن الأرزاق بيد الله طلبوا الرزق من الله لا من غيره.

(١) ينظر: النشر (٢/٢٤٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/٣٠٧-٣٠٨).



وقوله: (ومنه تعذيب الكافرين وإنجاء المؤمنين): يشير: إلى مناسبة ذكر عموم القدرة لما تقدم من وعيد اليهود والمنافقين بالعذاب الأليم، فدلّت الآية على عموم ملكه تعالى لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وهذا يدل على كمال غناه، ففيه تكذيب للذين قالوا: إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ. قاله ابن جرير^(١).



وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۖ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۖ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۖ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۖ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٤].

يخبر تعالى بأن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وهو تعاقبهما في ذلك آيات؛ أي: علامات على وجود خالقهما ومدبرهما، وعلى قدرته ومشيبته وعلمه وحكمته ورحمته وعلى ربوبيته وإلهيته، وخص بهذه الآيات أولي الأبواب، وهم ذو العقول الحية المستنيرة فخصوا بالآيات، لأنهم المتفعون بها، ثم أثنى الله عليهم بكثرة الذكر فهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا، وعلى جنوبهم، ومما يزيدهم ذكرًا لله أنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض فيزدادون بذلك إيمانًا فينطقون بالتسبيح، ويتوجهون إلى الله بالدعاء، وهذا ما أخبر الله به عنهم في قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۖ﴾، ثم أخبر عن دعائهم الذي افتحوه بسؤال الوقاية من النار، وبالتوسل بالإيمان في طلبهم مغفرة ذنوبهم، وتكفير سيئاتهم، وسؤالهم أن يؤتيهم الله ما وعدهم، وأن لا يخزيهم يوم القيامة، وذلك قوله تعالى عن أولي الأبواب الذاكرين المتفكرين أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۖ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ ۖ﴾؛ أي: فضحته^(١)، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۖ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا

(١) ينظر: تهذيب اللغة (٧/ ٢٥٠)، والبحر المحيط (٣/ ٤٧١).

يُنَادِي لِلْإِيمَنِ ﴿١٩٢﴾، وهو الرسول ﷺ ﴿أَنْتَ أَمْرًا بِرَبِّكَ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾، فتضمنت هذه الدعوات طلب الفوز بالجنة، والنجاة من النار، والتوفيق لأسباب ذلك فما أعظمها من دعوات تنال بها سعادة الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وما فيهما من العجائب،
﴿وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بالمجيء والذهاب والزيادة والنقصان،
﴿لَايَاتٍ﴾ دلالات على قدرته -تعالى- ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: لذوي
العقول، ﴿الَّذِينَ﴾: نعت لما قبله أو بدل ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ، قِيَامًا وَقُعُودًا
وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾: مضطجعين أي: في كل حال -وعن ابن عباس: يُصَلُّون
كذلك حَسَبَ الطَّاقَةِ^(١)- ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾،
ليستدلوا به على قُدرة صانعهما، يقولون: ﴿رَبَّنَا، مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾ الخلق
الذي نراه ﴿بَاطِلًا﴾: حَالٌ، عبثًا بل دليلًا على كمال قُدرتك. ﴿سُبْحَانَكَ﴾:
تنزيهًا لك عن العبث! ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. رَبَّنَا، إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ
لِلْخُلُودِ فِيهَا ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾: أهنته، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾: الكافرين -فيه
وضع الظاهر موضع المضمَر إشعارًا بتخصيص الخزي بهم -﴿مِنْ﴾:
زائدة ﴿أَنْصَارٍ﴾: يمنعونهم من عذاب الله.

(١) أورده الثعلبي (٥٤٩/٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣٦٠/١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بمعناه، ولم نجده مسندًا عنه، ولكن وجدناه بمعناه عن ابن مسعود. ينظر: مصنف ابن أبي شيبة - ت الحوت - (٨٤٥٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤٦٥٦) - وتصحفت في تفسير ابن أبي حاتم إلى: «أبي مسعود» -، والمعجم الكبير للطبراني (٩٠٣٤).

﴿رَبَّنَا، إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا، يُنَادِي﴾: يدعو الناس ﴿لِلْإِيمَانِ﴾ أي: إليه - وهو مُحَمَّدٌ أَوْ الْقُرْآنُ - ﴿أَنْ﴾ أي: بأن ﴿آمِنُوا بِرَبِّكُمْ، فَآمَنَّا﴾ به. ﴿رَبَّنَا، فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَكَفِّرْ﴾: غَطَّ ﴿عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ فلا تظهرها بالعقاب عليها، ﴿وَتَوَفَّنَا﴾: اقْبِضْ أرواحنا ﴿مَعَ﴾: في جملة ﴿الْأَبْرَارِ﴾: الأنبياء والصالحين - ﴿رَبَّنَا - وَآتِنَا﴾: أعطِنَا ﴿مَا وَعَدْتَنَا﴾ به، ﴿عَلَى﴾ ألسنة ﴿رُسُلِكَ﴾ من الرحمة والفضل - وسؤالهم ذلك، وإن كان وعده تعالى لا يُخْلَفُ، سؤال أن يجعلهم من مُسْتَحَقِّيهِ، لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم له، وتكرير «رَبَّنَا» مبالغة في التضرع - ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: الوعد بالبعث والجزاء.

وقول المؤلف: (وما فيهما من العجائب): كالشمس والقمر والكواكب في السماء، والجبال والأنهار والبحار في الأرض.
وقوله: (بالمجيء والذهاب والزيادة والنقصان): تفسير: لاختلاف الليل والنهار.
وقوله: (دلالات على قدرته - تعالى -): تفسير: للآيات بالمعنى المراد منها، وهو الدلالة على قدرته تعالى.
وقوله: (لذوي العقول): تفسير: للألباب بالعقول، وهذا تفسير متفق عليه.
وقوله: (نعت لما قبله أو بدل): يريد أن الموصول نعت لـ «أولي»، أو بدل منه فيكون في محل جر، والأظهر أنه نعت^(١).

(١) وقال السمين الحلبي هو أحسن الوجوه. ينظر: الدر المصون (٣/ ٥٣١).

وقوله: (مضطجعين)... إلى آخره: مضطجعين؛ تفسير لقوله: ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾، والمعنى: أنهم يذكرون الله في كل أحوالهم، ولهذا قال المؤلف: «في كل حال».

وقوله: (ليستدلوا به)... إلى آخره: بيان: لمقصودهم من التفكير، وهو الاستدلال بما يشاهدونه من خلق السموات والأرض على قدرته تعالى، وحكمته ورحمته.

وقوله: (الخلق الذي نراه): بيان: للمشار إليه في قولهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾.

وقوله: (حال)... إلى آخره: بيان: لإعراب الكلمة باطلاً، ومعناها؛ فباطلاً منصوب على الحال من المشار إليه، وهو خلق السموات والأرض، ومعنى: ﴿بَاطِلًا﴾؛ أي: عبثاً لا غاية له؛ بل خلخته لحكمة، وهي: الدلالة على قدرتك يا رب.

وقوله: (تنزيهاً لك عن العبث!): بيان لمعنى: التسبيح، وهو تنزيه الله عن كل نقص وعيب، والمقصود به هنا تنزيه الله عن العبث كما قال المؤلف.

وقوله: (للخلود فيها): يريد أن الخزي خاص بمن يدخل النار ليخلد فيها، وهم: الكفار، ويؤيده قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

وقوله: (أهنته): تفسير: للخزي، فإن الخزي يتضمن الإهانة والفضيحة. وقوله: (الكافرين)... إلى آخره: فيه تفسير الظالمين بالكافرين كما يدل له قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: (فيه وضع الظاهر موضع المضمرة)؛ لأن مقتضى السياق، وما لهم من أنصار، والضمير يعود إلى من في قوله: ﴿مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ﴾، وفائدة وضع الظاهر موضع المضمرة؛ يقول المؤلف: (إشعاراً بتخصيص الخزي بهم).

وقوله: (زائدة): يريد أن مَنْ في قوله: ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾: زائدة لكنها تفيد تأكيد عموم النفي.

وقوله: (يمنعونهم من عذاب الله): بيان: لمعنى الأنصار؛ لأنَّ النصر هو دفع السوء، والأنصار جمع: ناصر أو نصير.

وقوله: (يدعو الناس): بيان: لمقصود المنادي.

وقوله: (أي: إليه)... إلى آخره: يبيِّن أنَّ اللام؛ بمعنى: إلى، ويبيِّن أنَّ المراد بالمنادي: الرسول أو القرآن، وكلاهما حق.

وقوله: (أي: بأن): يبين أنَّ الجملة على تقدير حرف جر، وهو الباء، وأنَّ هي: المفسرة؛ أي: المبينة لما يقول: المنادي.

وقوله: (به): بيان: لمتعلق الفعل آمنا، والضمير يعود إلى الرب.

وقوله: (عَطَّ): أي: أستر، وهو مضمن معنى: «أعفو»؛ فالمعنى: استر سيئاتنا واعف عنا. وقوله: (فلا تظهرها بالعقاب عليها): بيان: لثمرة تكفير السيئات، وهو سترها؛ لأنَّ: العقوبة عليها عقوبة شرعية، أو قدرية مما يفتضح به الإنسان.

وقوله: (اقبض أرواحنا): تفسير للتوفي، فمن قبض الله روحه فقد توفاه؛ قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وقوله: (في جملة)... إلى آخره: بيان: للمعية، ومعية الأبرار هي الدخول في عدادهم، وهو معنى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، والصالحون؛ هم: الأبرار.

وقوله: (به): تقدير: لعائد الموصول، والأولى أن يقول: ما وعدتنا إياه؛ لأنَّ وعد يتعدى لمفعولين بنفسه.

وقوله: (ألسنة): يريد أن يبيِّن أنَّ قوله تعالى: ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾؛ على تقدير مضاف محذوف قدره بألسنة، ومعنى ذلك أنَّ ما وعد الله به للمؤمنين بلغته الرسل؛ فعلم المؤمنون ما وعدهم الله من كلام الرسل وخبرهم.

وقوله: (من الرحمة والفضل)... إلى آخره: من: بيانية، وما بعدها بيان لما أبهم في قوله: ﴿مَا وَعَدْتَنَا﴾، فيكون المعنى: آتينا ما وعدتنا من الرحمة والفضل، ثم أجاب المؤلف ضمن كلامه عن سؤالين، لماذا سأل المؤمنون ربهم أن يعطيهم ما وعدهم، وهو تعالى لا يخلف الميعاد؟ وأجاب عن ذلك بأن مقصود السؤال أن يجعلهم في عداد المستحقين لهذا الوعد، والسؤال الثاني: ما السرف في تكرير ربنا؛ ربنا؟ وأجاب بأنه للمبالغة في التضرع والإلحاح في الدعاء.

وقوله: (الوعد بالبعث والجزاء): يبين أن: «ميعاد» اسم مصدر؛ بمعنى: الوعد، وهو الوعد بالبعث من القبور، والجزاء بالأعمال.



وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِعَصَابِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۖ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِّن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتْلُوا وَقَتْلُوا لَأَكْفِرَنَّهُمْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغْرَتَاكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥-١٩٨].

يخبر تعالى أنه أجاب دعاء المؤمنين المذكور في الآيات السابقة فتضمن ذلك الوعد بنجاتهم من النار، ومغفرة الذنوب وتكفير السيئات، وذلك الوعد جزاء على أعمالهم، فعلم بذلك أنه تعالى لا يضيع عمل عامل منهم ذكراً كان أو أنثى، وأخبر تعالى أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم من بعض، فهم متشابهون في إيمانهم وأعمالهم وأقوالهم، ثم خص بالوعد المهاجرين المجاهدين؛ فوعدهم بتكفير السيئات، وإدخالهم الجنات، وذلك ثواب من عند الله، وهو أحسن الثواب؛ ثم نهى الله نبيه، وكل مؤمن عن الاغترار بما أوتي الكفار من قدرة على القلب في الأرض بالتنقل فيها، وإن كان ظاهر الخطاب للنبي ﷺ؛ فالمعني به غيره لا متناع أن يقع منه ﷺ الاغترار بحال الكفار، وقوله: ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾؛ أي: تنعمهم بما أوتوا، وتقلبهم في الأرض بالضرب فيها متاع قليل من متاع الدنيا ماله إلى زوال؛ ثم يتتهون بعد موتهم إلى جهنم أسوأ مصير، لهم فيها مهاد، وبئس المهاد أما الذين اتقوا ربهم فهم في ضد ذلك، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وتلك الجنات كرامة من الله مدخرة لهم عند الله، وما عند الله خير للأبرار؛ فتضمنت الآيات وعد الله المؤمنين والمؤمنات، وهم: الأبرار أفضل الكرامات، ووعد الكافرين بأشد العقوبات.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ دعاءهم ﴿أَنِّي﴾ أي: بأني ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، بِعَصُكُمْ﴾ كائن ﴿مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: الذكور من الإناث وبالعكس. والجُملة مؤكدة لما قبلها. أي: هم سواء في المُجازاة بالأعمال وترك تضييعها. نزلت، لما قالت أم سلمة: يا رسول الله، إنني لا أسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء. ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من مكة إلى المدينة، ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾: ديني، ﴿وَقَاتِلُوا﴾ الكُفَّارَ ﴿وَقَتِلُوا﴾ -بالتخفيف والتشديد. وفي قراءة بتقديمه- ﴿لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: أسترها بالمغفرة، ﴿وَلَا دَخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، ثَوَابًا﴾: مصدرٌ من معنى «لَا كُفِّرَنَّ» مؤكّد له ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. فيه التفات عن التكلم. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾: الجزاء.

ونزل، لما قال المسلمون: «أعداء الله فيما نرى من الخير، ونحن في الجَهد»: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: تصرّفهم ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ بالتجارة والكسب. هو ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ يتمتعون به في الدنيا يسيراً ويفنى، ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: الفراش هي! ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ﴾ أي: مقدّرين بالخلود ﴿فِيهَا، نُزُلًا﴾ هو ما يُعدّ للضيف -ونصبه على الحال من «جَنَّاتٍ» والعامل فيها معنى الظرف- ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، من الثواب، ﴿خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ من متاع الدنيا.

وقول المؤلف: (دعاءهم): بيان: لمتعلق الاستجابة؛ فالدعاء مستجاب، والداعي مستجاب له.

وقوله: (أي: بأني): يبين أن المصدر المؤول في موضع جر بحرف جر مقدر، وهو الباء، وجملة ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ﴾؛ تفسير لما كانت به الاستجابة. وقوله: (كائن): تقدير: لمتعلق الجار والمجرور في قوله: ﴿مِنْ بَعْضٍ﴾.

وقوله: (أي: الذكور من الإناث وبالعكس): معناه: أن المؤمنون يشبهون المؤمنات، والمؤمنات يشبهن المؤمنين في الإيمان، والعمل الصالح والثواب.

وقوله: (والجُملة مؤكدة لما قبلها)... إلى آخره: يريد أن جملة بعضهم من بعض مؤكدة لجملة: ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾، ومعنى: الجملتين أن الرجال والنساء من المؤمنين سواء في الثواب، وقبول الأعمال.

وقوله: (نزلت)... إلى آخره: بيان: لسبب نزول الآية^(١)، وهو قول أم سلمة، وقد قيل: إنها أول مهاجرة إلى الحبشة، وأول مهاجرة إلى المدينة^(٢). وقوله: (من مكة إلى المدينة): هذه: الهجرة أعظم هجرة؛ لأنها هجرة إلى الرسول ﷺ.

وقوله: (ديني): تفسير: للسبيل، وسبيل الله هو دينه الذي شرعه، والموصول إلى رضوانه، وهو دين الإسلام، والمشركون يؤذون كل من يدين به.

وقوله: (الكُفَّار): بيان لمفعول قاتلوا، والمجاهدون في سبيل الله إنما يقاتلون الكفار.

(١) ينظر: العجائب (٢/ ٨١٧).

(٢) ينظر: الإصابة (١٤/ ٣٨٨).

وقوله: (بالتخفيف والتشديد)... إلى آخره: يفيد: أن في الآية ثلاث قراءات بتخفيف التاء المكسورة، وتشديدها، والقراءة الثالثة؛ بتقديم: قتلوا على قاتلوا^(١).

وقوله: (أَسْتَرْهَا): تفسير: لأَكْفِر؛ لأنَّ الكفر؛ بمعنى: الستر^(٢).
وقوله: (مصدرٌ)... إلى آخره: يريد أن جملة جواب القسم ﴿لَا تُكْفِرَنَّ﴾، و﴿وَلَا تَدْخُلْنَهُمْ﴾: معناه: لأثيبهم ثواباً من عند الله، وهو تكفير السيئات، وإدخال الجنات.

وقوله: (فيه التفات عن التكلّم): يعني: انتقال من أسلوب التكلم إلى أسلوب الإخبار عن الغائب، فلو لم يكن التفات؛ لقال: ثواباً من عندي.
وقوله: (الجزاء): تفسير: للثواب، فمعنى حسن الثواب حسن الجزاء؛ أي: الجزاء الحسن، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف.
وقوله: (ونزل)... إلى آخره: يشير: بذلك إلى سبب نزول الآية: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾.

وقوله: (تَصَرُّفُهُمْ): بيان: للمراد بتقلب الذين كفروا في البلاد، وهو تنقلهم فيها بما يشاؤون في الأسفار البعيدة والقريبة في التجارة، وغيرها من الأغراض.

وقوله: (هو): يبين أن: «متاع» خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: هو؛ أي: تقلبهم في الأرض.

وقوله: (يتمتعون)... إلى آخره: يبين أن المراد قصر مدة التمتع، فإما أن يفنى ما يتمتعون به أو ينتقلون عنه بالموت.

(١) ينظر: الشر (٢/٢٤٦).

(٢) ينظر: تاج العروس (٥٠/١٤).

وقوله: (الفراش هي!) : بيان؛ لمعنى المهاد، وبيان للمخصوص بالذم؛ فالمهاد هو الفراش، والمخصوص بالذم قوله: «هي» أي: جهنم؛ فتقدير الكلام: بئس الفراش جهنم.

وقوله: (مقدرين الخلود): يريد أن: «خالدين» حال مقدرة من الضمير المجرور في قوله: «لهم»، ولو قال مقدرًا لهم الخلود لكان أولى.
وقوله: (هو ما يُعَدّ)... إلى آخره: بيان: لمعنى النزل، وإعراب نزلاً، وأنه منصوب على الحال من جنات؛ فتقدير الكلام: لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، حال كونها نزلاً من عند الله؛ أي: كرامة من الله.
وقوله: (من الثواب): بيان لما في الموصول من الإبهام.

وقوله: (من متاع الدنيا): بيان: للمفضل عليه؛ المعنى: ما عند الله من الكرامة للمتقين، وهم الأبرار، خير من متاع الدنيا من كل وجه؛ فهو أكمل وأعظم وأدوم، ومتاع الدنيا ناقص قليل زائل.



وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩-٢٠٠].

يخبر تعالى أن من أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - من يؤمن بالله، وما أنزل على الرسول ﷺ، والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين معه، ويؤمنون بما أنزل إليهم، وهو ما أنزل على أنبيائهم، ومع هذا هم خاشعون لله مبینون لآيات الله، ولا يكتمونها لعوض يأخذونه ممن يدعونه إلى ذلك فهم على ضد من تقدم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران]، ثم أخبر تعالى بأن لهم أجراً مدخراً عند ربهم، وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾: دلالة على قرب تحقق ما وعدوا به من الأجر المدخر لهم عند الله، وفي ذكر هذا الصنف من أهل الكتاب شاهد لما تقدم في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران]، ثم أمر الله المؤمنين بأربعة أمور؛ لأنها سبب الفلاح؛ فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾؛ أي: لتفلحوا، والفلاح: هو الفوز والظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، وختم السورة بهذه الآية مناسب لما تضمنته السورة من قصة أحد، والترغيب في الجهاد، والثناء على المجاهدين، وذكر ما أعد الله للشهداء من الأجر العظيم، وذلك أن ما تضمنته هذه الآية من الأمور الأربعة التي أمر الله بها المؤمنين، وهي: الصبر، والمصابرة، والمرابطة، وتقوى الله كلها من أسس الجهاد، ومقوماته.

فأولها: الصبر على طاعة الله، وأعظمها الصلوات الخمس، والجهاد في سبيل الله فإنه يتضمن أنواع الصبر الثلاثة.

الثاني: المصابرة، وهو مصابرة الأعداء بصبر فوق صبرهم.

الثالث: المrapطة، وهي: الإقامة في الثغور والحدود مع الكفار حماية لبلاد المسلمين من غزو الأعداء ليحتلوا بعض بلاد المسلمين، وقد جاءت أحاديث كثيرة في فضل الرباط والمrapطين، ومن المrapطة انتظار الصلاة بعد الصلاة كما صح في ذلك الحديث؛ قال ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرباط»^(١).

الرابع: مما أمر الله به المؤمنين: تقوى الله، والوصية بها وصية جامعة؛ لأن تقوى الله يدخل فيها فعل كل طاعة، وترك كل معصية.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾، كعبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشي، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: القرآن، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: التوراة والإنجيل، ﴿خَاشِعِينَ﴾: حال من ضمير «يؤمن» مُراعى فيه معنى «من» أي: مُتواضعين لله، لا يَشْتَرُونَ بآياتِ الله التي عندهم في التوراة والإنجيل من نعت النبي ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الدنيا بأن يكتموها، خوفًا على الرياسة كفعل غيرهم من اليهود. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾: ثواب أعمالهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، يُؤْتَوْنَهُ مَرَّتَيْنِ كما في «القصص». ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا.

(١) أخرجه مسلم (٢٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اصْبِرُوا﴾ على الطاعات والمصائب وعن المعاصي، ﴿وصابِرُوا﴾ الكُفَّار فلا يكونوا أشدَّ صبراً منكم، ﴿ورابِطُوا﴾: أقيموا على الجهاد، ﴿واتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أحوالكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون بالجنة وتنجون من النار.

وقول المؤلف: (كعبد الله)... إلى آخره: يبين بذلك مَنْ سمي ممن نزلت فيهم هذه الآية؛ كعبد الله بن سلام، وأصحابه كانوا من اليهود، والنجاشي كان من النصارى فأسلموا فأثنى الله عليهم في هذه الآية، وغيرها^(١).

وقوله: (أي: القرآن)؛ لأنَّ: الخطاب للرسول وأصحابه. وقوله: (أي: التوراة والإنجيل): لأنهما أعظم ما أنزل على أنبياء ورسل بني إسرائيل؛ فالتوراة على موسى، والإنجيل على عيسى **عليهما السلام**. وقوله: (حال)... إلى آخره: تضمن إعراب خاشعين، فيبين أنَّ: «خاشعين» منصوب على الحال؛ قال: ومعناه خاضعين، وقوله: (مراعى فيه معنى «من»): يريد أنَّ ذكرهم بلفظ الجمع باعتبار معنى «من» في قوله: (من يؤمن).

وقوله: (التي عندهم)... إلى آخره: بيان: للمراد بآيات الله التي يبينونها ولا يكتُمونها من أجل ثمن يأخذونه، وهو عرض من الدنيا قليل؛ فالآيات آيات التوراة والإنجيل، فخالفوا طريقة اليهود في الكتمان والتحريف بآيات التوراة الدالة على بعثة النبي **ﷺ** وصفته لذلك، استحق هذا الفريق من أهل الكتاب هذا الثناء من الله تعالى.

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٣٩)، والعجاب (٢/ ٨٢٢).

وقوله: (ثواب أعمالهم): تفسير للأجر، وثواب الأعمال الصالحة سماه الله أجراً في آيات كثيرة.

وقوله: (يؤتونه)... إلى آخره: يريد أن المذكورين في هذه الآية من الذين يؤتون أجرهم مرتين لأنهم آمنوا بأنبيائهم، وما أنزل إليهم، وآمنوا بمحمد ﷺ، وما أنزل إليه، وهم المذكورون في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢]، إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤]^(١).

وقوله: (يحاسب الخلق)... إلى آخره: يُشير: إلى ما رواه الحاكم وصححه^(٢) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لا يتتصف النهار من يوم القيامة حتى يقل هؤلاء وهؤلاء»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ مَرَجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٦٨]. وقوله: (على الطاعات)... إلى آخره: يبين أن الأمر بالصبر يدخل فيه أنواع الصبر الثلاثة التي ذكرها.

وقوله: (الكُفَّار)... إلى آخره: بيان: للطرف الآخر في المصابرة؛ لأنّ المفاعلة لا بد أن تكون من فريقين أو شخصين؛ كالمجاهدة والمقاتلة، ومن ذلك المصابرة، وهو أمر للمسلمين بأن يصبروا كما يصبر أعداؤهم الكفار؛ بل حتى يكونوا أصبر منهم، وهذا هو اللائق بالمسلمين، ولا يليق أن يكون الكفار أصبر منهم كيف والمؤمنون يرجون من الله ما لا يرجوه الكفار.

وقوله: (أقيموا على الجهاد): معناه: كونوا دائماً مستعدين للجهاد لصد هجمات العدو، فلا يظفر العدو منكم بغفلة، والرباط والمرابطة: لزوم المكان الذي يخشى دخول العدو منه كالثغور، والمكان الذي يوكل إلى

(١) وأخرج البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال:

«ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين... ومؤمن أهل الكتاب الذي كان مؤمناً ثم آمن بالنبي ﷺ»
فله أجران...».

(٢) برقم (٣٥١٦).



الإنسان حفظه، ومن الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة كما جاء في الحديث الصحيح.

وقوله: (في جميع أحوالكم): يبين أنَّ التقوى مطلوبة في جميع الأحوال؛ لأنَّ الأمر بها مطلق.

وقوله: (تفوزون)... إلى آخره: بيان: لحقيقة الفلاح، وأنه الظفر بالمطلوب، والسلامة من المرهوب، وأعظم ذلك دخول الجنة، والنجاة من النار، وذلك هو الفوز العظيم.



سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطِّيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء: ١-٢].

هذا خطاب من الله لجميع الناس يأمرهم بتقواه التي رأسها عبادة الله وحده لا شريك له، ويذكرهم بربوبيته وخلقه لهم من نفس واحدة، وهو آدم أبونا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخلق زوجها منها، وهي: أمنا حواء، وأنه أنشأنا من بينهما رجالاً كثيراً ونساءً، ونشرهم على ظهر الأرض، ثم أمرهم بتقوى الله تأكيداً للأمر قبله، وذكرهم بتعظيمهم إياه إذ يتساءلون به، ومن التقوى اتقاء قطيعة الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾؛ أي: اتقوا الأرحام أن تقطعوها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾؛ أي: شهيداً مطلعاً على أعمالكم مراقباً لكم؛ فأعمالكم محصاة عليكم، وستجزون بها، وافتتاح السورة بهذه الآية في غاية المناسبة لما تضمنته السورة من الأحكام المتعلقة بشأن الرجال والنساء؛ كأحكام الموارث، وأحكام النكاح، كما تضمنت السورة التنويه بوصية الله الأولين والآخرين بالتقوى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، ووردت الوصية بالتقوى في أول آية مرتين؛ فالآية كالمقدمة للسورة، وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾، أمر من الله بإعطاء اليتامى أموالهم التي ملكوها بالإرث أو غيره، والإيتاء الذي أمر الله به يشمل: دفعها إليهم إذا بلغوا ورشدوا، وحفظها قبل ذلك بترك العدوان عليها، والتفريط فيها، وحفظها

قبل رشدكم وسيلة إلى دفعها إليهم بعد البلوغ والرشد، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولهذا فُسر الإيتاء في الآية بالمعنيين بدفعها وبحفظها^(١).
 وقوله: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَيْثَ بِالطَّيِّبِ﴾: فُسرًا: بالحرام والحلال؛ أي: لا تبدلوا الحرام، وهو ما تأخذونه من أموال اليتامى بالحلال من أموالكم التي أعطاكم الله؛ أي: استغنوا بالحلال عن الحرام، وفُسرًا: بالجيد والرديء؛ أي: لا تبدلوا الرديء من أموالكم بالجيد من أموال اليتامى فتأخذ الجيد، وتضع الرديء مكانه، ورجح ذلك ابن جرير، ورواه عن جمع من السلف^(٢).
 وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾: أي: لا تأكلوا أموال اليتامى بأن تضموها إلى أموالكم فتتصرفوا فيها في مصالحكم كما تتصرفوا في أموالكم، فبذلك تذهب أموال اليتامى فلا يجدونها إذا استحقوا دفعها إليهم.
 وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا﴾^(٣)؛ أي: إن أكلها كان إثمًا عظيمًا؛ فالضمير المنصوب بعد «إِنَّ» يعود إلى الأكل المفهوم من تأكلوا؛ كقوله: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]؛ أي: عدلكم أقرب.

سُورَةُ النَّبَاِ

مدنية، وهي مائة وخمسة أو ست أو سبع وسبعون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي أهل مكة، ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: عقابه بأن تُطيعوه، ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: آدم، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: حواء بالمد، من ضلع من أضلاعه اليسرى، ﴿وَبَثَّ﴾: فرق ونشر ﴿مِنْهُمَا﴾ من آدم وحواء ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ كثيرة، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾

(١) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٥٤).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٥١).

الَّذِي تَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ - فيه إدغام التاء في الأصل في السين، وفي قراءة بالتخفيف بحذفها - أي: تتساءلون ﴿بِهِ﴾ فيما بينكم، حيث يقول بعضكم لبعض: أسألك بالله وأنشدك بالله، ﴿و﴾ اتقوا ﴿الْأَرْحَامَ﴾ أن تقطعوها. وفي قراءة بالجر عطفًا على الضمير في ﴿بِهِ﴾. وكانوا يتناشدون بالرحم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: حافظًا لأعمالكم فيجازيكم بها، أي: لم يزل متصفاً بذلك.

ونزل في يтим، طلبَ من وليه ماله فمنعه: ﴿وَأْتُوا الْيَتَامَى﴾ الصَّغَارَ الْأُكْلَى لَا أَبَ لَهُمْ ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ إذا بلغوا، ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ﴾: الحرام ﴿بِالطَّيِّبِ﴾: الحلال، أي: تأخذه بدله كما تفعلون، من أخذ الجيد من مال اليتيم، وجعل الرديء من مالكم مكانه، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ﴾ مضمومة ﴿إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ - إِنَّهُ ﴿أَي﴾ أَكَلَهَا ﴿كَانَ حُوبًا﴾: ذنبًا ﴿كَبِيرًا﴾: عظيمًا.

وقول المؤلف: (سورة النساء ...) إلى آخره: أما قوله: (مدنية): فلا خلاف في ذلك، وأما عد آياتها فذكر فيه ثلاثة أقوال، والأمر في هذا سهل. وقوله: (أهل مكة): تفسير: المؤلف «الناس» في هذه الآية بأهل مكة غريب كل الغرابة؛ لأنَّ السورة مدنية؛ فكيف يكون الخطاب فيها لأهل مكة!! والصواب: أن المراد جميع الناس. وقوله: (أي: عقابه بأن تُطيعوه): لو قال المؤلف - عفا الله عنه - سخطه وعقابه كان أبعد عن المجاز، وقوله: (بأن تُطيعوه) بيان لما تحصل به التقوى.

وقوله: (آدم): هذا: اسم الإنسان الأول الذي خلقه الله من طين، وأمر الملائكة بالسجود له، وعلمه أسماء كل شيء، وهو أبو جميع البشر، ولهذا سماهم الله بني آدم، وقال ﷺ: «كلكم لأدم، وآدم من تراب»^(١).
 وقوله: (حواء...) إلى آخره: هذا اسم أول امرأة خلقها الله، وهي: زوج آدم التي خلقها منه، وأسكنها معه الجنة؛ فهي أم جميع بني آدم، وأما اسمها؛ فلم يُذكر في القرآن، ولكن ذكر في السنة في قوله ﷺ: «لولا حواء لم تكن أنثى زوجها»^(٢)، وذكر اسمها أيضًا في كثير من الروايات الإسرائيلية في قصة أكل آدم وزوجه من الشجرة، ولا خلاف في أن اسم امرأة آدم حواء؛ قيل: سميت حواء؛ لأنها أم كل حي^(٣)، وفي هذا نظر، والظاهر أنه راجع إلى اللون، كما أن اسم آدم من الأدمة، كذلك حواء من الحوه، وهي: خضرة تضرب إلى سواد أو حمرة تضرب إلى سواد. قاله في القاموس^(٤)، وقوله: (بالمدة) أي: آخره همزة بعد الألف فهو من الممدود لا من المقصور، وقوله: (من ضلع من أضلاعه اليسرى): أما خلق زوج آدم منه فنص القرآن في مواضع، وأما خلقها من ضلع فدلّت عليه السنة كما في الحديث الصحيح: «إن المرأة خلقت من ضلع»^(٥)، وأما أنها من ضلعه الأيسر فقد جاء عن بعض السلف، وبعض الروايات الإسرائيلية^(٦)، فما دل

(١) أخرجه أحمد (٨٧٣٦)، (١٠٧٨٢)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، (٣٩٥٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه. وحسنه الترمذي، وقال في الموضع الآخر: «حسن صحيح». وأخرجه من طريق آخر ابن سعد في الطبقات (٩/١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (١٤٧٠) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: تفسير الماوردي (١/١٤٠).

(٤) (ص ١٢٧٧).

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) ينظر: تفسير الطبري (٦/٣٤١-٣٤٢).

عليه القرآن أو السنة الصحيحة وجب الإيمان والقطع به، وما سواهما يتوقف فيه.

وقوله: (فرّق ونشر): تفسيراً لـ «بثّ منهما»، وله شواهد من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]، وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله: (من آدم وحواء): هذا: بناء على ما تقدم من التفسير، وإلا فالضمير المثنى عائد باعتبار اللفظ إلى النفس الواحدة وزوجها.

وقوله: (كثيرة): فيه: وصف المعطوف بصفة المعطوف عليه، ويدل له فعل البث، ويقتضيه الواقع؛ فإنّ النساء كثير كالرجال أو هن أكثر. وقوله: (فيه إدغام التاء...) إلى آخره: يريد أنّ الأصل «تساءلون» بتاءين فقلبت الثانية سيناً، وأدغمت في السين في إحدى القراءتين، والقراءة الأخرى بحذف التاء الثانية، وتخفيف السين، وهي: قراءة حفص عن عاصم^(١).

وقوله: (فيما بينكم...) إلى آخره: لأنّ التساؤل يقتضي بينية؛ فإنّ المعنى يسأل بعضكم بعضاً بالله، وصفة ذلك كما قال المؤلف: أسألك بالله أو أنشدك بالله.

وقوله: (اتّقوا): يريد أنّ بعد حرف العطف فعل محذوف معطوف على اتّقوا الله؛ فيكون المعنى: اتّقوا الله، واتّقوا الأرحام أن تقطعوها؛ أي: اتّقوا قطيعة الأرحام.

وقوله: (أن تقطعوها): بيان لمفعول «اتّقوا» من حيث المعنى؛ فالمصدر المؤول أنّ تقطعوها بدل من الأرحام؛ أي: اتّقوا قطيعة الأرحام.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٥).

وقوله: (وفي قراءة ...) إلى آخره: يبين أن الأرحام فيها قراءتان^(١) بالنصب، وهي: قراءة الجمهور، وتقدم وجه الإعراب فيها، وفي قراءة أخرى بالجر عطفًا على الضمير المجرور بالباء، وضعت هذه القراءة؛ لأنَّ الأفصح ألا يعطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الخافض، وهذه القراءة تدل على أنهم كانوا يتساءلون بالأرحام؛ فيقول القائل: أسألك بالله والرحم، ولهذا قال المؤلف: (وكانوا يتناشدون بالرحم).

وقوله: (حافظًا ...) إلى آخره: يريد أن اسمه تعالى الرقيب يتضمَّن شهود أعمال العباد وإحصاءها والمجازاة عليها، ومعنى رقيب؛ أي: مراقب مطَّلِع على أعمال العباد حافظٌ لها، وذكرُ هذا المعنى تنبيه إلى المجازاة بالأعمال ثوابًا وعقابًا، فحُتِّمُ الآية بهذا الاسم يتضمن الوعد والوعيد، وقوله: (أي: لم يزل): إشارة: إلى مكان كان في حق الله، وأنها تدل على الدوام في الماضي.

وقوله: (ونزل ...) إلى آخره: إشارة: إلى سبب نزول الآية^(٢)، ولم يذكر ابن جرير لنزولها سببًا؛ فالله أعلم.

وقوله: (الصَّغَارَ ...) إلى آخره: بيان لمعنى اليتامى؛ فاليتامى جمع يتيم، وهو مَنْ مات أبوه قبل أن يبلغ، وقوله: (الأُلَى)؛ أي: الذين.

وقوله: (إذا بلغوا): يشير: إلى أن هذه الآية مقيدة بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء: ٦]، ومعنى ذلك: أن اليتامى لا يعطون أموالهم إلا بعد البلوغ والرشد.

وقوله: (الحرام): هذا أحد معنيي الخبيث، والثاني الرديء.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٥).

(٢) ينظر: أسباب النزول (ص ١٤٢)، والعجاب (٢/ ٨٢٤).

وقوله: (الحلال...) إلى آخره: الحلال أحد معنيي الطيب، ثم أشار المؤلف إلى ما كان يفعله الناس من أخذ الجيد من مال اليتيم، ووضع الرديء من أموالهم مكانه فنزلت الآية بالنهاي عن ذلك.

وقوله: (مضمومة): يشير: إلى ما تقتضيه «إلى» من معنى: «الضم».

وقوله: (أي: أكلها): يبين مرجع الضمير في قوله: إنه، وهو المصدر المفهوم من تأكلوا.

وقوله: (ذنبا): تفسير: لحوب.

وقوله: (عظيما): تفسير: لكبير؛ أي: ذنبا عظيما فيفيد أن أكل مال اليتامى من كبائر الذنوب.



وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعٍ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾
 وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ۝٤﴾ [النساء: ٣-٤].

يرشد تعالى مَنْ كانت عنده يتيمة يحل له نكاحها كابنة عمه، ويخشى إن نكحها ألا يعدل في حقها، فلا يعطيها من المهر ما يعطيها غيره، وإذا كان كذلك فلا ينكحها، ولينكح ما طاب له من النساء من غير اليتامى اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، ففيما أباح الله من النساء غنى عن نكاح اليتيمة من غير عدل في حقوقها، ومثنى وثلاث ورباع معدول عن اثنتين اثنتين وثلاث ثلاث وأربع أربع، ومعناه: اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، وذكر هذه الألفاظ الدالة على التكرار؛ لأن الخطاب لجماعة من المؤمنين في حجورهم يتامى، يخافون ألا يقسطوا في شأنهن فلينكحوا غيرهن إن شأوا اثنتين، وإن شأوا ثلاثاً، وإن شأوا أربعاً، وهذا غاية ما أباح الله جمعه من الزوجات، فلا يحل للمسلم أن يجمع بين أكثر من أربع زوجات، ويجب عليه العدل بينهن، ومن خاف ألا يعدل بين الزوجتين أو الثلاث أو الأربع فتكفيه واحدة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾؛ أي: فتكفيكم واحدة، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أي: الإماء؛ فإنه لا يجب العدل بين السراري، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾؛ أي: ما ذكر من الأحكام أقرب إلى ألا تجوروا، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾؛ يعني: أعطوا النساء مهورهن كاملة غير منقوصة، والخطاب للأزواج والأولياء، وقوله: ﴿نِحْلَةً﴾؛ أي: عطية طيبة بها نفوسكم من غير مطل ولا أذى، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾؛ أي: طابت نفوس الزوجات عن شيء من مهورهن للأزواج أو الأولياء بأن بذلنه أو أسقطنه من غير إكراه ولا عضل ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ۝٤﴾؛ أي: فلا حرج

عليكم في أكله؛ فإنه حلال طيب، وهنيئاً مريئاً: كلمتان متقاربة المعنى؛ فهنيئاً أي: طيباً سهل الهضم، ومريئاً أي: سائغاً لا تنغيص فيه، والمقصود: أنه لا تبعة فيه ولا إثم.

ولما نزلت تحرّجوا من ولاية اليتامى، وكان فيهم من تحته العشرُ أو الثمان من الأزواج فلا يعدل بينهم، فنزل: ﴿وإن خِفْتُمْ ألا تُقْسِطُوا﴾: تعدلوا ﴿في اليتامى﴾، فتحرّجتم من أمرهم، فخافوا أيضاً ألا تعدلوا بين النساء إذا نكحتموهن، ﴿فانكحوا﴾: تزوجوا ﴿ما﴾ بمعنى: من ﴿طاب لكم من النساء، مثني وثلاث ورباع﴾ أي: اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً، ولا تزيدوا على ذلك، ﴿فإن خِفْتُمْ ألا تعدلوا﴾ فيهنّ بالنفقة والقسم ﴿فواحدة﴾ انكحوها، ﴿أو﴾ اقتصروا على ﴿ما ملكت أيمانكم﴾ من الإماء، إذ ليس لهنّ من الحقوق ما للزوجات. ﴿ذلك﴾ أي: نكاح الأربع فقط أو الواحدة أو التسري ﴿أدنى﴾: أقرب إلى ﴿ألا تعولوا﴾: تجوروا.

﴿وآتوا﴾ أعطوا ﴿النساء صدقاتهن﴾: جمع صدقة، مهرهنّ ﴿نحلة﴾: مصدر، عطية عن طيب نفس - ﴿فإن طبنّ لكم عن شيء منه نفساً﴾: تمييز محوّل عن الفاعل، أي: طابت أنفسهنّ لكم عن شيء من الصّداق فوهبته لكم ﴿فكلوه هنيئاً﴾: طيباً، ﴿مريئاً﴾: محمود العاقبة لا ضرر فيه عليكم في الآخرة. نزل ردّاً على من كره ذلك -.

وقول المؤلف: (ولما نزلت ...) إلى آخره: يعني: قوله تعالى: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾؛ يريد أنه لما نزلت هذه الآية تحرّج الصحابة من ولاية

اليتامى، فأنزل الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾، وقوله: (وكان فيهم من تحته العشر ...) إلى آخره، مقتضاه: أن الآية نزلت في العدل بين الزوجات، وقصرهم على أربع، والصواب: أن سبب نزول الآية؛ أعني قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾، ما ثبت في الصحيح^(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها نزلت في اليتيمة تكون في حجر وليها، وتكون ذات جمال ومال، فيرغب في نكاحها من غير أن يعطيها من الصداق مثل ما يعطيها غيره، فنهاها عن ذلك، وأمروا بنكاح ما طاب لهم من النساء سواهن.

وقوله: (تعِدِلوا): بيان لمعنى الإقساط بأنه العدل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقوله: (فترجتم ...) إلى آخره: في هذا التقدير نظر؛ بل الصواب: إن تخرجتم فانكحوا ما طاب لكم سواهن، كما يفيد حديث عائشة المتقدم، والعدل بين الزوجات سيأتي في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

وقوله: (تزوجوا): يبين أن المراد بالنكاح؛ العقد. وقوله: (بمعنى: مَنْ): يريد أن ما في قوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾؛ بمعنى: «مَنْ» التي للعاقل؛ لأنَّ «ما» عبارة عن النساء، وهن: من جنس العقلاء؛ فالتقدير: انكحوا من طاب لكم من النساء، وعبر عنهن بـ«ما»؛ لأنَّ المراد الأوصاف الداعية إلى النكاح.

وقوله: (اثنتين اثنتين ...) إلى آخره: يبين أن مثني وثلاث ورباع معدولة عن اثنتين وثلاث وأربع لتفيد التكرار؛ كما يقال جاء القوم مثني؛ أي: جاؤوا اثنين اثنين، ومثله ثلاث ورباع، وكذلك فرادى وأحاد؛ أي: جاؤوا واحداً واحداً؛ كما قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خَمْسَةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقول

(١) أخرجه البخاري (٢٤٩٤)، (٢٧٦٣)، ومسلم (٣٠١٨).

المؤلف: (ولا تزيدوا على ذلك): استنباط متفق عليه من جعل غاية الإباحة أربع، فلا يحل جمع أكثر من أربع زوجات، فمن نكح خامسة فنكاحه باطل.

وقوله: (فيهنّ بالنفقة والقسم): بيان لمتعلق العدل بين الزوجات.

وقوله: (انكحوها): بيان للعامل في واحدة.

وقوله: (اقتصروا على): بيان للمخرج الثاني مما يحصل به الأمن من عدم العدل، وهو أمران: الاقتصار على واحدة، أو الاقتصار على ملك اليمين.

وقوله: (من الإماء...) إلى آخره: بيان للمراد بما ملكت أيما نكح، وهن: الإماء، وبيان لسبب أن الاقتصار عليهن يؤمن به من عدم العدل، وهو أنه لا يجب لهن من الحقوق ما يجب للزوجات.

وقوله: (أي: نكاح الأربع^(١)...) إلى آخره: في نسخة: (الأربعة) وهو خطأ، ومراد المؤلف أن اسم الإشارة يعود إلى الأمور الثلاثة، والصواب: أنه يعود إلى الأمرين الأخيرين، وهما: نكاح الواحدة والتسري، وذكر الأربع في مرجع اسم الإشارة خطأ ظاهر؛ لأن نكاح أربع مظنة لعدم العدل.

وقوله: (أقرب إلى): بيان لمعنى أدنى، وبيان للحرف الجار للمصدر المؤول.

وقوله: (تجوروا): بيان لمعنى العول، وأن تعول من عال يعول، إذا جار لا من عال يعيل إذا افتقر.

وقوله: (أعطوا): بيان لمعنى آتوا؛ فالإيتاء والإعطاء مترادفان.

(١) كذا في نسخة قباوة: (الأربعة)، ورجح شيخنا: (الأربع)، وهو المثبت في طبعة «دار ابن كثير».

وقوله: (مُهِورَهْنَ): تفسير: صدقات؛ لأنَّ من أسماء المهر الصدقة؛ بضم الدال، وجمعه صدقات، ويقال: للمهر أجر، وجمعه أجور؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، والصدقة: لغة في الصداق.

وقوله: (مصدر...) إلى آخره: يبين أنَّ «نحلة» مصدر من نحله ينحله نحلة؛ أي: أعطاه عطية، وقوله: (عن طيب نفس): بيان لما تشعر به هذه الكلمة من السماحة في العطاء، وقال كثير من المفسرين؛ نحلة: فريضة^(١)، وهذا حكم لا يفيد لفظ النحلة، وإنما يفيد الأمر في قوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤].

وقوله: (تمييزٌ محوّل عن الفاعل...) إلى آخره: أوضح المؤلف: تحويل التمييز عن الفاعل بالتقدير الذي ذكره (طابت أنفسهن لكم) المعنى: وهبن لكم شيئاً من الصداق عن طيب نفس؛ لا عن إكراه ولا عضل، ولا إلحاف في سؤالهن شيئاً منه؛ بل عن اختيار تام.

وقوله: (طيباً)؛ أي: لذيذاً نافعاً، وحلالاً.

وقوله: (محمود العاقبة...) إلى آخره؛ أي: غير مؤذي للمعدة، ولا موجب لعقاب في الآخرة.

وقوله: (نزل رداً...) إلى آخره: يشير: إلى سبب النزول؛ كما جاء في بعض الروايات^(٢).



(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٨٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٦١).

(٢) ينظر: العجائب (٢/ ٨٣٠).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وَابْتَلُوا الَّتِي تَمَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِظْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ [النساء: ٥-٦].

السفه ضد الرشد، والرشد في الدين الاستقامة، وفي المال حسن التدبير والتصرف، والآية نهى عن وضع الأموال في أيدي السفهاء لأنهم يفسدونها بسوء تصرفهم بسبب جهلهم، وأصل السفه: ضعف العقل، وفسر السفهاء بالصغار كالصبيان، وبالنساء^(١)، ولهذا أخذ العلماء أن المرأة الغير رشيدة لا يدفع إليها صداقها، وكذلك اليتامى حتى يبلغوا ويرشدوا، وعلى هذا تكون الآية مخصصة لقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الَّتِي تَمَى أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢]، وقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾ [النساء: ٤]، وقوله: ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾، يعم جميع الأموال، ويدخل فيه أموال اليتامى، وصدقات النساء، وأضاف الأموال إلى المخاطبين؛ لأنَّ جنس المال قوام لمصالح الأمة من الرجال والنساء، والصغار والكبار، وقوله تعالى: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾؛ يعني: اتَّجَرُوا في أموال اليتامى ليحصل لهم من الربح ما يكفيهم في حوائجهم، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾، ولم يقل منها، فجعل الأموال «ظرفاً» لرزقهم، وهذا من بلاغة القرآن، وقد جاء في الحديث: «مَنْ وَلِيَ مَالَ يَتِيمٍ فَلْيَتَجَرَّ لَهُ، وَلَا يَتْرَكْهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ»^(٢)، وقوله: ﴿وَاكْسُوهُمْ﴾ عطف الكسوة على الرزق

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/٣٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٦٤١)، والدارقطني (١٩٧٠)، والبيهقي (١١٠٨٥) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما بنحوه، وقال الترمذي: «وإنما روي هذا الحديث من هذا الوجه، وفي إسناده مقال؛ لأن المثنى بن الصباح يُضَعَّف في الحديث. وروى بعضهم هذا الحديث عن عمرو بن شعيب أن عمر بن الخطاب: فذكر هذا الحديث»، وسأل مهنا الإمام =

من عطف الخاص على العام، وهو يفيد أنَّ الرزق أخص بالطعام والشراب؛ لأنَّ الضرورة إليهما أعظم، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ أي: قولوا للسفهاء من اليتامى والقاصرين ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ أي: كلامًا حسنًا لينًا يدخل السرور عليهم، ويطيب نفوسهم؛ مثل: أبشروا؛ فلا مَطل ولا عتاب ولا منٍّ.

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى﴾؛ أي: اختبروا اليتامى بتمكينهم من التصرف بشيء من المال لمعرفة رشدهم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾؛ أي: صاروا بالغين فخرجوا عن اسم اليتيم، والبلوغ عند العلماء يعرف بعلامات؛ منها: الاحتلام، ومنها: إنبات الشعر الخشن حول القبل، ومنها: بلوغ خمس عشرة سنة على خلاف في سن البلوغ، وهذه العلامات الثلاث مشتركة بين الذكر والأنثى، وتزيد الأنثى الحيض فإذا حاضت حكم ببلوغها^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَرْتُم مِّنْهُم رُّشْدًا﴾؛ أي: علمتم منهم حسن تصرف في المال.

وقوله: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾؛ أي: سلموها لهم غير متوانين في ذلك، وشرط في وجوب دفع أموالهم إليهم؛ شرطين: البلوغ، وإيناس الرشد.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا﴾؛ وهذا: النهي تأكيد لما سبق في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله: ﴿إِسْرَافًا﴾؛ أي: مسرفين، وهي حال لازمة؛ فالأكل من مال اليتيم إسرافٌ قل أو كثر، وقوله: ﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا﴾؛ أي: مبادرين كبرهم، ومعناه: مبادرين إلى الأكل منها قبل أن يكبروا فيجب دفعها إليهم.

= أحمد عن هذا الحديث، فقال: «ليس بصحيح، هذا يرويه المشنى بن الصباح عن عمرو»، وينظر: البدر المنير (٥/ ٤٦٥)، والإرواء (٧٨٨).

(١) ينظر: المغني (٥٩٧/٦).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾؛ أي: مَنْ كان من أولياء اليتامى غنيًّا فليستعفف عن أموالهم، ولا يأكل منها شيئًا.

وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: مَنْ كان من أولياء اليتامى فقيرًا فليأكل بالمعروف، وهذا أمر إباحة؛ أي: فيباح له من أموال اليتامى القدر المعروف شرعًا مما لا ظلم فيه بوجه؛ قال العلماء^(١): وهو الأقل من كفايته وأجرة المثل، فإن كانت كفايته خمسة وأجرته عشرة أخذ خمسة، وكذا لو كان الأمر بالعكس.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾؛ أمر بالإشهاد على دفع أموالهم إليهم، والأمر للوجوب، وفيه قطع لما يخشى منه من النزاع والاختلاف.

وقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسيبًا﴾^(٢)؛ أي: كفى الله محاسبًا للعباد فليتوكل اليتيم على ربه، وليحذر الولي الحساب والعقاب.

﴿وَلَا تُؤْتُوا﴾، أيها الأولياء، ﴿السُّفَهَاءَ﴾: المُبَذِّرِينَ، من الرجال والنساء والصبيان، ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: أموالهم التي في أيديكم، ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾: مصدر: قام، أي: تقوم بمعاشكم وصلاح أودكم، فيضيعونها في غير وجهها - وفي قراءة: «قِيمًا» جمع قِيمة: ما يُقَوَّم به الأمتعة - ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أي: أطعموهم منها، ﴿وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: عدوهم عدة جميلة بإعطائهم أموالهم، إذا رَشَدُوا.

﴿وَابْتَلُوا﴾: اختبروا ﴿الْيَتَامَى﴾ قبل البلوغ، في دينهم وتصرفهم في أموالهم - ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أي: صاروا أهلاً له بالاحتلام أو السن، وهو استكمال خمس عشرة سنة عند الشافعي، ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ﴾:

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/٢١٦).

أَبْصَرْتُمْ ﴿مِنْهُمْ رُشْدًا﴾: صلاحًا في دينهم ومالهم ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ - وَلَا تَأْكُلُوهَا﴾، أيها الأولياء، ﴿إِسْرَافًا﴾: بغير حق، حال ﴿وَبِدَارًا﴾ أي: مبادرين إلى إنفاقها مخافة ﴿أَنْ يَكْبُرُوا﴾ رُشْدَاءً، فيلزمكم تسليمها إليهم، ﴿وَمَنْ كَانَ﴾ من الأولياء ﴿غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِفِفْ﴾ أي: يَعِفَّ عن مال اليتيم ويمتنع من أكله، ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ﴾ منه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر أُجرة عمله، ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى اليتامى ﴿أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ أنهم تسلموها وبرئتم، لئلا يقع اختلاف فترجعوا إلى البيّنة. وهذا أمرٌ إرشاد. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ -الباء: زائدة- ﴿حَسِيبًا﴾: حافظًا لأعمال خلقه ومُحاسبهم!

وقول المؤلف: (أيها الأولياء): بيان للمخاطبين بهذا النهي.
وقوله: (المُبَدِّرِينَ...) إلى آخره: بيان للمعنى العام للسفهاء مع ذكر أنواعهم.

وقوله: (أي: أموالهم التي في أيديكم): خص الأموال بأموال السفهاء من اليتامى والنساء؛ لأنَّ سياق الآيات فيهم، وفي أموالهم، والصواب: أنَّ لفظ الأموال عام في أموال الأولياء، وأموال السفهاء.

وقوله: (مصدر: قام...) إلى آخره: بيان لنوع قيامًا؛ فقال: إنها مصدر، وبيان لمعناها في هذا السياق، وهو أنها تقوم بها المعاش، وتقوم بها السلع، وقوله: (فيُضَيِّعُوهَا في غير وجهها): بيان لما يترتب على إيتاء السفهاء الأموال، ثم ذكر القراءة الأخرى: قِيمًا^(١)، وبَيَّن معناها، وهو أنه تقوم بها الأشياء.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٥).

وقوله: (أي: أطعموهم منها): فسر: الرزق بالإطعام؛ لأنه أهم حوائج الإنسان، والمنافع التي يطلبها، والرزق يعم الطعام والشراب والكسوة، وغيرها من المنافع، وقوله: (منها) جعل «في» بمعنى: «من»، وأغفل القول بأنها للظرفية إشارة إلى الإتجار بها، ورزقهم من ربحها.

وقوله: (عِدُّوهم عدةً...) إلى آخره: هذا من القول المعروف، وهو وعد اليتامى بدفع أموالهم إليهم إذا رشدوا فإن ذلك يسليهم، ويدخل السرور عليهم.

وقوله: (اختبروا): هذا هو المعنى العام للابتلاء، والمقصود: من هذا الاختبار معرفة حالهم في دينهم، وتصرفهم بالمال قبل البلوغ؛ كما يدل عليه قوله: ﴿الْيَتَامَى﴾.

وقوله: (أي: صاروا أهلاً له...) إلى آخره: بيان لمعنى بلوغ النكاح، وهو التأهل له لا حقيقته، وذلك يكون بالبلوغ، وللبلوغ علامات منها: الاحتلام، وبلوغ خمس عشرة سنة.

وقوله: (أبصرتم): هذا كقوله تعالى عن موسى: ﴿أَنْتَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [الفصل: ٢٩]، والمقصود: علمتم رشدهم بحسن تصرفهم.

وقوله: (صلاًحاً في دينهم ومالهم): بيان أن الرشد والرشاد هو الصلاح ضد الفساد.

وقوله: (أيها الأولياء): بيان للمخاطب بهذا الأمر في قوله: ﴿ادْفَعُوا﴾ وأنهم أولياء اليتامى.

وقوله: (بغير حق): بيان أن الإسراف هو الأكل من مال اليتامى بغير حق؛ يقول: وإسرافاً؛ منصوب على الحال.

وقوله: (أي: مبادرين...) إلى آخره: يريد أن الأولياء يسارعون إلى إنفاقها في مصالحهم خوفاً أن يكبروا اليتامى فيأخذوها.



وقوله: (رُشْدَاءٌ...) إلى آخره: يريد أنَّ المعنى قبل أن يصير اليتامى أهلاً لتسليم أموالهم لهم فيجب دفعها إليهم.

وقوله: (من الأولياء): بيان للمراد بالموصول «من».

وقوله: (أَيَّ يَعْفُ...) إلى آخره: معناه أنَّ على الغني ألا يأكل شيئاً من مال اليتيم.

وقوله: (بِقَدْرِ أُجْرَةِ عَمَلِهِ): بيان للمراد بالأكل بالمعروف، وهو أنَّ الولي الفقير له أن يأكل من مال اليتيم بقدر أُجرة عمله.

وقوله: (إِلَى الْيَتَامَى): بيان للمراد بالضمير المجرور إليهم.

وقوله: (أَنَّهُمْ تَسَلَّمُوْهَا...) إلى آخره: بيان للمشهود عليه، وهو: تسلمهم أموالهم، والحكمة في ذلك قطع النزاع لو جحد اليتامى قبضهم لأموالهم، ولا يقطع النزاع مثل البينة، وهم الشهود.

وقوله: (الْبَاءُ: زَائِدَةٌ...) إلى آخره: بيان لنوع الباء، وهو أنها صلة لتأكيد معنى الجملة، وفسر المؤلف: الحسيب؛ بالحافظ لأعمال عباده، والمحاسب لهم عليها.



وقوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ٧ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٨ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ٩ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠﴾ [النساء: ٧-١٠].

في هذه الآية حكم من الله بأن للرجال وللنساء نصيباً مما تركه من مات من والديهم وأقربائهم، وهذا إجمال لحكم الميراث بين الأقارب فصله الله في آيات الميراث من هذه السورة، وفي هذا إبطال لعرف أهل الجاهلية، وهو حرمان النساء والصغار من الميراث، وقوله: ﴿قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾؛ معناه: أن الميراث مستحق من قليل التركة وكثيرها، وقوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ٧؛ أي: حظاً مقدراً واجباً، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾؛ أي: قسمة التركة بين الورثة أحد من ذوي القرابة أو من يتامى أو من المساكين، وقوله: ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾؛ أي: أعطوهم من ذلك المال المقسوم شيئاً ينتفعون به طعاماً كان أو غيره، وقوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ٨؛ أي: قولاً حسناً كالعدة، والاعتذار عن التقصير في حقهم، وتلطفوا معهم في القول مما يطيب نفوسهم، والخطاب إذن للورثة المقتسمين لمال التركة، وهذا الأمر قيل للوجوب، والآية محكمة، وقيل: منسوخة بآية المواريث، والصواب: أنها محكمة، وأنها نازلة بعد آيات الميراث يدل لذلك قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾؛ أي: قسمة التركة بين الوارثين، وقيل: الأمر للاستحباب لأنه داخل في حسن الخلق^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ

(١) ينظر: الناسخ والمنسوخ لأبي بكر بن العربي (١٤٦/٢)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص ١٠٥).

خَلْفَهُمْ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا؛ أي: فليخش هؤلاء ربهم، والمعنيون بهذه الآية؛ قيل: هم الذين يحضرون عند مَنْ يريد الوصية أمروا بأن يسددوهم ويرشدوهم إلى ما ينفع ورثتهم، وينهوهم عن الجور في الوصية كما يحبون أن يفعل معهم ذلك، **﴿لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا﴾**، يخافون عليهم الضيعة، وقيل: المعنيون بالآية أولياء اليتامى، أمروا بأن يحسنوا باليتامى بحفظ أموالهم، وحسن تربيتهم، والرحمة لهم كما يحب أن يفعل بذريتهم لو تركوا ذرية ضعافاً^(١)، واختار ابن كثير^(٢) هذا القول وأيده باتصال الآية التالية في وعيد آكلي أموال اليتامى؛ ثم أمرهم الله أن يتقوه، ويقولوا قولاً سديداً؛ فقال تعالى: **﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾**، والقول السديد هو الذي لا فحش فيه ولا بداء ولا اعتداء، بل نصح وإرشاد إلى الصواب في أمر الوصية وأمر اليتامى.

وقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾**، تهديد ووعيد شديد للذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً بغير حق من الأولياء وغيرهم. وقوله: **﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾**، سمي ما يأكلونه من أموال اليتامى ناراً، لأنه سبب دخول النار، وشبه المأكول الحرام بالنار التي تأكل فتصير إلى البطون، فهو إما مجاز مرسل أو استعارة، وفي هذا غاية التنفير والتحذير؛ ثم أكدته تعالى بقوله: **﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾**^(٣)؛ أي: ناراً مستعرة تحرق ما فيها، وما حولها. فدلّت الآية على أن: أكل مال اليتيم من كبائر الذنوب كما جاء في الحديث: **«اجتنبوا السبع الموبقات»**^(٣) وعدّها من أكل مال اليتيم.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/٦٤٦)، وزاد المسير (١/٣٧٦).

(٢) (٢/٢٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونزل ردًّا لما كان عليه الجاهلية، من عدم توريث النساء والصغار: ﴿لِلرِّجَالِ﴾ الأولاد والأقرباء ﴿نَصِيبٌ﴾: حظٌ، ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ المتوفون، ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ أي: المال ﴿أَوْ كَثُرَ﴾، جعله الله ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾: مقطوعًا بتسليمه إليهم، ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ للميراث ﴿أُولُوا الْقُرْبَى﴾: ذوو القرابة ممن لا يرث، ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾، فازرُقوهم منه ﴿شَيْئًا قَبْلَ الْقِسْمَةِ﴾، ﴿وَقُولُوا﴾ -أيها الأولياء- ﴿لَهُمْ﴾ إذا كان الورثة صغارًا ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: جميلًا، بأن تعتذروا إليهم أنكم لا تملكونه وأنه لصغار. وهذا قيل: إنه منسوخ، وقيل: لا ولكن تهاون الناس في تركه. وعليه فهو ندب، وعن ابن عباس: واجب.

﴿وَلْيَخْشَ﴾، أي: ليخف على اليتامى، ﴿الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا﴾ أي: قاربوا أن يتركوا، ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: بعد موتهم، ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾: أولادًا صغارًا ﴿خَافُوا عَلَيْهِمُ﴾ الضياع، ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أمر اليتامى، وليأتوا إليهم ما يحبون أن يفعل بذريتهم من بعدهم، ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ للميت ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾: صوابًا، بأن يأمره أن يتصدق بدون ثلثه، ويدع الباقي لورثته ولا يتركهم عالة. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ أي: بغير حق ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ أي: ملأها ﴿نَارًا﴾، لأنه يؤول إليها، ﴿وَسَيَصْلُونَ﴾، بالبناء للفاعل والمفعول: يدخلون ﴿سَعِيرًا﴾: نارًا شديدة يحترقون فيها.

وقول المؤلف: (ونزل ردًّا...) إلى آخره: يشير إلى سبب نزول الآية، وهو إبطال عرف الجاهلية في الميراث^(١).

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٤٣)، والعجاب (٢/ ٨٤٣).

وقوله: (الأولاد والأقرباء): يريد أن الآية عامة في كل من يرث بالقربة من الرجال والنساء؛ كالأبناء والبنات والآباء والأمهات والإخوة والأخوات. وقوله: (حظّ)؛ أي: شيء من التركة ينتفعون به. وقوله: (المتوفّون): بيان للمورثين المورثين، وهم: من مات من الوالدين والأقارب.

وقوله: (أي: المال): يريد المال المتروك. وقوله: (جعله الله)؛ معناه: جعل الله النصيب المستحق من قليل المال وكثيره.

وقوله: (مقطوعًا بتسليمه إليهم): تفسير: لـ: ﴿مَفْرُوضًا﴾؛ لأن أصل معنى: الفرض الحز والقطع^(١)، ونصيب الوارث يقطع من التركة، ويسلم لمستحقه.

وقوله: (للميراث): بيان للمقسوم، وهي: التركة الموروثة. وقوله: (ذوو القربة ممن لا يرث): يبين أن المراد بأولي القربى القربة غير الوارثين.

وقوله: (شيئًا): تقدير: للمفعول الثاني لقوله: ﴿فَارْزُقُوهُمْ﴾؛ فإن «رزق» يتعدى إلى مفعولين.

وقوله: (قبل القسمة): لأنه بعد القسمة يختص كل وارث بنصيبه، فلا يمكن أحدًا التصديق منه إلا صاحبه.

وقوله: (أيها الأولياء): بيان للمخاطب إذا كان الورثة صغارًا في قوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، وهو الاعتذار إليهم بأن المال ليس لهم؛ بل لليتامى أو القصر.

وقوله: (وهذا قيل: إنه منسوخ ...): إلى آخره: يريد أن الأمر برزق من حضر قسمة التركة مختلف فيه، فقيل: إنه منسوخ، فلا يكون واجبًا لكن

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/٤٨٨).

يكون مستحباً، وقيل: إنَّ الآية مُحكمة أي: ليست منسوخة، فيكون الرزق واجباً، وهذا هو ما جاء عن ابن عباس^(١) وهو الصواب، لأنَّ الحكم بالنسخ يحتاج إلى دليل، وعلى هذا فالرزق واجب، ومعلوم أنَّ التركة ملك الورثة فعند قسمتها يتصدق على مَنْ حضرَ من غير الورثة بالشئ اليسير الذي تجري العادة بالسماح به.

وقوله: (لِيَخْفَ عَلَى الْيَتَامَى): هذا: يقتضي أنَّ المعني بهذه الآية عند المؤلف أولياء اليتامى أمراً لهم بالإشفاق عليهم، كما يحبون أن يفعل بذريتهم لو ماتوا وتركوا ذرية ضعافاً فإنهم يخافون عليهم.

وقوله: (أَي: قاربوا أن يتركوا): تأول: الترك بالمقاربة؛ لأنَّ الترك حقيقة إنما يكون بالموت، والميت لا يخاف، لكن مَنْ قارب الموت كالمحتضر هو الذي يذكر ذريته فيخاف عليهم.

وقوله: (أَي: بعد موتهم)؛ لأنه يعبر عما يتركه الإنسان بعد موته بأنه خلفه، ولهذا يقال: خلفه، مثل مَنْ وَلَّى؛ فإنه يترك غيره وراء ظهره.

وقوله: (أَوْلَادًا صِغَارًا) فسر الضعاف بالصغار لأن الصغر يستلزم الضعف.

وقوله: (الضِيَاعُ): تقدير لمفعول خافوا، فالضياع هو المخوف على الذرية.

وقوله: (في أمر اليتامى ...) إلى آخره: مناسب لما سبق من أنَّ المعني بهذه الآية عند المؤلف أولياء اليتامى، وأنَّ الواجب عليهم أن يفعلوا مع اليتامى ما يحبون أن يفعل بذريتهم لو تركوا ذرية ضعافاً من الرحمة والإحسان.

وقوله: (لِلْمَيِّتِ): يريد أنَّ مَنْ حضر المحتضر، يقول له قولاً سديداً، مثل أمره بالوصية وتخفيفها مراعاةً لورثته، وفي هذا معاملة للميت بمثل ما يحب أن يعامل به إذا حضره الموت، وله ذرية ضعاف وهو يخاف عليهم من الضيعة،

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/٤٣١-٤٣٢).

فإنه يحب أن يقال له وينصح بترك الوصية أو تخفيفها من أجل الإبقاء على ذريته الضعاف، وهذا معنى قوله ﷺ: «وليات إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»^(١)، فعلم -مما تقدم- أن المؤلف راعى القولين في المعنى بالآية أهم أولياء اليتامى أو من حضر عند المحتضر، وهو يريد أن يوصي.

وقوله: (صوابًا...) إلى آخره: تفسير: للقول السديد بالصواب، والصواب ما وافق الحق، ومثل له بإرشاد الموصي إلى تخفيف الوصية، والترك لذريته ليغنيهم عن الحاجة إلى ما عند الناس.

وقوله: (أي: بغير حق): تفسير للظلم، ومعنى: «بغير حق»؛ أي: بغير مسوغ شرعي كدين للولي على الميت، أو أجرة عمل عمله لصالح اليتيم.

وقوله: (أي: ملاًها): يقال: أكل بطنه أو في بطنه؛ بمعنى: أكل ملء بطنه.

وقوله: (لأنه يؤول إليها): يريد أنه سمي ما يأكلونه ناراً لأنه يصير ناراً

يوم القيامة فهو نار باعتبار ما يكون، فيكون من المجاز المرسل، وقد يقال: سماه ناراً؛ لأنه سبب لأكله النار فعلاقة المجاز المسببة.

وقوله: (بالبناء للفاعل والمفعول: يدخلون): يريد أنه قُري بفتح

الياء، وضمها: «يصلون، ويُصلون»^(٢) ثم فسّر يصلون بـ«يدخلون» بضم الخاء أو فتحها.

وقوله: (ناراً شديدة يحترقون فيها)؛ لأن: النار المستعرة لا بد أن تكون

شديدة، ولا بد أن تحرق ما دخل فيها.



(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

(٢) ينظر: المبسوط (ص ١٧٦).

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١﴾ [النساء: ١١].

قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ﴾؛ أي: يعهد إليكم، ويأمركم في أمر ميراث أولادكم بما بينه تعالى في هذه الآية، فإن كان الأولاد ذكورا وإناثا، وأقلهم ذكرا وأنثى؛ فالذكر مثل حظ الأنثيين، وإن كان الأولاد جماعة من النساء أكثر من اثنتين فلهن ثلثا ما ترك الميت، فإن لم يكن من الأولاد إلا بنتا واحدة فلها نصف ما ترك؛ ثم بين تعالى ميراث الأبوين مع الأولاد؛ فقال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾؛ أي: لأبوي المتوفى لكل واحد منهما السدس، ﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ أي: إن كان للميت ولد -ذكرا أو أنثى واحدا أو أكثر-، فإن لم يكن له ولد، ولم يرثه إلا أبواه فللأم الثلث؛ ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾؛ أي: مع الأبوين أو مع الأم فقط، فللأم السدس؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾، ثم قال تعالى بعد تفصيل ميراث الأولاد والأبوين: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾؛ أي: ما تقدم من أنصاء الورثة، إنما تستحق بعد قضاء الدين الذي على الميت، وتنفيذ وصية الميت، وقدم الوصية على الدين لوجوه:

أحدها: أن الوصية الأصل أنه يقصد بها القرية.

الثاني: أن الدين من حقوق العباد، وهي: مبنية على المشاحة، والوصية مظنة التساهل فيها.

الثالث: أن الدين يطالب به أصحابه بخلاف الوصية.

وقوله تعالى: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾؛
معناه: أن الله تعالى تولّى قسمة ميراث الأولاد والأبوين، ولم يكل ذلك
إليكم لأنكم لا تعلمون أيهم أولى بالميراث، ولكنه تعالى أعلم.
وقوله: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، مصدر مؤكّد لفعل محذوف تقديره: فرض
الله هذه الأحكام فريضة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: تنبيه على كمال هذه
الأحكام، وتضمنها للحكمة؛ لأنها شرع من لم يزل كامل العلم، وكامل
الحكمة، فلا بد أن تكون غاية في الحسن والكمال لمطابقتها ما تقتضيه
الفطر والعقول.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾: يأمركم ﴿اللَّهُ﴾، في شأن ﴿أَوْلَادِكُمْ﴾ بما يُذكر.
﴿لِلذَّكَرِ﴾ منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ﴾: نصيب ﴿الْأُنثَيْنِ﴾، إذا اجتمعتا معه فله
نصفُ المال ولهما النصفُ. فإن كان معه واحدةٌ فلها الثلثُ وله الثلثان،
وإن انفردَ حازَ المالَ. ﴿فَإِنْ كُنَّ﴾ أي: الأولادُ ﴿نِسَاءً﴾ فقط ﴿فَوْقَ﴾
اثنَينِ ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِّمَّا تَرَكَ﴾ المِيت، وكذا الاثنان لأنه للأختين بقوله
«فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ» فهما أولى، ولأنَّ البنت تستحقُّ الثلثَ مع الذكر،
فمع الأنثى أولى - و«فوق» قيل: صلة، وقيل: لدفع توهم زيادة النصيب
بزيادة العدد، لما فهم استحقاق الثنتين الثلثين من جعل الثلث للواحدة
مع الذكر - ﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ المولودة ﴿وَاحِدَةً﴾ - وفي قراءة بالرفع
«كان»: تامّة - ﴿فَلَهَا النِّصْفُ، وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: المِيت، ويُبدل منهما
﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾، إن كان له وَلَدٌ ذكر أو أنثى.
ونكتةُ البدل أفادتُ أنهما لا يشتركان فيه. وألحق بالولد ولدُ الابن،
وبالأب الجدُّ.

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ﴾ فقط أو مع زوج ﴿فَلِأُمَّه﴾
 -بضم الهمزة، وكسرها فرارًا من الانتقال من ضمة إلى كسرة لِثْقَلِهِ، في
 الموضعين- ﴿الثَّلَاثُ﴾ أي: ثلث المال أو ما يبقى بعد الزوج، والباقي
 للأب، ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ أي: اثنان فصاعدًا ذكور أو إناث ﴿فَلِأُمِّهِ
 السُّدُسُ﴾ والباقي للأب ولا شيء للإخوة، وإِثْرُ مَنْ ذَكَرَ مَا ذَكَرَ، ﴿مِنْ
 بَعْدِ﴾ تنفيذ ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِي﴾ -بالبناء للفاعل والمفعول- ﴿بِهَا أَوْ﴾
 قضاء ﴿دَيْنٍ﴾ عليه. وتقديم الوصية على الدين، وإن كانت مؤخره عنه
 في الوفاء، للاهتمام بها -﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾: مبتدأ خبره: ﴿لَا تَدْرُونَ:
 أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ في الدنيا والآخرة؟ فظانُّ أنَّ ابنه أنفع له فيعطيه
 الميراث فيكون الأب أنفع، وبالعكس. وإنما العالم بذلك الله، ففرض
 لكم الميراث -﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه، ﴿حَكِيمًا﴾:
 فيما دبره لهم، أي: لم يزل متصفًا بذلك.

وقول المؤلف: (يأمركم): تفسير: يوصيكم؛ لأن الوصية من الله أمر.
 وقوله: (شأن)؛ أي: في شأن بيان لمتعلق الوصية، وهو شأن الأولاد،
 والمراد: شأن إرثهم.
 وقوله: (بما يُذكر): بيان للموصى به، وهو كيفية ميراث الأولاد من
 قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ﴾، إلى قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا
 النِّصْفُ﴾.

وقوله: (منهم)؛ أي: من الأولاد.
 وقوله: (نصيب)؛ معناه: أن حظ الوارث من التركة هو نصيبه الذي
 جعله الله، وقد سماه الله نصيبًا في قوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
 وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾ [النساء: ٧].

وقوله: (إذا اجتمعنا معه ...) إلى آخره: تضمن: كلام المؤلف صفة قسمة التركة في ثلاث مسائل من إرث الأولاد؛ الأولى: ابن وبنت مسألتهم من ثلاثة للابن اثنان، وللبنات واحد. الثانية: ابن وبنتان مسألتهم من أربعة للابن اثنان، وللبنات اثنان لكل واحدة واحد. الثالثة: ابن فقط يكون المال كله له. وحكم المسألتين الأوليين مأخوذ من الآية: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾، وأما حكم المسألة الثالثة، وهي: إذا انفرد الابن فذليله؛ قوله ﷺ: «أَلْحَقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَلْأُولَىٰ رَجُلٌ ذَكَرٌ»^(١) يدل على أنه إذا انفرد كان المال كله له، وهذا حكم كل عاصب من الذكور.

وقوله: (أي: الأولاد)؛ أي: كان الأولاد كلهم إناثاً، ولهذا عاد عليهم ضمير جمع الإناث النون.

وقوله: (فقط)؛ أي: لا ذكر معهن.

وقوله: (الميت)؛ تقدير: لفاعل ترى.

وقوله: (وكذا الاثنتان ...) إلى آخره: يريد أن للاثنتين من البنات الثلثان كما هو بما فوق الاثنتين، ثم يذكر وجهين من القياس دليلاً على استحقاق البنيتين الثلثين؛ أحدهما: أن للأختين الثلثين فالبنتان أولى. الثاني: أن البنت تأخذ الثلث مع أخيها فمع أختها أولى.

وقوله: (و«فوق» قيل: صلة ...) إلى آخره: يذكر: ما قيل في موقع فوق في تركيب الجملة، وذكر قولين في ذلك؛ قيل: صلة؛ أي: زائدة لا تفيد معنى، وهذا ضعيف^(٢)، وقيل: لبيان أنه لا يزيد النصيب بالزيادة على اثنتين؛ فالثلثان نصيب الاثنتين، وما فوق الاثنتين^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٧٣٧) - واللفظ له -، ومسلم (١٦١٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٦).

(٣) ينظر: الكشف (٢/ ٣٤).

وقوله: (المولودة)؛ أي: إن كان الولد أنثى واحدة؛ أي: ليس معها ابن ولا بنت أخرى.

وقوله: (وفي قراءة...) إلى آخره: يشير إلى أن واحدة بالنصب، وهي: خبر كانت، قرئت بالرفع، وعليه فكانت تامة، وواحدة فاعل^(١).

وقوله: (أي: الميت): بيان للمراد بالضمير المجرور بالإضافة في قوله: ﴿وَلَا بَوِيَهٗ﴾.

وقوله: (ويُبدل منهما)؛ أي: يبدل من قوله: ﴿وَلَا بَوِيَهٗ﴾، قوله: ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا﴾، فالجار والمجرور الثاني بدل من الجار والمجرور الأول بإعادة العامل.

وقوله: (ذكر أو أنثى): يبين أن الأبوين يرث كل منهما السدس مع الولد مطلقاً؛ أي: ذكراً أو أنثى أو واحداً أو عدداً.

وقوله: (ونكتة البدل...) إلى آخره: يريد أن فائدة البدل، وهو قوله: ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ﴾، الدلالة على استقلال كل واحد منهما بالسدس، ليس المعنى أنهما يشتركان في السدسين، ولو كان هذا لتوهم تفضيل الأب على الأم. وقوله: (والحق...) إلى آخره: يبين أن الأبوين يرث كل منهما السدس مع أولاد الابن، وأن أبا الأب بمنزلة الأب عند عدمه، فيرث السدس إن كان للميت ولد أو ولد ابن.

وقوله: (فقط أو مع زوج): يبين أن معنى: «ورثه أبواه» استقلالهما بالميراث إذ لم يكن معهما وارث غيرهما، إلا أن يكون زوج أو زوجة، فإن لم يكن معهما وارث؛ فلأم الثلث بنص الآية والباقي للأب، وإن كان معهما زوج أو زوجة فلأم ثلث الباقي بعد ميراث الزوج، أو الزوجة باجتهاد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويقال لهاتين المسألتين: العمريتان^(٢).

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٦).

(٢) لأنهما وقعتا في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان هو أول من قضى فيهما بهذا القضاء، فتبعه على ذلك عثمان. وينظر: المغني (٩/ ٢٣).

وقوله: (بضمّ الهمزة...) إلى آخره: يشير أولاً إلى أنه قرئ بضم همزة أم، وقرئ بكسرهما^(١)، ويبين ثانياً سبب القراءة بكسر الهمزة، وهو التخلص من الانتقال من الضمة إلى الكسرة لثقله، وقوله: (في الموضعين) يريد قوله تعالى: ﴿فَلَأُمَّهُ الثُّلُثُ﴾، وقوله: ﴿فَلَأُمَّهُ السُّدُسُ﴾.

وقوله: (أي: ثلث المال...) إلى آخره: بيان لما تستحقه الأم في الأحوال الثلاث؛ حال انفراد الأبوين بالميراث لها ثلث المال؛ أي: ثلث التركة، وحال وجود الزوج معهما فلها ثلث الباقي، والباقي للأب في الحالين.

وقوله: (أي: اثنان...) إلى آخره: بيان لما يدل عليه لفظ الإخوة، وهو اثنان فأكثر أشقاء أو لأب أو لأم ذكوراً أو إناثاً أو منهما.

وقوله: (والباقي للأب...) إلى آخره: يريد أن الباقي بعد السدس هو نصيب الأب، ولا شيء للإخوة لوجود الأب.

وقوله: (تنفيذ)؛ أي: إخراج الوصية، وقضاء الدين.

وقوله: (بالبناء للفاعل والمفعول): يشير: إلى أنه قرئ بكسر الصاد وفتحها^(٢).

وقوله: (قضاء)؛ أي: أداء الدين، وهو معطوف على تنفيذ؛ أي: من بعد تنفيذ الوصية، وقضاء الدين.

وقوله: (عليه)؛ أي: على الميت، ومعنى الآية: أن كل ما ذكر من أنصاء الوراثين من الأولاد والأبوين؛ لا تستحق من التركة إلا بعد إنفاذ وصية الميت وقضاء دينه.

وقوله: (وتقديم الوصية...) إلى آخره: بيان لحكمة تقديم الوصية على الدين في الذكر مع أن قضاء الدين مقدم على إنفاذ الوصية حكماً

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٦).

(٢) ينظر: المبسوط (ص ١٧٦).

وعملاً؛ قال المؤلف: (للاهتمام بها)، وذلك لوجوه تقدمت الإشارة إليها، وجماعها: أنَّ الوصية مظنة التهاون بتنفيذها بخلاف الدين؛ لأنَّ له مَنْ يطالب به، وهم: الغرماء.

وقوله: (مبتدأ...) إلى آخره: إعراب للجملة المؤلفة من مبتدأ وخبر؛ فالمبتدأ ﴿أَبَاؤُكُمْ﴾، ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾: معطوف على المبتدأ، والخبر جملة ﴿لَا تَذَرُونَهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

وقوله: (في الدنيا والآخرة؟...) إلى آخره: معناه أنَّ نفع القريب لقريبه يكون في الدنيا بالبر والصلة، ويكون في الآخرة بالشفاعة، ولكن الإنسان لا يدري أي أقاربه أنفع له، فلو تولى قسمة ماله على ورثته لربما قدم بعضهم على مَنْ هو أنفع له لجهله بالأنفع، فلذا تولى الله قسمة الموارث، ولم يكلها إلى الناس، لأنه تعالى أعلم بالقريب الذي هو أنفع لقريبه، ولذا قال الله في ختام الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وقوله: (بخلقه): كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقوله: (فيما دبره...) إلى آخره: معناه أنَّ تدبيره جاري على وفق الحكمة، ومنه قسمة الموارث، وهذا يوجب الرضا بقسمته، وقول المؤلف: (أي: لم يزل متصفاً بذلك) تفسير لقوله: ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾.



وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّتُ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ

﴿١٢﴾ [النساء: ١٢].

تضمنت هذه الآية بيان ميراث الزوجين، وميراث الإخوة لأم، وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾، الخطاب للأزواج، والمعنى: أن نصيب الزوج مما تركت امرأته النصف، هذا إذا لم يكن لها ولد؛ فإن كان لها ولد ذكرًا كان أو أنثى واحدًا أو عددًا فله الربع، وذلك من بعد الوصية والدين، وقوله: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾: بيان لنصيب المرأة مما ترك زوجها، وهو الربع سواء كانت واحدة أو أكثر، هذا إذا لم يكن للزوج ولد، فإن كان له ولد ذكر أو أنثى واحد أو أكثر، فللزوجة أو الزوجات الثمن، وذلك من بعد الوصية والدين، وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً﴾؛ أي: وإن وجد رجل أو امرأة لا يورث إلا كلاله؛ أي: لا ولد له ولا والد أب أو جد، وله أخ أو أخت من أم ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾؛ أي: فلأخ السدس وللأخت السدس.

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾؛ أي: إن كانوا أكثر من أخ أو أكثر من أخت، بأن كانوا أخوين أو أختين أو أخًا وأختًا فأكثر فالثلث بينهم يشتركون فيه، ذكرهم وأنثاهم فيه سواء.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾؛ المعنى: أن نصيب الإخوة لأم لا يستحق إلا بعد إنفاذ الوصية وقضاء الدين، وقوله: ﴿يُوصَىٰ بِهَا﴾؛ أي: يوصي بها الموروث كلاله الرجل أو المرأة، وقوله: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾، حال من الموصي، وهو قيد للوصية التي يجب إنفاذها، وهو خلوها عن الضرار بالفعل أو النية؛ كالوصية للوارث أو بأكثر من الثلث أو لا يقصد القرابة في وصيته.

وقوله: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾، مصدر مؤكد لفعل محذوف؛ أي: وصاكم الله بهذه الأحكام؛ كما قال في أول الآية الأولى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾؛ أي: عليم بكل شيء، وبمن يطيعه ويعصيه، وبنيات الموصين، «حليم» لا يعاجل بالعقوبة من عصاه.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ منكم أو من غيركم، ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ - وألحق بالولد في ذلك ولد الابن بالإجماع - ﴿وَلَهُنَّ﴾ أي: الزوجات تعددن أو لا ﴿الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ منهن أو من غيرهن ﴿فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ - وولد الابن كالولد في ذلك إجماعاً - ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ﴾: صفة والخبر: ﴿كَلَالَةً﴾ أي: لا والد له ولا ولد، ﴿أَوْ امْرَأَةٌ﴾ ثورث كلاله، ﴿وَلَهُ﴾ أي: الموروث الكلاله ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: من أم - وقرأ به ابن مسعود وغيره - ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ مما ترك، ﴿فَإِنْ كَانُوا﴾ أي: الإخوة والأخوات من الأم ﴿أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾: يستوي فيه

ذَكَرَهُمْ وَأُتَاهُمْ، ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ، غَيْرِ مُضَارٍّ﴾: حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ «يُوصِي» أَي: غَيْرُ مُدْخِلٍ الضَّرَرَ عَلَى الْوَرَثَةِ، بِأَنْ يُوصِيَ بِأَكْثَرَ مِنَ الثَّلَاثِ، ﴿وَصِيَّةً﴾: مُصَدَّرٌ مُؤَكَّدٌ لـ «يُوصِيكُمْ» ﴿مِنْ اللَّهِ. وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما دَبَّرَهُ لَخْلُقَهُ مِنَ الْفَرَائِضِ، ﴿حَلِيمٌ﴾ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَمَّنْ خَالَفَهُ. وَخَصَّتِ السُّنَّةُ تَوْرِيثَ مَنْ ذُكِرَ، بِمَنْ لَيْسَ فِيهِ مَانِعٌ مِنْ قَتْلِ أَوْ اخْتِلَافِ دَيْنٍ أَوْ رِقٍّ.

وقول المؤلف: (منكم أو من غيركم): تنبيه على العموم، فشرط إرث الزوج النصف من زوجته عدم الولد، والولد يصدق على الذكر والأنثى. وقوله: (وَأَلْحَقَ...) إلى آخره: يبين أن حكم ولد الابن حكم الولد في حجب الزوج من النصف إلى الربع. وقوله: (أَي: الزوجاتِ تَعَدَّدْنَ أَوْ لَا): بيان لمرجع ضمير النسوة. وقوله: (منهنَّ أو من غيرهنَّ): بيان لعموم لفظ الولد. وقوله: (وولد الابن...) إلى آخره: يبين أن ولد الابن بمنزلة الولد في حجب الزوجة أو الزوجات عن الربع إلى الثمن. وقوله: (صفةٌ): يريد أن جملة «يورث» صفة لرجل فهي في موضع رفع.

وقوله: (والخبر: «كَلَالَةٌ»): يريد أن خبر كان هو كلاله. وقوله: (أَي: لا والد له ولا ولد): تفسير: للكلالة، وهو أصح ما قيل في تفسيرها^(١)، والمراد بالكلالة: إما المورث أو الوارث.

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ١٢١)، وتفسير الطبري (٦/ ٤٧٤).

وقوله: (تُورث كلالَةً): يريد أن المرأة موصوفة بصفة الرجل، وهو أنها موروثة كذلك.

وقوله: (الموروث الكلالَة): بيان لمفسر الضمير المجرور.
 وقوله: (أي: من أم...) إلى آخره: بيان لنوع الأخوة، فإن الأخوة ثلاثة أنواع: أخوة من أم وأب، وهم: الأشقاء، وأخوة من أب فقط، وحكمهم واحد، ويأتي صفة ميراثهم في آخر آية من هذه السورة، والنوع الثالث أخوة من أم، وهم المذكورون في هذه الآية، وصفة إرثهم إن كانوا واحداً - ذكراً أو أنثى - فله السدس، وإن كانوا أكثر من واحد فلهم الثلث يشتركون فيه، وذكرهم وأنثاهم فيه سواء؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾؛ أي: أكثر من أخ أو أخت فهم شركاء في الثلث، وكل هذا بإجماع العلماء، وقوله: (وقرأ به ابن مسعود وغيره) أي: قرؤوا: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمِّ﴾، وهذه القراءة مفسرة لقراءة الجمهور^(١)، وقرأ بها سعد بن أبي وقاص كما رواه ابن جرير بأسانيد^(٢)، ورواه جمع من المصنفين^(٣).

وقوله: (مما ترك)؛ أي: مما ترك الميت.
 وقوله: (أي: الإخوة...) إلى آخره: بيان للمراد بالواو في قوله: (كانوا)، وهم: الإخوة أو الأخوات من الأم.

(١) نسبها إليه أيضاً: العمراني في البيان في مذهب الإمام الشافعي (٩/ ٥٥)، وابن رفة في كفاية النبيه في شرح التنبيه (١٢/ ٤٩٤)، وابن حجر في الفتح (١٢/ ٤)، ونسبها لأبي بن كعب بلفظ: (وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمِّ) كما في الكشف (٢/ ٣٩)، والبحر المحيط (٣/ ٥٤٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٤٨٣).

(٣) ينظر على سبيل المثال: سنن سعيد بن منصور (٥٩٢)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣١٦٠٤)، وسنن البيهقي (١٢٤٥٣).

وقوله: (أي: من واحد)؛ أي: إن كان الإخوة من أم أكثر من واحد؛ أي: من أخ أو أخت بأن كانوا أخوين أو أختين أو أكثر من ذلك فإنهم يشتركون في الثلث لا فضل لذكرهم على أنثاهم.

وقوله: (حالٌ من ضمير ...) إلى آخره: بيان لوجه نصب «غير»، وهو النصب على الحال من ضمير فاعل «يوصي»، وبيان للمضار اسم مفعول، وهم: الورثة؛ فالمضار اسم فاعل هو الموصي، والمضار اسم مفعول هو «الوارث».

وقوله: (مصدر مؤكّد لـ «يوصيكم»): يريد أن «وصية» منصوب على المصدرية، وأنه مؤكّد لفعل يوصي في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾، في الآية السابقة.

وقوله: (بما دبره ...) إلى آخره: معناه أن ما شرعه الله من أحكام الموارث هو من مقتضى علمه تعالى، وبهذا تظهر مناسبة ذكر اسمه تعالى العليم بعد ذكر هذه الأحكام في الآيتين.

وقوله: (بتأخير العقوبة عمّن خالفه): بيان لمعنى اسمه الحليم، فمن حلمه أنه لا يعاجل بالعقوبة من عصاه.

وقوله: (وخصّت السنة ...) إلى آخره: يبين أن آيات الموارث ليست عامة فقد دلت السنة: أن من قام به مانع فإنه لا يرث^(١)، والموانع ثلاثة: الرق، والقتل، واختلاف الدين؛ فالعبد لا يرث من قريبه، والقاتل لا يرث من المقتول، وإن كان أباه أو ولده، والمسلم لا يرث الكافر، والكافر لا يرث المسلم^(٢).



(١) ينظر: سنن البيهقي (٤٤٦/١٢)، (٤٥١/١٢)، (٤٥٢/١٢).

(٢) ينظر: الرحبية بشرح سبط المارديني وحاشية البكري (ص ٣٦).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ١٤ وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَلْحَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ١٥ وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّاهُمْ مِنْكُمْ فَعَادُوهُمْ إِن تَابَا فَاصْلَحَا فَاغْرُضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ١٦ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ١٧ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٨ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٩﴾ [النساء: ١٣-١٨].

قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: هذه الأحكام المتقدمة في آيتي المواريث: ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: أحكامه التي حدها بما فرض من أنصباء الوارثين، وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، بإنفاذ أحكام الله، وإعطاء كل ذي حق حقه، كما أمر الله دون زيادة ولا نقص، مَنْ فعل ذلك فجزاؤه أَنْ يدخله الله جنات، وهي: الدار التي أعدها الله للمتقين، وهي: جنات النعيم، ومن نعيمها أَنْ الأنهار تجري من تحتها؛ أي: من تحت قصورها وأشجارها، ومن تحتهم، وهم: في مجالسهم، ومن تمام هذا النعيم دوامه، وأصحاب الجنة هم فيها خالدون، وهذا غاية الفوز، ولهذا قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٣﴾؛ أي: هذا الجزاء هو الفوز العظيم؛ لأنَّ به نيل كل مطلوب ومحبوب، ونجاة وأمن من كل مخوف ومرهوب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: بمخالفة الأمر والنهي تركًا للمأمور، وفعلًا للمحظور، ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾؛ أي: يتجاوز

أحكام الله التي حدها بالزيادة أو النقص، ومن ذلك تغيير أحكام المواريث، وأنصباء الوارثين، وعطف تعدي الحدود على المعصية من عطف الخاص على العام لأنه من أعظم المعصية لله ولرسوله، ونص عليه لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿يُدْخِلُهُ نَارًا﴾؛ أي: مَنْ يفعل ذلك من المعصية، وتعدي الحدود (يدخله الله نارًا)؛ أي: نار جهنم التي أعدها الله للكافرين فيدخلها على أنه خالد فيها في عذاب دائم مهين، وذلك الخزي العظيم؛ نعوذ بالله من عذابه.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ﴾؛ أي: والنساء اللاتي يأتين فاحشة الزنا، ﴿فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾؛ أي: اطلبوا أربعة من رجالكم -أيها المؤمنون- يشهدون عليهن بإتيان الفاحشة.

وقوله: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾؛ أي: فإن شهد الشهود الأربعة عليهن بارتكاب فاحشة الزنا ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾؛ أي: احبسوهن في بيوتهن حبسًا دائمًا إلى الموت، فلا يخرجن من البيوت مدة حبسهن.

وقوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥﴾، هذا غاية أخرى لحبسهن، وقد جعل الله لهن سبيلًا، وهو ما شرع من حد الزنا كما في الحديث الصحيح؛ قال ﷺ: «خذوا عني، خذوا عني؛ قد جعل الله لهن سبيلًا: البكر بالبكر جلد مئة، ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مئة، والرجم»^(١)؛ فُنسخ الحبس بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾، قال مجاهد: «الرجلان الفاعلان، لا يَكْنِي»^(٢)؛ قال ابن كثير: «وكأنه يريد اللواط»^(٣)، وفي رواية عنه

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٠) عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٤٩٩/٦-٥٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٥).

«الزانيان»^(١)، وقيل: المراد الرجل والمرأة البكران، واختاره ابن جرير، ورواه عن السدي وابن زيد^(٢)، والقول الأول عن مجاهد أوفق للفظ: «الذنان» لأنه أخص بالذكر، ولعل تخفيف عقوبتهما لأن اللواط مما تنفر منه الطباع، ولا يكاد يعرف وقت نزول القرآن ﴿فَأَدَّوهُمَا﴾؛ أي: بالتوبيخ والتعير، وقد نُسخ هذا الحكم بالحد كما نُسخ الحبس^(٣).
وقوله: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا﴾؛ أي: تابا بعد فعلهما الفاحشة، وأصلحا؛ أي: استقاما.

وقوله: ﴿فَاعْرِضْوا عَنْهُمَا﴾؛ أي: اتركوا إيذاءهما.
وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٤)؛ أي: كثير التوب؛ رحيمًا: بعباده، ومن رحمته توبته على المذنبين.
وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾، خبر من الله أنه أوجب على نفسه التوبة للذين يعملون السوء، وهو كل معصية لأن المعصية تسوء صاحبها، ولذا سميت المعاصي سيئات.
وقوله: ﴿بِجَهْلَةٍ﴾؛ أي: جاهلين بعواقب عملهم، وجاهلين بعظمة من عصوه، ولهذا قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل^(٤).
وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾: بيان لشرط قبول التوبة، وهو أن تكون من قريب؛ أي: قبل الغرغرة؛ أي: قبل حضور الموت؛ كما يدل له قوله

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/٥٠٠).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/٤٩٩)، (٦/٥٠١).

(٣) ينظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص ٣٠٦).

(٤) أخرجه بمعناه عن جماعة من السلف: الطبري (٦/٥٠٧-٥٠٩)، وأورده بهذا اللفظ: الواحدي في الوسيط (٣/٨٩)، وابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/٢٤٩) عن السدي، وأورده ابن تيمية عن أبي العالية عن أصحاب النبي ﷺ في غير ما كتاب. ينظر: الانتصار لأهل الأثر (ص ٥٠)، ومجموع الفتاوى (١٤/٢٩١).

تعالى في الذين لا توبة لهم: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ﴾؛ فالذي لا يتوب إلا عند الاحتضار؛ فلا توبة له، فإنَّ حكمه حكم مَنْ لم يتب إلا بعد الموت، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: اسم الإشارة راجع إلى الذين يموتون، وهم كفار، والذين لا يتوبون إلا عند الاحتضار، وأعدنا لهم؛ أي: هيأنا لهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: مؤلماً موجعاً.

﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة، من أمر اليتامى وما بعده، ﴿حُدُودَ﴾ الله: شرائعه التي حدها لعباده ليعملوا بها ولا يتعدوها، ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما حكم به ﴿يُدْخِلْهُ﴾ -بالباء، والنون التفتاتاً- ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا -وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ- وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ﴾ -بالوجهين- ﴿نَارًا خَالِدًا فِيهَا، وَلَهُ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: ذو إهانة. ورُوعي في الضمائر في الآيتين لفظ «مَنْ» وفي «خالدين» معناها.

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾: الزنى، ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ، فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ أي: من رجال المسلمين، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ عليهن بها ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾: احبسوهن ﴿فِي الْبُيُوتِ﴾ وامنعوهن من مخالطة الناس، ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي: ملائكته ﴿أَوْ﴾ إلى أن ﴿يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: طريقاً إلى الخروج منها. أمروا بذلك أول الإسلام، ثم جعلَ لَهُنَّ سَبِيلًا بجلد البكر مائةً وتغريبها عاماً، ورجم المُحْصَنَة. وفي الحديث: لَمَّا بَيْنَ الْحَدِّ قَال: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي. قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا» رواه مسلم.

﴿وَاللَّذَانِ﴾ - بتخفيف النون وتشديد هـ - ﴿يَأْتِيَانَهَا﴾ أي: الفاحشة الزنى أو اللواط ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: الرجال ﴿فَأَذُوهُمَا﴾ بالسب والضرب بالنعال، ﴿فَإِنْ تَابَا﴾ منها ﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل، ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ ولا تؤذوهما. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾ على مَنْ تاب ﴿رَحِيمًا﴾ به. وهذا منسوخ بالحدّ إن أُريد بها الزنى. وكذا إن أُريد بها اللواط عند الشافعي. لكن المفعول به لا يُرجم عنده وإن كان مُحصَّنًا، بل يُجلد ويُغرب. وإرادة اللواط أظهر بدليل ثنية الضمير. والأوّل قال: أراد الزاني والزانية. ويردّه تبينهما بـ «مِنْ» المتّصلة بضمير الرجال واشتراكهما في الأذى والتوبة والإعراض. وهو مخصوص بالرجال لما تقدّم في النساء من الحبس. ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: التي كتب على نفسه قبولها بفضله، ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ﴾: المعصية ﴿بِجَهَالَةٍ﴾: حال أي: جاهلين إذ عصوا ربّهم، ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ﴾ زمن ﴿قَرِيبٍ﴾ قبل أن يُغرغروا، ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: يقبل توبتهم - ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه، ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه بهم - ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: الذنوب - ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ وأخذ في النزع ﴿قَالَ﴾، عند مشاهدة ما هو فيه: ﴿إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾، فلا ينفعه ذلك ولا يُقبل منه - ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، إذا تابوا في الآخرة عند مُعَاينة العذاب لا تُقبل منهم. ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا﴾: أعدنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: مؤلماً.

وقول المؤلف: (الأحكام المذكورة ...) إلى آخره: بيان لمرجع اسم الإشارة «تلك» من أول السورة، فدخل في ذلك أحكام اليتامى من قوله تعالى: ﴿وَاتُوا الْيَتَامَى﴾ [النساء: ٢]، إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾

[النساء: ١٠]، وأحكام النكاح من قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٣]، إلى قوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، وأحكام ميراث الأقارب، والزوجين، والإخوة من أم؛ من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، إلى قوله: ﴿وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

وقوله: (شرائعه...) إلى آخره: تفسير: للحدود، والمراد بها المأمورات من الواجبات والمباحات لها حدود لا يجوز تعديها بزيادة ولا نقص، وهي التي يقول الله فيها: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]، وقال في هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ...﴾ [النساء: ١٤].

وقوله: (فيما حكم به): بيان لمتعلق الطاعة، وهي: الأحكام التي حكم الله بها ورسوله، وذلك بالإيمان بها، والرضا بها، والحكم بها، والتسليم لها.

وقوله: (بالياء، والنون التفاتاً): يريد أن قوله: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ قرئ بالياء ﴿يُدْخِلْهُ﴾ وبالنون ﴿نُدْخِلْهُ﴾^(١) وفي قراءة النون التفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب التكلم. وهذا كثير في القرآن، وفي سورة الفاتحة انتقال من أسلوب الغيبة في الآيات الثلاث إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقوله: (بالوجهين): يريد أنه قرئ بالياء والنون كما في قوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ [النساء: ١٣]، ومراده بالوجهين: القراءتين.

وقوله: (فيها): بيان لمكان العذاب المهيّن، وهو: النار التي هي مكان الخلود في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [النساء: ١٣].

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٧).

وقوله: (ذو إهانة): يريد أن من صفة العذاب: الإهانة للمعذب فهو عذاب للروح والجسد.

وقوله: (وروعي في الضمائر...) إلى آخره: يريد أن «من» الشرطية في قوله: ﴿وَمَنْ يُطْعِ﴾، ﴿وَمَنْ يَعَصِ﴾، روعي في الضمائر المتصلة المنصوبة والمجرورة لفظ: «من» وهو الأفراد، وروعي في قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ﴾ معناها، وهو الجمع لأن الذين يدخلون الجنة كثير.

وقوله: (الزنى): تفسير الفاحشة في هذا الموضع بالزنا متفق عليه لا تحتمل غيره، وقد وصف الله الزنا بالفاحشة نصاً في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وأصل معنى الفاحشة: الفعلة القبيحة المستفحشة في الفطر والعقول، وغالب ما تُطلق عليه في القرآن: الزنا، وما في معناه - وهو أقبح - عمل قوم لوط.

وقوله: (أي: من رجال المسلمين): تفسير لقوله: ﴿أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾، فقوله: ﴿أَرْبَعَةً﴾؛ أي: من الرجال، وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾؛ أي: من المسلمين.

وقوله: (عليهن بها): بيان لمتعلق الشهادة، وهو الفعل والفاعل؛ أي: على النساء بإتيان الفاحشة.

وقوله: (احسوهن): بيان للمعنى المراد بالإمساك، وهو حبسهن في بيوتهن فلا يخرجن.

وقوله: (وامنعوهن من مخالطة الناس): هذا: معنى مستنبط من الغاية من الحبس، وهو منعهن من المخالطة التي تجر إلى الوقوع في الفاحشة.

وقوله: (أي: ملائكته): يبين أن إسناد التوفي إلى الموت إسناد مجازي، وهو من إضافة الفعل إلى غايته، فإن الموت مفارقة الروح للبدن، والتوفي قبض الروح، والذي يفعل ذلك حقيقة هم الملائكة.

وقوله: (إلى أن): يبين أن السبيل غاية ثانية للحبس؛ إذن المعنى: إلى أن يتوفاهن الموت، أو إلى أن يجعل الله لهن سبيلاً.

وقوله: (طريقًا إلى الخُروج منها...) إلى آخره: بيان للمعنى اللغوي في قوله: (طريقًا إلى الخُروج منها)؛ أي: من البيوت، وبيان للمعنى الشرعي المراد في قوله: (ثُمَّ جَعَلَ لَهَنَ سَبِيلًا بَجْلِدِ الْبَكْرِ مَاءً وَتَغْرِيبَهَا عَامًا، وَرَجَمَ الْمُحْصَنَةَ)، وقوله: (أُمِرُوا بِذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ): يبين أنَّ حكم الحبس منسوخ بالحدود، ثم أشار إلى حديث عبادة بن الصامت في تفسير السبيل، وهو قوله ﷺ: «خذوا عني، خذوا عني. قد جعل الله لهن سبيلاً»^(١).

وقوله: (بتخفيف النون وتشديدِها): يشير: إلى القراءتين في الآية؛ إحداهما: بتخفيف النون، والأخرى بتشديد النون^(٢).

وقوله: (أي: الفاحشة...) إلى آخره: بيان لمرجع الضمير المنصوب، وهو الفاحشة، وقوله: (الزنى أو اللواط): يشير إلى الخلاف في المراد بـ«اللذان»، وقد قيل؛ المراد: الرجل والمرأة البكران، والفاحشة على هذا الزنا، وقيل: المراد الرجلان، والفاحشة على هذا اللواط.

وقوله: (أي: الرجال): بيان للمخاطب في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾، وهذا هو المناسب لتفسير: «اللذان» بالرجلين، وتفسير الفاحشة باللواط. وقوله: (بالسبِّ والضرب بالنعال): بيان لما يكون به الأذى، فإنَّ هذه الأمور تؤذي ولا تضر.

وقوله: (منها)؛ أي: من الفاحشة بالندم والإقلاع. وقوله: (العمل)؛ أي: عملاً العمل الصالح بأداء الفرائض، وترك المناهي.

وقوله: (ولا تُؤذوهما): بيان لما يكون به الإعراض عنهما.

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) ينظر: المبسوط (ص ١٧٧).

وقوله: (على من تاب) هذا يقتضي أن معنى: تواب؛ أي: كثير قبول التوبة من التائبين.

وقوله: (به): بيان لمعلق معنى هذا الاسم الرحيم، وهو التائب.
 وقوله: (وهذا منسوخ بالحدّ إن أُريد بها الزنى): يريد أن الأذى في قوله: ﴿فَأَذُوهُمَا﴾: منسوخ بحد الزنا جلدًا أو رجماً، ولهذا قال: (إن أُريد بها)؛ أي: الفاحشة الزنا؛ كما أن الحبس منسوخ بحد الزنا، كما في حديث عبادة: «خذوا عني، خذوا عني».

وقوله: (وكذا إن أُريد بها اللواط...) إلى آخره؛ أي: إن الأمر بالأذى منسوخ، وذلك عند الشافعي؛ لأن اللواط عنده حكمه حكم الزنا فيجلد البكر، ويرجم المحصن، لكن يذكر المؤلف أن الشافعي يفرّق بين الفاعل والمفعول به في حد الرجم^(١)، وتحرير الحكم في هذه المسألة في كتب الفقه في باب الحدود^(٢).

وقوله: (وإرادة اللواط أظهر بدليل تثنية الضمير): هذا: ترجيح من المؤلف للقول بأن المراد بالفاحشة اللواط؛ يقول: (بدليل تثنية الضمير) في قوله: ﴿يَأْتِيَانَهَا﴾، وهو عائد إلى الموصول المثني المذكور.

وقوله: (والأوّل قال: أراد الزاني والزانية): يريد أن من قال المراد بالفاحشة في قوله: ﴿يَأْتِيَانَهَا﴾ الزنا؛ يقول المراد بـ«اللذان» الزاني والزانية البكران، ثم يضعف المؤلف هذا القول بأمرين؛ الأول: أن الجملة مقيدة بمن المتصلة بضمير الرجال في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾.

الثاني: أن حكم الزانية قد تقدم، وهو الحبس؛ لقوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ﴾؛ أي: النساء اللاتي يأتين الفاحشة، وهو شامل للبكر والثيب.

(١) ينظر: التهذيب (٣٢٢/٧-٣٢٣).

(٢) ينظر: المغني (٣٤٨/١٢).

وقوله: (أي: التي كتب ...) إلى آخره: بيان لما يدل عليه قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ فإنَّ «على» تدل على الوجوب، فدلَّت الآية على أَنَّ الله أوجب على نفسه قبول توبة مَنْ تاب من قريب.

وقوله: (المعصية): تفسير: للسوء، سميت المعصية سوءاً وسيئة، لأنها تسوء صاحبها بما يترتب عليها من الجزاء.

وقوله: (حَالٌ ...) إلى آخره: بيان لموقع الجار والمجرور، فهو في موضع نصب على الحال من الواو في قوله: (يَعْمَلُونَ) ولهذا قدره بقوله: (جاهلين إذ عصوا ربهم)، وهو يقتضي أَنَّ الجاهل هو المعصية، ويشهد له قول السلف: كل مَنْ عصى الله فهو جاهل؛ لأنَّ العاصي مقدم على ما يضره.

وقوله: (زمن): تقدير للموصوف بقريب؛ أي: من زمن قريب.

وقوله: (قَبْلُ أَنْ يُغْرَغُوا): بيان للزمن القريب الذي تقبل فيه التوبة، وهو ما قبل حضور الموت، والغرغرة: معالجة الروح الخروج، وهي: حالة بلوغ الروح الحلقوم، وأصل الغرغرة: صب المشروب في فم المريض فلا يقدر على بلعه أو لا يراذ منه بلعه فيحدث ذلك صوتاً متكرراً في الحلق كما يفيد لفظ الغرغرة^(١).

وقوله: (يقبل توبتهم): بيان لمعنى يتوب الله، فإنَّ التوبة من الله لها معنيان: توفيقه مَنْ شاء للتوبة، وقبولها من العبد، والله تواب بالمعنيين.

وقوله: (بخلقه): بيان لمتعلق العلم فيعلم التائب الصادق المخلص وغيره، وهو بكل شيء عليم.

وقوله: (في صُنْعِهِ بِهِم): بيان لمتعلق الحكيم؛ أي: أَنَّ له حكمة فيما يصنعه بعباده؛ بل له حكمة في كل تدبير وتقدير.

(١) ينظر: تاج العروس (٢٢٩/١٣).

وقوله: (الذُّنُوبَ): تفسيرٌ للسيئات، والسيئات كل عمل سيءٍ، فيشمل الكبائر والصغائر من الذنوب، وقد يراد بها الصغائر خاصة كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

وقوله: (وأخذ في النُّزْع): بيان لحقيقة حضور الموت، وهي: حالة نزاع الملك للروح.
وقوله: (عند مشاهدة ما هو فيه)؛ أي: قال المحتضر عند معاينة الملك، وتيقنه فراق الحياة.

وقوله: (فلا ينفعه ذلك ولا يُقبل منه)؛ أي: أن قول المحتضر العاصي «إني تبت الآن»؛ لا ينفعه ذلك، ولا يقبل منه، ولا يكون ذلك توبة عند الله لأنه لم يتب من قريب.

وقوله: (إذا تابوا...) إلى آخره: بيان للمراد بالتوبة المنفية عن الذين ماتوا، وهم: كفار، وهي: توبتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب لا تقبل توبتهم كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧].

وقوله: (أعدنا): تفسير: لقوله تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا﴾؛ يقال: أعتد الشيء لكذا، وأعدده إذا أوجده وأحضره استعدادًا وتهيئة لمن يراد إكرامه أو عقوبته، ولهذا أعد الله الجنات للمتقين، وأعد النار للكافرين.
وقوله: (مؤلِّمًا)؛ أي: موجعًا اسم فاعل من آلمه إذا أوجعه.



وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝٢١ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٢٢﴾ [النساء: ١٩-٢٢].

هذا خطاب من الله للمؤمنين ينهاهم عن إرث النساء على طريقة أهل الجاهلية، الذين إذا مات فيهم الرجل، وله امرأة كان أولياؤه وأبنائه من غيرها أحق بها، إما بالنكاح بغير مهر، أو إنكاحها من شأؤوا، وأخذ مهرها، وقوله: ﴿كَرِهًا﴾، مصدر في موضع حال من النساء؛ أي: مكرهات، وليس ذلك قيد للنهي؛ بل بيان للواقع، وقوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾: نهى للأزواج عن عضل زوجاتهم؛ أي: منعهن حقوقهن، والخطاب للأزواج، حرم الله عليهم عضل نسائهم للذهاب ببعض ما آتوهن من صداق أو غيره؛ أي: ليفتدين ببذل ذلك من عضلهم، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾، هذا استثناء من النهي عن العضل مقتضاه الإذن بالعضل إذا أتيت بفاحشة؛ قيل: هي الزنا، وقيل: هي البذاء وسلاطة اللسان^(١)، وقوله: ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾؛ أي: بينة ظاهرة معلومة بيقين، وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أمر من الله للأزواج بحسن صحبتتهن، وهي: العشرة بالمعروف بأداء الحقوق من غير مطل ولا مغاضبة، والمسامحة عن التقصير، وقوله: ﴿إِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لسوء خلق أو معاملة؛ أي: فاصبروا عليهن، ولا تفارقوهن لذلك؛ فعسى أن يجعل الله فيما كرهتم،

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٣٢).

وصبرتم عليه خيرًا كثيرًا في دينكم ودنياكم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر»^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾؛ يعني: إن أردتم طلاق زوجة، واستبدال زوجة أخرى مكانها ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِطَارًا﴾؛ أي: وقد آتيتم إحداهن قنطارًا، وهو المال الكثير^(٢) سواء كان صداقًا أو عطية، وقوله: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾؛ أي: لا تأخذوا شيئًا مما آتيتم الأولى أو الأخيرة، وقوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾؛ إنكار وتغليظ وتهديد في أخذ شيء مما آتيته إحدى الزوجتين، ولو كان قنطارًا، فإنَّ الأخذ منه بغير طيب نفس بهتان وإثم بين، وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾؛ إنكار آخر، وتقبيح للأخذ بعد استيفاء العوض بإفضاء بعضكم إلى بعض، كُتِيَ بالإفضاء عن الجِماع، ومما يزيد الأخذ قبحًا أنه نقض للميثاق الغليظ الذي تضمنه عقد النكاح، وهو يقضي بأداء الحقوق، وترك الظلم فدل هذا النهي، والتغليظ بالإنكار مرة بعد مرة على أنَّ أخذ شيء من أموال النساء من كبائر الذنوب، إلا ما طابت بهن أنفسهن لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيَّتًا﴾ [النساء: ٤]، فتلك الآية في أول السورة مخصصة لهذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ نهى عن نكاح منكوحة الأب؛ فهي من المحرمات على التأيد بالمصاهرة، وسواء كانت منكوحة الأب بعقد النكاح أو ملك اليمين، وهي ممن تحرم بمجرد عقد الأب عليها، وفي هذا النهي إبطال لعادة أهل الجاهلية في نكاح الأبناء زوجات آبائهم بعد موتهم، واعتبارهن ميراثًا لهم كما تقدم في قوله

(١) أخرجه مسلم (١٤٦٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تنظر: (ص ٢٦).

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾، وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح منكوحة الأب على أي وجه كان تحريمًا مغلظًا، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾؛ أي: فعلة قبيحة شنيعة، ﴿وَمَقْتًا﴾؛ أي: عملاً ممقوتاً عند الله، وسبباً لمقت الله لفاعله، والمقت أشد البغض^(١).

وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٢): ذم لهذا الفعل، وهو نكاح منكوحة الأب لأنه سبيل سيئ، وبهذا التعليل يكون كبيرة من كبائر الذنوب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾ أي: ذاتهن ﴿كَرِهًا﴾، بالفتح والضم لغتان، أي مكرهيهن على ذلك - كانوا في الجاهلية يرثون نساء أقربائهم. فإن شأوا تزوجوها بلا صداق، أو زوجوها وأخذوا صداقها، أو عضلوهما حتى تفتدي بما ورثته، أو تموت فيرثوها. فنهوا عن ذلك - ﴿وَلَا﴾ أن ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي: تمنعوا أزواجكم عن نكاح غيركم، بإمساكنهن ولا رغبة لكم فيهن ضرارًا، ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهر، ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾، بفتح الياء وكسرها، أي: بُيِّنَتْ أو هي بيّنة، أي: زنى أو نشوز، فلکم أن تضاروهن حتى يفتدين منكم ويختلعن، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالإجمال في القول والنفقة والمبيت، ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فاصبروا ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا، وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، ولعله يجعل فيهن ذلك بأن يرزقكم منهن ولدًا صالحًا.

﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾ أي: أخذها بدلها بأن طلقتموها، ﴿وَلَوْ﴾ قد ﴿آتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾ أي: الزوجات ﴿فَنِّطَارًا﴾: مالا

(١) ينظر: المفردات (ص ٧٧٢).

كثيراً صدقاً، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً - أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً﴾: ظُلماً ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾: بيتاً؟ ونصبهما على الحال. والاستفهام للتوبيخ، وللإنكار في: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ أي: بأي وجه، ﴿وَقَدْ أَفْضَى﴾: وصل ﴿بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ بالجماع المقرر للمهر، ﴿وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا﴾: عهداً ﴿غَلِيظًا﴾: شديداً؟ وهو ما أمر الله به، من إمساكهنّ بمعروف أو تسريحهنّ بإحسان- ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا﴾ بمعنى: مَنْ ﴿نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ. إِلَّا﴾: لكن ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من فعلكم ذلك فإنه معفو عنه. ﴿إِنَّهُ﴾ أي: نكاحهنّ ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾: قبيحاً، ﴿وَمَقْتًا﴾ سبباً للمقت من الله، وهو أشد البغض، ﴿وَسَاءَ﴾: بسّ ﴿سَبِيلًا﴾: طريقاً ذلك!

وقول المؤلف: (ذَاتِهِنَّ): يعني: أنفسهن بأن يكنّ ميراثاً، ليس المراد إرث أموالهن.

وقوله: (بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ ...) إلى آخره: يبين أنّ في ﴿كَرَهَا﴾ لغتين ضم الكاف وفتحها^(١)، والكلمة إما مصدر «كرها» الثلاثي، وإما اسم مصدر من الرباعي أكرها، ثم يبين موقع الكلمة من الإعراب، وأنها في موضع الحال من الواو في قوله: ﴿تَرْتُثُوا﴾ وقدره: مكرهين؛ أي: مكرهين لهن، ثم ذكر عادة أهل الجاهلية في إرث النساء، وتقدمت الإشارة إليه.

وقوله: (أَن): هي: المصدرية، وهي وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع عطفاً على أن ترثوا؛ فالتقدير: لا يحل لكم إرث النساء، ولا عضلهن، و«لا» على هذا نافية، والواو عاطفة، والفعل منصوب، وعلامة النصب حذف النون، ويحتمل أن الواو للاستئناف، ولا ناهية، والفعل مجزوم، وعلامته حذف النون.

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة (٣/ ١٤٤).

وقوله: (أي: تمنعوا أزواجكم...) إلى آخره: جعل: الخطاب للأزواج، وفسر العضل: بإمساك الأزواج نساءهم من غير رغبة فيهن؛ بل لحرمانهن من نكاح غيرهم، وفي تخصيص العضل بذلك نظر، والصواب أن الآية عامة في كل منع على وجه المضارة لتفتدي المرأة بالتنازل عن صداقها أو بعضه أو غيره من حقوقها.

وقوله: (من المهر): بيان لما أبهم في الموصول في قوله: ﴿مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾، والآية عامة في المهر، وغيره فتخصيصها بالمهر خلاف الظاهر. وقوله: (بفتح الياء وكسرها...) إلى آخره: يشير إلى قراءتين في «مبينة»^(١) بفتح الياء بصيغة اسم المفعول، وكسر الياء بصيغة اسم الفاعل؛ ثم ذكر في تفسير الفاحشة قولين؛ قيل: المراد الزنا، وقيل: النشوز، وهذا استثناء من عموم النهي عن العضل في جميع الأحوال، إلا في هاتين الحالتين، فإن زنت أو نشزت جاز عضلها.

وقوله: (أي: بالإجمال...) إلى آخره: يعني: أن المعروف يشمل هذه الأمور الثلاثة القول الجميل، وبذل النفقة، والعدل في المبيت، وذكر هذه الأمور على سبيل التمثيل، لا على سبيل الحصر، والمعاشرة بالمعروف هي حسن المعاملة قولاً وفعلاً، ويدخل فيها أداء الحقوق، والتسامح في المطالبة بها.

وقوله: (فاصبروا): تقدير: لجواب الشرط مأخوذ من قوله: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، فإن العلم بذلك سبب للصبر، وهو المطلوب.

وقوله: (ولعله...) إلى آخره: بيان للخير المرجو في الصبر على المرأة مع الكراهة، ومن ذلك الخير: أن يُرزق الرجل من المرأة التي صبر عليها ولداً صالحاً.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٧).

وقوله: (أي: أخذها...) إلى آخره: بيان لاستبدال زوجة مكان زوجة
 بنكاح زوجة أخرى بعد تطليق الأولى.
 وقوله: (قد): حرف تحقيق، وهو تحقيق الإيتاء.
 وقوله: (أي: الزوجات): تفسير: للضمير في قوله: ﴿إِحْدَاهُنَّ﴾،
 ومقتضى ظاهر الكلام أن يقال إحداهما.
 وقوله: (مألاً كثيراً): تفسير للقنطار.
 وقوله: (صدأقا): بيان لنوع الإيتاء، والآية أعم من ذلك.
 وقوله: (ظلمًا): تفسير: للبهتان، والأصل في البهتان الكذب، والغالب
 أن الذي يأخذ من مال المرأة أو صداقها أنه يكذب عليها.
 وقوله: (ونصبهما على الحال): يريد كلمتي «إِثْمًا» «مَبِينًا»، يقول:
 إنهما منصوبان على الحال.
 وقوله: (والاستفهام...) إلى آخره: بيان للغرض من الاستفهام، وهو
 التوبيخ والإنكار، وفي هذا تقييح للأخذ من مهور النساء بعد المباشرة.
 وقوله: (أي: بأي وجه)؛ أي: في أي حال، وبأي سبب.
 وقوله: (وصل)؛ أي: وصل كل منكم إلى مقصوده، وهو المباشرة.
 وقوله: (بالجماع...) إلى آخره: يبين أن الإفضاء كناية عن الجماع،
 وبالجماع يتقرر المهر، فلو طلقها بعد ذلك استحققت الصداق كله.
 وقوله: (عهدًا): تفسير: الميثاق، فإن الميثاق هو العهد المؤكد.
 وقوله: (شديدًا؟...) إلى آخره: تفسير: غليظًا، وهو عقد النكاح فإنه
 متضمن للشرط الذي أمر الله به، وهو إمساكٌ بمعروف أو تسريح بإحسان،
 ويؤكد ويشهد له؛ قوله ﷺ: «إِنَّ أَحَقَّ الشُّرُوطِ أَنْ تَوْفُوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ
 الْفُرُوجَ»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٢١) والسياق له، سوى لفظ: «إن»-، ومسلم (١٤١٨) عن عقبه
 بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



وقولُه: (بمعنى: مَنْ): الأصل أنَّ: «ما» لغير العاقل، ولكنها في هذا
الموضع عبارة عن امرأة الأب، ولهذا أولها المؤلف بـ: «من» التي للعاقل.
وقولُه: (لكنْ): يبين أنَّ الاستثناء منقطع.
وقولُه: (من فِعْلكم ...) إلى آخره: بيان لفاعل سلف؛ أي: مضى في
الجاهلية، فإنه معفو عنه، فإنكم لا تأخذون به لجهلكم بحكمه.
وقولُه: (أَي: نِكَاحَهْنْ): بيان لمرجع الضمير المنصوب، وهو المصدر
المفهوم من قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾.
وقولُه: (قَبِيحًا)؛ أي: عملاً قبيحًا، وهو نكاح زوجات الآباء.
وقولُه: (سَبِيًّا ...) إلى آخره: بيان لأصل معنى المقت، وهو أشد
البغض، ومعناه في هذه الجملة: أنه سبب للمقت من التعبير بالمسبب عن
السبب.
وقولُه: (بئْسَ): يبين أنَّ ساء فعل لإنشاء الذم؛ كـ«بئس».
وقولُه: (طَرِيقًا ذَٰلِكَ!): اسم الإشارة يعود إلى نكاح امرأة الأب،
ومعناه: أنَّ نكاح امرأة الأب سبيل سيئ.



وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرِّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْلِفِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء: ٢٣-٢٤].

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾؛ أي: حرم الله عليكم نكاح أمهاتكم، واسم الأمهات يعمّ الوالدات والجَدات وإن عليّن من قبل الأم والأب، ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾؛ أي: وحرمت عليكم بناتكم، واسم البنات يعمّ بنات الرجل لصلبه، وبنات أبنائه وبنات بناته وإن نزلن، ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾؛ أي: وحرمت عليكم أخواتكم شقيقات أو لأب أو لأم، ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾؛ أي: وحرمت عليكم عماتكم، وهن أخوات الآباء والأجداد شقيقات أو لأب أو لأم، ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾؛ أي: وحرمت عليكم خالاتكم، وهن أخوات الأمهات والجَدات شقيقات أو لأب أو لأم.

﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾؛ أي: وحرمت عليكم بنات الأخ شقيقاً أو لأب أو لأم بناته لصلبه أو بنات أولاده وإن نزلن.

﴿وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾؛ أي: وحرمت عليكم بنات الأخت شقيقة كانت أو لأب أو لأم، بناتها من بطنها أو بنات أولادها وإن نزلن.

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾؛ أي: وحرمت عليكم أمهاتكم اللاتي أرضعن، وهن اللاتي رضع الطفل من ثديهن وتغذى بلبنهن، ولهذا الحكم شروط مأخوذة من السنة.

﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ﴾؛ أي: وحرمت عليكم أخواتكم من الرضاع، وهن بنات المرضعة من النسب أو بناتها من الرضاع.

﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾؛ أي: وحُرْم عليكم أمهات نسائكم؛ أي: زوجاتكم، وهن الوالدات والجَدات.

﴿وَرَبَّائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾؛ أي: وحرمت عليكم ربائبكم، وهن بنات الزوجة التي ربيت في حجر زوجها.

﴿مِّن نِّسَائِكُمْ﴾؛ أي: من زوجاتكم.

﴿الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾؛ أي: بنيتم بهن فخلوتم بهن، وجامعتموهن، ومفهومه: أنها لا تحرم الربيبة إذا لم يدخل بأمرها، وقد صرح الله تعالى بهذا المفهوم في قوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فلا حرج ولا إثم في نكاح بناتهن؛ أي: الربائب.

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾؛ أي: وحرمت عليكم حلائل أبنائكم؛ أي: زوجات أبنائكم، وسرياتهم.

﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾: خرج به الأدياء فلا تحرم زوجاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَكَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وفي حكم أبناء الصلب الأبناء من الرضاع على قول الجمهور، وقيل: بالإجماع^(١).

وقوله تعالى: ﴿تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾؛ أي: وحرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين في النكاح، وقيل: أو بملك اليمين، وسئل عثمان

(١) الإجماع لابن المنذر (ص ٨٠)، والمغني (٧/ ١١٢).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الجمع بين الأختين بملك اليمين؟ فقال: «أحلتها آية، وحرمتها آية»^(١). يشير إلى هذه الآية، وإلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، ودلت السنة الصحيحة على تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، فإذا عقد الرجل على المرأة حرمت عليه أختها، وأمها وبنت أخيها، فإن طلقها حللن له إلا أمها^(٢).

وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ أي: إلا ما كان منكم في الجاهلية، فإنه معفو عنه لكن لا يجوز الدوام عليه بعد الإسلام، كما دلت السنة على ذلك، فقد أسلم أحد الصحابة، وتحتة أختان فأمره النبي ﷺ أن يطلق إحداهما^(٣).
وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٢٣): تعليل وتأکید لقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾؛ أي: وحرمت عليكم المحصنات؛ أي: ذوات الأزواج إلا ما ملكت أيما نكم؛ أي: السبايا اللاتي سبين، ولهن أزواج من الكفار، فإنه يفسخ نكاحهن من أزواجهن، ويحل وطؤهن بملك اليمين.
وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ألزموا كتاب الله؛ أي: حكم الله بتحريم المحرمات، وغيره.

(١) أخرجه مالك (١٩٧٤)، وقال ابن عبد البر: «وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس، ولكن اختلف عليهم، ولا يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز ولا بالعراق وما وراءهما من المشرق ولا بالشام ولا المغرب إلا من شذ عن جماعتهم لاتباع الظاهر ونفي القياس، وقد ترك من تعمد ذلك ظاهراً مجتمعا عليه، وجماعة الفقهاء متفقون أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء كما لا يحل ذلك في النكاح»، الاستذكار (٤٨٧/٥).

(٢) ينظر: سنن البيهقي (٢٤٨/١٤)، (٢٥٩/١٤)، (٢٩٦/١٤).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٠٤٠)، وأبو داود (٢٢٤٣)، والترمذي (١١٢٩)، (١١٣٠)، وابن ماجه (١٩٥١)، عن فيروز الديلمي، وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان (٤١٥٥). وينظر: الإرواء (١٩١٥)، وصحيح سنن أبي داود (١٩٤٠).

وقوله: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾؛ أي: وأحل الله لكم من النساء ما سوى من ذكر.

﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾؛ أي: لأن تطلبوا بأموالكم النكاح.
 ﴿مُحْصِنِينَ﴾؛ أي: مريدين الإحصان لأنفسكم وأزواجكم.
 ﴿غَيْرَ مُسْلِفِينَ﴾؛ أي: غير زانين، والمسافحة؛ هي: الزنا مع أي امرأة تتاح.

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾: قيل: المراد الموطوءات بالنكاح^(١).
 ﴿فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾؛ أي: مهورهن.
 ﴿فَرِيضَةً﴾؛ أي: حقاً مفروضاً.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾؛ أي: لا إثم عليكم فيما تراضيتم به من الزيادة على المهر أو النقص منه عن طيب نفس من المرأة؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُوْهُنِيَا مَرِيكًا ۝٤﴾ [النساء]، وقيل: الآية في المتعة، وكانت مباحة في أول الإسلام، ثم حُرمت، ثم أُبيحت، ثم حُرمت في حجة الوداع، أو يوم الفتح تحريماً مؤبداً، ولهذا ذهب جمهور الصحابة إلى تحريمها^(٢)، وأجمع العلماء بعدهم على التحريم؛ فمن أحلها فهو مبتدع ضال كالرافضة^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ۝٥﴾: تعليل: للأحكام المتقدمة، وأنها من مقتضى علمه وحكمته سبحانه.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أن تنكحوهن، وشملت الجدات من قبل الأب أو الأم، ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وشملت بنات الأولاد وإن سفلن،

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/٥٨٤)، وزاد المسير (١/٣٩٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٥٩)، وزاد المعاد (٣/٤١١)، (٥/١٥٧).

(٣) ينظر: الإشراف لابن المنذر (٥/٧٢)، وشرح معاني الآثار (٣/٢٧).

﴿وَأَخَوَاتِكُمْ﴾ من جهة الأب أو الأم، ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ أي: أخوات آبائكم وأجدادكم، ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾ أي: أخوات أمهاتكم وجداتكم، ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ - ويدخل فيهن بنات أولادهم - ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ قبل استكمال الحولين خمس رَضَعَات كما بيّنه الحديث، ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ - ويلحق بذلك بالسُّنَّة البنات منها، وهنّ من أَرْضَعْتِهِنَّ موطوءته، والعَمَّاتُ والخَالَاتُ وبناتُ الأخ وبناتُ الأخت منها، لحديث: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ». رواه البخاريّ ومُسلم - ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ، وَرَبَائِبُكُمْ﴾: جمع ربيبة وهي بنت الزوجة من غيره، ﴿اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ تُرَبَّوْنَهَا - صفة مُوافقة للغالب فلا مفهوم لها - ﴿مِن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: جامعتموهنّ - ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ في نِكَاح بناتهنّ إذا فارقتوهنّ - ﴿وَحَلَائِلُ﴾: أزواجُ ﴿أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾، بخلاف من تَبَنَيْتُمُوهم فلکم نِكَاح حَلَائِلُهُمْ، ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ من نسب أو رَضَاع بالنِكَاح. ويلحق بهما بالسُّنَّة الجمعُ بينها وبين عَمَّتِها أو خَالَتِها. ويجوز نِكَاحُ كُلِّ واحدة على الانفراد، وملكُهما معاً ويطأ واحدة. ﴿إِلَّا﴾: لكنّ ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ في الجاهليّة، من نِكَاحكم بعض ما ذُكر، فلا جُنَاحَ عليكم فيه. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لما سلف منكم قبل النهي، ﴿رَحِيمًا﴾ بكم في ذلك.

﴿و﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ أي: ذوات الأزواج ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾، أن تنكحوهنّ قبل مُفارقة أزواجهنّ، حَرَّائِرَ مُسْلِمَاتٍ كُنَّ أَوْ لَا - ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الإماء بالسبي فلکم وطؤهنّ، وإن كان لهنّ أزواج في دار الحرب، بعد الاستبراء - ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾: نُصِبَ على المصدر أي: كُتِبَ ذلك ﴿عَلَيْكُمْ، وَأَحَلَّ﴾ - بالبناء للفاعل والمفعول -

﴿لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي: سوى ما حُرِّمَ عليكم من النساء، لـ ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾: تطلبوا النساء ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ بِصَدَاقٍ أَوْ ثَمَنٍ، ﴿مُحْصِنِينَ﴾: مُتَزَوِّجِينَ ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾: زَانِينَ. ﴿فَمَا﴾: فَمَنْ ﴿اسْتَمْتَعْتُمْ﴾: تَمَتَّعْتُمْ ﴿بِهِ مِنْهُنَّ﴾: مِمَّنْ تَزَوَّجْتُمْ بِالْوَطْءِ ﴿فَاتَوْهِنَّ أَجُورَهُنَّ﴾: مُهُورَهُنَّ الَّتِي فَرَضْتُمْ لَهُنَّ ﴿فَرِيضَةً﴾، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ أَنْتُمْ وَهِنَّ ﴿بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾، مِنْ حَطَّهَا أَوْ بَعْضُهَا أَوْ زِيَادَةٍ عَلَيْهَا. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ، ﴿حَكِيمًا﴾ فِيمَا دَبَّرَهُ لَهُمْ.

وقول المؤلف: (أن تنكحوهن...) إلى آخره: بيان لمتعلق التحريم، وهو نكاح الأمهات، وما عطف عليهن، فجعل المصدر المؤول: «أن تنكحوهن» هو نائب الفاعل لـ «حرمت» بدلاً عن «أمهاتكم»، وسبب ذلك قول الأصوليين: «أن التحريم والتحليل لا يتعلقان حقيقة بالأعيان؛ بل بالأفعال»^(١)، ثم قد يسند الحكم إلى متعلق الفعل، وهو الأمهات في هذه الآية، والمتعاطفات، ومتعلق الفعل هو الميئة، وما عطف عليها، ثم بين المؤلف: أن اسم الأمهات يشمل الجدات من قبل الأم ومن قبل الأب. وقوله: (وشملت...) إلى آخره: يبين أن البنات لا يختص بنات الصلب؛ بل يشمل بنات الأولاد البنين والبنات، فدخل في اسم البنات البنت وبنت الابن، وإن نزلًا، وبنت البنت وإن نزلت كبنت ابن الابن، وبنت بنت البنت. وقوله: (من جهة الأب أو الأم): يبين أن اسم الأخوات يشمل الأخوات لأب أو لأم أو لأب وأم، وهن الشقيقات.

(١) ينظر: الفصول في الأصول (١/٢٥٧).

وقوله: (أي: أخوات آبائكم وأجدادكم): بيان للمراد بالعمات من قبل الأب والأم.

وقوله: (أي: أخوات أمهاتكم وجداتكم): بيان للمراد بالخالات من قبل الأم أو الأب.

وقوله: (ويدخل فيهنّ...) إلى آخره: بيان للمراد بنات الأخ، وبنات الأخت، وأنّ هذا الاسم يشمل بنات الأخ وبنات الأخت، وإن نزلن فيدخل في ذلك بنات الأخ، وبنات الأخت، وبنات أولادهما، وإن نزلوا.

وقوله: (قبل استكمال الحولين...) إلى آخره: بيان لشرطي الرضاع المحرم، وهما: أن يكون الرضاع في الحولين؛ أي: في زمن الإرضاع، وأن تكون الرضعات خمس كما دلت السنة الصحيحة على هذا وهذا^(١).

وقوله: (ويلحق بذلك...) إلى آخره؛ أي: يلحق بالأخوات من الرضاعة بدلالة السنة «البنات منها»؛ أي: من الرضاعة، ثم فسر البنات من الرضاعة بأنهن بنات موطوءته بعقد النكاح أو ملك اليمين، وكذلك يُلحق بالأخوات من الرضاعة في التحريم العمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت من الرضاعة، والدليل قوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»^(٢)، ولهذا قال العلماء المحرمات من الرضاع: سبع؛ كالمحرمات من النسب.

وقوله: (جمع ربيبة...) إلى آخره: بيان للمراد بالربائب.

وقوله: (تربونها - صفة موافقة للغالب): بيان لمتعلق الجار والمجرور في حجبكم، ثم بيّن أنها صفة خرجت مخرج الغالب، فإنه ليست كل ربيبة يربّيها زوج أمها.

(١) ينظر: سنن البيهقي (١٦/١٣)، (١٦/٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٤٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بهذا اللفظ، وللبخاري (٢٦٤٦)، ومسلم (١٤٤٤) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نحوه.

وقوله: (فلا مفهوم لها): يريد أن صفة ﴿الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾، ليست قيداً في تحريم الربيبة بنت الزوجة، فتحرم الربيبة وإن لم تُربَّ في حجر زوج أمها.

وقوله: (جامعتموهنّ): تفسير: للدخول بالجماع، وهو المروي عن ابن عباس^(١)، وهذا من كنايات القرآن عن الجماع كنى عنه بالدخول، والمسيس، واللمس، والمباشرة، وفي هذا إرشاد إلى الأدب في الكلام بالكناية عما يستحيا من ذكره.

وقوله: (في نكاح بناتهنّ...) إلى آخره: بيان لمتعلق نفي الجناح، وهو نكاح الرئائب، فلا تحرم بنت الزوجة حتى يدخل بأمها، فلا تحرم بمجرد العقد على أمها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها؛ حل له نكاح بنتها، وهو معنى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا بخلاف أم الزوجة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها، وقوله: (إذا فارقتموهنّ)؛ أي: قبل الدخول بهن.

وقوله: (أزواج): تفسير: حلائل جمع: حليلة؛ بمعنى: محللة يعبر به عن الزوجة.

وقوله: (بخلاف...) إلى آخره: بيان للمحترز منه؛ بقوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾: وهم الأدياء، فإنه لا تحرم زوجاتهم على من تبناهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقوله: (من نسب أو رضاع...) إلى آخره: تفصيل: لحكم الجمع بين الأختين بنكاح أو مُلك يمين، وهو تحريم الجمع بالنكاح بين الأختين من

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/٥٥٩).

النسب أو الرضاع، وجواز الجمع بينهما بملك اليمين؛ فإذا ملك أختين فلا يطاق إلا واحدة، ثم لا يطاق الأخرى حتى يحرم الأولى على نفسه بتزويجها، أو إخراجها عن ملكه بعق أو بيع؛ هذا قول الجمهور في الجمع بين الأختين بملك اليمين أنه لا يتسرى بالأختين، وتوقف في ذلك بعض الصحابة، كما جاء أن عثمان سئل عن الجمع بين الأختين بملك اليمين؛ فقال: «أحلتها آية»؛ يعني: قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، «وحرمتها آية»؛ يعني: هذه الآية من سورة النساء، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولا أحب أن أصنعه»، ثم ذكر المؤلف أنه يلحق بتحريم الجمع بين الأختين بدليل من السنة الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها.

وقوله: (ويجوز نكاح كل واحدة على الانفراد): تأكيد بتعلق التحريم بالجمع، وإلا فنكاح إحدى الأختين معلوم من أدلة إباحة النكاح إلا ما خصه الدليل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾، كما سيأتي في الآية.

وقوله: (لكن): بيان بأن الاستثناء منقطع.

وقوله: (في الجاهلية...) إلى آخره: بيان للمراد بالمستثنى، وهو ما سلف في الجاهلية من نكاح بعض المحرمات؛ كالجمع بين الأختين، ونكاح أكثر من أربع، ونكاح امرأة الأب؛ كما تقدم في أول الآية.

وقوله: (لما سلف منكم قبل النهي): بيان لمتعلق المغفرة في هذه الآية، وهو ما سلف في الجاهلية من المخالفات قبل ورود النهي فإنه مغفور.

وقوله: (بكم في ذلك): معناه أن مغفرة الذنوب هو من رحمته بعباده.

وقوله: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ): معناه أن المحصنات معطوف على قوله:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾؛ المعنى: وحرمت عليكم المحصنات.

وقوله: (ذوات الأزواج): بيان للمعنى المراد من المحصنات في هذا الموضوع، فإنَّ لفظ المحصنات له عدة معان: العفائف، والحرائر، وذوات الأزواج.

وقوله: (أن تنكحوهنّ ...) إلى آخره: بيان لمتعلق التحريم وهو النكاح، وأمدّه فهو من التحريم المؤقت، وبيان لعموم المحصنات فيشمل المسلمات والكتايبات الحرائر.

وقوله: (من الإماء ...) إلى آخره: بيان للمراد بالمستثنى، وهن الإماء المسيبات ذوات الأزواج، فإنه ينفسخ نكاحهن بالسبي فيحل وطؤهن بملك اليمين.

وقوله: (نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَر ...) إلى آخره: بيان لإعراب كتاب، والعامل فيه فهو عند المؤلف منصوب على المصدرية، والعامل فيه فعل مقدر، ولهذا قال: (أَي: كَتَبَ ذَلِكَ)، ويحتمل أنه منصوب على المفعولية؛ أي: الزموا كتاب الله، وهذا أجود^(١).

وقوله: (بالبناء للفاعل والمفعول): يشير: إلى قراءتين في الفعل بفتح الهمزة، والحاء على البناء للفاعل، وقرئ بضم الكسرة والحاء على البناء للمفعول^(٢)، ومعنى القراءتين واحد؛ أي: أحل الله لكم ما سوى ما تقدم من المحرمات كبنات العم، والعمة، وبنات الخال، والخالة، والاسم الموصول على القراءة الأولى في موضع نصب مفعول به، وعلى القراءة الثانية في موضع رفع نائب فاعل.

وقوله: (أَي: سَوَى مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّسَاءِ): بيان لمعنى ما وراءه، وبيان لمرجع الإشارة، وهو: المحرمات المذكورة في الآية، ولهذا قال: (سَوَى مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّسَاءِ).

(١) ينظر: الدر المصون (٣/٦٤٨).

(٢) ينظر: المبسوط (ص ١٧٨).

وقوله: (لِـ «أَنْ تَبْتَغُوا»): معناه أَنَّ المصدر المؤول ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ علة الإحلال، ولهذا قدر قبله لام التعليل؛ فالمعنى: أحل الله لكم ما وراء ذلكم لأجل أن تبتغوا النكاح بأموالكم من مما أحل الله لكم.

وقوله: (تطلبوا النساء): بيان لمعنى: تبتغوا، وتقدير: للمفعول. وقوله: (بِصَدَاقٍ أَوْ ثَمَنٍ): بيان للوجه الذي يبذل فيه المال؛ فالمبذول في النكاح صداق، وفي التسري ثمن الأمة.

وقوله: (مُنْزَوِّجِينَ): فسر: الإحصان بالزواج؛ لأنَّ الزواج سبب الإحصان، ولو قال محصنين أنفسكم بالنكاح عما حرم الله عليكم كان أولى.

وقوله: (زَانِينَ)؛ لأنَّ: السفاح اسم من أسماء الزنى، ولهذا يقال: هذا مولود من نكاح لا من سفاح.

وقوله: (فَمَنْ): فسر: الموصول «ما» بـ: «من» ليبين أنها للعاقل؛ لأنَّ المراد بالموصول المرأة، وعاد عليه الضمير مذكراً مراعاة للفظ.

وقوله: (تَمَتَّعْتُمْ): تفسير: لـ «استمتعتم» ليبين أنَّ السين والتاء لتأكيد المعنى لا للطلب.

وقوله: (مَمَّنْ تَزَوَّجْتُمْ بِالْوِطْءِ): بيان لما به الاستمتاع، وهو الوطء، وموضع الاستمتاع، وهي: الزوجة، ومقتضى عبارته يقتضي أنَّ الضمير المجرور يعود إلى الوطء المفهوم من الاستمتاع، والأظهر أنه يعود إلى الموصول، والمراد به المرأة كما تقدم.

وقوله: (مُهِورَهْنَ الَّتِي فَرَضْتُمْ لِهِنَّ): تفسير للأجور، والمراد بأجور النساء مهورهن في جميع المواضع، ويعبر عن مهر المرأة بالفريضة لأنه حق فرضه الله؛ أي: أوجهه أو لأنَّ الزوج فرضه؛ أي: قدره، ولهذا قال المؤلف: التي فرضتم لهن.



وقولُه: (أَنتُمْ، وَهَنٌ): بيان لِمَا تقتضيه صيغة التفاعل في قوله: «تراضيتُم» من وجود طرفين.

وقولُه: (مِنْ حَطَّهَا أَوْ بَعْضُهَا أَوْ زِيَادَةٌ عَلَيْهَا): بيان لِمَا يشمله الاسم الموصول، وهو ثلاثة أمور: إسقاط الفريضة كلها أو إسقاط بعضها أو الزيادة عليها فما وقع عليه التراضي من ذلك؛ فلا جناح عليكم فيه؛ أي: لا إثم.

وقولُه: (بَخَلَقَهُ): بيان لمتعلق العلم، وهو خلقه وعبده فإنه عالم بأحوالهم، وما تقتضيه مصلحتهم، وهو عليم بكل شيء.

وقولُه: (فِيمَا دَبَّرَهُ لَهُمْ): معناه أَنَّ ما دبره الله لعباده من الشرائع هو مقتضى الحكمة، وهو الحكيم في كل تقدير وتدير.



وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَنِ اتُّمِّنَتْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾؛ أي: مَنْ لم يجد ما لا يستطيع به نكاح المحصنات؛ أي: الحرائر المؤمنات ﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أي: فلينكح من الإماء المملوكات ﴿فَمَنِ اتُّمِّنَتْ﴾.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾؛ أي: بإيمانكم جميعاً أنتم وهن، فإنه لا يعلم المؤمن على الحقيقة إلا الله تعالى. ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾؛ أي: حالكم وهن بالإيمان متشابهة لا تعلمون منه إلا الظاهر فيكفي في حل نكاحهن.

وقوله: ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾؛ أي: إذا حل لكم نكاح الإماء فانكحوهن بإذن أهلهن؛ أي: سادتهن فإن ولي الأمة في النكاح سيدها أو ولي سيدتها.

وقوله: ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: أعطوهن مهورهن بالدفع إلى أهلهن. ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾؛ أي: عفاف.

﴿غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ﴾؛ أي: غير زانيات مع كل مَنْ طلبهن، ولا زانيات باتخاذ أخدان؛ أي: أصحاب.

وقوله: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ﴾؛ أي: تزوجن.

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾؛ أي: زنا.

﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ أي: الحرائر، وهو خمسون جلدة.

﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾: وهو مئة جلدة حد الحرة البكر إذا زنت لأنه الذي يتنصف؛ فإذا كان حد الأمة المحصنة إذا زنت نصف حد الحرة البكر؛ فالأمة البكر أولى بالتنصيف.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾؛ أي: ذلك الحكم، وهو إباحة نكاح الإماء لمن لم يستطع نكاح الحرائر، ولا التسري، والعنت: المشقة بالوقوع في الفاحشة؛ فالمعنى: مَنْ لم يستطع طولاً أن ينكح المحصنات، وخشي من الوقوع في الزنا فله أن ينكح من الإماء. وقوله: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾؛ أي: عن نكاح الإماء، ولو كنتم ممن يحلو لهم ذلك فصبركم عنه خير لكم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: غفور لمن تاب إليه يستر ذنبه، ويتجاوز عنه، ورحيم بعباده، ومن رحمته تيسيره الأحكام، ومغفرته للذنوب.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ أي: غنى له ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الحرائر ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ - هو جري على الغالب فلا مفهوم له - ﴿فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يَنْكِحُ، ﴿مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ - واللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ. فَاكْتَفُوا بظاهره واكلوا السرائر إليه. فإنه العالم بتفضيلها، ورُبَّ أمة تَفْضُلُ الحُرَّةَ فيه. وهذا تأنيس بنكاح الإماء. ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: أنتم وهنَّ سواء في الدين، فلا تستنكفوا من نكاحهنَّ - ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾: مَوَالِيهِنَّ، ﴿وَأَتَوْهُنَّ﴾: أعطوهنَّ ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مُهُورَهُنَّ، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: من غير مطل ونقص، ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾: عَفَائِفَ، حَالٌ ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ زَانِيَاتٍ جَهْرًا، ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾: أَخْلَاءَ يَزْنُونَ بِهِنَّ سِرًّا. ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾: زَوَّجْنَ - وفي قراءة بالبناء للفاعل: تَزَوَّجْنَ - ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾: زَنَى ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾

نصف ما على المحصنات: الحرائر الأبقار إذا زنين، ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾: الحد. فيجلدن خمسين ويغربن نصف سنة. ويقاس عليهن العبد. ولم يجعل الإحصان شرطاً لوجوب الحد، لإفادة أنه لا رجم عليهن أصلاً. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: نكاح المملوكات، عند عدم الطول، ﴿لِمَن خَشِيَ﴾: خاف ﴿الْعَنَتِ﴾: الزنى - وأصله المشقة، سُمي به الزنى لأنه سببها بالحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة - ﴿مِنْكُمْ﴾ بخلاف من لا يخافه من الأحرار فلا يحل له نكاحها، وكذا من استطاع طول حرة - وعليه الشافعي. وخرج بقوله: «مِنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» الكافرات، فلا يحل له نكاحها ولو عديم وخاف - ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾ عن نكاح المملوكات ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لئلا يصير الولد رقيقاً، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالتوسعة في ذلك.

وقول المؤلف: (أي: غني لـ): تفسير للطول بالغنى الذي يستطيع به نكاح الحرائر، وهو مهر الحرة. وقوله: (الحرائر): تفسير للمحصنات، وهو أحد معاني المحصنات، والمناسب في هذا الموضع، فإن المحصنات يراد بها الحرائر والعففيات والمتزوجات، فيفسر في كل موضع بما يناسب المقام^(١). وقوله: (هو جري) على الغالب فلا مفهوم له): يريد أن وصف المحصنات بالمؤمنات هو الغالب في نكاح المسلمين، فإنهم يوثرون نكاح المؤمنات على نكاح الحرائر الكتابيات، فعلى هذا فوصف المحصنات بالمؤمنات خرج مخرج الغالب، وما كان كذلك فلا يكون قيداً، وحينئذٍ فلا مفهوم له، فمن استطاع نكاح حرة كتابية فلا يحل له نكاح الأمة.

(١) ينظر: نزهة الأعين النواظر (ص ٥٥٢).

وقوله: (يَنْكِحُ): خبر مبتدأ على أن «من» اسم موصول، وهو مبتدأ، ولو قدره: «فلينكح» على أن «من» شرطية، و«فلينكح» جواب الشرط، كان أولى لأن هذا هو الغالب في مثل هذا التركيب.

وقوله: (فاكتفوا بظاهره...) إلى آخره: بيان لمناسبة قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾، بعد قوله: ﴿مِنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾: وأنه يكفي في إيمانهن الإيمان الظاهر، وهو الذي تقدرون عليه، وأما السرائر فإله أعلم بها، فلا تتكلفوا العلم بالبواطن، وفي هذا إشارة إلى أنه ربما كانت أمة أفضل من حرة في إيمانها قال المؤلف: (وهذا تأنيس بنكاح الإماء): يريد أن في الإشارة إلى فضل الإماء في الإيمان تأنيساً لنكاح الإماء؛ أي: تسهيلاً له، وترغيباً فيه.

وقوله: (أي: أنتم وهنّ سواء في الدين...) إلى آخره: بيان لما يدل عليه قوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، من التشابه في الإيمان فأنتم، والإماء سواء في الدين، والله أعلم بما بينكم من التفاضل، وإذن فلا تأنفوا من نكاحهن إذا قامت بكم شروط الحل، وهي: عدم استطاعة طول الحرية، وإيمان الفتيات، وخوف العنت.

وقوله: (مَوَالِيَهُنَّ): تفسير: لأهلهن، وهم المالكون لهن.
 وقوله: (أَعْطَوْهُنَّ): تفسير: آتوهن فإنّ الإيتاء؛ بمعنى: الإعطاء.
 وقوله: (مُهِوْرَهُنَّ): تفسير: أجورهن فإنّ المهر يسمى أجراً، وهو كثير في القرآن، وإيتاؤهن أجورهن هو إيتاؤها لمواليهن، فإنّ صداق الأمة لسيدها.
 وقوله: (من غير مطل ونقص): تفسير للمعروف، فإنّ هذا هو الواجب في أداء جميع الحقوق، وهو أن تؤدى كاملة وقت استحقاقها.
 وقوله: (عَفَائِفَ، حَالٌ): بيان لمعنى محصنات، وموضعها من

الإعراب.

وقوله: (زانياتٍ، جَهراً): تفسير: لمسافحات، فإنَّ المسافحة هي المعلنة للزنا، فتزني مع كل مَنْ اتفق لها.

وقوله: (أخلاء ...) إلى آخره: تفسير: للمتخذات أخدان، ومعنى الجملتين أنَّ الفتيات المحصنات غير زانيات جهراً ولا سراً، وفي هذا النفي تأكيد لقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾.

وقوله: (زُوجَن ...) إلى آخره: تضمن كلامه أنَّ في الآية قراءتين؛ الأولى: بضم الهمزة، وكسر الصاد بالبناء للمفعول، والثانية: بفتح الهمزة والصاد^(١)، وجعل معنى الإحصان في القراءتين واحداً، وهو التزويج، وقيل: بالفرق بين القراءتين؛ فمعنى: أحصن بالبناء للمفعول زوجن، ومعنى: أحصن بالبناء للفاعل أسلمن. حكى القولين ابن جرير، ورجح القول بالفرق بين القراءتين في المعنى، وجعل للقراءتين والتأويلين ارتباطاً بقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ بفتح الصاد وكسرها، فمن قرأ بفتح الصاد فالمناسب أن يقرأ أحصن بالبناء للمفعول، ومن قرأ بكسر الصاد فالمناسب أن يقرأ أحصن بالبناء للفاعل^(٢).

وقوله: (زَنَى): تفسير: الفاحشة، وهو المراد بها في جميع المواضع.

وقوله: (الحرائر الأبكار إذا زَيْنَ): بيان للمراد بالمحصنات اللاتي على الإماء المتزوجات إذا زنين نصف ما عليهن، فإذا كان على الحرة البكر إذا زنت مئة جلدة فعلى الأمة المحصنة إذا زنت خمسون جلدة، هذا منطوق الآية، واختلف في حد الأمة البكر فذهب الجمهور إلى أنها كالمحصنة حدها خمسون جلدة، فإنها أولى بالتخفيف، وقيل: تجلد تأديباً بلا تقدير، وقيل: تجلد مئة، وهو مذهب داود الظاهري، وهو ضعيف؛ لأنه خلاف

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٦٠٥).

قاعدة الشريعة في الحدود، وقيل: تجلد البكر خمسين، وترجم المحصنة، وهو قول أبي ثور، وهو مناقض لظاهر القرآن، وحكمة الشريعة فهو أضعف الأقوال^(١).

وقوله: (الحدّ...) إلى آخره: يدل لقول المؤلف في تفسير العذاب الحد قوله تعالى في الزانية والزاني: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، ثم قال: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، فحد الحرة البكر مئة جلدة، وعلى الأمة المحصنة إذا زنت نصفها خمسون جلدة، وقوله: (وَيُغْرَبْنَ نِصْفَ سَنَةٍ): يشير: إلى أنّ التغريب الواجب في حد الحرة، وهو سنة يتنصف في حق الأمة، إذن فحدها خمسون جلدة، وتغريب نصف سنة، وقوله: (وَيُقَاسَ عَلَيْهِنَّ الْعَبْدُ)؛ أي: يقاس على الإماء المحصنات في تنصيف الحد؛ فحد العبد إذا زنى خمسون جلدة، ويغرب نصف سنة قياساً على الأمة، وهو قول جمهور العلماء^(٢)، وقوله: (ولم يجعل الإحصان شرطاً لوجوب الحدّ): فلم يقل: فعليهن الحد أو العذاب؛ بل قال نصف ما على المحصنات من العذاب، فلو جعل الإحصان شرطاً لأفاد رجم الأمة المحصنة، فلما لم يجعل الإحصان شرطاً في وجوب الحد عُلِمَ أنه لا رجم على الأمة أصلاً.

وقوله: (أي: نكاح المملوكات، عند عدم الطّول): بيان لمرجع اسم الإشارة، وهو حل نكاح الإماء لمن لم يستطع نكاح الحرة.

وقوله: (خاف): تفسير خشي، والخشية والخوف متقاربان.

وقوله: (الزنى...) إلى آخره: يريد أن شرط حل نكاح الإماء خوف الوقوع في الزنا؛ يقول: وعبر عن الزنا بالعنت؛ لأن أصل العنت المشقة،

(١) ينظر: المحلى (٢٣٧/١١)، والمغني (٣٣١/١٢).

(٢) هو قول الثوري وابن حزم وقول للشافعية. ينظر: المحلى (٢٣٧/١١)، والتهذيب

والزنا سبب المشقة لما يوجبه من العقوبة في الدنيا والآخرة، فعبر عنه بالعنت من التعبير بالمسبب عن السبب.

وقوله: (بخلاف من لا يخافه من الأحرار ...) إلى آخره: تضمن: كلامه ذكر شروط حل نكاح الأمة من الآية، وهي: ثلاثة أحدها: عدم استطاعة الطول. الثاني: خوف العنت. الثالث: أن تكون الأمة مؤمنة فمن تخلف فيه شرط من هذه الشروط لم يحل له نكاح الأمة، ولهذا قال: (بخلاف من لا يخافه من الأحرار ...) إلى آخره.

وقوله: (عن نكاح المملوكات ...) إلى آخره: بيان لمتعلق الصبر، وأنه خير، ومعناه: أن تصبروا عن نكاح الإماء، ولو مع تحقق شروط الحل، فالصبر خير لكم لسلامة أولادكم من الرق.

وقوله: (بالتوسعة في ذلك)؛ أي: إن من رحمته توسعته عليكم فيما شرع لكم.



وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٣٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٣٨﴾ [النساء: ٢٦-٢٨].

يخبر تعالى عما يريده لعباده رحمة منه بهم، وذلك أنه يريد أن يبين لهم أحكام دينهم من الحلال والحرام كما في الآيات السابقة، ويريد أن يهديهم طرائق مَنْ سلف من الأنبياء والصالحين، ويريد أن يتوب على التائبين، ويوفق للتوبة مَنْ شاء من المؤمنين، ثم أخبر بالتباين بين ما يريده بعباده، وما يريده بهم الكفرة والفسقة، فالله يريد بعباده أن يتوب عليهم فيستقيموا على طاعته، وأما الكفرة والفسقة، وهم: المتبعون للشهوات فيريدون بالمؤمنين أن يميلوا عن طريق الاستقامة مَيْلًا عَظِيمًا فيقترفوا الفواحش، ويتعدوا الحدود، ثم أخبر تعالى أنه يريد أن يخفف عن عباده فيما شرع لهم من الأحكام؛ لأنَّ الإنسان في حاجة إلى التخفيف؛ لأنَّ الله خلقه ضعيفًا فلا يقوى على دفع دواعي المعصية.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ شرائع دينكم ومصالح أمركم، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ﴾: طرائق ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، من الأنبياء في التحليل والتحريم فتتبعوهم، ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: يرجع بكم عن معصيته التي كنتم عليها إلى طاعته - ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبّره لكم - ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، كرّره لِيُبَيِّنَ عليه: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾: اليهود والنصارى أو المجوس أو الزناة ﴿أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾: تعدلوا عن الحقِّ بارتكاب ما حَرَّمَ عليكم، فتكونوا مثلهم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾: يُسَهِّلَ عَلَيْكُمْ أَحْكَامَ الشَّرْعِ. ﴿وُخْلِقَ
الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾، لَا يَصْبِرُ عَنِ النَّسَاءِ وَالشَّهَوَاتِ.

وقول المؤلف: (شرائع دينكم ومصالح أمركم): تعريف: بما يريد الله
بيانه، وهو الشرائع والمصالح.

وقوله: (طرائق): تفسير: لسنن؛ لأنَّ السنة في اللغة الطريقة.

وقوله: (من الأنبياء...) إلى آخره: بيان للمراد بالذين من قبلنا، وهم:
الأنبياء؛ لأنَّ طرائقهم قويمه، فالسير عليها يوصل إلى النجاة والفلاح.

وقوله: (يرجع بكم...) إلى آخره: بيان للمراد بالتوبة في قوله:
﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، ومعنى ما ذكره هو التوفيق للتوبة.

وقوله: (بكم)؛ أي: عليم بضعفكم، وما يصلحكم.

وقوله: (فيما دبَّره لكم): معناه أنَّ ما دبَّره لكم من الأحكام جارٍ على
وفق الحكمة.

وقوله: (كرَّره لِيُنَيِّ عَلَيْهِ)؛ أي: كرر إرادة التوبة ليرتب عليه ذكر ما
يريد الذين يتبعون الشهوات، ليتبين الفرق بين ما يريده الله بالمؤمنين، وما
يريده أعداؤهم.

وقوله: (اليهود...) إلى آخره: إشارة إلى أقوال المفسرين في المراد
بـ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾^(١).

وقوله: (تعدلوا عن الحق...) إلى آخره: بيان للمراد بالميل العظيم،
وإذا وقع ذلك من المؤمنين صاروا مثل أعدائهم، وهذا المعنى يشبه قوله

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/٦٢٢)، وزاد المسير (١/٣٩٥).



تعالى عن المنافقين: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء:

٨٩].

وقوله: (يُسَهِّلَ عَلَيْكُمْ أَحْكَامَ الشَّرْعِ): بيان لما يحصل به التخفيف عن العباد، وهو تسهيل الأحكام.

وقوله: (لَا يَصْبِرُ عَنِ النَّسَاءِ وَالشَّهَوَاتِ): بيان لمتعلق الضعف، ومقتضاه حسب ما يناسب المقام.



وقوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلًا كَرِيمًا ٣١﴾ [النساء: ٢٩-٣١].

ينهى الله عباده المؤمنين عن أكل أموالهم بينهم بالباطل؛ أي: يأكل بعضهم مال بعض بالباطل كعقود الربا والبيوع المحرمة.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾: يعني: إلا أن توجد تجارة ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾؛ أي: بتراضي منكم؛ أي: بلا غصب ولا غش ولا خديعة، ونهى المؤمنين عن قتل أنفسهم؛ أي: عن قتل بعضهم بعضًا، نهاهم عن ذلك رحمة بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾؛ أي: القتل، ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾؛ أي: قتلاً بغير حق ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾؛ أي: ندخله ناراً عظيمة ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾؛ أي: سهلاً هيناً على الله، لا يتعاضم إدخال القاتل النار.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: يعني: إن تركوا كبائر الذنوب، وهي: ما قرن النهي عنها بوعيد من لعن أو غضب أو نار^(١)، ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾: وهي: الصغائر؛ أي: نسترها ونمحوها، ولا نأخذكم بها، ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلًا كَرِيمًا ٣١﴾؛ أي: حسناً فسيحاً فيه ما تشتهيهِ الأنفس، وتلد الأعين، وهو الجنة، وقد دلت السنة على أن فعل الفرائض يكفر السيئات إذا اجتنبت الكبائر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا، لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾: بالحرام في الشرع كالربا والغصب - ﴿إِلَّا﴾: لكن ﴿أَنْ تَكُونَ﴾: تقع ﴿تِجَارَةً﴾،

(١) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية لشيخنا (ص ٢٥٢-٢٥٤).

وفي قراءة بالنصب أي: تكون الأموال أموال تجارية، صادرة ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ وطيب نفس فلکم أن تأكلوها- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بارتكاب ما يُؤدِّي إلى هلاكها، أيًا كان في الدنيا أو الآخرة، بقرينة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، في منعه لكم من ذلك، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: ما نهى عنه ﴿عُدُوْنَا﴾: تجاوزًا للحلال، حال ﴿وِظْلَمًا﴾: تأكيد، ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾: ندخله ﴿نَارًا﴾ يحترق فيها، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: هيئًا. ﴿إِنْ تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ -وهي ما ورد عليها وعيد، كالقتل والزنى والسرقة. وعن ابن عباس: هي إلى السبعِمائة أقرب - ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الصغائر بالطاعات، ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا﴾ -بضم الميم وفتحها- أي: إدخالًا، أو مَوْضِعًا ﴿كَرِيمًا﴾ هو الجنة.

وقول المؤلف: (بالحرام في الشرع كالربا والغصب): تفسير للباطل، ومثل للحرام في الشرع بالربا والغصب؛ فإنَّ أكل المال بهما من أكل المال بالباطل.

وقوله: (لكن): يريد أن الاستثناء منقطع ف «إلا» بمعنى: لكن.

وقوله: (تقع): يبين أن تكون تامة.

وقوله: (وفي قراءة ...) إلى آخره: يفيد: أنه اعتمد قراءة الرفع، ولهذا

اعتبارها فاعلاً حين فسر «تكون» تقع، ثم أشار إلى قراءة النصب في «تجارة»، وبين أن «تجارة» خبر تكون على قراءة النصب^(١)، وقوله: (صادرة):

تقدير: لم يتعلق عن تراض؛ أي: صادرة عن تراض.

وقوله: (وطيب نفس): تنبيه على اعتبار الرضا التام.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٨).

وقوله: (فلکم أن تأکلوها): بیان لحکم المستثنى، وأنه بخلاف المستثنى منه.

وقوله: (بارتکاب ...) إلى آخره: کلامه: يتضمن تعلق النهي بالتسبب في هلاك النفس، فجعله من قبيل التعبير بالمسبب عن السبب، والأظهر حمل الآية على ظاهرها، وهو النهي عن قتل الإنسان نفسه، أو قتل المؤمنين بعضهم بعضاً، ومعلوم أن للوسائل حکم الغايات فما يؤدي إلى الحرام حرام، فيحرم التسبب في قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وكذلك يدخل في معنى الآية، تسبب الإنسان في إهلاك نفسه بالمعاصي التي تفضي به إلى عذاب الله في الدنيا والآخرة.

وقوله: (في منعه لكم من ذلك): يريد أن نهيه تعالى المؤمنين عن قتل أنفسهم رحمة منه بهم، وهذا مقتضى اسمه تعالى الرحيم.

وقوله: (أي: ما نهى عنه): بیان لمرجع اسم الإشارة، وهو ما نهى الله عنه من القتل.

وقوله: (تجاوزاً للحلال، حالاً): يريد أن أصل عدوان مصدر عدى يعدو إذا تجاوز الشيء، وهو في موضع الحال فهو مصدر نصب على الحال.

وقوله: (تأكيد): يريد أن العدوان ظلم فعطف الظلم عليه تأكيد.

وقوله: (ندخله): فسر الإصلاء: بالإدخال، لأنه من لازمه.

وقوله: (يحترق فيها)؛ لأن: هذا شأن النار أن تحرق ما فيها، لكن نار جهنم ما تحرقه لا يموت.

وقوله: (هيناً)؛ لأنه تعالى لا يعجزه شيء، ولا يعظم عنده تعذيب من استوجب العذاب من الكفار وأهل الكبائر.

وقوله: (وهي ما ورد عليها وعيد ...) إلى آخره: يريد أن الذنوب الكبائر التي اجتنابها شرط في تكفير السيئات وهي الصغائر. هي ما ورد فيه وعيد من لعن أو غضب أو نار، كأكل الربا أو أكل مال اليتيم والسرقة والزنا، وذكر أثر ابن عباس للاستدلال به على كثرة الكبائر، وأنها ليست محصورة في سبع^(١).

وقوله: (الصغائر بالطاعات): تفسير: للسيئات المكفرة بدليل مقابلتها بالكبائر، وقوله: (بالطاعات): إشارة إلى ما ورد في السنة؛ كقوله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»^(٢).

وقوله: (بضم الميم ...) إلى آخره: يبين أن مدخل اسم مكان من أدخل، أو دخل بضم الميم من أدخل، أو فتحها من دخل. وقوله: (هو الجنة): تفسير: للمدخل الكريم، فإن الجنة أحسن مكان.



(١) أخرجه الطبري (٦/ ٦٥١)، وابن أبي حاتم (٥٢١٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣-١٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٣٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَٰذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣﴾ [النساء: ٣٢-٣٣].

هذا نهى من الله للمؤمنين أن يتمنى أحدهم ما فضل الله به بعضهم، فإن أراد المتمنى أن يكون له مثل ما فضل به عليه غيره فذلك الغبطة، وليس هو بالحسد المذموم، وإن أراد زوال النعمة عمن فضل عليه، فذلك هو الحسد الذي نهى الله عنه ورسوله، وذم به اليهود، ويدخل في هذا النهي تمنى النساء ما فضل به الرجال، وتمنى الرجال ما فضل به بعض النساء، ثم أخبر تعالى أن لكل من الرجال والنساء نصيباً من عملهم، وكسبهم الذي اكتسبوه، وفي هذا إرشاد إلى التسبب إلى نيل الحظوظ بالجد والعمل، وترك التعويل على الأماني، ثم أرشد تعالى إلى أعظم الأسباب في نيل ما عند الله من الفضل، وهو الدعاء؛ فقال تعالى: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ؕ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٣٢﴾: يتضمن: علمه تعالى بأعمال العباد وأقوالهم ونياتهم، ومن يستحق التفضيل ومن لا يستحق، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾؛ أي: لكل من الرجال والنساء جعلنا موالى ورثة من أقاربهم يورثونهم ويرثون منهم، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ...﴾ [النساء: ٧] الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾؛ أي: الذين بينكم وبينهم عقد حلف على النصرة والمعاونة والتوارث فاتوهم نصيبهم، وهو ما يوجبه الحلف من الإرث وغيره.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾: تذكير: بما يوجب المراقبة في أداء الحقوق، وغيره، وهو أنه تعالى على كل شيء شهيد حاضر يسمع ويرى، ومن استحضر ذلك لم يقدم على معصية الله ولا ظلم العباد.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، من جهة الدنيا أو الدين، لئلا يؤدي إلى التحاسد والتباغض - ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾: ثواب ﴿مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ بسبب ما عملوا من الجهاد وغيره، ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَ﴾ من طاعة أزواجهن وحفظ فروجهن. نزل لما قالت أم سلمة: ليتنا كنا رجالاً فجاهدنا، وكان لنا مثل أجر الرجال - ﴿وَاسْأَلُوا﴾، بهمزة ودونها، ﴿اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ما احتجتم إليه يُعْطِكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، ومنه محلّ الفضل وسؤالكم. ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الرجال والنساء ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَّ﴾: عَصَبَةً يُعْطُونَ ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ لهم من المال. ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ﴾ - بألف ودونها - ﴿أَيْمَانَكُمْ﴾: جمع يمين بمعنى القسم أو اليد، أي: الحلفاء الذين عاهدتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث، ﴿فَاتَوْهُمْ﴾ الآن ﴿نَصِيْبُهُمْ﴾ حظهم من الميراث. وهو السُّدُس. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾: مُطَّلَعًا، ومنه حالكم. وهذا منسوخ بقوله: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ».

وقول المؤلف: (من جهة الدنيا أو الدين ...) إلى آخره: يريد أن النهي عن تمني ما فضل به الغير عام للتفضيل في الدنيا والدين، وهذا التمني يفضي إلى الحسد؛ فالذي حرمه الله بين المؤمنين، وحقيقته تمني زوال النعمة عن أنعم الله عليه من المؤمنين.

وقوله: (ثوابٌ): تفسير: للنصيب، وخص النصيب بالثواب، مع أنَّ الاكتساب يعم ما يقتضي الثواب وما يقتضي العقاب، وهو اختيار ابن جرير وابن كثير^(١)، ولما اختاره المؤلف وجهه، فإنَّ الفضل والتفاضل أخص بالمحسوب والنافع.

وقوله: (بسبب ما عملوا من الجهاد وغيره): تضمن أنَّ «من» عنده سببية، وأنَّ الاكتساب بمعنى الكسب، وهو مطلق العمل، والمراد به هنا العمل الصالح؛ لقوله: (ما عملوا من الجهاد وغيره): وسوغ هذا التأويل ذكر الاكتساب مفردًا بخلاف ما إذا قرن بالكسب؛ كقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]: فيفترق معناهما؛ فالكسب عمل الخير، والاكتساب عمل الشر، وإذا أُفردا كان معناهما واحدًا، فيصح أن تقول: اكتسب الحسنات، وكسب السيئات.

وقوله: (من طاعة أزواجهنّ...) إلى آخره: فسر: الاكتساب بكسب العمل الصالح كما في الجملة السابقة، ومثل له بما يختص بالنساء من طاعة أزواجهن وحفظ فروجهن؛ أي: وغير ذلك مما هو طاعة لله، ثم أشار إلى سبب نزول هذه الآية بقوله: (قالت أم سلمة... إلى آخره^(٢)).

وقوله: (بهمزة ودونها): يشير: إلى قراءتين في الآية إحداهما بهمزة بعد السين، والأخرى بحذف الهمزة، «وسلوا»^(٣).

وقوله: (ما احتجتم إليه يُعطيكم): فيه تقدير المفعول الثاني، وهو قوله: (ما احتجتم إليه): وتقدير جواب الدعاء، وهو قوله: (يُعطيكم).

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٦٦٩)، وابن كثير (٢/ ٢٨٧).

(٢) ينظر: العجائب (٢/ ٨٦١).

(٣) ينظر: المبسوط (ص ١٧٩).

وقوله: (ومنه محلّ الفضل وسؤالكم): يريد أن من الأشياء التي يعلمها الله محلّ الفضل من الرجال والنساء، والمراد: من يكون أهلاً لفضل الله، وكذا يعلم سؤال السائلين ونياتهم في سؤالهم.

وقوله: (من الرجال والنساء): بيان للمضاف إليه الذي حذف، وعوض عنه التنوين.

وقوله: (عَصَبَةً): العصبية: كل من يرث بغير تقدير نصيبه، ومنهم ابن العم، والعرب تسمي ابن العم مولى.

وقوله: (يُعْطُونَ): تقدير: لمتعلق مما ترك.

وقوله: (لهم من المال): معناه ما تركه الوالدان والأقربون من المال لمواليهما؛ أي: ورثتهما.

وقوله: (بألف ودونها): إشارة إلى قراءتين: عاقدت، وعقدت أيماكم^(١).

وقوله: (جمع يمين ...) إلى آخره: فيه: الإشارة إلى الخلاف في المراد بالأيما فإنها جمع يمين، واليمين يحتمل أن يراد به القسم أو اليد اليمنى؛ لأن المتعاقدين يؤكدان العقد بالقسم، وبالمصافحة بأيماهما، ثم بين المؤلف المراد بالذين عقدت أيماهم أنهم المتحالفون في الجاهلية على النصر والإرث، والآية تؤكد، ويشهد لذلك قوله ﷺ: «لا حلف في

الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزه الإسلام إلا شدة»^(٢).

وقوله: (الآن)؛ أي: بعد الإسلام.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٣٠) عن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: (حَظَّهُمْ ...) إلى آخره: يعني: ما يستحقونه من الميراث بالحلف، وقدره بالسدس، ولم يذكر دليلاً على هذا التقدير، ولكن ذكره ابن جرير عن قتادة^(١).

وقوله: (مُطَّلَعًا ...) إلى آخره: لأنه تعالى حاضر يسمع ويرى فهو مطلع على كل شيء، ومن ذلك اطلاعه على أحوال المتعاقدين الظاهرة والباطنة.

وقوله: (وهذا منسوخ): يريد أن قوله: ﴿فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾؛ أي: من الميراث منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦] فدلّت الآية على أن ذي الرحم أولى بالميراث من الحليف، واختار ابن جرير أن الآية محكمة، وأن المراد بقوله: ﴿فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾؛ يعني: من النصرة والنصيحة والعقل، وهذا لم ينسخ^(٢)، وعندي أن القول الأول قوي؛ لأنّ أهل الجاهلية يدخلون الميراث في الحلف؛ لأنهم يقول أحدهم للآخر في حلفهم: دمي دمك، وهدمي هدمك، وتطلب بي وأطلب بك، وترثني وأرثك، وقد نسخ التوارث بالحلف بالآية: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]: وبآيات المواريث فالآية إذن؛ منسوخة فيما يخص الإرث بالحلف^(٣).



(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٦٧٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٦٨٥-٦٨٦).

(٣) ينظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص ٣٣١)، ولابن العربي (٢/ ١٤٠).

وقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَلِحَتْ قِنْتُكَ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٤-٣٥].

يخبر تعالى خبراً يتضمن الأمر بمضمونه، وهو أن الرجال؛ أي: الأزواج ﴿قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾؛ أي: سادة على أزواجهم يقومون على شؤونهن بالرعاية والحماية والإصلاح في أمر الدين والدنيا، وعليهن أن يطعنهم بالمعروف، ويؤدين حقوقهم، ثم ذكر تعالى سبب هذه القوامية للرجال على النساء، وهو أمران:

تفضيل بعضهم على بعض بأنواع التفضيل الجسدية والعقلية والشرعية، والأمر الثاني: إنفاقهم المال عليهن من صدق ونفقة، ثم أخبر تعالى عن الزوجات بأنّ منهن صالحات؛ أي: مستقيمات في دينهن مؤديات لفرائض الله مجتنبات لمحارمه، وهن قانتات؛ أي: مطيعات لله، ومطيعات لأزواجهن ﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾ وهو ما اتّمنهنّ الله عليه، وما اتّمنهنّ الأزواج عليه عند غيبتهن فيحفظن أزواجهن إذا غابوا عنهن في أنفسهن وفي أموالهن.

وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾؛ أي: بحفظ الله لهن، وعصمته لهن. ثم أخبر تعالى عن الناشزات على أزواجهن، وهن المترفات العاصيات، ثم أرشد تعالى الأزواج إلى ما يعاملوا به الناشزات، وهو ثلاثة أمور مرتبة:

الوعظ، ثم الهجر، ثم الضرب ضرباً غير مبرح.

فقال تعالى: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾؛ أي: إذا رجعن إلى الطاعة، فلا تتطلبوا طريقاً إلى ما يسوؤهن من هجر وضرب أو غير ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ (٣٤): تعقيب: بما يتضمن تهديد من يخالف نهى الله في أمر النساء؛ أي: فاحذروا أن تعصوه فإنه عالٍ عليكم، وعظيم فعظموا أمره ونهيه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾: الخطاب لأولياء الأمور إن خافوا أن يؤول الخلاف بين الزوجين إلى الشقاق، وهو شدة الخصومة فابعثوا حكمين، حكماً من أهل الرجل، وحكماً من أهل المرأة لينظر في أمر الزوجين، فإن رأيا المصلحة في التفريق فرقا بينهما بطلاق أو خلع، وإن رأيا أن الجمع أصلح أصلحا بينهما، وحكما بالجمع، كل ذلك سائغ للحكمين؛ لأن الصواب أنهما حاكمان لا وكيلان عن الزوجين.

وقوله: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾؛ أي: الحكمان أو الزوجان يوفق الله بينهما فيذهب الشقاق الذي بين الزوجين، ويسدد الحكمين.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ (٣٥): تذكير: للحكمين والزوجين بإحاطة علم الله بمن يريد الإصلاح، ومن يريد خلافه ففيه وعد ووعد.

﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ﴾: مُسَلِّطُونَ ﴿عَلَى النِّسَاءِ﴾، يُؤَدِّبُونَهُنَّ وَيَأْخُذُونَ عَلَى أَيْدِيَهُنَّ، ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: بتفضيله لهم عليهن بالعلم والعقل والولاية وغير ذلك، ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ عليهن ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ﴾ منهن ﴿قَانِتَاتٌ﴾: مُطِيعَاتٌ لِأَزْوَاجِهِنَّ، ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾ أي: لفروجهن وغيرها في غيبة أزواجهن، ﴿بِمَا حَفِظَ﴾ هن ﴿اللَّهُ﴾ حيثُ أَوْصَى عليهن الأزواج، ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾: عصيانهن لكم، بأن ظهرت أمارته ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾: فخوفوهن الله،

﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾: اعتزلوا إلى فراش آخر إن أظهرن الشُّوزَ،
 ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ضربًا غير مُبْرَحٍ، إن لم يرجعن بالهجران. ﴿فَإِنْ
 أَطَعْنَكُمْ﴾، فيما يُراد منهنَّ، ﴿فَلَا تَبْغُوا﴾: تطلبوا ﴿عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾:
 طريقًا إلى ضربهنَّ ظُلْمًا. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾، فاحذروه أن يُعاقبكم
 إن ظلمتموهنَّ.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾: علمتم ﴿شِقَاقَ﴾: خلاف ﴿بَيْنَهُمَا﴾: بين الزوجين
 -والإضافة للتَّسَاعِ- أي: شقاقًا بينهما ﴿فَابْعَثُوا﴾ إليهما برضاهما
 ﴿حَكَمًا﴾: رجلًا عدلًا ﴿مِّنْ أَهْلِهِ﴾: أقاربه، ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾.
 ويُوَكِّلُ الزوجُ حَكَمَهُ في طلاقٍ وقبولِ عَوَضٍ عليه، وتُوَكِّلُ هي حَكَمَهَا
 في الاختلاع، فيجتهدان ويأمران الظالم بالرجوع أو يُفَرِّقان إن رأياه. قال
 تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا﴾ أي: الحَكَمَانِ ﴿إِصْلَاحًا يُوفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾: بين
 الزوجين أي: يُقَدِّرُهُمَا على ما هو الطاعة من إصلاح أو فراق. ﴿إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ عَلِيمًا﴾ بكلِّ شيء، ﴿خَبِيرًا﴾ بالبواطن والظواهر.

وقولُ المؤلِّف: (مُسَلِّطُونَ)؛ أي: للأزواج سلطان على زوجاتهم؛
 لأنهم أولياؤهن، عليهن السمع والطاعة لما يأمرونهن به بالمعروف، وهم
 يقومون عليهن بالرعاية والكفاية.

وقوله: (يُؤَدَّبُونَهُنَّ ...) إلى آخره: بيان لبعض ما تقتضيه القوامية،
 ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقوله: (أي: بتفضيله لهم ...) إلى آخره: بيان لوجوه تفضيل الرجال
 على النساء.

وقوله: (عليهنَّ): بيان للمنفق عليه، وإشارة إلى نوع النفقة، وهي: ما
 يعطيه الرجال النساء من الصداق وغيره.

وقوله: (منهنّ): بيان للمراد بالصالحات بأنهن الصالحات من الأزواج.
 وقوله: (مطيعات لأزواجهنّ): تفسير: للقانتات، وخص القنوات بطاعة الأزواج؛ لأنه المناسب لسياق الآية.

وقوله: (أي: لفروجهنّ...) إلى آخره: بيان لمفعول حافظات؛ فالمعنى: لا يخنّ أزواجهن في أنفسهن إذا غابوا عنهن؛ كما جاء في الحديث في صفة المرأة الصالحة: «وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله»^(١).

وقوله: («بما حفظ»هنّ)؛ أي: بحفظ الله لهن، وما مصدرية، والباء سببية؛ المعنى: حافظات للغيب بسبب حفظ الله لهن.

وقوله: (حيث أوصى عليهنّ الأزواج): تعبير عن حفظ الله لهن، وفي هذا التفسير نظر، والظاهر أنّ معنى: «حفظ الله لهن» توفيقه لهن، وعصمته إياهن.

وقوله: (عصيانهنّ...) إلى آخره: تفسير: للنشوز، وأصل النشوز الارتفاع^(٢)، ونشوز المرأة ترفعها على زوجها، ومن آثار ذلك أنها تعصيه إذا أمرها، وهذا ضد القنوات الذي وصفت به الصالحات، وبظهور أمارات النشوز، وهي: بداياته، فإنه يخاف من تحقيقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾؛ أي: بسبب ظهور الأمارات.

وقوله: (فخوفهنّ الله): تفسير للوعظ، ومعلوم؛ أنّ أبلغ وعظ هو تخويف العاصي ربه؛ فيقال له: خف ربك؛ كما يكون الوعظ بالترغيب

(١) أخرجه بهذا اللفظ: الطبراني في الأوسط (٢١١٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: «لم يرو هذا الحديث عن جابر إلا شريك، تفرد به: يزيد»، ولأحمد (٧٤٢١) نحوه، وأخرجه أبو داود (١٦٦٤)، والحاكم (١٤٨٧) - وصححه - عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما بنحوه. وينظر: الضعيفة (١٣١٩).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٥/٤٣٠).

والترهيب والأمر والنهي، ومعنى هذا أنَّ على الزوج أن يبدأ الناشز بالوعظ، فإن رجعت إلى الطاعة، وإلا انتقل إلى ما بعده، وهو الهجر في المضجع.

وقوله: (اعتزلوا...) إلى آخره: يريد أنَّ الهجر في المضجع صورته ترك النوم معها في فراش واحد؛ بل يتخذ لنفسه فراشاً آخر ينفرد فيه.

وقوله: (ضرباً غير مُبرِّح...) إلى آخره: بيان لنوع الضرب المأذون به، وهو الذي لا يكسر عظاماً ولا يترك أثراً، وهذا معنى: غير مبرح، وأنه لا يُصار إليه إلا إذا لم يجد الوعد ولا الهجر.

وقوله: (فيما يُراد منهنّ): بيان لمتعلق الطاعة الواجبة، وهو ما يريد الزوج من زوجته، ويأمرها به.

وقوله: (تطلبوا): تفسير لتبغوا، وهو من بغى الشيء يبغيه، والسبيل: الطريق؛ المعنى: لا تطلبوا طريقاً إلى ضربهن، وقد أطعنكم، فإنَّ الضرب حينئذٍ يكون ظلماً.

وقوله: (فاحذروه...) إلى آخره: بيان لمعنى التذليل بذكر الاسمين الشريفين، وهو: التحذير من ظلمهن، والتهديد للظالم.

وقوله: (علمتم): تفسير: للخوف بالعلم؛ لأنَّ العلم بالمحذور يوجب الخوف، فهو من تفسير الشيء بلازمه.

وقوله: (خلاف): تفسير: للشقاق، والصواب: أنَّ الشقاق أخص من الخلاف، فليس كل خلاف شقاق وكل شقاق خلاف، لكنه خلاف مع تباعد وتنافر، ويؤدي إلى الخصومة.

وقوله: (بين الزوجين...) إلى آخره: بيان لمرجع ضمير التثنية، وقوله: (والإضافة للاتساع): يريد بالإضافة إضافة المصدر «شقاق» إلى «بين»، ويريد بالاتساع التوسع في التعبير، والأصل أن يقال: وإن خفتم شقاقاً بينهما، فأضاف «الشقاق» إلى «بين»، وهو من إضافة المصدر إلى المكان.

وقوله: (إليهما برضاهما): قيد: بعث الحكمين برضا الزوجين، والصواب: أنه لا يشترط في بعث الحكمين رضا الزوجين، والتقييد برضا الزوجين يناسب قول من يقول: إنَّ المبعوثين وكيلان للزوجين لا حكمان. وقوله: (رجلاً عدلاً): بيان لبعض ما يشترط في الحكم، وهو الذكورية والعدالة.

وقوله: (أقاربه)؛ أي: أقارب الزوج، وأهلها: أقارب الزوجة، والأهل يطلق على الأقارب.

وقوله: (ويؤكّل الزوج...) إلى آخره: هذا: يناسب ما سبق من قوله: «برضا الزوجين» وتقدم ما فيه من المخالفة لظاهر القرآن، وأنَّ الصواب: أنَّ المبعوثين حكمان لا وكيلان، فينفذ حكمهما في الجمع والتفريق^(١).

وقوله: (أي: الحكمان): بيان لمرجع ضمير التثنية المرفوع. وقوله: (بين الزوجين...) إلى آخره: بيان لمرجع ضمير التثنية المجرور، وقوله: (يُقدّرهما): تفسير: لقوله: ﴿يُوفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، ومعنى: يقدرهما؛ أي: يجعلهما قادرين على ما هو أحب إلى الله من إصلاح أو فراق، وما كان أحب إلى الله؛ فهو الأصلح للزوجين.

وقوله: (بكل شيء): مأخوذ: من الإطلاق، وعدم التقييد، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

وقوله: (بالبواطن والظواهر): الخبرة أخص من مطلق العلم، وهي: العلم بحقائق الأشياء، وبواطنها؛ فالخير أخص من العليم.



(١) وهو قول عليٍّ وجماعة من السلف، ورواية عن أحمد، وينظر الخلاف في: المغني (١٠/٢٦٣)، وتفسير الطبري (٦/٧١٧) وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ وَقْرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء: ٣٦-٣٩].

يأمر الله تعالى عباده في هذه الآية أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، ويأمرهم بالإحسان بالوالدين والأقربين واليتامى والمساكين والجيران والأصحاب وابن السبيل والمماليك، ويذم المتكبرين عن عبادته، وعلى عباده، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾، فقد تضمنت هذه الآية الأمر بعشرة حقوق:

أولها وأعظمها: حق الله على عباده، وهو عبادته وحده لا شريك له، وهذا معنى لا إله إلا الله، ثم ذكر تعالى تسعة من حقوق العباد بعضهم على بعض بدأها بحق الوالدين، وحق ذوي القربى، ومدار هذه الحقوق على الإحسان بمن ذكر الله من أصناف الناس، ولهذا تسمى هذه الآية آية الحقوق العشرة^(١)، ثم ختمت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾، وهو كل متكبر مغرور، ومن لا يحبه الله فإنه يبغضه، ومن أبغضه الله خاب وخسر، ثم وصف الله هذا الصنف من الناس بالبخل، وأمر الناس بالبخل، وكتمان العلم، فذمهم بالبخل بالمال، وبكتمان العلم، وأمر الناس بذلك، وهو ضد ما أمر الله به من الإحسان، وهذا الوصف

(١) ينظر: الكشف عن مقاصد أبواب ومسائل كتاب التوحيد لشيخنا (ص ٢٤)، (ص ٣٧).

منطبق على اليهود، يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، ثم ذكر الله صنفًا آخر من الناس مذموماً، وهم الذين ينفقون أموالهم رياء الناس، ولا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ثم أشار تعالى إلى أن فريقين الباخلين والمنفقين المرائين قد قارنهم الشيطان، ومن قارنه الشيطان أضله وأغواه، وزين له قبيح عمله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ وَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: لوجه الله؛ المعنى: لو فعلوا ذلك ما كان عليهم من ذلك ضرر، ولكنه الجهل وصحبة الشيطان، ثم ختمت الآية بما يتضمن تهديد الباخلين والمرائين؛ فقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾: وحدوه ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾: أحسنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: برًّا ولينَ جانب، ﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾: القرابة، ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾: الجارِ ذِي الْقُرْبَى: القريب منك في الجوار أو النسب، ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾: البعيد عنك في الجوار أو النسب، ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾: الرفيق في سفر أو صناعة وقيل: الزوجة، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: المنقطع في سفره، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: من الأرقاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾: مُتَكَبِّرًا، ﴿فَخُورًا﴾: على الناس بما أُوتي. ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿يَبْخُلُونَ﴾: بما يجب عليهم، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾: به، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: من العلم والمال. وهم اليهود. وخبر المبتدأ: لهم وعيد شديد - ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ بذلك وبغيره ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾: ذا إهانة - ﴿وَالَّذِينَ﴾: عطف على «الذين» قبله ﴿يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾: مُرائين لهم، ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا

بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: كالمنافقين وأهل مكة. ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾: صاحبًا، يعمل بأمره كهؤلاء، ﴿فساء﴾: بئس ﴿قَرِينًا﴾ هو! ﴿وماذا عليهم، لو آمنوا بالله واليوم الآخر، وأنفقوا مما رَزَقَهُمُ اللّهُ﴾ أي: أي ضرر عليهم في ذلك؟ والاستفهام للإنكار، ولو: مصدرية أي: لا ضرر فيه، وإنما الضرر فيما هم عليه، ﴿وكان اللّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾، فيُجازيهم بما عملوا.

وقول المؤلف: (وحدوه): أي: أفردوه بالعبادة، ولا تعبدوا معه غيره، وهو معنى: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾. وقوله: (أحسنوا): تقدير: لعامل المصدر، والتقدير: وأحسنوا بالوالدين إحسانًا.

وقوله: (برًا ولين جانب): تفسير: للإحسان. وقوله: (القربة): تفسير للقربى، والصواب: أن القربى أخص من مطلق القربة.

وقوله: (القريب منك ...) إلى آخره: تضمن ذكر قولين في المراد بالجار ذي القربى؛ أحدهما: قرب الجوار، وهو القرب في المكان، والثاني: قرب النسب، وهو القربة، وهذا قول جمهور المفسرين من السلف، وهو الصواب^(١). وقوله: (البعيد عنك ...) إلى آخره: ذكر: في الجار ذي الجنب؛ قولين: مقابلين للقولين الذين ذكرهما في المراد بالجار ذي القربى، والصواب: أن المراد به البعيد في النسب^(٢).

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/٧)، والتفسير البسيط (٦/٥٠٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/٩)، والتفسير البسيط (٦/٥٠٥).

وقوله: (الرفيق في سفر ...) إلى آخره: تضمن: ذكر القولين في المراد بالصاحب بالجنب، فإما الرفيق في السفر، وإما الزوجة^(١)، والقول بأن المراد به الرفيق أظهر - والله أعلم - فإن الزوجة صاحبة لا صاحب.

وقوله: (المنقطع في سفره): هذا هو تفسير ابن السبيل عند المفسرين في جميع المواضع من القرآن، والسبيل هو الطريق، وسمي المسافر ابن السبيل؛ لأنه ملازم له لا يفارقه حتى يصل إلى غايته، فإذا انقطع في أثناء الطريق لضلال أو ذهاب نفقة، لم يستطع الوصول إلى غايته ولا الرجوع إلى أهله، فكان مستحقاً للإحسان بالمال وغيره، ولذا كان أحد مصارف الزكاة، وكان له سهم في الفيء، وخمس الغنيمة، ولذا قرن في هذه الآية بذوي الحقوق من الوالدين، وغيرهم.

وقوله: (من الأرقاء): وهم العبيد، والإماء، وهم مملوكون بمن جعلهم الله تحت يده، ويذكرون في القرآن بالذين ملكت أيماهم أو أيماكنكم، وسموا بذلك؛ لأن الأصل أن من اشترى شيئاً يقبضه يمينه فأضيف الملك إلى الأيمان كما أضيف الكسب إلى الأيدي في قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

وقوله: (مُتَكَبِّرًا): فسر المختال بالمتكبر؛ لأن الاختيال وهو التمايل في المشي، مظهر من مظاهر الكبر.

وقوله: (على الناس بما أوتي): معناه أنه يذكر ما فضل به على الناس من الحظوظ تعاضماً عليهم، وإعجاباً بنفسه.

وقوله: (مبتدأ): هذا أحد وجوه إعراب الموصول، وقيل: بدل من «من»، وقيل: منصوب على الذم، وقيل: خبر لمبتدأ محذوف، وهذا أقربها^(٢).

(١) ينظر: تفسير الطبري (١١/٧)، وزاد المسير (١/٤٠٤).

(٢) تنظر هذه الأوجه وغيرها في: الدر المصون (٣/٦٧٦).

وقوله: (بما يجب عليهم): بيان لمتعلق البخل، ومعلوم أن أقبح البخل البخل بالحق الواجب.

وقوله: (به)؛ أي: بالواجب.

وقوله: (من العلم والمال): بيان للمراد بالموصول «ما».

وقوله: (وهم اليهود): بيان للمعنيين بهذه الآية، ويؤيده أن البخل صفة لليهود.

وقوله: (وخبر المبتدأ) ... إلى آخره: تقدير: لخبر الاسم الموصول الذي أعربه المؤلف مبتدأ.

وقوله: (بذلك وبغيره): يبين أن الوعيد بالعذاب المهين عام لمن كفره بالبخل والكتمان أو بغير ذلك.

وقوله: (ذا إهانة): يبين أن الإهانة صفة العذاب، فهو عذاب للروح والبدن.

وقوله: (عطف على «الذين» قبله): يريد أن الاسم الموصول في هذه الآية معطوف على الموصول في الآية قبلها، وقد أعربه مبتدأ فالمعطوف مثله.

وقوله: (مُرائين لهم): يبين أن ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ مصدر في موضع الحال.

وقوله: (كالمنافقين وأهل مكة): يبين أن معنى الآية منطبق على المنافقين والمشركين.

وقوله: (صاحباً ...) إلى آخره: فيه: تفسير القريب بالصاحب؛ لأنَّ صاحب يقارن صاحبه في غالب الأوقات.

وقوله: (بئس): يبين أن «سَاء» فعل ذم.

وقوله: (هو!): ضمير منفصل يعود إلى الشيطان، وهو المخصوص بالذم.

وقوله: (أي: أيُّ ضرر عليهم في ذلك؟ ...) إلى آخره: بيان لمعنى جملة الاستفهام، ونوعه، وهو الإنكار المفيد للنفي.

وقوله: (ولو: مصدرية ...) إلى آخره: لو المصدرية كـ «أن» المصدرية تُؤَوَّل؛ هي وما بعدها بمصدر، والمناسب كونه مجرور بـ «من» فتقدير الكلام؛ أي: ضرر عليهم من إيمانهم بالله واليوم الآخر، وإنفاقهم مما رزقهم الله لا ضرر عليهم.

وقوله: (فيُجازيهم بما عملوا): يبين أنَّ علمه بهم يقتضي مجازاتهم على إيمانهم وإنفاقهم أو على ترك ذلك.



وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ٤٠ فكيف إذا جئنا من كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ٤١ يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ٤٢﴾ [النساء: ٤٠-٤٢].

يخبر تعالى عن كمال عدله وعظيم فضله، فلا يظلم أحدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ زيادة في سيئاته، وإن تكن من العبد حسنة مِثْقَالَ ذَرَّةٍ يضاعفها له عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف، ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ٤٠.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ٤١: هذا تهويل ليوم القيامة، حين يؤتى بالرسل يشهدون على أممهم بالإيمان أو الكفر، وأنهم بلغوهم رسالات ربهم، ومنهم خاتم النبيين محمد - صلى الله عليه، وعليهم أجمعين - يأتي شاهدًا على هذه الأمة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾؛ أي: يوم إذ يأتي بالرسل شاهدين، يتمنى الكفار أن تخسف بهم الأرض، ويصيرون ترابًا؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ ٤٢ [النبا].

وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ٤٢؛ أي: يقرون على أنفسهم بالشرك، وتكذيب الرسل؛ كما قال الله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ [النحل: ٨٦]، وقوله تعالى عن أهل النار إذا قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ٤٣ [الملك]، وقد جاء في آيات أخرى أنهم يجحدون شركهم كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ٤٣ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيُّنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ٧٢ من دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ٧٣ [غافر]، والجمع بين هذه الآيات أن

يُقال: إنَّ يومَ القيامةِ مواقف وأحوال، فتارة يقرون ولا يكتمون، وتارة يكتمون فيجحدون^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا﴾ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ: وزن ذَرَّةٍ: أصغر نملة، بأن ينقصها من حسناته أو يزيدها في سيئاته، ﴿وإنَّ تَكُ الذَّرَّةُ حَسَنَةً﴾ من مؤمن - وفي قراءة بالرفع، ف«كان»: تامَّة - ﴿يُضَاعِفُهَا﴾ من عشر إلى أكثر من سبعمائة - وفي قراءة: «يُضَعِّفُهَا» بالتشديد - ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ﴾ من عنده مع المضاعفة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يُقدِّره أحد.

﴿فَكَيْفَ﴾ حال الكُفَّار، ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾: يشهد عليها بعملها، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ - يا مُحَمَّد - ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا؟ يَوْمَئِذٍ﴾: يوم المجيء ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ﴾ أي: أن ﴿تَسْوَى﴾ - بالبناء للمفعول، وللفاعل مع حذف إحدى التاءين في الأصل، ومع إدغامها في السين أي: تَسْوَى - ﴿بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ بأن يكونوا ثرأبا مثلها لعظم هوله، كما في آية أخرى: «وَيَقُولُ الْكَافِرُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ ثَرَابًا»، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ عمَّا عملوه. وفي وقتٍ آخر يكتُمونه: «والله ربَّنَا ما كنَّا مُشْرِكِينَ».

وقول المؤلف: (أحدًا): تقدير: المفعول الأول ليظلم، ومفعوله الثاني مِثْقَالَ.

وقوله: (وزن): تفسير: لمِثْقَالَ، وهو المقدار من الموزونات.

(١) ينظر: تفسير الثعلبي (١٠/ ٣٣١-٣٣٢).

وقوله: (أصغرِ نملةٍ...) إلى آخره: يريد أن الظلم الذي نزه الله نفسه عنه إما بنقص حسنات العبد أو زيادة سيئاته، والله منزّه عن ذلك ولو كان أقل قليل، وهو مقدار الذرة.

وقوله: (الذرة): يريد أن اسم «تَكُ» ضمير يعود على الذرة؛ فالتقدير: وإن تكن الذرة حسنة.

وقوله: (من مؤمن...) إلى آخره: إشارة: إلى شرط الإيمان في العمل الصالح، وحسنة فيها قراءتان^(١): بالنصب خبرًا (لتكُ)، وبالرفع فاعلاً (لتكُ)، وعلى هذا فكان تامة.

وقوله: (من عشر...) إلى آخره: بيان لمبدأ التضعيف وهو عشر، ونهايته وهو ما فوق سبع مئة؛ كما يدل لذلك القراءتان بالتخفيف والتشديد.

وقوله: (من عنده مع المضاعفة): يبين أن «لدن» بمعنى: «عند»، وأنّ الأجر الذي يؤتيه الله ثواب آخر غير التضعيف.

وقوله: (لا يُقدّره أحد): يبين أن الأجر العظيم مبهم لا يعلم قدره إلا الله.

وقوله: (حال الكفار): يبين أن «كيف» استفهام عن الحال، وأنه للتهويل.

وقوله: (يشهد عليها بعملها): بيان لما يشهد به كل شهيد على أمته فيشهد للمؤمنين بالإيمان، ويشهد على من كفر بالكفر.

وقوله: (يا محمد): بيان للمخاطب.

وقوله: (يوم المجيء): أي: مجيء الرسل شاهدين على أممهم.

وقوله: (أي: أن): ينبه: أن لو مصدرية «كأن».

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٩).

وقوله: (بالبناء للمفعول ...) إلى آخره: يريد أن فيها قراءتين بضم التاء، فيكون الفعل مبني للمفعول، وفتح التاء مع إدغامها في السين «تسوى»، وأصلها تتساوى ويكون الفعل مبني للفاعل، فعلى الأول الأرض نائب فاعل، وعلى الثاني الأرض فاعل^(١).

وقوله: (بأن يكونوا ترابًا ...) إلى آخره: تفسير: لفعل «تسوى» فإنهم إذا صاروا ترابًا صارت الأرض، وهم سواء كلهم تراب، وعلى هذا فنظير الآية قوله تعالى عن الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠].

وقوله: (عمّا عملوه ...) إلى آخره؛ أي: يقرون بشركهم؛ كقولهم: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ [النحل: ٨٦]، هذا في وقت، وفي مقام آخر يجحدون؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ* ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَسْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٣]، فإقرارهم وجحدهم في وقتين مختلفين، وبهذا لا يكون بين الآيتين تعارض.



(١) ينظر: المبسوط (ص ١٧٩).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَيْرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمْسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤٣].

ينهى الله عباده المؤمنين عن فعل الصلاة، وهم في حال السكر من شرب الخمر، وذلك قبل تحريمها، وفي هذا النهي نهى عن شربها قرب وقت الصلاة؛ لأن ذلك وسيلة إلى الوقوع في المنهي عنه، وهو الصلاة في حال السكر، وقيل: النهي في الآية عن قربان مواضع الصلاة، وهي: المساجد^(١)، وقد جعل الله لهذا النهي غاية، وهو أن يعلم الإنسان ما يقول؛ فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾، ثم نهى تعالى عن قربان الصلاة أو مواضعها حال الجنابة إلا بعد الغسل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَيْرِي سَبِيلٍ﴾، قيل: مسافرين، وقيل: مجتازين في المسجد غير ما كثرين^(٢)، ثم ذكر تعالى الرخصة للمريض والمسافر إذا فعل ما يوجب الوضوء أو الغسل، ولم يجد ماء أن يتيمم؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمْسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾، فتضمنت الآية الرخصة في التيمم، وصفة التيمم، وهي: ضرب الصعيد باليدين، ثم مسح الوجه والكفين، والصعيد؛ قيل: التراب، وقيل: كل ما على وجه الأرض^(٣)، والطيب الطاهر.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾: بشارة للمؤمنين بالعفو والمغفرة لما قد صدر أو يصدر منهم من المخالفة.

(١) ينظر: زاد المسير (١/٤٠٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/٤٩)، وزاد المسير (١/٤٠٩).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٧/٨١-٨٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: لا تُصَلُّوا ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ من الشراب، لأنَّ سبب نزولها صلاة جماعة في حال السكر، ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ بأنَّ تَصْحُوا، ﴿وَلَا جُنْبًا﴾ بإيلاج أو إنزال -ونصبه على الحال. وهو يُطلق على المفرد وغيره- ﴿إِلَّا عَابِرِي﴾: مُجْتَازِي ﴿سَبِيلٍ﴾: طريق أي: مسافرين، ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ فلكم أن تُصَلُّوا -واستثنى المسافر لأنَّ له حُكْمًا آخر سيأتي. وقيل: المُراد النهي عن قربان مواضع الصلاة أي: المساجد، إلَّا عبورها من غير مَكْث- ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ مَرَضًا يضره الماء، ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي: مسافرين وأنتم جُنُبٌ أَوْ مُحْدِثُونَ، ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ هو المكان المُعَدُّ لقضاء الحاجة، أي: أحدث، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ -وفي قراءة بلا ألف. وكلاهما بمعنى، من اللمس وهو الجسّ باليد. قاله ابن عُمر وعليه الشافعي، وألحق به الجسّ بباقي البَشَرَة. وعن ابن عباس: هو الجماع- ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ تَطَهَّرُونَ به للصلاة بعد الطلب والتفتيش، وهو راجع إلى ما عدا المرضى، ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾: اقصدوا بعد دخول الوقت ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾: تُرابًا طاهرًا، فاضربوا به ضربتين ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ إلى المرفقين منه. وَمَسَحَ: يتعدى بنفسه وبالحرف. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾.

وقول المؤلف: (أي: لا تُصَلُّوا): بيان لمعنى القربان، وأنَّ المراد منه فعل الصلاة.

وقوله: (من الشراب ...) إلى آخره: بيان لسبب السكر، وهو شرب الخمر، وبيان لسبب نزول الآية، وهو صلاة جماعة، وهم سكارى^(١).
وقوله: (بأن تصحوا): لأن: مَنْ صَحَا عَلِمَ ما يقول، وَمَنْ عَلِمَ ما يقول فليس بسكران.

وقوله: (بإيلاج ...) إلى آخره: بيان لسببي الجنبية، ثم يبين أن «جنباً» نُصِبَ على الحال، وأنه يطلق على الواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث.

وقوله: (مُجتازي): تفسير لعابري.
وقوله: (أي: مسافرين) تفسير لـ«عابري سبيل»، وهو نهى عن قربان الصلاة، أو مواضعها حال الجنبية إلا بعد الاغتسال، ثم استثنى من كان مسافراً أو مجتازاً لا يلبث في المسجد.
وقوله: (فلکم أن تُصلّوا): يبين أن الصلاة التي نهى عنها الجنب تباح بعد الاغتسال.

وقوله: (واستثنى المسافر): يريد قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾.
وقوله: (لأن له حكماً آخر سيأتي): يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾، إلى قوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾، ويريد بالحكم الآخر التيمم الذي يقوم للجنب مقام الاغتسال عند عدم الماء أو الضرر باستعماله.
وقوله: (وقيل: المراد ...) إلى آخره: رجوع إلى تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾، لذكر القول الثاني، وهو أن النهي عن قربان مواضع الصلاة، وهي: المساجد.

وقوله: (مرضاً يضره الماء): يريد أن المريض الذي يُباح له التيمم؛ هو المريض الذي يضره استعماله للماء كالجريح، والمريض الذي لا يضره الماء؛ مثل مَنْ به مرض خفيف كالزكام ونحوه، فإنه لا يبيح التيمم.

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٥٣)، والعجاب (٢/ ٨٧٢-٨٧٥).

وقوله: (أي: مسافرين...) إلى آخره: بيان لمعنى قوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾، ويشير بقوله: (وأنتم جنب أو محدثون) إلى قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

وقوله: (هو المكان...) إلى آخره: بيان لمعنى: «الغائط»، وقوله: (أي: أحدث): بيان لمعنى جملة: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾. وقوله: (وفي قراءة بلا ألف...) إلى آخره: يريد أن قول الله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ﴾: فيها قراءتان^(١):

بالألف ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ﴾، وقرأ بلا ألف: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ﴾، واختلف في معنى هذه اللفظة، ف قيل المراد الجماع، وقيل المراد به الجنس باليد^(٢)، ورجح هذا القول المؤلف، والقول الأول أظهر وهو قول ابن عباس^(٣). وقوله: (تطهرون به...) إلى آخره: بيان للغرض من الماء الذي لم يوجد بعد البحث.

وقوله: (وهو راجع إلى ما عدا المرضى): يريد أن قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾: راجع إلى قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾؛ لأن المريض لا يحتاج إلى طلب الماء؛ لأنه غير قادر على استعماله. وقوله: (اقصدوا): فسر التيمم بالقصد، وهذا معروف في اللغة؛ تقول: تيممت بلد كذا؛ أي: قصدتها^(٤).

وقوله: (بعد دخول الوقت): يشير: إلى مذهب الشافعي وغيره أن من شرط التيمم دخول الوقت، ويبطل بخروج الوقت^(٥).

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٨٠).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦٣/٧)، وزاد المسير (٤١١/١).

(٣) أخرجه الطبري (٦٣-٦٧).

(٤) ينظر: لسان العرب (٢٢/١٢).

(٥) ينظر: المجموع شرح المذهب (٢٧٥/٢)، (٣٣٨/٢).



وقوله: (ثَرَابًا طَاهِرًا): تفسير: للصعيد الطيب.

وقوله: (فَاضْرِبُوا بِهِ ضَرْبَتَيْنِ): هذا مذهب الجمهور، والصواب: أَنَّ التيمم ضربة واحدة^(١).

وقوله: (إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ): يريد أَنَّ مسح اليدين في التيمم إلى المرفقين كالوضوء، وهو قول جماعة من الفقهاء، والصواب: الاقتصار في مسح اليدين على الكفين^(٢).

وقوله: (وَمَسَحَ ...) إلى آخره: يبين أَنَّ فعل المسح يتعدى بنفسه وبالحرف؛ تقول: مسحت رأسي، ومسحت به.



(١) ينظر: المغني (١/ ٣٢٠).

(٢) ينظر: المغني (١/ ٣٣١).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾
 مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۚ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْحَقِّ هُمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٤٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ
 أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝٤٧﴾ [النساء: ٤٤-٤٧].

الاستفهام للتقرير؛ فالمعنى: ألم تعلم أيها الرسول إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب؛ أي: قد انتهى علمك إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، وهم: اليهود، والكتاب التوراة ﴿يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ﴾؛ أي: يؤثرون الضلالة على الهدى، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾؛ أي: يريدون بكم -أيها المؤمنون- أن تتركوا سبيل الحق ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾، فسيكفيكمهم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾: فمن تولاه الله أيده وحفظه، ويسر له كل ما ينفعه، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾: فمن نصره الله وقاه من كل ضرر، ودفع عنه شر عدوه.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أي: اليهود ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۚ﴾؛ أي: يحرفون كلام الله؛ يعني: يغيرون معانيه فيفسرونه بخلاف ما أراد الله من معناه، ويقولون: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ أي: سمعنا أمر الله، وعصيناه فلا نفعل ما أمرنا به، ﴿وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾؛ أي: ويقولون: اسمع غير مسموع؛ أي: لا سمعت ﴿وَرَاعِنَا﴾: يريدون من الرعونة، ويوهمون أنها من المراعاة، وهذا ضرب من التلبيس، ولهذا نهى الله المؤمنين عن مشابهتهم أن يقولوا: هذه الكلمة للنبي ﷺ فيتذرع اليهود بذلك فيقولونها للنبي ﷺ يريدون المعنى السيئ، ويوهمون أنهم يريدون ما يريد المؤمنون يفعلون ذلك استهزاء بالنبي ﷺ، ويطعنون في الدين الذي جاء به، ثم قال

تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا﴾، لكان خيراً لهم مما قالوا، وأقوم، ولكنهم لم يفعلوا ما أمروا به؛ بل أصروا فلعنهم الله بسبب كفرهم فحرموا الإيمان، لذلك لا يؤمنون إلا قليلاً، ثم وجه تعالى الخطاب للذين أوتوا الكتاب داعياً لهم إلى الإيمان بما أنزل الله على محمد ﷺ، وهو مصدق لما معهم، ثم هدد من لا يؤمن بطمس وجوههم، وردهم على أدبارهم فيصيرون صمًا بكمًا عميًا، أو يلعنهم كما لعن أصحاب السبت، ثم أخبر تعالى أن أمره نافذ لا يمنعه مانع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا﴾: حظًا ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾ - وهم اليهود - ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ بالهدى، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾: تُخْطئوا طريق الحق، لتكونوا مثلهم؟
 ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ منكم، فيخبركم بهم لتجنبوهم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾: حافظًا لكم منهم! ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾: مانعًا لكم من كيدهم!

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ قوم ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: يُغَيِّرُونَ ﴿الْكَلِمَ﴾ الذي أنزل الله في التوراة، من نعت محمد، ﴿عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ التي وُضع عليها، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للنبي إذا أمرهم بشيء: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك، ﴿وَاسْمَعُ، غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾: حال بمعنى الدعاء أي: لا سمعت، ﴿وَيَقُولُونَ لَهُ﴾: ﴿رَاعِنَا﴾ - وقد نهي عن خطابه بها. وهي كلمة سبّ بلغتهم - ﴿لِيَّا﴾: تحريفًا ﴿بِالْسِتِّهِمْ وَطَعْنًا﴾: قدحًا ﴿فِي الدِّينِ﴾: الإسلام. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بَدَلْ «وَعَصَيْنَا»، ﴿وَاسْمَعُ﴾ فقط ﴿وَانْظُرْنَا﴾: انظر إلينا بَدَلْ «رَاعِنَا»، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ ممّا قالوه ﴿وَأَقْوَمَ﴾: أعدل منه، ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: أبعدهم عن رحمته ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾، فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴿منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ من القرآن، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾: نمحو ما فيها من العين والأنف والحاجب، ﴿فَنَرَّذَهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾: فنجعلها كالأقفاء لوحًا واحدًا، ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾: نمسخهم قردةً ﴿كَمَا لَعْنَا﴾: مسخنا ﴿أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ منهم - ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: قضاؤه ﴿مَفْعُولًا﴾. ولما نزلت أسلم عبد الله بن سلام. ف قيل: كان وعيدًا بشرط. فلما أسلم بعضهم رفع. وقيل: يكون طمس ومسح قبل قيام الساعة.

وقول المؤلف: (حظًا)؛ أي: قدرًا من العلم بالكتاب.
وقوله: (وهم اليهود): بيان للمراد بالموصول.
وقوله: (بالبهدي): بيان للثمن الذي بذلوه وتركوه، واستعاضوا عنه الضلالة.

وقوله: (تخطئوا طريق الحق...) إلى آخره؛ أي: يريد اليهود أن تخطئوا -أيها المؤمنون- طريق الحق، وتسلكوا طريقًا غيره حتى تكونوا مثلهم في الكفر كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

وقوله: (منكم...) إلى آخره: بيان للمفضل عليه بالعلم، وهم: المؤمنون لا يعلمون أعداءهم لكن الله يعلمهم فيخبر المؤمنين بهم فيعرفونهم، ويحذرونهم.
وقوله: (حافظًا لكم منهم!): تفسير: للولي؛ لأنَّ من شأن الولي أن ينفع من يواليه.

وقوله: (مانعًا لكم من كيدهم!): تفسير: للنصير؛ لأنَّ من شأن النصير أن يدفع عن المنصور ما يضره، ويمنعه ممن يريده بسوء.

وقوله: (قوم): تقدير لمبتدأ خبره من الذين هادوا، ويحرفون صفة لقول؛ فتقدير الكلام: من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم.
وقوله: (يُغَيِّرُونَ): تفسير: يحرفون؛ أي: يصرفون كلام الله عن معناه إلى غيره لمقاصد سيئة.

وقوله: (الذي أنزل الله...) إلى آخره: بيان للكلام المحرف، وهو ما أنزل الله في التوراة في شأن محمد، وصفته.
وقوله: (التي وُضِعَ عليها)؛ أي: المعاني التي جعلت الألفاظ دالة عليها.

وقوله: (للنبي...) إلى آخره: بيان للمخاطب بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، ويدل له ما بعده.

وقوله: (قولك): بيان للقول الذي سمعوه.
وقوله: (أمرك): بيان لمتعلق المعصية.
وقوله: (حال...) إلى آخره: بيان لوجه النصب في قوله: ﴿غَيْرَ﴾، وهو أنها حال، ومعناها: الدعاء عليه، ولهذا قال المؤلف: (أي: لا سمعت).
وقوله: (يقولون له): يبين أن قولهم: راعنا مقول قول محذوف.

وقوله: (وقد نُهيَ عن خطابه بها...) إلى آخره: يشير: إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، يعني في خطابكم للنبي ﷺ؛ لأن اليهود يأخذونها من المؤمنين ويريدون بها معنى قبيحاً، لأن الكلمة تحتل معنى المراعاة وهو ما يقصده المؤمنون، وتحتل معنى الرعونة وهي الخسة^(١)، وهو ما يقصده اليهود، فنهى الله المؤمنين عن هذا اللفظ الذي يحتمل حقاً وباطلاً، حتى لا يتذرع بهم اليهود في خطابهم النبي ﷺ بهذا اللفظ كما في هذه الآية في سورة النساء.

(١) ينظر: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ٢٢٦).

وقوله: (تحريفًا): تفسير لـ «ليّا»؛ بما يؤدي إليه لي الألسن من التحريف.
 وقوله: (قدحًا): تفسير: للطعن، والقدح والطعن هو ذكر العيب؛
 فالمعنى: أنهم قالوا ما قالوا مما تقدم تحريفًا للكلم، وقدحًا في الدين.
 وقوله: (الإسلام): بيان للمراد بالدين، ولا دين يغضب المسلمون من
 الطعن فيه إلا الإسلام؛ لأنه دين الله الذي لا يقبل من أحد دين سواه.
 وقوله: (بَدَل «وَعَصَيْنَا»، «وَأَسْمَعُ» فقط ...) إلى آخره: بيان لما أراد
 الله منهم أن يقولوه، وأنه ضد ما قالوه؛ فقالوا: وعصينا، وأراد الله أن يقولوا:
 وأطعنا، وقالوا: اسمع غير مسمع، وأراد الله أن يقولوا: «واسمع» لا يزيدون
 «غير مسمع»، وأراد الله أن يقولوا: «انظرونا» بدل قولهم: «راعنا»، وهذا هو
 ما أرشد الله المؤمنين إليه في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا
 وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقوله: (مما قالوه): معناه أن ما أراد الله أن يقولوه خير مما قالوه.
 وقوله: (أعدل منه): معناه أن ما أراد الله أن يقولوه أعدل مما قالوه،
 فإن ما أراد الله حق، وما قالوه باطل.
 وقوله: (أبعدهم عن رحمته): هو معنى: «لعنهم الله»؛ لأن اللعن هو:
 الطرد والإبعاد عن رحمة الله.
 وقوله: (منهم ...) إلى آخره: يعني: إلا قليلاً من اليهود، ومثل لهذا
 القليل بعبد الله بن سلام، وأصحابه.
 وقوله: (من القرآن): بيان للمنزل من الله الذي أمر أهل الكتاب
 بالإيمان به.

وقوله: (من التوراة): بيان للذي معهم، وصدقه القرآن.
 وقوله: (نمحو ما فيها ...) إلى آخره: بيان لمعنى الطمس، والمطموس
 من الوجه.

وقوله: (فنجعلها...) إلى آخره: بيان لمعنى: رد الوجوه على الأدبار، وهو أن يكون الوجه مثل القفا، لا عين ولا أنف ولا فم، وهذا معنى الطمس. وقوله: (نمسحهم قردةً): تفسير: لقوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾، ففسر اللعن في هذا الموضع بالمسح بدليل قوله: ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾.

وقوله: (منهم)؛ أي: من اليهود.

وقوله: (قضاؤه)؛ أي: حكمه الذي أمر به.

وقوله: (ولمّا نزلت...) إلى آخره: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا...﴾ الآية، أسلم عبد الله بن سلام خوفاً من الوعيد المذكور في الآية^(١)، وأنّ هذا الوعيد مشروط بعدم الإيمان، ولذا لمّا أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه رفع الوعيد؛ قال المؤلف: وقيل: يكون الطمس في آخر الزمان، وقيل: الطمس كائناً يوم القيامة؛ فهذه ثلاثة أقوال في وقت الوعيد بالطمس^(٢)، والأظهر أنه تهديد لليهود الموجودين في عهد النبي ﷺ جوار المدينة، وهذا هو الذي يكون حاملاً على الإيمان، وما قيل: إنّ سبب إسلام عبد الله بن سلام نزول هذه الآية فيه نظر، والمعروف أنّ عبد الله بن سلام أسلم أول مقدم النبي ﷺ المدينة لمّا رأى وجه النبي ﷺ عرف أنه ليس وجه كذاب^(٣)، وأظهر الإسلام أمام اليهود فغضبوا عليه هذا هو المعروف في قصة إسلامه ﷺ^(٤).



(١) ينظر: العجّاب (٢/ ٨٨٣).

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٢/ ٢٣١)، والقرطبي (٥/ ٢٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٧٨٤)، والترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤) عن عبد الله بن سلام ﷺ، وصححه الترمذي، والحاكم (٤٢٨٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٢٩) عن أنس ﷺ. وينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٥١٦).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ [النساء: ٤٨-٥٠].

يخبر تعالى أنه لا يغفر لمن أشرك به؛ أي: الشرك الأكبر ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾: وهي: الذنوب التي دون الشرك ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾: وهذه الآية في حق مَنْ لم يتب، أما مَنْ تاب؛ فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]؛ أي: لمن تاب، ثم أخبر تعالى أن مَنْ أشرك بالله فقد ضل عن طريق الحق ضللاً بعيداً، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾؛ أي: أَلَمْ تعلم خبر الذين يزكون أنفسهم، وينتهي علمك إلى معرفتهم، ويزكون أنفسهم؛ أي: يدعون لأنفسهم الزكاء غروراً وفخراً كذباً وزوراً كاليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، ﴿وَقَالُوا كُنُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥]، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١].

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهِ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: المزكى حقيقة؛ مَنْ زكاه الله فأثنى عليه.

وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٤٩)؛ أي: لا ينقصون من عملهم وفضلهم، ولا مقدار فتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَنْظِرْ﴾: هذا أمر بالتفكر في حال هؤلاء المغرورين كيف يفترون الكذب على الله الذي هو أعظم الكذب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٥٠)؛ أي: وكفى الافتراء على الله عن كل ذنب سواه لأنه أعظم منه، فلذا كان إثماً بيناً لا يخفى قبحه على مَنْ كان له نظر صحيح.

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ٢٥٩).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي: الإِشْرَاقَ بِهِ، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ﴾: سِوَى ﴿ذَلِكَ﴾ من الذُّنُوبِ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ المغفرة له، بأن يُدخله الجنة بلا عذاب -ومن يشاء يعذبُه من المؤمنين بذُنُوبِهِ، ثم يُدخله الجنة- ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا﴾: ذنبًا ﴿عَظِيمًا﴾: كبيرًا. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُورُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾؟ وهم اليهود، حيث قالوا: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ». أي: ليس الأمر بتزكيتهم أَنْفُسَهُمْ، ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي﴾: يُطَهِّرُ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ بالإيمان، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾: يُنْقَصُونَ من أعمالهم ﴿فَتِيلاً﴾: قَدَرٌ قَشْرَةُ النَوَاة. ﴿انْظُرْ﴾ مُتَعَجِّبًا: ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بذلك؟ ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾: بَيِّنًا!

وقول المؤلف: (الإِشْرَاقَ بِهِ): يبين أن قوله تعالى: ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾: مصدر مؤول، وصريحه الإِشْرَاق. وقوله: (سِوَى): تفسير لدون؛ أي: يغفر ما سوى الشرك، والأصوب ما قاله أبو السعود^(١)؛ أي: ما دون الشرك في القبح فيلتحق بالشرك في نفي الغفران ما سواه في القبح من أنواع الكفر^(٢). وقوله: (من الذُّنُوبِ): بيان للإبهام الذي في: (ما). وقوله: (المغفرة له...) إلى آخره: تقدير: لمفعول يشاء، وبيان لنوعي مَنْ يدخل في عموم الموصول «من».

(١) تقدمت ترجمته في (ص ٥٩).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٢/ ١٨٧).

وقوله: (ذنبًا): تفسير: للإثم، ولو قال كذبًا لكان أولى؛ كما قال تعالى في المشركين: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ١٤٤]، والكذب على الله إثم عظيم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾. وقوله: (كبيرًا): تفسير: للعظيم، والعظيم والكبير متقاربان، ويطلقان في الحسيات والمعنويات.

وقوله: (وهم اليهود...) إلى آخره: الصواب: أنهم اليهود والنصارى فكلهم زكوا أنفسهم، وقوله: (ليس الأمر بتزكيتهم أنفسهم): معناه ليس الأمر كما زعموا.

وقوله: (يُطَهَّرُ): تفسير ليزكي، والصواب: أن التزكية تتضمن التطهير، ومن زكاه الله فهو الزكي حقًا.

وقوله: (بالإيمان): المعنى: الله يزكي من يشاء بتوفيقه للإيمان، وبالثناء عليهم بما عملوا.

وقوله: (يُنْقَصُونَ من أعمالهم): المعنى: لا ينقصون من أعمالهم؛ بل يجزيهم، ويثني عليهم بأعمالهم كاملة موفرة لا ينقصون منها، ولا مقدار فتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة.

وقوله: (قَدَّرَ قِشْرَةَ النُّوَّةِ): المعروف عند المفسرين^(١): أن الفتيل هو الخيط الذي في شق النواة، وأما قشر النواة فيقال له قطمير، والنقير: هو الحفرة في ظهر النواة، ومعنى لا يظلمون فتيلًا: لا ينقصون من أجورهم ولا قدر الفتيل، ولا يزداد في سيئاتهم.

وقوله: (مُتَعَجِّبًا)؛ أي: من أجل التعجب من حالهم، فإن أمرهم عجب لفرط جرأتهم على الكذب على الله.

وقوله: (بذلك؟)؛ أي: بالشرك، وتزكية أنفسهم.

(١) ينظر: معاني القرآن للزجاج (٤/٢٦٦)، وتفسير ابن كثير (٢/٤٢١).



وقوله: (بَيِّنًا!)؛ لأنَّ: الشرك بالله أكبر الكبائر، وأظلم الظلم، وتزكية
أنفسهم من أعظم الجهل والغرور.



وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبَتِ وَالْطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ نَصِيرًا ۖ﴾ ﴿٥١﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يَأْتُونُ النَّاسَ نَقِيرًا ۖ﴾ ﴿٥٢﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ۖ﴾ ﴿٥٣﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۖ﴾ ﴿٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِءَايَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ﴾ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ مُّطَهَّرٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۖ﴾ ﴿٥٦﴾ [النساء: ٥١-٥٧].

هذا الاستفهام للتقرير والتعجب، والمعنى: ألم تعلم، وينتهي علمك إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، والمراد بهم هنا: اليهود، خصوصاً شيطانهم كعب بن الأشرف ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبَتِ وَالْطَّاغُوتِ﴾؛ أي: مع ما أوتوا من الكتاب يؤمنون بالجبت، وهو السحر، والطاغوت الشيطان^(١) يؤمنون به، ويطيعونه ويعبدونه، ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: وهم المشركون من أهل مكة، ﴿هَؤُلَاءِ﴾: إشارة إلى الذين كفروا، ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: يعنون الرسول وأصحابه؛ يقولون: إنَّ المشركين أهدى من المؤمنين؛ أي: أصح ديناً، وأقوم طريقة، ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: أبعدهم من رحمته، والمشار إليهم هم الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، وهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويفضلون الكفار على المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ نَصِيرًا﴾؛ أي: كل من لعنه الله فهو صائر إلى العذاب، ولا ناصر له ينقذه، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾: أم هي المنقطعة، ومعناها: بل ألهم نصيب من الملك، والاستفهام فيها للإنكار والتوبيخ

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٣٤)، وزاد المسير (١/ ٤١٩).

والإضراب انتقالي، ففيها انتقال من الوعيد إلى التوبيخ، وقوله: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (٥٣): المعنى: لو كان لهم نصيب من الملك لم يؤتوا أحدًا من الناس، ولا مقدار نقير، وهو النقرة التي في النواة، وهذا كناية عن شدة بخلهم، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: وأم؛ هي: المنقطعة، وفيها إضراب انتقالي من وصفهم بالبخل إلى وصفهم بالحسد، فهم لا يرضون أن يؤتي الله أحدًا غيرهم من فضله، ولهذا حسدوا الرسول ﷺ والمؤمنين على ما آتاهم الله من العلم والإيمان، وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: المعنى: ما آتينا محمدًا من الفضل ليس بدعًا فقد آتينا قبله آل إبراهيم الكتاب والحكمة، وآل إبراهيم؛ هم: إبراهيم وأبنائه وذريتهم.

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُم مَّا كَانُوا يَرْجُونَ كِبَارًا﴾ (٥٤): كالذي آتاه الله داود وسليمان، وقيل: الملك هو النبوة، فإنَّ مَنْ أُوتِيَ النبوة أرفع قدرًا من الملوك^(١).

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾: هذا متصل بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧]؛ أي: فمن الذين أوتوا الكتاب من بني إسرائيل الذين كانوا حول مهاجر النبي ﷺ مَنْ آمَنَ بِمَا أنزل الله على محمد ﷺ.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾؛ أي: أعرض عنه فلم يؤمن به.

وقوله: ﴿وَكَلَّيْنَا بَجْهَتَهُمْ سَعِيرًا﴾ (٥٥): تهديد لمن صد عما أنزل الله بالعذاب في جهنم، وهي: النار التي أعدها الله للكافرين، فإنها نار مستعرة مسعرة لذلك، فهي كافية عن كل نار سواها.

(١) وهذا قول من الأقوال كما سيأتي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾: هذا وعيد شديد، وتهديد أكيد بأنه تعالى سيصلي الكافرين بآياته؛ أي: سيدخلهم نارًا يصلونها فتتضج جلودهم؛ أي: تحترق فيبدلون جلودًا غيرها ليدوقوا العذاب بتلك الجلود المبدلة مكان الجلود المحترقة، ثم خُتمت الآية بالاسمين الشريفين العزيز الحكيم، وهما مناسبان، فإنَّ تعذيب الكافرين من آثار عزته، ومقتضى حكمته، ثم عقب تعالى وعيد الكافرين بوعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ولهم فيها أزواج مطهرة من جميع الوجوه في خلقهن وأخلاقهن، ومطهرات من عيوب النساء كالحيض والنفاس.

وقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: فإنَّ الجنة لا شمس فيها، والظل الظليل هو الواقى من دخله، ولهذا قال في ظل النار: ﴿لَا ظِلِيلٍ﴾ [المرسلات: ٣١].

ونزل في كعب بن الأشرف ونحوه من علماء اليهود، لما قدموا مكة وشاهدوا قتلى بدر، وحرّضوا المشركين على الأخذ بثأرهم ومُحاربة النبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ، يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾: صنمان لقريش، ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أبي سفيان وأصحابه، حين قالوا لهم: «أنحن أهدى سبيلًا، ونحن ولاة البيت: نسقي الحاج ونقري الضيف ونفك العاني ونفعل، أم مُحَمَّد، وقد خالف دين آبائه وقطع الرّحم وفارق الحرّم»؟: ﴿هُؤُلَاءِ﴾ أي: أنتم ﴿أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾: أقوم طريقًا؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾: مانعًا من عذابه.

﴿أم﴾: بل أ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾؟ أي: ليس لهم شيء منه، ولو كان ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: شيئًا تافهًا قدر النقرة في ظهر

النواة، لفرط بُخلهم. ﴿أَمْ﴾: بل أ ﴿يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ أي: النبي ﴿عَلَى﴾ ما آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿مِنَ النَّبِيِّ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ؟﴾ أي يتمنون زواله عنه، ويقولون: لو كان نبياً لاشتغل عن النساء. ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ جدّه، كموسى وداود وسليمان، ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: والنبوة، ﴿وَأَتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا﴾، فكان لداود تسع وتسعون امرأة، ولسليمان ألف ما بين حُرّة وسُرّية.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾: بمُحمّد، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ﴾: أعرض عنه ﴿فَلَمْ يُؤْمِنْ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِيَجْهَنَّمَ سَعِيرًا﴾: عذاباً لمن لا يؤمن! ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾: نُدخلهم ﴿نَارًا﴾، يحترقون فيها، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾: احترقت ﴿جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، بأن تُعاد إلى حالها الأول غير محترقة، ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾: ليقاسموا شدّته - ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾: لا يُعجزه شيء، ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض وكلّ قدر، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: دائماً لا تنسخه شمس. وهو ظلّ الجنة.

وقول المؤلف: (ونزل في كعب بن الأشرف ...) إلى آخره: بيان لسبب نزول هذه الآية، وكعب بن الأشرف رأس من رؤوس اليهود كان شديد العداوة للرسول ﷺ، وقول المؤلف فيما ذكره: (وشاهدوا قتلى بدر)؛ أي: وقد شاهدوا (قتلى بدر)؛ أي: من المشركين أصحاب القليب، إذ هذه الآية نزلت في وفد اليهود إلى المشركين بمكة بقيادة كعب بن الأشرف، ليحرض المشركين على قتال النبي ﷺ، ويعاهدوهم على معاونتهم^(١).

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٥٥)، والعجاب (٢/ ٨٨٥).

وقوله: (صنمان لقريش): هذا أحد الأقوال في تفسير الجبت والطاغوت، وللسلف عبارات كثيرة في تفسير الجبت والطاغوت؛ كقول بعضهم: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان^(١).

وقوله: (أبي سفيان وأصحابه...) إلى آخره: بيان للمراد بالذين كفروا، وهم: المشركون قالوا لكعب بن الأشرف ومن معه؛ أئنا أهدى سبيلاً نحن أم محمد؟ فقالوا: أنتم أهدى سبيلاً، وهذا معنى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: اليهود يقولون للذين كفروا ﴿هَؤُلَاءِ﴾؛ يعنون: المشركين ﴿أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: الرسول وأصحابه ففضلوا المشركين على الرسول، وهم والمشركون يعلمون أنهم فيما قالوا كاذبون، فلذلك حقت عليهم لعنة الله في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾.

وقوله: (أي: أنتم): يريد أن قول اليهود هؤلاء إشارة إلى المشركين؛ يقولون لهم أنتم أهدى، وفي هذا التقدير نظر، فإن اسم الإشارة لا يعبر به عن المخاطب، ولهذا قال الجمل في حاشيته: «أي: فالقول بالمشافهة»^(٢)؛ أي: في مخاطبة المشركين، فإن المشركين سألوهم أئنا أهدى سبيلاً؟ فقالوا لهم أنتم أهدى.

وقوله: (أقوم طريقاً؟): السبيل والطريق: مترادفان، والطريق الموصل إلى المطلوب هو المستقيم، وما كان أقوم كان أهدى للسالك، فلذا قال المؤلف في تفسير: «أهدى سبيلاً»؛ أي: (أقوم طريقاً).

وقوله: (مانعاً من عذابه): تفسير: لنصير، فإن النصير هو الذي يدفع عن وليه ما يضر به.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/١٥٨)، وزاد المسير (١/٤٢١).

(٢) ينظر: حاشية الجمل (١/٤١٤).

وقوله: (بل أ): يبين أن «أم» هي المنقطعة المؤولة بـ«بل»، وهمزة الاستفهام فيها إضراب انتقالي؛ فالتقدير: بل ألهم نصيب من الملك.
 وقوله: (أي: ليس لهم شيء منه ...) إلى آخره: يبين أن الاستفهام المفهوم من «أم» استفهام إنكاري؛ معناه: النفي، وعليه فيكون المعنى: ليس لهم شيء من الملك، ولو كان لهم نصيب لبخلوا فلم يؤتوا الناس شيئاً، ولو كان حقيراً كالنقير لشدة بخلهم، والنقير؛ هو النقرة في ظهر النواة.
 وقوله: (بل أ ...) إلى آخره: يبين أن «أم»؛ هي: المنقطعة المفسرة بـ«بل»، والهمزة فتضمنت إضراباً انتقالياً، والاستفهام للتوبيخ؛ فمعنى الكلام؛ بل أيحسدون الناس، والمراد بالناس النبي ﷺ، والفضل الذي آتاه النبوة.
 وقوله: (وكثرة النساء؟): قول: ضعيف ضعفه ابن جرير، وأعرض عنه ابن كثير^(١).

وقوله: (أي: يتمنون زواله عنه): تفسير: للحسد.
 وقوله: (جدّه ...) إلى آخره: يريد أن إبراهيم جد النبي ﷺ، والملك الذي آتاه آل إبراهيم هو ما أتى الله داود وسليمان.
 وقوله: (النبوة): تفسير: للحكمة، ولا ريب أن النبوة أعلى الحكمة التي يؤتيها الله من يشاء.

وقوله: (فكان لداود ...) إلى آخره: تفسير: الملك العظيم بكثرة النساء يزري بقدر الأنبياء، وهو غير مفهوم من لفظ الملك، واللائق تفسيره بملك سليمان الذي سخر الله له الريح والجن، وعلمه منطق الطير.

وقوله: (بمُحمّد): بيان للمراد بالضمير المجرور بالباء، والمراد بضمير الجمع المجرور بمن هم أهل الكتاب الذين أمروا بالإيمان في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧]،

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٥٧/٧)، وابن كثير (٣٣٦/٢).

وما بين الآيتين معترض تضمن ذكر بعض قبائح اليهود، وهم الذين صدوا عن الإيمان.

وقوله: (أعرض): جعله من صد اللازم، والمصدر منه صدود، ومنه قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

وقوله: (فلم يؤمن): هذا مفهوم من قوله: (صَدَّ عَنْهُ)، فَإِنَّ مَنْ أَعْرَضَ لَمْ يُمْنَ.

وقوله: (عذاباً لمن لا يؤمن!): فسر: السعير بالعذاب، وهو من تفسير السبب بالمسبب.

وقوله: (ندخلهم): فسر: الإصلاء؛ بالإدخال؛ لَأَنَّ مَنْ أَدْخَلَ النَّارَ فَقَدْ أَصْلَحَهَا.

وقوله: (يحترقون فيها): هذا: شَأْنُ مَنْ أَدْخَلَ النَّارَ أَنْ يَحْتَرَقَ بِهَا -نعوذ بالله من النار-، ولكنهم لا يموتون؛ بل يبقون فيها يعذبون.

وقوله: (احترقت): تفسير: لنضجت، والمقصود أنه لم يبق فيها إحساس بالعذاب، فيبدلون مكانها جلوداً أخرى يحسون بها العذاب، ولهذا

قال تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، فذوق العذاب هو الغاية من تبديل الجلود.

وقوله: (بأن تُعاد...) إلى آخره: يريد أن التبديل والمغايرة في صفة الجلود لا في عينها.

وقوله: (ليُقاسوا شدّته): أي: ليجدوا ألم العذاب.

وقوله: (لا يُعجزه شيء): يبين بهذا أن العزة تتضمن كمال القدرة.

وقوله: (في خلقه): تقييد لا وجه له، فإنه تعالى حكيم في خلقه وشرعه وتدييره، وفي جميع أفعاله.

وقوله: (من الحيض وكلّ قذر): يريد أنهن مطهرات من عيوب نساء الدنيا.



وقوله: (دائمًا لا تنسخه شمس...) إلى آخره: تفسير: للظل الظليل؛
لأنَّ الجنة لا شمس فيها؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾
[الإنسان: ١٣].



وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ [النساء: ٥٨-٥٩].

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بأداء الأمانات، وهي: كل ما يؤتمن عليه الإنسان من حقوق الله، وحقوق عباده، وكما أمر بأداء الأمانات نهى عن الخيانة؛ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧) [الأنفال]، وهو تعالى يأمر بالعدل في الحكم بين الناس، وبالعدل وأداء الأمانة تكون الاستقامة، وتصلح أحوال الناس في دينهم ودنياهم، والعدل في الحكم، وأداء الأمانة واجبان في جميع الأمور العامة والخاصة، ويدخل في الأمانات الولايات والأسرار، والتكاليف الشرعية من المأمورات والمنهيات، وهذه هي الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان، وهي أول ما يرفع من قلوب الناس كما جاء في الحديث: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة»^(١)، والأمانة ثمرة الإيمان، وفي الحديث: «لا إيمان لمن لا أمانة له»^(٢)، ويشهد له ما في الصحيحين من قوله ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»^(٣)، وكما

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٧١٨٢) عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق (١٧١)، والضياء في المختارة (١٥٨٣) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه زيادة: «وآخره الصلاة»، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٧٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٣٨٣)، والبزار (٧١٩٦)، والطبراني في الأوسط (٢٦٠٦) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن حبان (١٩٤)، وحسنه البغوي في شرح السنة (١/ ٧٥)، وينظر: تخريج الألباني لكتاب الإيمان لابن أبي شيبه (٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٦) عن أبي شريح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بهذا اللفظ: وفي رواية لمسلم (٤٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه».

أَنَّ الأمانة من الإيمان فالخيانة من خصال النفاق، وفي الحديث: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا**» وذكر منها: «**وإذا أوْتمن خان**»^(١)، والعدل في الحكم بين الناس هو من الأمانة، وعليه فعطف الأمر بالعدل على الأمر بأداء الأمانة من عطف الخاص على العام، ثم أثنى الله على أمره بعباده بأداء الأمانة والعدل في الحكم؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعَمًا يُعْطِكُمْ بِهِ﴾، وفي هذا ترغيب كامتثال أوامر الله، ونواهيهِ، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٥٨)؛ أي: سميعًا لأقوالكم؛ مبصرًا لأعمالكم، وفي ضمن ذلك وعد لمن أطاع الله ووعد لمن عصاه.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ الآية: أمرٌ من الله للمؤمنين بأن يطيعوه، ويطيعوا رسوله، وأولي الأمر منهم؛ قيل: المراد بهم العلماء، وقيل: الأمراء، والآية تعم الصنفين^(٢)؛ ثم أمر الله المؤمنين إذا تنازعوا في حكم من الأحكام أو حق من الحقوق أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى رسوله، والرد إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول الرد إليه في حياته، ثم إلى سنته بعد وفاته، ثم أخبر تعالى أَنَّ هذا الرد خير في الحاضر؛ لأنَّ به ينقطع النزاع، ويحصل الرضا بحكم الله ورسوله، وهو أحسن تأويلًا؛ أي: عاقبة بما ينالون من الأجر.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ﴾ ما أوْتَمَنَ عليه من الحقوق
﴿إِلَى أَهْلِهَا﴾ -نزلت لما أخذ عليٌّ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة

(١) أخرجه البخاري (٣٤) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه مسلم (٥٨-١٠٦) وليس فيه موضع الشاهد وفيه بدله «وإذا وعد أخلف»، وأخرجه مسلم (٥٨-١٠٧) عن أبي هريرة ولفظه: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٧٦/٧)، وابن كثير (٣٤٥/٢).

الحَجَبِيَّ سَادِنَهَا قَسْرًا، لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ، وَمَنْعَهُ وَقَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَمْنَعُهُ. فَأَمَرَ ﷺ بِرَدِّهِ إِلَيْهِ، وَقَالَ: «هَآكَ خَالِدَةً تَالِدَةً». فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَرَأَ لَهُ عَلِيٌّ الْآيَةَ فَأَسْلَمَ. وَأَعْطَاهُ عِنْدَ مَوْتِهِ لِأَخِيهِ شَيْبَةَ، فَبَقِيَ فِي وَلَدِهِ. وَالْآيَةُ وَإِنْ وَرَدَتْ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ فَعُمُومُهَا مُعْتَبَرٌ بِقَرِينَةِ الْجَمْعِ - ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ يَأْمُرُكُمْ ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ. إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا﴾ - فِيهِ إِدْغَامُ مِيمٍ «نِعَمَ» فِي «مَا» النِّكَرَةِ الْمَوْصُوفَةِ - أَيِ: نِعَمَ شَيْئًا ﴿يَعْظُمُكُمْ بِهِ﴾ تَأْدِيَةُ الْأَمَانَةِ وَالْحُكْمُ بِالْعَدْلِ! ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لَمَّا يُقَالُ، ﴿بَصِيرًا﴾. بِمَا يُفْعَلُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وَأُولِي﴾ : وَأَصْحَابَ ﴿الْأَمْرِ﴾ أَيِ: الْوَلَاةِ ﴿مِنْكُمْ﴾، إِذَا أَمَرُوكُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ﴾: اخْتَلَفْتُمْ ﴿فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَيِ: كِتَابِهِ ﴿وَالرَّسُولِ﴾ مُدَّةَ حَيَاتِهِ، وَبَعْدَهُ إِلَى سُنَّتِهِ أَيِ: اكشِفُوا عَلَيْهِ مِنْهُمَا، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. ذَلِكَ﴾ أَيِ: الرَّدُّ إِلَيْهِمَا ﴿خَيْرٌ﴾ لَكُمْ مِنَ التَّنَازُعِ وَالْقَوْلِ بِالرَّأْيِ، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: مَا لَا.

وقول المؤلف: (ما أوْتِمنَ عليه من الحقوق): بيان للمراد بالأمانة التي أمر الله بأدائها.

وقوله: (نزلت لَمَّا أخذ عليٌّ...) إلى آخره: تضمن كلامه ذكر سبب نزول الآية^(١)، وهو أخذ علي مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة بأمر النبي ﷺ، فامتنع عثمان من تسليم المفتاح، ويقال له الحَجَبِيَّ لأنه من بني عبد الدار، الذين لهم حجابة البيت، ولَمَّا نزلت هذه الآية أمر النبي ﷺ عليًّا فرد

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٥٧)، والعجائب (٢/ ٨٨٩).

المفتاح على عثمان، وقال: «هاك خالدة تالدة»؛ يعني: خذ المفتاح خالدة تالدة؛ أي: الحجابة لكم «خالدة»؛ أي: دائمة «تالدة»؛ أي: قديمة، والكلمتان منصوبتان على الحال؛ قوله: «فعجب»؛ أي: عثمان من رد المفتاح عليه بأمر من الله، وبسبب ذلك أسلم عثمان فبقي المفتاح عند عثمان، ولَمَّا حضره الموت دفع المفتاح إلى أخيه شيبة فبقي المفتاح في ذريته بني شيبة.

وقوله: (والآية وإن وردت ...) إلى آخره: يبين أن حكم الآية عام، وإن وردت على سبب خاص، فإنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويؤيد ذلك ذكر الأمانة بلفظ الجمع.

وقوله: (يأمركم): تقدير: لفعل محذوف معطوف؛ أي: ويأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل.

وقوله: (فيه إدغام ...) إلى آخره: يبين أن تشديد الميم بسبب إدغام: ميم «نعم» بـ«ما»، وهي: نكرة موصوفة بمعنى شيء، ومحلها النصب على التمييز.

وقوله: (تأدية الأمانة والحكم بالعدل!): بيان للمخصوص بالمدح. وقوله: (لما يُقال)، و(بما يُفعل): بيان لمتعلق السمع والبصر، فمتعلق السمع الأقوال، ومتعلق البصر الأفعال.

وقوله: (أي: الوُلاة): تفسير لأولي الأمر، وهم: الأمراء، وهذا أحد القولين في المراد بأولي الأمر، وقيل: هم: العلماء بأحكام الشريعة، وكل من القولين صحيح.

وقوله: (إذا أمروكم بطاعة الله ورسوله): يبين بأن طاعة أولي الأمر تابعة لطاعة الله ورسوله، فلا تجب طاعتهم مطلقاً، أما الرسول فتجب طاعته مطلقاً؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وهذا مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله.

وقوله: (اختلفتم): تفسير: «تنازعتم»، فإنَّ النزاع اختلاف شديد، وقد يعبر به عن أي اختلاف، وقد يؤدي الخلاف إلى النزاع، ويؤدي النزاع إلى المراء والجدل، وحينئذٍ يجب التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، وقد نهى الله عن النزاع.

وقوله: (أي: كتابه)؛ أي: القرآن؛ لأنه الذي يعرف به حكم الله.
وقوله: (مُدَّة حياته...) إلى آخره: بيان لمعنى الرد إلى الرسول، وذلك بالرد إلى الرسول مباشرة في حياته بسؤاله، وبالرد إلى سنته بعد وفاته، وهي: الأحاديث الصحيحة من أقواله وأفعاله وتقريراته، وقوله: (أي: اكشفوا عليه منهما)؛ أي: اكشفوا عن الحكم المتنازع فيه، (منهما)؛ أي: الكتاب والسنة.

وقوله: (أي: الرد إليهما): بيان لمرجع الإشارة، وهو المصدر المفهوم من قوله: (فردوه).

وقوله: (لكم من التنازع والقول بالرأي): بيان للمفضل عليه، والمفضل هو الرد إلى الله والرسول.

وقوله: (مآلاً): تفسير: لـ: ﴿تَأْوِيلًا﴾، والمآل ما يؤول إليه الشيء.



وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۚ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۚ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۖ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۝﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾؛ أي: ألم تعلم، ضمن معنى ينتهي علمك إلى الذين يزعمون، والاستفهام للتعجب.

وقوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ أي: يدعون الإيمان، وهم كاذبون فهم منافقون، ومن نفاقهم: أنهم يؤثرون حكم الطاغوت على حكم الله ورسوله، فإذا كانت لهم قضية أثروا التحاكم إلى الطاغوت، وهو كل من يحكم بشريعة الشيطان المناقضة لحكم الله ورسوله، والله قد أمر بالكفر بالطاغوت، وهو يعم من يحكم بغير ما أنزل الله، وما يحكم به، والشيطان يريد أن يضل هؤلاء المنافقين عن الحق ضلالاً بعيداً؛ فيؤمنون بالطاغوت، ويؤثروا التحاكم إليه، ولهذا إذا دعوا إلى التحاكم إلى الله ورسوله صدوا صدوداً، كراهة لما أنزل الله، وإذا عوقبوا أو عوتبوا على ذلك قالوا ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق بين حكم الله وحكم غيره، وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، تهديد ووعيد بأنه تعالى يعلم ما في قلوبهم من النفاق، والنيات السيئة لذلك أمر الله نبيه بالإعراض عنهم، وموعظتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۝﴾؛ أي: قل لهم في موعظتك لهم ﴿قَوْلًا بَلِيغًا ۝﴾؛ أي: شديداً تخوفهم بالله، وتوعدهم عسى أن يتوبوا ويستجيبوا، فإن الله يتوب على من تاب، وإن كان كافراً أو منافقاً.

ونزل، لما اختصم يهودي ومُنافق، فدعا المُنافق إلى كعب بن الأشرف ليحكم بينهما، ودعا اليهودي إلى النبي ﷺ، فأتياه فقضى لليهودي فلم يرض المُنافق، وأتيا عُمَرَ فذكر اليهودي له ذلك، فقال للمُنافق: أكذلك؟ فقال: نعم. فقتله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾: الكثير الطُغيان - وهو كعب بن الأشرف - ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ ولا يُوالوه، ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الحق؟ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنزِلَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْحُكْمِ، وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ ليحكم بينكم، ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ﴾: يُعرضون ﴿عَنْكَ﴾ إلى غيرك ﴿صُدُّودًا - فَكَيْفَ﴾ يصنعون، ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ عقوبة، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكُفر والمعاصي، أي: أيقِدرون على الإعراض والفرار منها؟ لا - ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾: معطوفٌ على «يصدون»، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ﴾: ما ﴿أَرَدْنَا﴾ بالمُحاكمة إلى غيرك ﴿إِلَّا إِحْسَانًا﴾: صلحًا ﴿وَتَوْفِيقًا﴾: تأليفًا بين الخصمين بالتقريب في الحكم، دون الحمل على مَرِّ الحق.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، من النِّفاق وكذبهم في عذرهم. ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بالصفح، ﴿وَعِظْهُمْ﴾: خوِّفْهُمْ الله، ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي﴾ شأن ﴿أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾: مؤثِّرًا فيهم، أي: أَرْجُرْهُمْ ليرجعوا عن كُفرهم.

وقول المؤلف: (ونزل ...) إلى آخره: هذا ما ذكره المفسرون في سبب نزول هذه الآيات^(١)، وقدم المؤلف ذكره قبل الآية؛ لأن معرفة سبب النزول مما يعين على فهم الآية.

وقوله: (الكثير الطغيان): فسر: الطاغوت بكثير الطغيان، لأنه صيغة مبالغة، وصيغة المبالغة تدل على زيادة المعنى.

وقوله: (وهو كعب بن الأشرف): خصه بالذكر؛ لأنه الذي طلب المنافق التحاكم إليه كما ذكر في سبب النزول.

وقوله: (ولا يؤالوه): عدم الموالاة ثمرة الكفر به، وقد أمروا بذلك، والكفر به يتضمن عداوته، والبراءة منه.

وقوله: (عن الحق؟): بيان لمراد الشيطان في إضلال المنافقين، وهو صد من يطيعه.

وقوله: (من الحكم): بيان لما في الموصول من الإبهام؛ فالمعنى: تعالوا إلى الحكم الذي أنزله الله.

وقوله: (ليحكم بينكم): بيان للمراد من دعوتهم إلى الرسول ﷺ، وهو الحكم بينهم.

وقوله: (يُعرضون): تفسير: يصدون؛ لأنه من صد اللازم، ومصدره صدودًا.

وقوله: (إلى غيرك): بيان لمفهوم الصدود عن التحاكم إلى الرسول، وهو التحاكم إلى غيره ﷺ من الطواغيت الذين يحكمون بأهوائهم، وهم أعداء للرسول ﷺ مثل: كعب بن الأشرف.

وقوله: (يصنعون): تقدير للفعل العامل في كيف، فإنها في موضع نصب على الوجه الذي ذكره المؤلف، وقيل: إنها في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره كيف حالهم؟

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٦٢)، والعجاب (٢/ ٩٠٣).

وقوله: (عقوبة): تفسير: مصيبة، وسماها عقوبة لقوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

وقوله: (من الكفر والمعاصي): بيان للمبهم في الموصول في قوله: (بما).

وقوله: (أي: أيقِدرون...) إلى آخره: بيان للمطلوب بالاستفهام في قوله: ﴿فَكَيْفَ﴾، وهو معرفة حالهم إذا أصابتهم مصيبة، فإنهم لا يعرضون ولا يقدرُونَ على الفرار فيلجؤون إلى الحلف الكاذب؛ لقولهم: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾.

وقوله: (معطوفٌ على «يصدّون»): فيه نظر، والصواب ما قاله بعضهم كأبي السعود، وهو أنه معطوف على أصابتهم، فإنّ مجيئهم للاعتذار من أثر المصيبة^(١).

وقوله: (ما): تفسير لـ «إنّ» بأنها نافية.

وقوله: (بالمُحاكمة إلى غيرك): بيان لمفعول أردنا، وهو ما بعد «إلا».

وقوله: (صُلحًا)؛ أي: بين الخصمين.

وقوله: (تأليفًا بين الخصمين...) إلى آخره: تفسير: للتوفيق المراد لهم بزعمهم، فسرّه بالتأليف بين الخصمين، وذلك بتحري أن يكون الحكم مُرضيًا للطرفين، ولا يكون صارمًا بأن يحكم بينهما بالحجة المبينة للحق، وهو مُرضٍ على النفوس كما أشار المؤلف، وفي الحديث: «**قل الحق، ولو كان مرًا**»^(٢).

وقوله: (من النِّفاق...) إلى آخره: بيان للإبهام الذي في الموصول ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٢/ ١٩٥-١٩٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٤١٥)، والبزار (٣٩٦٦) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن حبان (٣٦١)، (٤٤٩)، والألباني في الصحيحة (٢١٦٦).



وقوله: (بالصفح)؛ أي: بإعراض بلا عتاب.
 وقوله: (خَوْفُهُمُ اللَّهَ): فسر: الوعظ بأبلغ أنواعه، وهو التذكير بالله
 الباعث على خوفه تعالى.
 وقوله: (شأن): يبين أنَّ قوله تعالى: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾، على تقدير
 مضاف، وقدره بقوله: (في شأن)؛ أي: شأن أنفسهم.
 وقوله: (مُؤَثَّرًا...) إلى آخره؛ أي: قولاً له تأثير عليهم يحملهم على
 ترك نفاقهم، وترك خداعهم ومكرهم.



وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ٦٦﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا ٦٧ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا ٦٨ وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ٦٩ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٧٠ وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ٧١ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ٧٢﴾ [النساء: ٦٤-٧٠].

يخبر تعالى أنه ما أرسل رسولاً إلا من أجل أن يُطاع، وذلك بإذن الله تعالى الكوني والشرعي، وهذه جملة معترضة بين الآيات السابقة في المنافقين، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، وهم المنافقون ﴿جَاءُوكَ﴾ - أيها الرسول - تائبين، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾، وسألوا الرسول أن يستغفر لهم فاستغفر لهم؛ المعنى: ولو أن المنافقين حين ظلموا أنفسهم بالنفاق جاؤوا إلى الرسول نادمين فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول.

وقوله: ﴿لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ٦٦﴾؛ أي: لقبل الله توبتهم ورحمهم، وحكم هذه الآية مختص بحياته ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ الآية: يقسم تعالى بنفسه أن مَنْ لم يحكم الرسول في كل نزاع، وفي كل حكم تحكيماً لا يجدون منه حرجاً في أنفسهم في أي قضاء قضاه النبي ﷺ بل يسلموا لحكمه، ﴿تَسْلِيمًا﴾؛ أي: ينقادوا لحكمه انقياداً تاماً؛ فهذه ثلاث مراتب: مطلق التحكيم، وانتفاء الحرج، والتسليم، وجعل الشيخ ابن سعدي هذه المراتب تمثل مراتب الإسلام والإيمان والإحسان^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا

عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴿٤٧﴾: يقول تعالى: لو كتبنا على هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك -أيها الرسول-، وما أنزل من قبلك أن يقتلوا أنفسهم كما كتبنا على بني إسرائيل في توبتهم من عبادة العجل، أو كتبنا على هؤلاء الخروج من ديارهم ما فعلوا ما أمروا به من قتلهم أنفسهم أو الخروج من ديارهم إلا قليل منهم؛ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾؛ أي: ما يأمرهم به ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ في الدنيا، ﴿وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾ ﴿٤٨﴾ لهم على الإيمان والعمل الصالح، ومن ثبته الله على الإيمان والعمل الصالح آتاه من عنده أجرًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، وهداه صراطًا مستقيمًا في العلم والعمل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٩﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٥٠﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء: ١٣]: بفعل المأمور، وترك المحذور، فآمن وعمل صالحًا فإن الله يجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فيدخل الجنة معهم، ويُنزله في الجنة المنزلة اللائقة بعمله، ولا يلزم أن يكون معهم في منازلهم من الجنة؛ فالأنبياء في أعلى الجنة منازلهم، والصديقون دونهم، والشهداء دونهم، وقد يجتمع في الشخص صفتان أو ثلاث، واسم الصالحين يعمهم، يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥١﴾ [مريم]، وقال في إدريس: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥٢﴾ [مريم]، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صديق وشهيد، وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل الصديقين بعد النبيين.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ ﴿٥٣﴾: معناه هذا الإنعام والتكريم والتفضيل فضل من الله مَنْ به على أنبيائه وأوليائه، هذا وهو العليم بكل شيء، ومن ذلك علمه بمواضع فضله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾، فيما يأمر به ويحكم، ﴿يَا ذِينَ
اللَّهِ﴾: بأمره، لا ليعصى ويُخالف. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾
بتحاكمهم إلى الطاغوت، ﴿جَاؤُوكَ﴾ تائبين، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ
لَهُمُ الرَّسُولُ﴾: -فيه التفات عن الخطاب تفيخياً لشأنه- ﴿لَوْ جَدُّوا اللَّهَ
تَوَابًا﴾ عليهم، ﴿رَحِيمًا﴾ بهم. ﴿فَلَا -وَرَبَّكَ- لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا: زائدة
﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ﴾: اختلط ﴿بَيْنَهُمْ﴾، ثم لا يجدوا في أنفسهم
حرجاً: ﴿ضيقاً أو شكاً﴾ ﴿مِمَّا قُضِيَتْ﴾ به، ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾: ينقادوا للحكم
﴿تَسْلِيمًا﴾ من غير معارضة.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ﴾: مُفسَّرة ﴿أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، أَوْ اخْرُجُوا
مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ كما كتبنا على بني إسرائيل، ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: المكتوب
عليهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ -بالرفع على البدل، والنصب على الاستثناء- ﴿مِنْهُمْ،
وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾، من طاعة الرسول، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ
وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾: تحقيقاً لإيمانهم، ﴿وَإِذَا﴾ أي: لو ثبتوا ﴿لَا تَنَاهَاهُمْ مِنْ
لَدُنَّا﴾: من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنة، ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا﴾.

قال بعض الصحابة للنبي ﷺ: كيف نراك في الجنة، وأنت في الدرجات
العُلا، ونحن أسفل منك؟ فنزل: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، فيما أمرا به،
﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ﴾: أفاضل
أصحاب الأنبياء لمبالغتهم في الصدق والتصديق، ﴿وَالشَّهَدَاءَ﴾: القتلى
في سبيل الله، ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ غير من ذكر، ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾:
رفقاء في الجنة بأن يُستمتع فيها برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم، وإن
كان مقرهم في درجات عالية بالنسبة إلى غيرهم!

﴿ذَلِكَ﴾ أي: كونهم مع من ذُكِرَ، مبتدأ خبره: ﴿الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ تفضّل به عليهم، لا أنهم نالوه بطاعتهم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيْمًا﴾ بثواب الآخرة! أي: فنقوا بما أخبركم به، «ولا يُنبئكَ مثْلَ خَيْرٍ».

وقول المؤلف: (فيما يأمر به ويحكم): بيان لمتعلق الطاعة.
وقوله: (بأمره)؛ أي: أمره الكوني، ويحتمل أمره الشرعي، ولو قال: بمشيئته لكان أولى، لأنه لا تمكن منهم الطاعة إلا بمشيئته تعالى.
وقوله: (لا يُعصى ويُخالف): بيان لما يفيد الحصر من النفي.
وقوله: (بتحاكمهم إلى الطاغوت): بيان لما به ظلموا أنفسهم، وهو التحاكم إلى الطاغوت، ولو قال بنفاقهم، وتحاكمهم إلى الطاغوت كان أشمل لما به ظلموا أنفسهم.

وقوله: (تائبين)؛ أي: نادمين مجانبين للمعصية.
وقوله: (فيه التفات ...) إلى آخره: يريد أنه انتقل أسلوب الكلام عن الخطاب في قوله: ﴿جَاءُوكَ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾، فلم يقل: (واستغفرت لهم)، ومن فوائد هذا الالتفات تعظيم أمر الرسول، فذكر الرسول بالاسم الظاهر وصفة الرسالة فيه من التفخيم ما ليس في الضمير لو قال: (واستغفرت لهم).

وقوله: (عليهم): بيان لمتعلق التوبة.
وقوله: (بهم): بيان لمتعلق الرحمة.
وقوله: (زائدة): يريد أن «لا» الأولى، ليس فيها شيء من معانيها الأصلية، وجيء بها للتوكيد.

وقوله: (اختلط): تفسير: «لشجر»؛ أي: اشتبه عليهم فاختلفوا وتنازعوا.

وقوله: (ضيقاً أو شكاً): تفسير: للخرج بسبب كراهة الحكم لمخالفته الهوى.

وقوله: (به)؛ أي: بسبب ما حكمت به.

وقوله: (ينقادوا لحكمك): تفسير «يسلموا»، فإنَّ التسليم استسلام وانقياد.

وقوله: (من غير مُعارضة)؛ أي: تسليم تام.

وقوله: (مُفسَّرة)؛ أي: مفسرة لكتبنا فما بعدها تفسير لما قبلها؛ أي: لو كتبنا عليهم قتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم.

وقوله: (كما كتبنا على بني إسرائيل): يدل على أنَّ الأمر بالقتل والخروج قد وقع لبني إسرائيل، فيمكن أن يكتب على هؤلاء المدعين للإيمان.

وقوله: (أي: المكتوب عليهم): يبين أنَّ الضمير المتصل المنصوب عائد إلى المكتوب المفهوم من كتبنا، وهو القتل أو الخروج.

وقوله: (بالرفع...) إلى آخره: بيان لإعراب قليل، فإنه استثناء من كلام تام منفي، فيجوز في المستثنى الوجهان الرفع على البدل من الواو، أو نصب على الاستثناء من الفاعل في جملة فعلوه.

وقوله: (من طاعة الرسول): بيان للمبهم في قوله: ﴿مَا يُوعِظُونَ﴾، وإذن؛ فالذي يوعظون به هو الأمر بطاعة الرسول.

وقوله: (تحقيقاً لإيمانهم): بيان لمعنى الثبوت؛ فالثبوت إذن؛ هو تحقيق الإيمان بتصدق الأقوال بالأعمال.

وقوله: (أي: لو ثبُّوا): بيان لمعنى: ﴿وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ﴾.

وقوله: (من عندنا): تفسير: «من لدنا»، ف«عند»، و«لدا» مترادفان.

وقوله: (هو الجنة): تفسير: للأجر العظيم، وهو تفسير حق، فالجنة هي الثواب الذي أعده الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات.
 وقوله: (قال بعض الصحابة...) إلى آخره: يذكر بذلك سبب نزول: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ الآية^(١).

وقوله: (فيما أمرأ به): بيان لمتعلق الطاعة.
 وقوله: (أفاضل أصحاب الأنبياء...) إلى آخره: تفسير: للصديقين؛ كالعشرة المبشرين بالجنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأفضلهم أبو بكر، فإنه الصديق الأكبر، لأنه الذي لقبه الرسول ﷺ بذلك إذ قال لعائشة: «يا ابنة الصديق»^(٢).

وقوله: (القتلى في سبيل الله): تفسير: للشهداء، فإنهم أفضل الشهداء.
 وقوله: (غير من ذكر)؛ لأنَّ كُلَّ مَنْ ذكر قبل هم من الصالحين، والصالحون هم الذين صلحت أقوالهم وأعمالهم ونياتهم بإخلاصهم فيها لله، واتباعهم لسنة رسول الله.

وقوله: (رُفقاء في الجنة...) إلى آخره: بيان لمكان هذه الرفقة، وهو الجنة، وفيها يلقون من كانوا يحبونهم في الدنيا فيستمتعون بالتزاور فيما بينهم، والمجالسة على السرر والأرائك؛ كما قال تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقوله: (كونهم مع من ذكر...) إلى آخره: بيان لمرجع اسم الإشارة، ثم أعرب اسم الإشارة مبتدأ، وخبره: الفضل على تقدير ضمير فصل؛ أي: ذلك هو الفضل من الله.

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٦٥)، والعجاب (٢/ ٩١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٢٦٣)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وقال الترمذي: «وروي هذا الحديث عن عبد الرحمن بن سعيد، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحو هذا»، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٢)، وصححه أيضًا الحاكم (٣٤٨٦) وليس فيه موضع الشاهد.

وقوله: (تفضل به ...) إلى آخره: بيان لمعنى الفضل، وهو أن هذا العطاء تفضل من الله لم ينالوه بأعمالهم، ففي الآية شاهد لقوله عَلَيْهِ السَّلَام: «لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة»^(١).

وقوله: (بثواب الآخرة! ...) إلى آخره: تقييد: العلم بثواب الآخرة فيه نظر، لأنه لم يجر له ذكر، والصواب أن المعنى: وكفى بالله عليمًا بمن يستحق هذا العطاء، فإن الله هو العليم بذلك وحده، وعلمه تعالى كاف في وضع الأشياء مواضعها.



(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦-٧٥) عن أبي هريرة بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا ۖ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطِئُ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ﴾ * فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۖ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَقاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ [النساء: ٧٦-٧٦].

يأمر الله عباده المؤمنين أن يأخذوا حذرهم؛ أي: يحذروا من أعدائهم الكافرين، ويأخذوا عدة الجهاد من المراكب والسلاح؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والحذر بفتح الحاء: هو اليقظة والمراقبة لتحركات العدو، والحذر بالكسر؛ هو العدة الكافية لمواجهة العدو^(١)، ثم أمرهم أن ينفروا، أن يخرجوا للجهاد، وخيرهم أن يخرجوا ثبات؛ أي: جماعات أو يخرجوا كلهم جيشاً واحداً، ثم أخبر أن من المدعين للإيمان من يبطئ الناس عن الخروج للجهاد؛ أي: يشبطهم ويدعوهم للعود، وهؤلاء من المنافقين، وهو يقعد مع القاعدين، فإن أصاب المسلمون مصيبة؛ من قتل وأسر، فرح بتخلفه؛ فقال: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ ۖ؛ أي: إذ لم أكن حاضراً معهم، وإن أصاب المسلمين ﴿فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾: نصر من الله أو غنيمة، تمنى أن لو كان مع المجاهدين؛ فقال: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ۖ: يريد بما ينال من الغنيمة، ثم أمر الله بالقتال؛ أي: قتال الكفار، وخص بالأمر الذين

(١) ينظر: المفردات (ص ٢٢٣).

يشرون الحياة الدنيا بالآخرة؛ أي: يبيعون الدنيا، ويؤثرون الآخرة، لذلك يبذلون أموالهم وأنفسهم مجاهدين في سبيل الله نصرته لدين الله لتكون كلمة الله هي العليا؛ فقال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾، ثم أخبر تعالى بما للمقاتل في سبيل الله من الأجر العظيم قُتل أو غلب؛ فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ثم توجه الكلام إلى لوم المتقاعسين عن القتال في سبيل الله، ومن ذلك القتال في نصرته المستضعفين من المؤمنين من الأسرى لدى الكفار أو العاجزين عن الهجرة، فإنَّ القتال لتخليصهم، وإعانتهم على الهجرة هو من القتال في سبيل الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥): فقلوه: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾: استفهام توبيخ وإنكار؛ أي: لا عذر لكم في ترك القتال في سبيل الله، وفي سبيل المستضعفين، والظاهر أنَّ القرية المذكورة هي مكة، وقد كان فيها من المستضعفين جماعة من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وقد كانوا يلقون من المشركين بمكة أذى كثيراً، وقد كان النبي ﷺ يقنت لهم في الصلاة، ويسميهم بأسمائهم؛ يقول: «اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين» رواه البخاري^(١).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ﴾: هذا تنبيه من الله لعباده المؤمنين على الفرق بين قتالهم وقاتل الكافرين، فالمؤمنون يقاتلون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ولهم على ذلك الأجر العظيم، والله معهم، ومن كان الله معه فهو

(١) برقم (٢٩٣٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في مسلم (٦٧٥-٢٩٥) بنحوه.

الغالب المنصور، والكافرون يقاتلون في سبيل الطاغوت -وهو الشيطان-؛ لذلك فهم مأزورون لا مأجورون، ومخدولون خائبون، وفي هذا البيان إغراء للمؤمنين بقتال الكفار، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اسْتَشْعَرُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ يِقَاتِلُونَ مَعَ الشَّيْطَانِ قُوَّةَ عِزَائِهِمْ وَاسْتَبْسَلُوا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ مُحَرِّضًا لَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾؛ فالْمُؤْمِنُونَ جند الله، والكفار جند الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝٧٧﴾ [الصافات].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ من عدوكم، أي: احذروا منه وتيقظوا له، ﴿فَانْفِرُوا﴾: انهضوا إلى قتاله ﴿ثَبَاتٍ﴾: مُتَفَرِّقِينَ سَرِيَّةً بعد أخرى، ﴿أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾: مجتمعين، ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ﴾: ليتأخَّرَنَّ عن القتال، كعبد الله بن أبي المنافق وأصحابه -وجعله منهم من حيث الظاهر. واللام في الفعل للقسم- ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾، قتل وهزيمة، ﴿قَالَ: قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ، إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾: حاضراً فأصاب.

﴿وَلَئِنْ﴾: لَأَمْ قَسَمَ ﴿أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾، كفتح وغنيمة، ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ نادماً ﴿كَأَنَّ﴾ -مُخَفِّفَةً واسمها محذوف- أي: كأنه ﴿لَمْ يَكُنْ﴾، بالياء والتاء، ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾: معرفة وصداقة -وهذا راجع إلى قوله «قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ»، اعترض به بين القول ومقوله وهو: ﴿يَا﴾ للتنبية ﴿لَيَتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ، فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾: أَخَذَ حِظًّا وَافِرًا مِنَ الْغَنِيمَةِ.

قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: لِإِعْلَاءِ دِينِهِ ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾: يبيعون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ. وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،

فَيُقْتَلُ: يُسْتَشْهَدُ ﴿أَوْ يَغْلِبُ﴾: يَظْفَرُ بَعْدَوَهُ، ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: ثَوَابًا جَزِيلًا.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾ - استفهام توبيخ - أي: لا مانع لكم من القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَ﴾ في تَخْلِيصِ ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الذين حبسهم الكفار عن الهجرة وأذوهم - قال ابن عباس: كنت أنا وأُمِّي منهم - ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ داعين: يا ﴿رَبَّنَا، أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾: مَكَّةَ ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بالكفر، ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾: من عِنْدِكَ ﴿وَلِيًّا﴾ يتولَّى أُمُورَنَا، ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾: يَمْنَعُنَا مِنْهُمْ؟ وقد استجاب الله دعاءهم، فيسر لبعضهم الخروج، وبقي بعضهم إلى أن فُتِحَت مَكَّة، وولَّى عليهم ﷺ عَتَابُ بْنُ أُسَيْدٍ، فَأَنْصَفَ مَظْلُومَهُمْ مِنْ ظَالِمِهِمْ.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾: الشَّيْطَانِ. ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾. أَنْصَارَ دِينِهِ، تَغْلِبُوهُمْ لِقَوَّتِكُمْ بِاللَّهِ. ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾: وَاهِيًّا، لَا يُقَاوِمُ كَيْدَ اللَّهِ بِالْكَافِرِينَ.

وقول المؤلف: (من عدوكم...) إلى آخره: بيان لمتعلق الحذر، وهو العدو، وهم الكفار المحاربون، وأخذ الحذر بالاستعداد، ومراقبة تحرك العدو.

وقوله: (انهضوا إلى قتاله): تفسير: لقوله: (انفروا)، والنفير نهوض إلى قتال العدو، وضده القعود عن الخروج للجهاد؛ قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

[النساء: ٩٥]، وقال الله تعالى لنبيه: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:

٨٣]، إلى قوله: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقوله: (مُتَفَرِّقِينَ سَرِيَّةً بَعْدَ أُخْرَى): تفسير: لثبات، والثبة: الجماعة^(١)؛

المعنى: اخرجوا للجهاد جماعة بعد جماعة، ويدل له قوله: ﴿أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾.

وقوله: (مجتمعين): هذا: في مقابل قوله: (مُتَفَرِّقِينَ).

وقوله: (لِيَتَأَخَّرَنَّ عَنِ الْقِتَالِ...) إلى آخره: تفسير: لقوله: ﴿لِيَبْطِئَنَّ﴾،

فجعل يبطئن من اللازم، ويين أن المراد بهذا الصنف المنافقون، والمنافقون

ليسوا من المؤمنين، وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين؛ قال المؤلف:

(وجعله منهم)؛ أي: من المؤمنين باعتبار الظاهر؛ لأنَّ المنافقين يظهرون

الإيمان، ويطنون الكفر فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وهم الذين يقولون:

آمنا بالله وباليوم الآخر، وما هم بمؤمنين.

وقوله: (واللام في الفعل للقسم)؛ أي: واقعة في جواب القسم بدليل

نون التوكيد.

وقوله: (كقتل وهزيمة): بيان لنوع المصيبة التي قد تقع.

وقوله: (حاضرًا): تفسير: لشهيد.

وقوله: (فَأُصَابَ): هذا: محذور المنافق الجبان، فلذا عدَّ عدم حضوره

نعمة.

وقوله: (لَا مُمْ قَسْمَ)؛ أي: موطة للقسم.

وقوله: (كفتح وغنيمة): بيان للمراد من الفضل الذي من الله.

وقوله: (نادمًا): يبين أنه يقول هذا القول، وهو نادم على عدم الخروج

مع المجاهدين.

(١) ينظر: المفردات (ص ١٧٢).

وقوله: (مُخَفَّفَةٌ ...) إلى آخره: كأن: من أخوات «إِنَّ»، وتأتي مثقلة ومخففة، تنصب الاسم وترفع الخبر، فبين المؤلف أنَّ التي في الآية مخففة، وأنَّ اسمها محذوف، ولو قال: واسمها ضمير الشأن محذوف كان أتم ثم قدره بقوله: (كأنه).

وقوله (بالياء والتاء): يشير: إلى أنَّ «يكن» فيها قراءتان: يكن وتكن^(١).
وقوله: (معرفة وصدقة ...) إلى آخره: فسر: المؤلف المودة التي بين المؤمنين وهذا المتخلف بالمعرفة والصدقة؛ لأنه يعد نفسه من المؤمنين، وقول المؤلف: (وهذا راجع إلى قوله: «قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ»): يريد إلى الذي قد قال ذلك، وهو المبطل عن الجهاد.

وقوله: (اعترض به بين القول ومقوله): يعني: أنَّ جملة لم تكن بينكم وبينه مودة، معترضة بين قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، وقوله: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، فهو مقول القول، ولهذا قال المؤلف: (وهو) أي: مقول القول ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾.

وقوله: (للتنبية)؛ أي: للتنبية لما بعدها.
وقوله: (حظاً وافراً من الغنيمة): تفسير: للفوز العظيم الذي يتمناه القاعد عن الجهاد.

وقوله: (لإعلاء دينه)؛ أي: لتكون كلمة الله هي العليا؛ كما قال ﷺ:
«مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

وقوله: (يبعون): تفسير: يشرون، فإنه مضارع «شرى»؛ بمعنى: باع؛ كقوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ﴾ [يوسف: ٢٠]؛ أي: باعوه.
وقوله: (يُسْتَشْهِدُ): تفسير: يقتل، لأنَّ الذي يقتل في سبيل الله شهيد.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: (يَظْفَرُ بَعْدُوهُ): تفسير: يغلب، فَإِنَّ مَنْ ظَفَرَ بَعْدُوهُ فَقَدْ غَلَبَ.
 وقوله: (ثَوَابًا جَزِيلًا): بيان لمعنى الأجر العظيم، وهو الثواب على
 الجهاد، فَإِنَّ اللَّهَ يَضَاعِفُهُ أَضْعَافَ كَثِيرَةٍ.
 وقوله: (استفهام توبيخ...) إلى آخره: فيه بيان الغرض من الاستفهام،
 وهو توبيخ القاعدين عن الجهاد لأنه لا عذر لهم.
 وقوله: (في تخلص): بيان للغرض الثاني من الجهاد، وهو تخلص
 المستضعفين.
 وقوله: (الذين حبسهم...) إلى آخره: بيان لسبب الاستضعاف الذي
 منعهم من الهجرة.
 وقوله: (داعين: يا): يبين أَنَّ جُمْلَةَ: «يقولون» في موضع نصب على
 الحال مع تقدير حرف النداء.
 وقوله: (مَكَّةَ): بيان للمراد بالقرية في هذه الآية.
 وقوله: (بالكُفْر): بيان للمراد بالظلم الذي وصف به أهل القرية؛ بل
 الكفر أظلم الظلم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقوله: (من عندك): لدن بمعنى: عند دائماً.
 وقوله: (يتولَّى أُمُورَنَا)؛ أي: يسعى في مصالحنا.
 وقوله: (يمنعنا منهم؟...) إلى آخره: بيان لمعنى النصير، فإنه الذي
 يدفع الظالم عن المظلوم، ثم بين المؤلف أَنَّ اللَّهَ أَجَابَ دَعَاءَهُ، فَيَسِّرُ الْهَجْرَةَ
 لِبَعْضِهِمْ، وَبَقِيَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مَكَّةَ، فَوَلَّى عَلَيْهَا مَنْ
 يَنْصُرُ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ شَرَّ الظَّالِمِينَ.
 وقوله: (الشيطان): فسر: الطاغوت بالشیطان؛ لأنه رأس الطواغيت
 وشرهم، وتقدم تفسير الطاغوت في مواضع من هذه السورة^(١).

(١) تنظر: (ص ٤٢٨)، (ص ٤٣٢).

وقوله: (أنصار دينه...) إلى آخره: وهم: المشركون، فإنَّ الشرك دين الشيطان، وهو الداعي إليه، ومن يقاتل في سبيل الله أولياء الشيطان فهو الغالب لا محالة لأنَّ الله معه.

وقوله: (بالمؤمنين): يتضمن تفسير الكيد: بالمكر؛ لأنه الذي يتعدى بالباء، والكيد يتعدى بنفسه.

وقوله: (واهيًا...) إلى آخره: يبين أنَّ كيد الشيطان في غاية الضعف، وعدم القوة، وإذن؛ فلا يقاوم مكر الله بالكافرين.



وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظْلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾ إِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ٧٩﴾ [النساء: ٧٧-٧٩].

هذه الآيات نزلت في جماعة من المسلمين بمكة^(١)، وكانوا يلقون من المشركين أذى كثيراً، وكانوا يودون أن يؤمروا بقتالهم، ويتمنون لو كتب عليهم القتال، فأمروا بكف أيديهم عن قتال المشركين، وأن يؤدوا ما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة، فلما كتب الله عليهم القتال جبن فريق منهم، وصاروا يخشون الناس؛ أي: الكفار خشية شديداً كخشيتهم لله أو أشد خشية، واعترضوا على فرض القتال عليهم في ذلك الوقت، وقالوا ما ذكر الله عنهم: ﴿لَمْ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ﴾، وطلبوا من الله تأخير فرض القتال إلى أجل قريب، وذلك قولهم: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، فرد الله عليهم بأن متاع الدنيا قليل تقدم الموت أو تأخر، وهذا تناقض عجيب، فينا هم يطلبون أمرهم بالقتال؛ إذا هم يتبرمون من كتب القتال عليهم، ويتمنون لو تأخر ذلك، ولهذا افتتحت هذه الآيات بالتعجب منهم؛ فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾؛ أي: ألم تعلم -أيها النبي- وينتهي علمك إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم عن قتال المشركين، وعليكم أن تؤدوا ما فرض الله عليكم من الصلاة والزكاة، فلما كتب عليهم القتال الذي كانوا يتمنونه بادر فريق منهم إلى الخوف من الناس والاعتراض على فرض القتال عليهم،

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٦٦)، والعجاب (٢/ ٩١٧).

وتمنوا لو تأخر ذلك، فأمر الله نبيه أن يقول لهم متاع الدنيا قليل، وممتهاه الموت، فلا ينفعكم تأخير فرض القتال فاتقوا الله بالمسارعة إلى طاعته، فإن ذلك هو الذي ينفعكم في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧٧)؛ أي: لا تنقصون من أجور أعمالكم، ولا مقدار فتيل، والفتيل: هو الخيط الذي في شق النواة، وهو شيء لا يؤبه له يضرب به المثل في القلة^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾؛ أي: لا مفر لكم من الموت في أي مكان كنتم، ولو كنتم في بروج؛ أي: قصور؛ مشيدة؛ أي: عالية منيعة؛ فإنها لا تمنعكم من الموت؛ بل الموت مدركم لا محالة؛ فعلم بذلك أنه لا فائدة لهم فيما طلبوا من تأخير كتابة القتال عليهم، فمتمت لهم الموت تقدم فرض القتال أو تأخر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾، هذا خبر عن قول آخر من أقوال الفريق الذين يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية؛ قال كثير من المفسرين: إنهم من المنافقين^(٢)، يخبر تعالى عنهم أنهم إذا أصابتهم حسنة فهي نعمة خصب ونماء مال، وكثرة أبناء؛ يقولون: هذا من عند الله، وإن تصبهم سيئة؛ أي: مصيبة من جذب وفقر، ونقص أموال، وموت؛ يقولون: هذا من عندك يا محمد؛ أي: بسبب تركنا لديننا، واتباعنا لدينك، وهذا من التشاؤم بالرسول ﷺ وبالدين الذي جاء به، فهم يتطهرون بالرسول ﷺ كما تطير قوم صالح

(١) تنظر: (ص ٤٢٦).

(٢) وهو قول الحسن، ورجحه ابن عطية، والطاهر بن عاشور. ينظر: المحرر الوجيز (٢/ ٦٠٧)، وزاد المسير (١/ ٤٣٥)، والتحرير والتنوير (٥/ ١٢٩).

بنيهم، ﴿قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَّعَكَ قَالَ طِئِرْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧]، وكما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]، فأمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: الحسنات والسيئات النعم والمصائب كلها بقدر الله ومشيئته وحكمته البالغة؛ ثم قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨)، وهذا إنكار وتوبيخ لهذا الفريق الذين يقولون أقوالاً لا يفقهون حقائقها، وما فيها من الباطل والجهل، والاستفهام للتوبيخ والإنكار.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾؛ أي: نعمة في نفسك وأهلك ومالك ﴿فَمِنْ اللَّهِ﴾، لأنه خالقها وواهبها، ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾؛ أي: مصيبة في نفسك أو أهلك أو مالك ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾؛ أي: بسبب ذنبك؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى]، فدللت الآية على أن النعم بمحض فضل الله، وأن المصائب بقدر الله، ولكنها تكون بسبب من العبد، وهي: الذنوب؛ قال ابن كثير: «ثم قال تعالى -مخاطباً- للرسول ﷺ، والمراد جنس الإنسان ليصلح (١) الجواب» (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾؛ أي: بعثناك رسولاً؛ أي: مبلغاً ما يوحى إليك من ربك، وهذه هي الغاية من الإرسال، وليس معناه مرسلًا اسم مفعول من أرسل، فإنه يؤدي إلى التكرار مع قوله: (أرسلناك)، وحينئذٍ؛ فلا فائدة في قوله: ﴿رَسُولًا﴾، فرسولاً: حال مقدرة من ضمير المخاطب في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾.

وقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٧٩)؛ أي: كفى الله شاهداً بأنك رسول الله حقاً، وشاهداً لما تقول، ويقال لك لأنه تعالى مع نبيه يسمع ويرى، وفي

(١) هذا ما رجحه شيخنا، وفي طبعة طيبة، وطبعة أولاد الشيخ وغيرهما: (ليحصل).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٣٦٣).

هذا تثبت لفؤاد رسوله، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۖ﴾ [الفتح].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ: كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ، لَمَّا طَلَبُوهُ بِمَكَّةَ لِأَذَى الْكُفَّارِ لَهُمْ - وَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ -﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ. فَلَمَّا كُتِبَ: ﴿فُرِضَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ﴾: يَخَافُونَ ﴿النَّاسَ﴾: الْكُفَّارَ، أَي: عَذَابُهُمْ بِالْقَتْلِ ﴿كَخَشِيَةِ﴾ هُمْ عَذَابَ ﴿اللَّهِ، أَوْ أَشَدَّ خَشِيَةً﴾ مِنْ خَشِيَتِهِمْ لَهُ؟ وَنُصِبَ «أَشَدُّ» عَلَى الْحَالِ، وَجَوَابَ «لَمَّا» دَلَّ عَلَيْهِ «إِذَا» وَمَا بَعْدَهَا، أَي: فَاجَأَتْهُمْ الْخَشْيَةُ، ﴿وَقَالُوا﴾: جَزَعًا مِنَ الْمَوْتِ: ﴿رَبَّنَا، لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ؟ لَوْلَا﴾: هَلَّا ﴿أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ. قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا﴾: مَا يُتَمَتَّعُ بِهِ فِيهَا أَوْ الْإِسْتِمَتَاعُ بِهَا ﴿قَلِيلٌ﴾ أَيْلٌ إِلَى الْفَنَاءِ، ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ أَي: الْجَنَّةُ ﴿خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ عِقَابَ اللَّهِ بِتَرْكِ مَعْصِيَتِهِ، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ - بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ - تُنْقَصُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ﴿فَتِيلاً﴾: قَدَرٌ قِشْرَةِ النَّوَاةِ. فَجَاهِدُوا. ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾: حُصُونٌ ﴿مُشِيدَةً﴾: مَرْتَفَعَةٌ. فَلَا تَخْشَوُا الْقِتَالَ خَوْفَ الْمَوْتِ.

﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ﴾ أَي: الْيَهُودَ ﴿حَسَنَةٌ﴾: خِصْبٌ وَسَعَةٌ ﴿يَقُولُوا: هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: جَدْبٌ وَبَلَاءٌ، كَمَا حَصَلَ لَهُمْ عِنْدَ قُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ، ﴿يَقُولُوا: هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ - يَا مُحَمَّدٌ - أَي: بِشُؤْمِكَ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿كُلٌّ﴾ مِنَ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: مِنْ قَبْلِهِ. ﴿فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ، لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ أَي: لَا يُقَارِبُونَ أَنْ يَفْهَمُوا ﴿حَدِيثًا﴾ يَلْقَى إِلَيْهِمْ؟ وَمَا: اسْتَفْهَامٌ تَعْجِيبٌ مِنْ فَرَطِ جَهْلِهِمْ، وَنَفْيٌ

مُقَارَبَةُ الْفِعْلِ أَشَدَّ مِنْ نَفْيِهِ. ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ - أَيُّهَا الْإِنْسَانُ - ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ :
 خَيْرٍ ﴿فَمِنْ اللَّهِ﴾ أَتَيْتَكَ فَضْلًا مِنْهُ، ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ : بَلِيَّةٍ ﴿فَمِنْ
 نَفْسِكَ﴾ أَتَيْتَكَ، حَيْثُ ارْتَكَبْتَ مَا يَسْتَوْجِبُهَا مِنَ الذُّنُوبِ. ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾
 - يَا مُحَمَّدٌ - ﴿لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ : حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾
 عَلَى رِسَالَتِكَ!

وَقَوْلُ الْمُؤَلِّفِ: (عَنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ ...) إِلَى آخِرِهِ: بَيَانٌ لِّمَا أَمَرُوا بِكَفِّ
 أَيْدِيهِمْ عَنْهُ، وَبَيَانٌ لِسَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ، وَهُوَ أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ طَلَبُوا
 الْإِذْنَ لَهُمْ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ دَفْعًا لِأَذَاهُمْ، فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ جَبَنُوا.
 وَقَوْلُهُ: (فُرِضَ): تَفْسِيرٌ: لَكَتَبَ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ بِهَذَا الْمَعْنَى؛
 كَقَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة:
 ٢١٦]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وَقَوْلُهُ: (يَخَافُونَ): تَفْسِيرٌ لِلْخَشْيَةِ بِالْمَعْنَى الْأَعْمَى وَهُوَ الْخَوْفُ.
 وَقَوْلُهُ: (الْكُفَّارَ ...) إِلَى آخِرِهِ: بَيَانٌ لِلْمَرَادِّ بِالنَّاسِ، وَبَيَانٌ لِّمَا يَخَافُ
 مِنْهُمْ، وَهُوَ أَنْ يَقْتُلُوهُمْ إِذَا قَاتَلُوهُمْ.
 وَقَوْلُهُ: (عَذَابَ): بَيَانٌ لِمَتَعَلَّقِ الْخَشْيَةِ، وَهُوَ مُضَافٌ مُقَدَّرٌ هُوَ عَذَابُ اللَّهِ.
 وَقَوْلُهُ: (مَنْ خَشِيتُهُمْ لَهُ؟): بَيَانٌ لِلْمُفْضَلِ عَلَيْهِ فِي شِدَّةِ الْخَشْيَةِ.
 وَقَوْلُهُ: (وَنُصِبَ «أَشَدُّ» ...) إِلَى آخِرِهِ: تَضَمَّنَ: إِعْرَابَ «أَشَدُّ»، وَهُوَ
 النُّصْبُ عَلَى الْحَالِ، وَفِيهِ بَيَانٌ جَوَابٌ: «لَمَّا»، وَهُوَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ «إِذَا»
 الْفَجَائِيَّةُ، وَقَدَرَهُ الْمُؤَلِّفُ: لَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ فَاجَأَهُمُ الْخَشْيَةُ.
 وَقَوْلُهُ: (جَزَعًا مِنَ الْمَوْتِ): بَيَانٌ لِسَبَبِ قَوْلِهِمْ: ﴿لَمْ كُتِبَ عَلَيْنَا
 الْقِتَالُ﴾.

وقوله: (هَلَّا): بيان لمعنى لولا، وأنها طلبية لا شرطية.

وقوله: (لهم)؛ أي: للذين قالوا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

وقوله: (ما يُتَمَتَّعُ به فيها): بيان للمراد بالمتاع، وبين أنه يحتمل أن المراد ما يتمتع به من أمور الدنيا كالمال والولد وغيرهما، ويحتمل أن المراد الاستمتاع بهذه الأشياء بالانتفاع بها، والتلذذ بها.

وقوله: (أَيْلٌ إِلَى الْفَنَاءِ): بيان لسبب القلة؛ لأنَّ الفناء يجعل الكثير قليلاً، ولو طال زمنه.

وقوله: (أَي: الْجَنَّةِ): تفسير للآخرة؛ أي: الدار الآخرة بالجنة بدليل قوله: ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ.

وقوله: (عِقَابَ اللَّهِ بِتَرْكِ مَعْصِيَتِهِ): بيان للمتقى، ولما تكون به التقوى.

وقوله: (بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ): يريد أن «تظلمون» فيها قراءتان: يظلمون وتظلمون^(١).

وقوله: (تُنْقَصُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ): بيان لمعنى الظلم المنفي، وهو نقص الأعمال أو أجور الأعمال.

وقوله: (قَدَّرَ قِشْرَةَ النِّوَاةِ): تقدم: التعليق على نظيره عند قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُرْكَى مِنْ يَشَاءَ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]^(٢).

وقوله: (فَجَاهِدُوا): بيان للمعنى المراد من ذكر الدنيا والآخرة، وهو الندب للجهاد، ولهذا قدر المؤلف: (فجَاهِدُوا).

وقوله: (حُصُونِ): تفسير: للبروج، وهي: الأبنية العالية، وما يبنى للتحصن به يسمى حصناً؛ فالمعنى: أن الحصون ولو كانت بروجاً عالية لا تمنع من الموت.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٨٠).

(٢) تنظر: (ص ٤٦٢).

وقوله: (مرتفعة...) إلى آخره: تفسير: لمشيدة، وقوله: (فلا تخشوا القتال): بيان لثمرة العلم بأن الموت مدرك للإنسان ولو كان ما كان، فمن علم ذلك فلا يخشى القتال، ولهذا قدر المؤلف: «فلا تخشوا القتال» تفریعاً على ما قبله.

وقوله: (أي: اليهود): بيان للمراد بالذين إذا أصابتهم حسنة؛ يقولون هذا من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك؛ فالمراد بهؤلاء على ما قال المؤلف؛ هم: اليهود، وفي هذا التأويل نظر، فإن اليهود لا ذكر لهم في هذه الآيات، والأشبه أنهم المنافقون الذين يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وبهذا يتحد مرجع الضمائر. وقوله: (خصب وسعة): تفسير: للحسنة.

وقوله: (جذب وبلاء...) إلى آخره: تفسير: للسيئة. وقوله: (يا محمد): بيان للمخاطب في الآية، وقوله: (من عندك)؛ أي: بسببك تشاؤماً بالنبي ﷺ، ومما يوضح تفسير المؤلف الحسنة والسيئة؛ أن الحسنات والسيئات في القرآن تارة يراد بها حسنات وسيئات الأعمال، وهي: الطاعات والمعاصي، وتارة يراد بها النعم والمصائب؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وفي معناها قوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]^(١).

وقوله: (لهم)؛ أي: لهؤلاء الذين قالوا هذه من عند الله وهذه من عندك.

وقوله: (من الحسنة والسيئة)؛ أي: كلاهما. وقوله: (من قبله)؛ أي: من جهة الله لتقديره ومشيئته.

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٢٣٤/١٤).

وقوله: (لا يُقاربون أن يفهموا): يبين أنَّ كاد من أفعال المقاربة فهو لاء الضلال لا يقربون من الفهم فضلاً عن أن يفهموا.

وقوله: (يلقى إليهم؟)؛ أي: كلاماً يخاطبون به.

وقوله: (وما: استفهامٌ تعجيبٌ ...) إلى آخره: بيان للغرض من الاستفهام، وهو التعجيب من حال المفرطين في الجهل، وقلة الفهم، وقوله: (ونفيٌ مُقاربة الفعل أشد من نفيه): معناه أنَّ مَنْ يقال فيه لا يقرب أن يفهم أسوأ حالاً ممن يقال فيه لا يفهم.

وقوله: (أيُّها الإنسان): يبين أنَّ المراد بالمخاطب جنس الإنسان لا خصوص النبي.

وقوله: (أَتَتَكَ فضلاً منه): يبين أنَّ الحسنة بمحض فضل الله لا بسبب من العبد.

وقوله: (أَتَتَكَ ...) إلى آخره: معناه أنَّ المصيبة بسبب ذنبك أيها الإنسان.

وقوله: (يا مُحَمَّد): بيان للمخاطب بالإرسال.

وقوله: (حالٌ مؤكدة)؛ أي: مؤكدة لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾.

وقوله: (على رسالتك!): بيان لِمَا الله شهيد عليه.



وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۖ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ۚ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْ جَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝﴾

[النساء: ٨٠-٨٢].

يخبر تعالى خبراً متضمناً للأمر بطاعة الرسول، أن مَنْ أطاع الرسول فقد أطاع الله، لأنَّ الرسول هو المبلغ لأوامر الله ونواهيه، فكل ما أمر به الرسول ﷺ فقد أمر الله به، وكل ما نهى عنه الرسول فقد نهى الله عنه، ومَنْ تولى عن طاعة الرسول فما على الرسول من حسابه من شيء، وما أرسله الله حفيظاً على أعمالهم يحصيها، ويحاسبهم عليها، ثم أخبر تعالى عن طائفة من المنافقين يظهرون الطاعة للرسول ﷺ فإذا خرجوا من عند الرسول ﷺ دبرت طائفة منهم في الليل خلاف ما أمرهم به الرسول ﷺ، ثم أخبر تعالى أنه يكتب ما يبيتون، وسيجزئهم به، ثم أمر تعالى نبيه بالإعراض عنهم، وبالتوكل عليه فإنهم لن يضره شيئاً، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾؛ أي: كفى الله وكيلاً عن كل وكيل، فمن توكل عليه كفاه، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ﴾ [الطلاق: ٣]، ثم وبخ تعالى هؤلاء المنافقين على إعراضهم عن تدبر القرآن، وهو المنزل من عند الله فلا تناقض فيه؛ بل هو محكم الآيات، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ غَيْرُ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝﴾، لكنه من عند الله فلا اختلاف فيه كثير ولا قليل.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ تَوَلَّى﴾: أعرض عن طاعته فلا يهتمنك ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾: حافظاً لأعمالهم، بل نذيراً، وإلينا أمرهم فنجازيهم. وهذا قبل الأمر بالقتال. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي:

المنافقون، إذا جاؤوك: أمرنا ﴿طاعة﴾ لك. ﴿فإذا برزوا﴾: خرجوا ﴿من عندك﴾ بيت طائفة منهم ﴿- بادغام التاء في الطاء وتركه - أي: أضمرت غير الذي تقول﴾ لك في حضورك من الطاعة، أي: عصيانك، ﴿والله يكتب﴾: يأمر بكتب ﴿ما يثبتون﴾ في صحائفهم، ليُجازوا عليه. ﴿فأعرض عنهم﴾ بالصفح، ﴿وتوكل على الله﴾: ثق به، فإنه كافيك، ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾: مفضلاً إليه!

﴿أفلا يتدبرون﴾: يتأملون ﴿القرآن﴾، وما فيه من المعاني البديعة؟ ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾: تناقضاً في معانيه، وتبايناً في نظمه.

وقول المؤلف: (أعرض عن طاعته فلا يهمنك): تفسير: تولى، وقوله: (عن طاعته)؛ أي: عن طاعة الله أو طاعة الرسول.

وقوله: (حافظاً لأعمالهم...) إلى آخره: يبين أن حفيظ صيغة مبالغة من حافظ؛ أي: حافظاً عليهم أعمالهم؛ أي: محصيها، ومحاسبهم عليها فليس ذلك هو الغاية من إرسالك؛ بل ما أرسلناك إلا نذيراً لهم، ولهذا قال المؤلف: (بل نذيراً)؛ أي: أرسلناك نذيراً، وقد قيل إن هذه الآية من الآيات المنسوخة بآية السيف، وإلى هذا أشار المؤلف؛ بقوله: (وهذا قبل الأمر بالقتال)^(١).

وقوله: (أي: المنافقون...) إلى آخره: بيان للمراد بالذين يقولون، ثم بين إعراب «طاعة»، وأنها خبر مبتدأ محذوف؛ أي: يقولون أمرنا طاعتك أيها الرسول، وهذا كقولهم إذا لقوا الذين آمنوا آمنوا.

(١) ينظر: الناسخ والمنسوخ للمقري (ص ٧٦).

وقوله: (لك): بيان للمطاع المراد، وهو الرسول ﷺ.
 وقوله: (خرجوا)؛ أي: خرجوا من المكان الذي كانوا فيه مع الرسول.
 وقوله: (بإدغام التاء في الطاء وتركه): يشير: إلى قراءتين إحداهما
 بإسكان التاء، وإدغامها في الطاء، والأخرى بفتح التاء فلا إدغام^(١).
 وقوله: (أي: أضمرت): يريد أن معنى ﴿بَيْتَ طَائِفَةٍ﴾ أضمرت، أي:
 أسرت، وهذا تفسير قاصر فإن بيت: يدل على أن ذلك كان ليلاً، وما ذكره
 المؤلف ليس فيه ما يشعر بذلك، والمعنى أن هذه الطائفة تظهر الطاعة وقت
 حضورهم عند النبي، فإذا غابوا أسروا المعصية فيما بينهم، وغيروا ما قال
 لهم النبي ﷺ.

وقوله: (لك في حضورك...) إلى آخره: يبين أن «تقول»: خبر عن
 الطائفة بأنها تبيت غير الذي تقول لك من الطاعة إذا حضروا عندك، وقيل:
 إنه خطاب للنبي ﷺ، وهو المشهور عن جماعة مفسري السلف؛ فالمعنى:
 غير الذي تقول لهم مما تأمرهم به، وتعهده إليهم^(٢).
 وقوله: (يأمر بكتب...) إلى آخره؛ أي: يأمر الله الملائكة الحافظين
 بكتب ما يبيتون من القول؛ أي: يكتب ذلك في صحائف أعمالهم ليجزون
 بها.

وقوله: (بالصفح)؛ أي: بلا عتاب ولا عقاب.
 وقوله: (ثق به...) إلى آخره: بيان لما يتضمنه الأمر بالتوكل على الله
 من الثقة بالله، لأنه يكفي من توكل عليه.
 وقوله: (مُفَوَّضًا إِلَيْهِ!): بيان لمعنى الوكيل، وهو من يفوض إليه الأمر،
 والله تعالى تفوض إليه جميع الأمور.

(١) ينظر: التيسير (٢/ ٣٢٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٤٨-٢٤٩)، وزاد المسير (١/ ٤٣٧).

وقوله: (يتأملون): تفسير يتدبرون، وهو تفسير لا يفي بمعنى التدبر، والتدبر للكلام هو التفكير في سياقه وأوله وآخره، وهذا هو المطلوب لفهم القرآن.

وقوله: (وما فيه من المعاني البديعة؟): بيان للغاية من تدبر القرآن.
 وقوله: (تناقضًا...) إلى آخره: بيان للمراد من الاختلاف المنفي عن القرآن.



وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٣﴾ فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكْفَ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ۝٨٤ مَن يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ۝٨٥ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ كُمُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء: ٨٣-٨٧].

يخبر تعالى عن الطائفة من المنافقين الذين إذا حضروا عند الرسول ﷺ أظهروا الطاعة، فإذا خرجوا من عنده بيتوا غير الذي قالوا للرسول، وغير الذي قال لهم بأنهم إذا جاءهم خبر عن سرايا المسلمين فيه أمن أو خبر عن العدو يوجب خوفًا أشاعوه من غير أن يشتبوا فخير الأمن يفرح به المسلمون، وخبر الخوف يحزنهم، وقد لا يصح شيء من ذلك؛ قال الله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ كأمرائهم، وسألوهم عن ذلك الخبر لعلم حقيقة الأمر ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾؛ أي: يستخرجونه بحسن نظرهم وخبرتهم وبحثهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾؛ يعني: أنه تعالى بفضله ورحمته يعصمكم من اتباع الشيطان، ولولا ذلك لاتبعتم الشيطان كلكم. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: قيل: إنه استثنى من قوله: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾؛ وهو اختيار ابن جرير^(١)، وقيل: إنه استثناء من قوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾

(١) (٢٦٥/٧) وقال الفراء (٢٧٩/١-٢٨٠): «وهو أجود الوجهين لأن علم السرايا إذا ظهر علمه المستنبط وغيره، والإذاعة قد تكون في بعضهم دون بعض. فلذلك استحسنت الاستثناء من الإذاعة».

مِنْهُمْ؛ أي: إلا قليلاً منهم، وقيل: إنه استثناء من قوله: ﴿لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ فالمعنى: لا تتبعم الشيطان كلكم، وعليه فاستثناء القليل للدلالة على العدم؛ أي: عدم نجاة أحد من اتباع الشيطان^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أمر من الله لنبيه بالقتال في سبيل الله، وتحريض المؤمنين على القتال.

وقوله: ﴿لَا تَكُلْفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾؛ أي: إنك غير مسؤول إلا عن نفسك فلا تسأل عمن يقعد عن الجهاد، ولكن عليك تحريض المؤمنين وحضهم.

وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: وعد من الله أن يكف شر الكفار وعدوانهم عن المؤمنين، وهذا الوعد مرتب على قيام المؤمنين بما أمرهم الله به من قتال الكفار في سبيل الله.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكُّلًا﴾: تهديد للكفار، وتقوية لقلوب المؤمنين ليتوكلوا على الله.

وهذه الآية عود إلى شأن الجهاد، وقد أمر الله به المؤمنين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، وفي قوله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٤]، ثم رغب فيه بقوله: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقَاتِلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]، ثم أمر الله نبيه في هذه الآية بمباشرة القتال بنفسه ليقتيدي به المؤمنون، وتأكيذاً لما سبق أمر الله نبيه بتحريض المؤمنين على القتال، وترغيبهم فيه.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾: الشفع ضد الوتر، والشفاعة الإعانة على الخير بفعل أو قول، وهي الشفاعة الحسنة، وقد تكون إعانة على الشر، وهي: الشفاعة السيئة، ولكل شافع نصيب من شفاعته أجر أو وزر، وسميت شفاعة لأن الشافع يصير المشفوع له شافعاً،

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٩١)، وزاد المسير (١/ ٤٤٠).

والمسلم إذا أعان أخاه في الجهاد فتلك شفاعة حسنة، وبهذا تظهر مناسبة هذه الآية لما قبلها، والرجل إذا أعان ظالمًا فتلك شفاعة سيئة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾^(١): قيل: حفيظًا، وقيل: قديرًا^(٢)، واختاره ابن جرير^(٣)، واستشهد له بقول الشاعر:

«وذي ضغنٍ كففتُ النفس عنه

وكنت على مساءته مقتيًا»^(٤)

والجملة تذييل مؤكد لما ذكر من الوعد والوعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾: التحية السلام، وقوله: ﴿حُيِّتُمْ﴾؛ أي: سلم عليكم مسلم فحيّوه بأحسن منها فإذا قال: السلام عليكم؛ فتقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وردها بمثلها؛ فتقول: وعليكم السلام، ورد التحية بالمثل واجب، وبأحسن منها مستحب.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾^(٥)؛ أي: حفيظًا على أعمال العباد طاعتهم ومعاصيهم محصيها، ومجازيهم عليها، ومن ذلك التحية ابتداء وردًا بأحسن منها أو بمثلها.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: شهادة من الله لنفسه بالإلهية وحده؛ كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، ثم أخبر تعالى خبرًا مؤكدًا أنه جامع عباده إلى يوم القيامة، وأن ذلك الجمع لا ريب فيه

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٧٠)، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٤١) أقوالاً أخرى.

(٢) (٧/ ٢٧٢).

(٣) ونسبه الطبري للزبير بن عبد المطلب، ونُسب لأبي قيس بن رفاعة كما في طبقات فحول الشعراء (١/ ٢٨٨-٢٨٩)، وروى الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء (١/ ٨٠) في مسائل نافع بن الأزرق لابن عباس أنه لأحيحة بن الجلاح.

لأنَّ الله أخبر به، وهو تعالى لا أحد أصدق منه، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ٨٧؛ أي: لا أحد أصدق منه خبرًا.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ﴾ عن سرايا النبي ﷺ مِمَّا حصل لهم، ﴿مِنْ الْأَمْنِ﴾ بالنصر، ﴿أَوِ الْخَوْفِ﴾ بالهزيمة، ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾: أفشوه. نزل في جماعة من المنافقين، أو في ضُعفاء المؤمنين، كانوا يفعلون ذلك، فَتَضَعُفُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَتَأَذَى النَّبِيُّ ﷺ، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي: الخبر ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي: ذوي الرأي من أكابر الصحابة، أي: لو سكتوا عنه حتَّى يُخْبَرُوا بِهِ ﴿لَعَلِمَهُ﴾: هل هو مِمَّا ينبغي أن يذاع؟ أو لا، ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾: يتبعونه ويطلبون علمه - وهم المذيعون - ﴿مِنْهُمْ﴾: من الرسول وأولي الأمر. ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام، ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بالقرآن، ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ فيما يأمركم به من الفواحش ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿فَقَاتِلْ﴾ - يا مُحَمَّد - ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، فلا تهتمَّ بتخلّفهم عنك. المعنى: قاتل، ولو وحدك، فإنك موعود بالنصر، ﴿وَحَرَّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: حثهم على القتال ورغبهم فيه، ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ﴾: حرب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا. وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ منهم، ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾: تعذيبًا منهم. فقال ﷺ: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَخْرُجَنَّ، وَلَوْ وَحْدِي﴾. فخرج بسبعين راكبًا إلى بدر الصغرى، فكفَّ الله بَأْسَ الْكُفَّارِ بِإِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَنَعَ أَبِي سُفْيَانَ عَنِ الْخُرُوجِ، كما تقدّم في «آل عمران».

﴿مَنْ يَشْفَعْ﴾ بين الناس ﴿شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾: مُوافقة للشرع ﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ من الأجر ﴿مِنْهَا﴾: بسببها، ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾:

مُخَالَفَةً لَهُ ﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ﴾: نصيب من الوزر ﴿مِنْهَا﴾: بسببها. ﴿وَكَانَ
 اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾: مقتدرًا، فيُجَازِي كُلَّ أَحَدٍ بِمَا عَمِلَ.
 ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾، كَأَنْ قِيلَ لَكُمْ: سلامٌ عليكم، ﴿فَحَيُّوا﴾
 الْمُحَيِّينَ ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ بَأَنْ تَقُولُوا لَهُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ
 وَبَرَكَاتُهُ، ﴿أَوْ رُدُّوْهَا﴾ بَأَنْ تَقُولُوا لَهُ كَمَا قَالَ، أَي: الواجب أحدهما
 وَالْأَوَّلُ أَفْضَلُ. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾: محاسبًا، فيُجَازِي
 عَلَيْهِ، وَمِنْهُ رُدُّ السَّلَامِ. وَخَصَّتِ السُّنَّةُ الْكَافِرَ وَالْمُبْتَدِعَ وَالْفَاسِقَ، وَالْمُسْلِمَ
 عَلَى قَاضِي الْحَاجَةِ وَمَنْ فِي الْحَمَامِ وَالْأَكْلِ، فَلَا يَجِبُ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ بَلْ
 يُكْرَهُ فِي غَيْرِ الْآخِرِ. وَيُقَالُ لِلْكَافِرِ: وَعَلَيْكَ. ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وَاللَّهُ
 ﴿لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ﴾ مِنْ قُبُورِكُمْ ﴿إِلَى﴾: فِي ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، لَا رَيْبَ: شَكٌّ
 ﴿فِيهِ، وَمَنْ﴾ أَي: لَا أَحَدٌ ﴿أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾: قَوْلًا؟

وقول المؤلف: (عن سرايا النبي ﷺ مَّا حَصَلَ لَهُمْ): بيان لمتعلق
 الأمر، وهو خبر.

وقوله: (بالنصر): تفسير: للأمن بالنصر لأنَّ النصر سبب للأمن.
 وقوله: (بالهزيمة): تفسير: للخوف بالهزيمة لأنَّ الهزيمة سبب
 للخوف.

وقوله: (أفشوه): بيان لمعنى الإذاعة، فأذاعه وأفشاه وأشاعه معاني
 متقاربة.

وقوله: (نزل في جماعة ...) إلى آخره: بيان لسبب نزول الآية مع
 الإشارة إلى الخلاف فيه^(١).

(١) قال ابن زيد: «والذين أذاعوا به قوم، إما منافقون، وإما آخرون ضعفاء». ينظر: تفسير
 الطبري (٧/ ٢٥٤)، وزاد المسير (١/ ٤٣٩).

وقوله: (أي: الخبر): بيان لمرجع الضمير المنصوب في ردوه.
 وقوله: (أي: ذوي الرأي ...) إلى آخره: بيان للمراد بأولي الأمر.
 وقوله: (هل هو مما ينبغي أن يذاع؟ أو لا): بيان لحكم أولي الأمر على الخبر.

وقوله: (يتبعونه، ويطلبون علمه): بيان لمعنى: ﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾، على أحد القولين في المراد بالموصول.
 وقوله: (وهم المذيعون): هذا أحد القولين في المراد بـ «الذين يستنبطونه»، وهو مروى عن مجاهد، والقول الثاني أن المراد بالذين: أولو الأمر^(١).

وقوله: (من الرسول وأولي الأمر): رد الضمير إلى أولي الأمر، وكان المناسب أن يرده إلى المذيعين حتى يتسق الكلام فإن المؤلف مشى في تفسير الموصول على قول، وفي مرجع الضمير في منهم على القول الآخر.
 وقوله: (بالإسلام)؛ أي: بالتوفيق للإسلام.
 وقوله: (لكم بالقرآن)؛ أي: بإنزال القرآن، وكل من فضل الله ورحمته يفسر بالإسلام، والقرآن كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]^(٢).

وقوله: (فيما يأمركم به من الفواحش): تفسير: لا اتباع للشيطان بطاعته فيما يأمر به فمن أطاع الشيطان فقد اتبعه.
 وقوله: (يا محمد): بيان للمخاطب.
 وقوله: (فلا تهتم ...) إلى آخره: بيان لمعنى: ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾؛ أي: قاتل في سبيل الله ولو وحده، ولا يضرك تخلف القاعدين.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٥٥)، وزاد المسير (١/ ٤٣٩).

(٢) ينظر: نزهة الأعين النواظر (ص ٤٧١)، (ص ٣٣٢).

وقوله: (حُتِّمَ عَلَى الْقِتَالِ وَرَغِبَهُمْ فِيهِ): بيان لمعنى: وحرص المؤمنين.

وقوله: (حَرْبٍ): تفسير البأس.

وقوله: (مِنْهُمْ): بيان للمفضل عليه في أشد، وهم الكفار.

وقوله: (تَعْذِيْبًا مِنْهُمْ): بيان لمعنى: «أشد تنكيلاً».

وقوله: (فَقَالَ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُخْرِجَنَّ، وَلَوْ وَحْدِي»...) إلى

آخره: دليل على أَنَّ النبي ﷺ امْتَثَلَ أَمْرَ رَبِّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية، وقول المؤلف: ومعه سبعون راكباً؛ هذا خلاف المعروف عند

أهل السير^(١)، والمعروف أَنَّ الرسول خرج بألف وخمسة مئة من أصحابه^(٢).

وقوله: (بَيْنَ النَّاسِ): بيان أَنَّ الشفاعة تتعلق بعدد من الناس كالشافع

والمشفوع له، والمشفوع عنده.

وقوله: (مُؤَافَقَةً لِلشَّرْعِ): لِأَنَّ كُلَّ مَا وَافَقَ الشَّرْعَ فَهُوَ حَسَنٌ، وَكُلُّ مَا

خَالَفَهُ فَهُوَ سَيِّئٌ.

وقوله: (مَنْ الْأَجْرُ): لِأَنَّ الشفاعة الحسنة من العمل الصالح الذي

يُثِيبُ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وقوله: (بَسْبِهَا): يشير إلى أَنَّ «مَنْ» فِي قَوْلِهِ: (مِنْهَا) لِلتَّعْلِيلِ.

وقوله: (مُخَالَفَةً لَهُ)؛ أَي: مُخَالَفَةً لِلشَّرْعِ، وَمَا خَالَفَ الشَّرْعَ فَهُوَ سَيِّئٌ.

وقوله: (نَصِيبٌ): تَفْسِيرٌ: لِلْكَفْلِ بِالنَّصِيبِ.

وقوله: (مَنْ الْوِزْرُ): لِأَنَّ الشفاعة السيئة ذنب يوجب الإثم والعقاب.

وقوله: (بَسْبِهَا): تَقْدِمُ نَظِيرَهَا.

(١) والمؤلف صادر عن الثعلبي (٤٩٣/١٠)، والكشاف (١١٧/٢-١١٨)، والبيضاوي (٧٨/٢).

(٢) ينظر: زاد المعاد (٢٩٦/٣).

وقوله: (مقتدرًا): تفسير: لمقيت.

وقوله: (فيُجازي كلَّ أحد بما عمل): بهذا تظهر مناسبة هذا الاسم لله مُقيتًا لما ذكر من جزاء الشفاعة الحسنة والسيئة.

وقوله: (كَأَن قِيلَ لَكُمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ): تفسير لـ ﴿حَيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾.

وقوله: (المُحَيِّي): بيان لمفعول فحيوا.

وقوله: (بأن تقولوا له ...) إلى آخره: بيان أنَّ أحسن التحية زيادة: ورحمة الله وبركاته.

وقوله: (بأن تقولوا له ...) إلى آخره: بيان لمعنى: ﴿أَوْ رُدُّوْهَا﴾؛ أي: رودوها بمثلها، ويحصل رد التحية بمثلها أو بأحسن منها لكن الرد بأحسن أفضل.

وقوله: (محاسبًا)؛ أي: حفيظًا لأعمال عباده، ومحصيًا لها ومجازيًا عليها.

وقوله: (فيُجازي عليه ...) إلى آخره؛ أي: يجازي بثواب على رد التحية بمثلها أو بأحسن منها، ورد التحية على المسلم واجب إلا ما استثني بالسنة كالذين ذكر المؤلف.

وقوله: (وَمَن فِي الْحَمَامِ): فيه نظر فإنه لا يستقبح فيه الكلام؛ بل ولا الذكر سرًا.

وقوله: (بل يُكره في غير الأخير): في هذه الجملة إجمال هل تتعلق بابتداء السلام أو رده؟ والمذكورون في كلام المؤلف أحكامهم في التحية مختلفة ابتداء وردًا فمن وجب هجره لا يبتدأ ولا يرد عليه، والكافر لا يبتدأ، ويجوز الرد عليه بأن يقال: وعليكم.

وقوله: (والله): تقدير: للقسم الذي دل عليه جوابه: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾.

وقوله: (من قُبُوركم)؛ أي: بالبعث منها.



وقوله: (في): يريد أن «إلى» بمعنى: «في»؛ فالمعنى: ليجمعنكم في يوم القيامة، ويحتمل أن الفعل مضمن معنى: (يحشركم) فتكون «إلى» على أصل معناها.

وقوله: (أي: لا أحد): يبين أن «من» استفهام إنكاري بمعنى: النفي.
 وقوله: (قولاً؟): تفسير لحديث؛ فالمعنى: لا أحد أصدق من الله كلاماً، ولو قال خبراً كان أولى؛ لأنَّ الصدق لا يتعلق بكل كلام، وإنما يتعلق بالخبر.



وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾^(٨٨) أَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ^{٨٨} وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا^{٨٨} وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا^{٨٩} إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلقَتُلُوكُمْ^{٩٠} فَإِنْ أُعْزِلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا^{٩١} سَتَجِدُونَ عَآخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا^{٩١} ﴿النساء: ٨٨-٩١﴾.

ينكر تعالى على المؤمنين أصحاب رسول الله ﷺ اختلافهم في صنف من المنافقين، وهم الذين أظهروا الإسلام بمكة، وأقاموا بين المشركين وداهنوهم في الدين فأركسهم الله؛ أي: ردهم إلى الشرك ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾؛ أي: بسبب نفاقهم، ومظاهرتهم المشركين فاختلف الصحابة في موالاتهم، وقتالهم فمنهم مَنْ قال: هم إخواننا فلا نقاتلهم لما أظهروا من الإسلام، ومنهم مَنْ قال: هم أعداء لنا لأنهم رضوا بالإقامة بين المشركين، وفي ذلك مظاهره لهم؛ فأنزل الله في ذلك هذه الآيات^(١)، وَمَنْ رَكِسَهُ اللَّهُ فِي الْكُفْرِ فلا حيلة في هداه، ولهذا قال تعالى فيمن تولاهم: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ^{٨٨} وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا^{٨٨}﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ^{٩١} وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر]، ثم قال تعالى عن أولئك المنافقين: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾، في الكفر؛ أي: يحبون أن

(١) أخرجه البخاري (١٨٨٤)، ومسلم (٢٧٧٦) عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر: أسباب النزول (ص ١٦٧).

تكونوا كفار مثلهم، وهذا برهان على نفاقهم، وأن الصواب مع من تبرأ منهم، ورأى قتالهم، ولهذا نهى تعالى عن موالاتهم؛ فقال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فإذا هاجروا تبين رجوعهم عن موالاته المشركين، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾؛ أي: أعرضوا عن الهجرة ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾؛ فالمعنى: قاتلوهم كما تقاتلون المشركين، ثم أكد تعالى ذلك بالنهي عن موالاتهم والاستنصار بهم.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّثْقٌ﴾، استثناء من قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: إلا إذا لجئوا إلى قوم بينهم وبين المؤمنين ميثاق بالكف عنهم، فإن الذين لجئوا إليهم يكون حكمهم حكمهم في وجوب الكف عنهم.

وقوله: ﴿أَوْجَاءٌ وَكُمْ حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ﴾: أو؛ للتنويع، و﴿جَاءَ وَكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَصِلُونَ﴾، فدخلوا في المستثنين من الأمر بقتالهم، فمن وصل من هؤلاء المنافقين إلى قوم بيننا وبينهم ميثاق، ومن جاؤنا حصرت صدورهم عن قتالنا، وقاتل قومهم؛ أي: لم تسمح نفوسهم بقتالنا ولا قتال قومهم، فلا يقاتلوننا مع قومهم، ولا يقاتلون قومهم معنا، وهذه نعمة من الله عليكم أن صرف قلوبهم عن قتالكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾، فإن كفوا عنكم، وأعلنوا المسالمة فكفوا عنهم ولا تقاتلوهم، فإن الله ما جعل لكم عليهم سبيلاً لقتالهم.

وقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخِرِينَ﴾: وهذا: صنف ثالث من أولئك المنافقين ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا دِينَكُمْ﴾؛ أي: يأمنونكم من قتالكم لهم، ومن قتال قومهم لهم.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾؛ أي: دعوا إلى الشرك ﴿أُكْسُوا فِيهَا﴾؛ أي: قبلوها ورجعوا إلى الشرك.

وقوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْتَزْلُوكُمْ﴾؛ أي: لم يتركوا قتالكم، ولم يلقوا إليكم المسالمة ﴿فَخَذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: وجدتموهم، وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾؛ أي: هذا الصنف الذين ذكرت صفتهم قد جعل الله لكم ﴿سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة بينة لكم على قتالهم. فصار هؤلاء المنافقون ثلاثة أصناف:

أحدها: الذين لجؤوا إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد على ترك القتال.

الثاني: هم الذين يريدون مسالمة المسلمين، ومسالمة قومهم من المشركين، فلا تنشرح صدورهم لقتال المسلمين، ولا قتال قومهم.

الثالث: هم الذين يريدون أن يكونوا في أمن من قتال المسلمين، ومن قتال قومهم، وهم مصررون على نفاقهم؛ فالصنف الأول والثاني نهى المسلمون عن قتالهم، والثالث أمر المسلمون بقتالهم إلا أن يعتزلوا المسلمين، ويظهروا المسالمة، ويكفوا أيديهم عن قتال المسلمين، فهؤلاء أمر الله المسلمين بقتالهم، وجعل لهم سلطاناً عليهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْتَزْلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخَذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

ولما رجع ناس من أحد اختلف الناس فيهم، فقال فريق: اقتلهم. وقال فريق: لا. فنزل: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾؛ أي: ما شأنكم صرتم ﴿فِي الْمُنَافِقِينَ﴾ ففتين: فرقتين؟ ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾: ردهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ﴾ - ﴿اللَّهُ﴾؛ أي: تعدوهم من جملة المهتدين؟ والاستفهام في الموضعين للإنكار - ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾: طريقاً إلى الهدى - ﴿وَدُّوا﴾: تمنوا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾

كَمَا كَفَرُوا، فَتَكُونُونَ ﴿١٠﴾ أَنْتُمْ وَهُمْ ﴿سَوَاءٌ﴾ فِي الْكُفْرِ. ﴿١١﴾ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴿١٢﴾ تَوَالُونَهُمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ، ﴿١٣﴾ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١٤﴾ هِجْرَةً صَحِيحَةً تُحَقِّقْ إِيْمَانَهُمْ. ﴿١٥﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴿١٦﴾ وَأَقَامُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ ﴿١٧﴾ فَخُذُوهُمْ ﴿١٨﴾ بِالْأَسْرِ، ﴿١٩﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا ﴿٢٠﴾ تَوَالُونَهُ، ﴿٢١﴾ وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ تَنْتَصِرُونَ بِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾: يَلْجِئُونَ ﴿إِلَى قَوْمٍ، بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾: عَهْدٌ بِالْأَمَانِ لَهُمْ وَلِمَنْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ، كَمَا عَاهَدَ النَّبِيُّ هِلَالَ بْنُ عُيْمِرٍ الْأَسْلَمِيَّ، ﴿أَوْ﴾ الَّذِينَ ﴿جَاؤُوكُمْ﴾ وَقَدْ ﴿حَصَرْتُمْ﴾: ضَاقَتْ ﴿صُدُورُهُمْ﴾ عَنْ ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ مَعَ قَوْمِهِمْ، ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ مَعَكُمْ، أَي: مُمَسْكِينَ عَنْ قِتَالِكُمْ وَقِتَالِهِمْ، فَلَا تَعْرَضُوا إِلَيْهِمْ بِأَخْذٍ وَلَا قِتْلِ - وَهَذَا وَمَا بَعْدَهُ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السِّيفِ. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تَسْلِيْطَهُمْ عَلَيْكُمْ ﴿لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾، بِأَنْ يُقَوِّيَ قُلُوبَهُمْ، ﴿فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ، فَالْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ - ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ، وَالْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾: الصُّلَحُ أَي: انْقَادُوا، ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾: طَرِيقًا بِالْأَخْذِ وَالْقِتْلِ.

﴿سَتَجِدُونَ آخِرِينَ، يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ﴾ بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ عِنْدَكُمْ، ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ بِالْكَفْرِ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ - وَهُمْ أَسَدٌ وَغُطْفَانٌ - ﴿كُلَّمَا رُذُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾: دُعُوا إِلَى الشَّرِّ ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾: وَقَعُوا أَشَدَّ وَقُوعٍ. ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ بِتَرْكِ قِتَالِكُمْ، وَ﴾ لَمْ ﴿يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَ﴾ لَمْ ﴿يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عَنْكُمْ، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ بِالْأَسْرِ، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقَفْتُمُوهُمْ﴾: وَجَدْتُمُوهُمْ. ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾: بُرْهَانًا بَيِّنًا ظَاهِرًا، عَلَى قَتْلِهِمْ وَسَبْيِهِمْ لَعْدَرِهِمْ.

وقول المؤلف: (ولمّا رجع...) إلى آخره: يشير: إلى أنّ سبب نزول هذه الآية؛ رجوع بعض المنافقين عن غزوة أحد، وهم: عبد الله بن أبي، وأصحابه ومن غرروا بهم.

وقوله: (أي: ما شأنكم صرتم): بيان لمعنى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ﴾. وقوله: (فرقتين؟): تفسير: فئتین، فإنّ الفئة هي الفرقة والجماعة. وقوله: (ردّهم): تفسير أركسهم؛ أي: ردهم إلى الكفر. وقوله: (من الكفر والمعاصي): بيان للمبهم في الموصول. وقوله: (أي: تعدّوهم من جملة المهتدين؟): تفسير: لقوله: ﴿أَتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾.

وقوله: (والاستفهام في الموضعين للإنكار): قيل: للإنكار والتوبيخ، والاستفهام الأول قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾، والثاني؛ قوله: ﴿أَتَرِيدُونَ﴾. وقوله: (طريقاً إلى الهدى): تفسير: لسبيل في قوله: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾؛ فالمعنى: من أضله الله فلن يقدر أحد على هدايته، ولا طريق إلى هدايته.

وقوله: (تمنّوا): تفسير: ﴿وَدُّوا﴾، وعبر عن التمني بالمودة؛ لأنّ مودة الشيء تدعو إلى تمنيه.

وقوله: (أنتم وهم): يريد أنّ الواو ترجع إلى المؤمنين والمنافقين. وقوله: (في الكفر): بيان لمحل تساوي. وقوله: (توالونهم): تفسير: لاتخاذهم أولياء. وقوله: (وإن أظهروا الإيمان): احتراز: للنهي عن اتخاذهم أولياء. وقوله: (هجرة صحيحة...): إلى آخره؛ أي: هجرة يظهر منهم صدقهم فيها، فتدل على صحة إيمانهم.

وقوله: (وأقاموا على ما هم عليه): معطوف على ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾؛ أي: أعرضوا عن الهجرة، وأقاموا على ما هم عليه بين المشركين.

وقوله: (بالأسْرِ)؛ لأنَّ: أخذهم لا يكون إلا بذلك.
 وقوله: (توالونه)؛ أي: بالمحبة والنصرة.
 وقوله: (تتصرون به على عدوكم)؛ لأنَّ: هذا هو الغاية من اتخاذ
 النصير.

وقوله: (يلجؤون)؛ أي: يفرون إليهم، ويحتمون بهم.
 وقوله: (عهدٌ بالأمان لهم...) إلى آخره: تفسير: لقوله: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
 مِثَاقٌ﴾، وقوله: (كما عهد النبي هلال بن عُويمِر الأسلمي): بيان لمن نزلت
 فيهم الآية^(١).

وقوله: (الذين): تقدير للمعطوف؛ التقدير: أو الذين.
 وقوله: (وقد): يبين أنَّ جملة حصرت حالية.
 وقوله: (ضاقَت): بيان لمعنى حصرت.
 وقوله: (عن): تقدير: لحرف الجر الداخل على المصدر المؤول؛
 التقدير: عن قتالكم أو قتال قومهم.

وقوله: (مع قومهم)؛ أي: المشركين.
 وقوله: (معكم)؛ أي: في قتالكم للمشركين.
 وقوله: (أي: مُمَسِّكِينَ...) إلى آخره: بيان لمعنى الآية جملة.
 وقوله: (وهذا وما بعده...) إلى آخره: يبين أنَّ هذه الآية مما نزل قبل
 الإذن بالقتال؛ فهي منسوخة؛ بقوله: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٢).

وقوله: (تسليطهم عليكم): بيان لمتعلق المشيئة.
 وقوله: (بأن يُقَوِّي قلوبهم): بيان لما يكون به التسليط.

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٦٨-١٦٩)، ولباب النقول (ص ٧٩).

(٢) ينظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص ٣٤٠).

وقوله: (ولكنه لم يشأ...) إلى آخره: بيان لما وقع، وهو أن الله لم يشأ تسليطهم.

وقوله: (الصُّلَح): بيان للمراد بالسلم.

وقوله: (أي: انقادوا): يريد استجيبوا لما طلبوا من الصلح؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

وقوله: (طريقاً بالأخذ والقتل): يريد لم يجعل لكم طريقاً من الشرع لقتالهم.

وقوله: (بإظهار الإيمان عندكم): بيان لما يحصل لهم الأمن من المسلمين، وهو إظهار الإيمان.

وقوله: (بالكفر...): إلى آخره: بيان لما يحصل لهم الأمن من قومهم المشركين، وهو الكفر، وإظهار الشرك.

وقوله: (دُعوا إلى الشُّرك): تفسير: للرد إلى الفتنة.

وقوله: (وقعوا أشدّ وقوع): بيان لمعنى الإركاس في الفتنة، وهو الرضا بدين المشركين.

وقوله: (بترك قتالكم): بيان لما يحصل به الاعتزال، وهو ترك القتال.

وقوله: (لم): يبين أن فعل ﴿وَيُلْقُوا﴾ منفي معطوف على ﴿لَمْ يَعْتَزِلُواكُمْ﴾.

وقوله: (لم): يبين أن فعل يكفوا منفي معطوف على «لم يعتزلوا»؛ فالتقدير: ألم يعتزلوكم، ولم يلحقوا إليكم السلم، ولم يكفوا أيديهم عنكم.

وقوله: (بالأسر): بيان لمقصود الأخذ.

وقوله: (وجدتموهم): تفسير: ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾.

وقوله: (برهاناً...): إلى آخره: تفسير: سلطاناً مبيناً، وبيان لعلّة ذلك، وهي: غدرهم.



وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٢-٩٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾؛ أي: ما صح ولا استقام، ولا يليق بمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ؛ أي: قتلاً خطأ؛ أي: من غير عمد.

وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾؛ أي: مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خطأ فعليه تحرير رقبة؛ أي: عتق رقبة مؤمنة، ودية مسلمة؛ أي: وعليه دية مسلمة لأولياء المقتول.

﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾؛ أي: إلا أن يعفوا عن الدية صدقة على القاتل خطأ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾؛ أي: إن كان المقتول من قوم كفار محاربين، والمقتول مؤمن.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: فعلى القاتل عتق رقبة مؤمنة، ولا دية لأولياء المقتول؛ لأن أولياءه عدو للمؤمنين.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾؛ أي: وإن كان المقتول من قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق؛ أي: عهد من عقد صلح أو عقد ذمة، والمقتول مؤمن، وهذا القيد لم ينص عليه في الآية، لكن دل عليه أول الآية؛ فإن الآية من أولها في قتل المؤمن خطأ.

وقوله: ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: مَنْ قتل مؤمناً من قوم معاهدين فعلى القاتل دية مسلمة لأولياء المقتول، وتحرير رقبة؛ أي: وعليه تحرير رقبة مؤمنة.

وقوله: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾؛ أي: مَنْ لم يجد رقبة يعتقها؛ فعلى القاتل صيام شهرين متتابعين بدلاً عن تحرير رقبة.

وقوله: ﴿تُوبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: شرع لكم تحرير رقبة، والصيام بدلاً، ﴿تُوبَةً﴾؛ أي: كفارة لما وقع من القتل خطأ، ولعله وقع شيء من التقصير في اتقاء قتل المؤمن مما يقتضي حاجة العبد إلى توبة من الله، فجعل الله الكفارة ماحية لذنبه كما تمحوه التوبة.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾؛ أي: لم يزل الله عليماً حكيماً، وفي ختم الآية بهذين الاسمين دلالة على أن ما تقدم من الأحكام مشتمل على الحكمة، وصادر عن كمال العلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُّؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا...﴾ الآية: خبر من الله بحكم وجزاء مَنْ يقتل مؤمناً متعمداً؛ أي: عدواناً وظلماً؛ فأما جزاؤه فقد بينه تعالى؛ بقوله: ﴿فَجَزَاءُُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾؛ فهذه أربع عقوبات: الخلود في جهنم، وغضب الله، ولعنته، والعذاب العظيم المعد له، وبهذا يتبين حكم قاتل المؤمن، وهو أنه من أهل الكبائر المستحقين للوعيد؛ فتضمنت الآيتان حكم قتل المؤمن خطأ أو عمداً؛ فقتل المؤمن خطأ فيه الدية والكفارة، ولا إثم فيه، ولا وعيد عليه، وأما قتل المؤمن عمداً ففيه ذلك الوعيد الشديد الذي صار به من السبع الموبقات^(١)، والوعيد بالخلود مختص بمن لم يتب، وعند أهل السنة خص من عمومه مَنْ مات على التوحيد^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية لشيخنا (ص ٢٥٢).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ أي: ما ينبغي أن يصدر منه قتل له ﴿إِلَّا خَطَأً﴾: مُخْطِئًا، في قتله من غير قصد. ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾، بأن قصد رمي غيره كصيد أو شجرة فأصابه، أو ضربه بما لا يقتل غالبًا، ﴿فَتَحْرِيرُ﴾: عَتَقُ ﴿رَقَبَةٍ﴾: نَسَمَةٍ ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ عليه، ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ﴾: مُؤَدَاةٌ ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي: ورثة المقتول، ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾: يتصدقوا عليه بها، بأن يعفوا عنها. وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ إنها مائة من الإبل: عشرون بنتٌ مَخَاضٍ، وكذا بناتٌ لَبُونٌ وبنو لَبُونٍ وَحِقَاقٌ وَجِذَاعٌ، وأنها على عاقلةِ القاتل -وهم عَصْبَتُهُ- إِلَّا الْأَصْلَ والفرع، مُوزَعَةً عليهم على ثلاث سنين، على الغنيّ منهم نصفُ دينارٍ والمتوسّطِ رُبْعُ كُلِّ سنة. فإن لم يفوا فمن بيت المال، فإن تعذّر فعلى الجاني.

﴿فَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ﴾: حرب ﴿لَكُمْ﴾، وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ على قاتله كفارة، ولا دية تُسَلَّمُ إلى أهله لجرابتهم، ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾: عهد كأهل الذّمة، ﴿فَدِيَةٌ﴾ له ﴿مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ -وهي ثلث دية المؤمن إن كان يهوديًا أو نصرانيًا، وثلاثا عشرها إن كان مجوسيًا- ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ على قاتله، ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الرقبة، بأن فقدها وما يُحْصِلُهَا به، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ عليه كفارة -ولم يذكر الله تعالى الانتقال إلى الطعام كالظّهَار. وبه أخذ الشافعي، في أصحّ قوليهِ- ﴿تُوبَةً مِنَ اللَّهِ﴾: مصدر منصوب بفعله المقدّر. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره لهم.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾، بأن يقصد قتله بما يقتل غالبًا بإيمانه، ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾: أبعدهُ من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ في النار. وهذا مؤوّل بمن يستحلّه، أو

بأن هذا جزاؤه إن جُوزي، ولا بدع في خلف الوعيد، لقوله: «وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ». وعن ابن عباس أنها على ظاهرها، وأنها ناسخة لغيرها من آيات المغفرة. بَيَّنْتُ آية «البقرة» أَنَّ قَاتِلَ الْعَمْدِ يُقْتَلُ بِهِ، وَأَنَّ عَلَيْهِ الدِّيَّةَ إِنْ عُفِيَ عَنْهُ، وَسَبَقَ قَدْرُهَا. وَبَيَّنَّتِ السُّنَّةُ أَنَّ بَيْنَ الْعَمْدِ وَالْخَطَا قِتْلًا يُسَمَّى شِبْهَ الْعَمْدِ. وَهُوَ أَنْ يَقْتُلَهُ بِمَا لَا يَقْتُلُ غَالِبًا. فَلَا قِصَاصَ فِيهِ، بَلْ دِيَّةٌ كَالْعَمْدِ فِي الصِّفَةِ، وَالْخَطَا فِي التَّاجِيلِ وَالْحَمْلِ. وَهُوَ وَالْعَمْدُ أَوْلَى بِالْكَفَّارَةِ مِنَ الْخَطَا.

وقول المؤلف: (أي: ما ينبغي...) إلى آخره: تفسير لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾، وكل من اللفظين ما كان، وما ينبغي عن المنهي عنه؛ أي: الممنوع شرعاً أو الممتنع عقلاً؛ كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢].
وقوله: (مخطئاً...) إلى آخره: يبين أَنَّ ﴿خَطَاً﴾ في موضع حال؛ بمعنى: اسم الفاعل، وهو ما يقع من غير قصد الفاعل.
وقوله: (بأن قصد...) إلى آخره: بيان لصورة الخطأ.
وقوله: (عتق): تفسير: للتحرير، وهو تصيير الرقيق حراً بعته.
وقوله: (نَسَمَةٍ)؛ أي: نفساً.
وقوله: (عليه): تقدير: لخبر المبتدأ؛ أي: تحرير رقبة واجب عليه.
وقوله: (مُؤَدَّة)؛ أي: الدية مؤداة لورثة المقتول عوضاً عن وليهم المقتول.

وقوله: (أي: ورثة المقتول): تفسير: لأهله.
وقوله: (يتصدقوا عليه بها...) إلى آخره: تفسير لقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾، والمعنى: إلا أن يتصدق أولياء المقتول بالدية على القاتل وأوليائه

بالعفو عنها، ثم ذكر المؤلف مَنْ تجب عليهم الدية، وذكر في ذلك ما دلت عليه السنة^(١).

وقوله: (المقتول): تفسير: للضمير المستتر، وهو اسم كان. وقوله: (حرب)؛ أي: محاربين، والمراد: أن أولياء المؤمن المقتول قوم كفار يحاربون المسلمين.

وقوله: (على قاتله...) إلى آخره؛ معناه: أنه لا يجب على القاتل إلا تحرير رقبة، ولا تجب لأولياء المقتول دية؛ لأنهم عدو للمؤمنين، فلا يعطون ما يستعينون به على حرب المسلمين.

وقوله: (المقتول): تفسير للضمير المستتر الذي هو اسم كان. وقوله: (عهد كأهل الدِّمة): تفسير: لمن بيننا وبينهم ميثاق. وقوله: (له)؛ أي: فدية للمقتول على القاتل وأوليائه. وقوله: (وهي ثلث...) إلى آخره: بيان لمقدار دية اليهودي والنصراني والمجوسي^(٢)، وهذا على القول بأن المقتول كافر، وإن كان المقتول مؤمناً، وهو من قوم بيننا وبينهم ميثاق، فعلى القاتل وأوليائه دية المسلم. وقوله: (على قاتله): يريد أن تحرير رقبة تجب على القاتل في ماله، بخلاف الدية فإنها على عاقلته.

وقوله: (الرقبة...) إلى آخره: تقدير: لمفعول يجد، وهو الرقبة أو ثمنها. وقوله: (عليه كفارة...) إلى آخره: الجار والمجرور خبر للمبتدأ، وهو صيام؛ المعنى: فصيام شهرين متتابعين واجب عليه، ثم بين المؤلف أن الله لم يجعل للصيام بدلاً بإطعام ستين مسكيناً، كما جعل في كفارة الظهار؛ قال: (وبه أخذ الشافعي): قلت: وهو الصواب وقوفاً مع النص^(٣).

(١) ينظر: سنن البيهقي (٣٠١/١٦).

(٢) ينظر: سنن البيهقي (٣٨٦/١٦).

(٣) ينظر: بحر المذهب (٢٤٦/١٤).

وقوله: (مصدر...) إلى آخره: بيان لوجه النصب في توبة بأنه مصدر لفعل مقدر؛ أي: تاب الله على القاتل توبة بما شرع من الكفارة.
 وقوله: (بخلقه...) إلى آخره: بيان لمتعلق الاسمين الشريفين.
 وقوله: (بأن يقصد...) إلى آخره: بيان لشروط قتل العمد الموجب للقصاص.

وقوله: (أبعده من رحمته): تفسير: ﴿وَلَعَنَهُ﴾.
 وقوله: (في النار): يبين أن أولى عذاب بوصف عظيم هو العذاب في النار.

وقوله: (وهذا مؤول...) إلى آخره: تضمن هذا الكلام عدة مسائل: منها: أن الوعيد بالخلود مؤول بحمله على المستحل للقتل، أو أن هذا جزاؤه الذي يستحقه إن جازاه الله به.
 الثانية: أن القتل العمد يوجب القصاص؛ كما في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

الثالثة: ما دلت عليه السنة، وهو نوع ثالث من القتل، وهو شبه العمد^(١)، وأن الدية في شبه العمد؛ كقتل الخطأ على العاقلة، لكن تكون مغلظة كدية العمد؛ قال: وشبه العمد والعمد أولى بالكفارة من قتل الخطأ^(٢).



(١) ينظر: سنن البيهقي (١٦/ ٢٢٠).

(٢) ينظر: المغني (١١/ ٤٤٤)، (١١/ ٤٦٢).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْغُوثَ عَرَصِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَازٍ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٩٤ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۖ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٦﴾ [النساء: ٩٤-٩٦].

يأمر الله عباده المؤمنين إذا سافروا مجاهدين في سبيل الله أن يتثبتوا، ولا يستعجلوا فيسيئوا الظن بمن أظهر لهم الإسلام بإلقاء السلام إليهم، فتقولوا لست مؤمناً لتقتلوه، وتأخذوا ما معه من المال غنيمة، فإنَّ عند الله لكم مغام كثيرة؛ أي: غنائم ممن ستقاتلونهم في سبيل الله فتغنموا أموالهم، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: كنتم غير مسلمين مثل ذلك الذي ألقى إليكم السلام، فمنَّ الله عليكم بالإيمان، ثم أكد الأمر بالتبين، وهو التثبت؛ فقال تعالى: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٩٤﴾؛ أي: خبيراً بأعمالكم يعلمون ما تسرون وما تعلنون.

ثم أخبر تعالى بأنه لا يستوي القاعدون، والمجاهدون في سبيل الله، ثم فصل تعالى فضل المجاهدين على القاعدين؛ بقوله: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۖ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥﴾، واستثنى من القاعدين المفضل عليهم أولي الضرر، الذين لا يستطيعون الجهاد بأنفسهم، فإنَّ لهم بنياتهم فضل المجاهدين كالذين قال فيهم الرسول ﷺ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قالوا: يا رسول الله، وهم: بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٣) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولمسلم (١٩١١) نحوه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَلْعَيْنِ دَرَجَةً﴾: القاعدین؛ أي: أولي الضرر ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾؛ أي: من المجاهدين والقاعدین أولي الضرر، واختار ابن القيم^(١) أنَّ أولي الضرر صنفان: مَنْ لم تكن له نية وعزيمة على الجهاد؛ فهؤلاء فَضَّلَ المجاهدون عليهم بدرجة، وصنف لهم نيات صادقة في الجهاد لولا العذر لم يتخلفوا؛ فهؤلاء بمنزلة المجاهدين، فلهم مثل أجور المجاهدين بنياتهم، لما صح عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه مرجعه من تبوك: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر»، وقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَلْعَيْنِ﴾: من غير أولي الضرر، والصنف الثاني من أولي الضرر ملتحقون في الفضل والوعد بالأجر العظيم بالمجاهدين في سبيل الله للحديث المتقدم، وقوله تعالى: ﴿دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾: تفسير لقوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٩٥)، وهذا من مقتضى أنه تعالى غفور رحيم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(٩٦)، والدرجات منازل عالية في الجنة أعدها الله للمجاهدين في سبيله؛ كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعْدَهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(٢)، فتبين مما تقدم أنَّ الاستثناء في قوله: ﴿غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾: مختص بمن لم تكن لهم نيات يبلغون بها منزلة المجاهدين، أما مَنْ لهم نيات يبلغون بها منزلة المجاهدين فهم، والمجاهدون في الفضل سواء.

(١) ينظر: طريق الهجرتين (٢/ ٧٨٣-٧٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونزل، لَمَّا مَرَّ نَفَرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ وَهُوَ يَسُوقُ غَنَمًا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَا سَلَّمَ عَلَيْنَا إِلَّا تَقِيَّةٌ. فقتلوه واستاقوا غنمه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾: سافرتُم للجهاد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيَّنُّوا﴾ - وفي قراءة «فَتَبَيَّنُّوا» بالمثلثة في الموضعين - ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾، بِالْفِ ودونها، أي: التحيّة، أو الانقياد بقول كلمة الشهادة التي هي أَمارة على إسلامه: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، وَإِنَّمَا قُلْتَ هَذَا تَقِيَّةً لِنَفْسِكَ وَمَالِكَ. فقتلوه ﴿تَبْتَغُونَ﴾: تطلبون لذلك ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: متاعها من الغنيمة. ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾، تُغْنِيكُمْ عَنْ قَتْلِ مِثْلِهِ لِمَالِهِ. ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ تُعَصِّم دِمَاؤَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ بِمَجَرَّدِ قَوْلِكُمُ الشَّهَادَةِ، ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاشتهار بالإيمان والاستقامة - ﴿فَبَيَّنُّوا﴾ أَنْ تَقْتُلُوا مُؤْمِنًا، وَافْعَلُوا بِالْإِخْلِ فِي الْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَ بِكُمْ. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، فَيُجَازِيكُمْ بِهِ.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عَنْ الْجِهَادِ، ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ - بِالرَّفْعِ صِفَةٌ وَالنَّصْبِ اسْتِثْنَاءٌ - مِنْ زَمَانَةٍ أَوْ عَمَى وَنَحْوِهِ، ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ. فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ لَضَرَرِ ﴿دَرَجَةٍ﴾: فَضِيلَةٍ، لِاسْتَوَائِهِمَا فِي النِّيَّةِ وَزِيَادَةِ الْمُجَاهِدِينَ بِالْمُبَاشَرَةِ - ﴿وَكُلًّا﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾: الْجَنَّةَ - ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ لِغَيْرِ ضَرَرِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وَيُبَدِّلُ مِنْهُ: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾: مَنَازِلَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مِنَ الْكِرَامَةِ، ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾: مَنْصُوبَانِ بِفَعْلِهِمَا الْمُقَدَّرِ. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لِأَوْلِيَائِهِ، ﴿رَحِيمًا﴾ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ.

وقول المؤلف: (ونزل ...) إلى آخره: يبين بذلك سبب نزول الآية^(١).
 وقوله: (سافرتم للجهاد): بيان لمعنى: ﴿ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فإنه يعبر بالضرب عن السفر، وقيده بالجهاد؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
 وقوله: (وفي قراءة ...) إلى آخره: يريد أن القراءة الأخرى مفسرة لقراءة ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾؛ فأحدهما: بالباء بعد التاء، والأخرى بالثاء المثلثة بعد التاء^(٢).

وقوله: (بألف ودونها ...) إلى آخره: يشير: إلى قراءتين في لفظ: «السلام» بألف بعد اللام، وبدونها^(٣)، قيل؛ المراد: التحية، وقيل: المراد الإسلام بالنطق بشهادة أن لا إله إلا الله^(٤).
 وقوله: (وإنما قلت هذا ...) إلى آخره: بيان لمرادهم في قولهم: ﴿لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ ليتوصلوا بذلك إلى قتله وغنيمة غنيمة؛ كما يدل له قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: (تطلبون): تفسير: تبتغون.
 وقوله: (بذلك)؛ أي: بقولهم: ﴿لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾.
 وقوله: (متاعها): تفسير: عرض الحياة الدنيا، وكل منافع الدنيا عرض لأنه يعرض ويزول.

وقوله: (تُغْنِيكُمْ عن قتل مثله لماله): يريد أن الغنائم المرجوة من الفتوح المنتظرة تغنيكم عن قتل ما لم تعلموا حقيقة أمره.
 وقوله: (تُعَصِّم ...) إلى آخره: يريد أن وجه الشبه بين المخاطبين وبين هذا الذي قتلوه أنهم كانوا معصومي الدم إذا أظهروا الإسلام على أي وجه

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٧٢)، ولباب النقول (ص ٨٠).

(٢) ينظر: المبسوط (ص ١٨٠).

(٣) ينظر: المبسوط (ص ١٨٠).

(٤) ينظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ٩٢)، وتفسير البغوي (٢/ ٢٦٩).

كان، وهذا أحد الأقوال في الآية، وفيها أقوال أخرى منها قول بعضهم: ﴿كَذَلِكَ كُتِبَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: كفارًا ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام، وقال بعضهم: ﴿كَذَلِكَ كُتِبَ مِنْ قَبْلُ﴾، تستخفون بإيمانكم من المشركين، واختاره ابن جرير^(١).

وقوله: (بالاشتهار بالإيمان والاستقامة): يريد من الله عليكم بالقدرة على إظهار دينكم.

وقوله: (أن تقتلوا مؤمنًا...) إلى آخره: يريد تثبتوا لئلا تقتلوا مؤمنًا، أو احذروا أن تقتلوا من أظهر لكم الإسلام استعجالاً منكم وسوء ظن به. وقوله: (فيجازيكم به)؛ أي: بما عملتم؛ يريد المؤلف أن ذكر الخبرة بأعمال العباد إشارة إلى مجازاتهم بها.

وقوله: (عن الجهاد): بيان لمتعلق القعود، وأن المراد بالقاعدين المتخلفون عن الجهاد.

وقوله: (بالرفع صفة...) إلى آخره: فيه إشارة إلى القراءتين في غير بالرفع والنصب^(٢)، ووجه إعرابهما فعلى الرفع صفة لقاعدون، والنصب على الاستثناء من القاعدين، وفيه أن المراد بأولي الضرر العاجزون عن الجهاد بعلّة في أبدانهم؛ كالعمى والعرج والمرض والزمانة، وهي: ضعف البدن لمرض أو كبر.

وقوله: (لضرر): بيان للمراد بالقاعدين المفضل عليهم المجاهدون بدرجة، وهم: القاعدون للضرر.

وقوله: (فضيلة...) إلى آخره: يريد أن المجاهدين فضّلوا على القاعدين من أولي الضرر بدرجة واحدة لاستوائهما في نية الجهاد، والرغبة فيه لكن المجاهدون فضّلوا القاعدين بمباشرة القتال.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٤٦٣)، وابن كثير (٢/ ٣٨٤-٣٨٥).

(٢) ينظر: المبسوط (ص ١٨١).

وقوله: (من الفريقين)؛ أي: المجاهدين والقاعدين من أولي الضرر، والتنوين في «كلًا» للعوض.

وقوله: (الجنة): تفسير: الحسنی؛ لأنَّ الجنة أحسن دار، وقد سماها الله الحسنی في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله: (لغير ضرر): بيان للمراد بالقاعدين المفضل عليهم المجاهدون بأجر عظيم ودرجات.

وقوله: (ويُبدل منه): يفيد: أنَّ «درجات» منصوب على البدل من «أجرًا عظيمًا».

وقوله: (منازل...) إلى آخره: فيه بيان المراد بالدرجات، وبيان مرجع الضمير المجرور منه؛ قال: (من الكرامة)، والكرامة؛ هي: الأجر العظيم، ويحتمل أنَّ الضمير المجرور يعود إلى الله؛ أي: هذا الأجر والدرجات عطاء من الله، وكرامة منه لأوليائه المجاهدين، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

وقوله: (منصوبان بفعلهما المُقدّر): بيان لوجه نصب «مغفرة ورحمة»؛ يقول: وهما منصوبان بفعل مقدر؛ أي: يغفر لهما ويرحمهما مغفرة ورحمة. وقوله: (لأوليائه) و(بأهل طاعته): بيان لأهل مغفرته ورحمته.



وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ٩٨ ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ٩٩﴾ * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٠٠﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

يخبر تعالى عن القاعدين عن الهجرة المقيمين بين الكفار بعذر أو بغير عذر، فأما القاعدون عن الهجرة بلا عذر فقد توعدهم الله بتوفي الملائكة لهم، وهم ظالمون لأنفسهم بترك الهجرة، وأن الملائكة توبخهم، وتسألهم عن سبب تخلفهم عن الهجرة فيعتذرون بالاستضعاف، فيردون عليهم بأن الأرض واسعة، ثم توعدهم بجهنم وساءت مصيرًا، واستثنى تعالى المستضعفين حقيقة من الرجال والنساء والولدان، وذكر عذرهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، ثم وعدهم العفو وعدًا مؤكدًا؛ فقال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ٩٩﴾، ثم ذكر تعالى بشارتين للمهاجرين إحداهما في الدنيا، وهي: المراغمة والسعة، وقوله: ﴿مُرَاعِمًا﴾، يحتمل أن يكون مصدرًا، ويحتمل أن يكون اسم مكان، وأصل المراغمة من الرغام، وهو التراب^(١)، ومراغمة العدو مصابرتة حتى يذل، ويصير كمن أنفه في الرغام والأخرى في الآخرة، وهي: الأجر الذي أوجبه الله على نفسه في قوله: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم ختم آيات الهجرة باسمين من أسمائه الحسنی، وهما: الغفور، والرحيم؛ فقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٠٠﴾، فإن كل ما تقدم من الوعد للمستضعفين والمهاجرين فهو من آثار هذين الاسمين الكريمين.

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/٤١٣).

ونزل في جماعة أسلموا ولم يُهاجروا، فقتلوا يوم بدر مع الكُفَّار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، بالمُقام مع الكُفَّار وترك الهجرة، ﴿قَالُوا﴾ لهم مُوبِخِينَ: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: في أي شيء كنتم في أمر دينكم؟ ﴿قَالُوا﴾ مُعْتَذِرِينَ: ﴿كُنَّا مُسْتَضَعِّفِينَ﴾: عاجزين عن إقامة الدين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: أرض مَكَّة. ﴿قَالُوا﴾ لهم توبيخًا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً، فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ من أرض الكُفَر إلى بلد آخر، كما فعل غيركم؟ قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ هي! ﴿إِلَّا الْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾: لا قُوَّةَ لهم على الهجرة ولا نفقة، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾: طريقًا إلى أرض الهجرة - ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾. وكان الله عَفُوًّا غَفُورًا - وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا: مُهَاجِرًا ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ في الرِّزْقِ، ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ في الطريق، كما وقع لَجُنْدُوعِ بْنِ ضَمْرَةَ اللَّيْثِيِّ، ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾: ثَبَتَ ﴿أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. وكان الله غَفُورًا رَحِيمًا.

وقول المؤلف: (ونزل ...) إلى آخره: بيان لسبب نزول هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(١).

وقوله: (بالمُقام مع الكُفَّار وترك الهجرة): بيان لما ظلموا به أنفسهم من معصية الله.

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٧٧)، ولباب النقول (ص ٨٢).

وقوله: (لهم مُوبِّخين)؛ أي: قالت الملائكة للمتوفين الظالمين أنفسهم،
 وقوله: (موبِّخين): بيان للغرض من الاستفهام.
 وقوله: (أي: في أي شيء كنتم في أمر دينكم؟): بيان أنَّ «ما» تفيد
 العموم.

وقوله: (مُعْتَذِرِينَ): بيان للغرض من قولهم: ﴿مُسْتَضْعِفِينَ﴾.
 وقوله: (عاجزين عن إقامة الدين): بيان لأثر الاستضعاف.
 وقوله: (أرض مكّة)؛ لأنَّ المخبر عنهم من أهل مكّة.
 وقوله: (لهم توبيخًا)؛ أي: قالت الملائكة للمتوفين الظالمين بترك
 الهجرة.

وقوله: (من أرض الكُفْر ...) إلى آخره: أي: تهاجروا في الأرض
 الواسعة فما هاجر غيره.
 وقوله: (قال الله تعالى): بيان لقائلي هذا القول: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ
 جَهَنَّمُ﴾.

وقوله: (هي!)؛ بيان للمخصوص بالذم.
 وقوله: (الذين): تقدير: لصفة المستضعفين، وما بعده صلة الموصول.
 وقوله: (لا قُوَّة ...) إلى آخره: تفسير للحيلة.
 وقوله: (طريقًا إلى أرض الهجرة): تفسير: للسبيل.
 وقوله: (مُهاجِرًا)؛ أي: مكانًا يقيم فيه في هجرته، ويراعم به الكفار
 الذين أخرجوه من داره.

وقوله: (في الرِّزْق): تقييد للسعة بالرزق كما جاء عن بعض السلف^(١)،
 والأظهر أنَّ المراد سعة الأرض التي يمكن فيها المقام، ودليل هذا قوله في

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٤٠١-٤٠٢).

الآية السابقة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾، وقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وقوله: (في الطريق ...) إلى آخره: بيان لمن نزلت فيه الآية^(١).
 وقوله: (ثبت): تفسير: وقع، ولو قال وجب لكان أولى؛ لأنَّ اللفظ أدل على الوجوب.



(١) ينظر: لباب النقول (ص ٨٣).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ١١٥﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ١١٦ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ١١٧ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا ١١٨﴾ [النساء: ١٠١-١٠٣].

في هذه الآيات بيان حكم صلاة السفر، وصلاة الخوف، والضرب في الأرض هو السفر، وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾؛ أي: إثم، ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾؛ أي: تصلوا الرباعية ركعتين، وهي: الظهر والعصر والعشاء، وظاهر الآية أنَّ قصر الصلاة في السفر رخصة؛ لأنه ليس فيها إلا رفع الجناح، وقد اختلف العلماء^(١) في ذلك:

فذهب الجمهور إلى أنَّ القصر رخصة، ويجوز الإتمام، وعلى هذا فالمكلف مخير بين القصر والإتمام.

وقيل: إنَّ القصر سنة مؤكدة، ولا ينبغي الإتمام لمداومته ﷺ على القصر في أسفاره.

وقيل: بل القصر واجب لما صح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «فرض الله الصلاة حين فرضها، ركعتين ركعتين، في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر»^(٢).

(١) ينظر: المجموع شرح المذهب (٢٠٩/٤)، (٢١٨/٤)، والمغني (١١٤/٣)، (١٢٢/٣)، (١٢٥/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٠)، (١٠٩٠)، ومسلم (٦٨٥) واللفظ له، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وعلى هذا فلا يجوز الإتمام، والصواب: أنَّ القصر في الآية هو قصر الكيفية لا قصر العدد كما ذهب إلى ذلك جمع من أهل العلم^(١)، ويؤيده حديث عائشة، فإنه يدل على أنَّ صلاة السفر شرعت ركعتين من أول الأمر، وعلى هذا فلا يصح أنَّ المراد بالقصر قصر العدد؛ لأنَّ صلاة السفر شرعت مقصورة فلا يصح من جهة المعنى: لا جناح عليكم إذا ضربتم في الأرض أن تصلوا ركعتين، وهي: مفروضة كذلك، وعلى هذا فالمراد بالصلاة صلاة الخوف كما يدل لذلك قوله في الآية الأولى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله بعد ذلك: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾؛ أي: أمتم ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: أدوها بكل ما يجب فيها، ويؤيد ما تقدم - أنَّ صلاة السفر فرضت ركعتين - أنَّ رسول الله ﷺ لم يزل يصلي في أسفاره ركعتين، وعبر عن ذلك في الأحاديث بالقصر بالنسبة إلى صلاة الحضر، وقصر العدد مختص بالصلاة الرباعية الظهر والعصر والعشاء، وأما قصر الكيفية، وهي: صلاة الخوف فهو مشروع في كل الصلوات، ثم ذكر تعالى صفة من صفات صلاة الخوف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ...﴾ الآية، ومضمون هذه الصفة أن يجعل الجنود طائفتين فتقوم طائفة مع الإمام، وطائفة تحرسهم من ورائهم فيصلّي الإمام بالطائفة الأولى ركعة ثم يقومون، ويقضون ركعة فتأتي الطائفة الأخرى التي لم يصلوا فيقومون مع الإمام فيصلّي بهم ركعة ثم يقومون، ويأتون بركعة أخرى ثم يسلم الإمام بهم جميعاً، ولصلاة الخوف صفات كثيرة وردت بها السنة^(٢)، واختلف العلماء في المختار منها^(٣)، والصواب أن كل ما صح عن النبي ﷺ فهو جائز، والعمل به سنة، وسبب التنوع في صلاة الخوف اختلاف موقع العدو من المسلمين فقد

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٥)، وأضواء البيان (١/ ٣٩٧).

(٢) ينظر: سنن البيهقي (٦/ ٤٦١) وما بعدها.

(٣) ينظر: المغني (٣/ ٢٩٨)، (٣/ ٣٠٩)، (٣/ ٣١٦).

يكون في جهة القبلة، وقد يكون في جهة أخرى، وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ﴾؛ أي: فرغتم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾؛ أي: أقبلوا على ذكر الله في كل أحوالكم قائمين وقاعدين ومضطجعين، وقوله: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾؛ أي: أمتم، وهو مقابل قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله: ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: أدوها تامة غير مقصورة، ولا منقوصة، وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾، بيان لمنزلة الصلاة، وأنها مفروضة في أوقات معلومة لا يجوز تأخيرها عنها.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾: سافرتم ﴿فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، في ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، بأن تردوها من أربع إلى اثنتين، ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ﴾ أي: ينالكم بمكروه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. بيان للواقع إذ ذاك، فلا مفهوم له. وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّفَرِ الطَّوِيلُ. وهو أربعة بُرْدٍ وهي مرحلتان. ويُؤخذ من قوله «فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ» أنه رخصة لا واجب. وعليه الشافعي. ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾: بَيَّنَّ الْعَدَاوَةَ. ﴿وَإِذَا كُنْتَ﴾ -يا مُحَمَّد- حَاضِرًا ﴿فِيهِمْ﴾، وأنتم تخافون العدو، ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ -وهذا جَزِيٌّ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ فِي الْخِطَابِ، فلا مفهوم له- ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ وتَأَخَّرَ طَائِفَةٌ، ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ أي: الطائفة التي قامت معك ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾ معهم، ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: صَلُّوا ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ أي: الطائفة الأخرى ﴿مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ يحرسون إلى أن تقضوا الصلاة، وتذهب هذه الطائفة تحرس، ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ، وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ معهم إلى أن تقضوا الصلاة. وقد فعل النَّبِيُّ ﷺ كذلك بطن نخل. رواه الشيخان. ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ﴾، إذا قمتم إلى الصلاة، ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾

فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً ﴿١٠٧﴾ بَأَن يَحْمِلُوا عَلَيْكُمْ فَيَأْخُذُوكُمْ. وهذا عِلَّةُ الأمر بأخذ السلاح.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ، إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى، أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ فلا تحملوها - وهذا يُفيد إيجاب حملها عند عدم العذر، وهو أحد قولَي الشافعي، والثاني أَنَّهُ سُنَّةٌ وَرَجَحَ - ﴿وَأُخِذُوا حِذْرُكُمْ﴾ من العدو أَي: احترزوا منه ما استطعتم - ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾: ذا إهانة - ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾: فرغتم منها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتلهيل والتسبيح، ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾: مضطجعين، أَي: في كُلِّ حال، ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾: أُمِيتُمْ ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾: أدوها بحقوقها. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا﴾: مكتوبًا أَي: مفروضًا ﴿مَوْقُوتًا﴾ أَي: مُقَدَّرًا وقتها، فلا تُؤَخَّرُ عنه.

وقول المؤلف: (سافرتم): من معاني الضرب في الأرض السفر، ولذا فسر به المؤلف.

وقوله: (في): يريد أَن المعنى ليس عليكم جناح في القصر من الصلاة. وقوله: (بأن تردوها ...) إلى آخره: بيان للقصر المأذون فيه، وهو قصر العدد، وهذا هو القول المشهور عند الجمهور^(١)، وقيل: المراد قصر الكيفية، وتقدم أَنَّهُ هو الصواب؛ لقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله بعدها: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾، وفيها بيان صفة صلاة الخوف. وقوله: (أَي: ينالكم بمكروه): يريد أَن ينالكم الذين كفروا بمكروه، لأنَّ من معاني الفتنة العذاب، وإيصال الأذى والضرر.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٤٠٤)، والمحرم الوجيز (٣/ ٧).

وقوله: (بيانٌ للواقع ...) إلى آخره: يبين أنَّ تقييد رخصة القصر بالخوف من الكفار باعتبار حال المسلمين مع الكفار وقت نزول الآية، وعلى هذا فلا مفهوم لهذا القيد فيباح القصر مع الأمن.

وقوله: (وَيَبِّتُ السَّنَةَ ...) إلى آخره: يشير: إلى أنَّ الضرب في الأرض، وهو السفر مطلق في الآية يشمل الطويل والقصير، وأنَّ السنة بينت السفر الذي تقصر فيه الصلاة، وهو ما بلغ هذه المسافة أربعة برد، وهو قول الجمهور^(١).

وقوله: (وَيُؤْخَذُ ...) إلى آخره: هذه الفائدة ظاهرة من الآية، فإنَّ رفع الإثم يدل على الإباحة، وهي: الإباحة الخاصة المقابلة للتحريم، فعلم بذلك أنَّ القصر رخصة لا واجب، وهو مذهب الجمهور؛ قال المؤلف: (وعليه الشافعي)؛ أي: وهو مذهب الشافعي.

وقوله: (بَيْنَ الْعِدَاةِ): تفسير لـ: «مبين»، فهو من أبان بمعنى بان.

وقوله: (-يا مُحَمَّد- حاضراً): بيان للمخاطب، وهو الرسول ﷺ،

وقوله: (حاضراً): بيان لمتعلق الجار والمجرور فيهم.

وقوله: (وَأَنْتُمْ تَخَافُونَ الْعِدَّةَ): بيان لحال الأمر بهذه الصلاة.

وقوله: (وَهَذَا جَرِيٌّ ...) إلى آخره: يريد أنَّ الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ كما هو الجاري في خطابات القرآن بلفظ المفرد.

وقوله: (وَتَتَأَخَّرُ طَائِفَةٌ): بيان لمفهوم ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ﴾، فإنه يدل على أنَّ هناك طائفة أخرى، فإذا قامت طائفة مع الإمام وجب أن تكون الطائفة الأخرى متأخرة لتحرس.

وقوله: (أَيُّ الطَّائِفَةِ ...) إلى آخره: يبين أنَّ المخاطب بأخذ السلاح هم الطائفة التي قامت مع النبي ﷺ ليأخذوا أسلحتهم، وهم في الصلاة.

(١) ينظر: المجموع شرح المذهب (٤/٢١٠)، والمغني (٣/١٠٥).

وقوله: (معهم): يبين أن المراد أن يحملوا السلاح معهم، وهم يصلون.
وقوله: (أي: صلّوا): يبين أن المراد بالسجود الدخول في الصلاة لا
السجود على الأرض.

وقوله: (أي: الطائفة الأخرى): يبين أن الأمر فليكون موجه للطائفة
الأخرى.

وقوله: (يحرصون ...) إلى آخره: بيان للغرض من كون الطائفة
الأخرى وراء الطائفة القائمة مع النبي ﷺ، وهو الحراسة.

وقوله: (معهم ...) إلى آخره: يبين أن على الطائفة الأخرى إذا جاؤوا
للصلاة مع النبي ﷺ أن يكونوا على حذر، ويحملوا أسلحتهم معهم في
الصلاة كما فعلت الطائفة الأولى.

وقوله: (وقد فعل ...) إلى آخره: يبين أن النبي ﷺ فعل صفة صلاة
الخوف التي أمر بها في هذه الآية^(١)، وقد كان ذلك في بطن نخل موضع
في نجد من أرض غطفان^(٢).

وقوله: (إذا قمتم إلى الصلاة): بيان لحال الغفلة، وهو القيام للصلاة؛
لأن المصلي مشغول بصلاته عن شؤونه.

وقوله: (بأن يحملوا ...) إلى آخره: بيان لمعنى: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ
مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾، وهذا سبب أمر المسلمين بأخذ السلاح.

وقوله: (فلا تحملوها ...) إلى آخره؛ أي: فلا تحملوها معكم في
الصلاة؛ بل تضعونها للعدو بالمطر والمرض، والرخصة في وضع الصلاة

(١) قال المؤلف: «رواه الشيخان» ولعله يريد ما في البخاري (٩٤٢)، (٤١٣٦)، ومسلم (٨٤٢)، (٨٤٣). وفيهما ذكر غزوة ذات الرقاع وليس «بطن نخل» فذاك أخرجه النسائي (١٥٤٨)، وقد ذكر بعض الفقهاء أن النبي ﷺ صلى صلاة الخوف في عشرة مواضع، والذي استقر عند أهل السير والمغازي، في أربعة مواضع: ذات الرقاع وبطن نخل وعسفان وذو قرد. ينظر: نصب الراية (٢/ ٢٤٧).

(٢) ينظر: تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٣٨).

حال العذر بالمطر والمرض يدل على وجوب حمله في حال عدم العذر؛ قال المؤلف: (وهو أحد قولَي الشافعيّ، والثاني أَنَّهُ سُنَّةٌ)؛ أي: حمل السلاح (وَرُجِّحَ)؛ أي: في مذهب الشافعي ^(١).

وقولُه: (من العدو...) إلى آخره: بيان لمعنى؛ وخذوا حذرکم.

وقولُه: (ذا إهانة)؛ أي: فيه إهانة.

وقولُه: (فرغتم منها): تفسير: لقضيتهم.

وقولُه: (بالتهليل والتسبيح): بيان لِمَا يكون به الذكر.

وقولُه: (مضطجعين، أي: في كُلِّ حال): تفسير: لقوله: ﴿وَعَلَى

جُنُوبِكُمْ﴾ بالاضطجاع، وبيان للمقصود بهذا الأمر، وهو ذكر الله في جميع الأحوال.

وقولُه: (أمنتم): تفسير: للاطمئنان بالأمن لأنه سببه.

وقولُه: (أدّوها بحقوقها): تفسير: لإقام الصلاة، وهو أدّاؤها بما يجب

لها من الشروط والأركان والواجبات.

وقولُه: (مكتوباً أي: مفروضاً): تفسير: لكتاب؛ يوضحه قوله ﷺ:

«خمس صلوات كتبهن الله على العباد في كل يوم وليلة» ^(٢).

وقولُه: (أي: مُقَدَّرًا...) إلى آخر: تفسير لموقوت، والمراد: أَنَّ الله

قدّر لكل صلاة وقتاً محدوداً، الأول والآخر، ولهذا لا يجوز تأخير الصلاة

عن وقتها، ولا تقديمها قبل وقتها إلا في الجمع بين الصلاتين.



(١) ينظر: المجموع شرح المذهب (٣٠٩/٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٣)، وأبو داود (١٤٢٠)، والنسائي (٤٦١)، عن عبادة بن الصامت

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن حبان (١٧٣٢) -بلفظ: «افترضهن»-، وصححه الألباني في

صحيح سنن أبي داود (١٢٧٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۚ إِن تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ
كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا
إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۝١٥
وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٧﴾ [النساء: ١٠٤-١٠٧].

هذا نهى من الله للمؤمنين عن الوهن، وهو الضعف في طلب عدوهم،
ولو نالهم ما نالهم من الآلام بتلف الأنفس والأموال فعليهم الصبر على ما
يصيبهم، والرجاء لموعودهم من الثواب، ثم ذكر تعالى المؤمنين بما يعينهم
على الصبر وهو أن الكفار يألمون كما يألم المسلمون، ومع ذلك يصبرون
وهم لا يرجون ما يرجو المؤمنون، وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا
تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، وكل هذا راجع إلى علمه تعالى
وحكمته، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ثم أخبر تعالى
أنه أنزل إلى عبده ورسوله محمد ﷺ الكتاب، وهو القرآن مشتملاً على
الحق في شرائعه وأخباره ليحكم الرسول ﷺ بين الناس بما علمه الله، ونهاه
أن يكون خصيماً للخائنين يخاصم عنهم، ثم أمره بالاستغفار ووعدته
بالمغفرة؛ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ثم نهى عن المجادلة عن
أهل الخيانة؛ لأن الله لا يحب من كان خَوَّانًا أَثِيمًا.

ونزل، لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ طائفة في طلب أبي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ، لَمَّا
رَجَعُوا مِنْ أَحَدٍ فَشَكُّوا الْجَرَاحَاتِ: ﴿وَلَا تَهْنُوا﴾: تَضَعُفُوا ﴿فِي ابْتِغَاءِ﴾:
طَلَبِ ﴿الْقَوْمِ﴾ الْكُفَّارِ لِنِقَاتِهِمْ. ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ﴾: تَجِدُونَ أَلَمَ
الْجِرَاحِ ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾ أَي: مِثْلَكُمْ، وَلَا تَجْبُنُوا عَنْ قِتَالِهِمْ،
﴿وَتَرْجُونَ﴾ أَنْتُمْ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ مِنَ النَّصْرِ وَالثَّوَابِ عَلَيْهِ ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾

هم. فأنتم تزيدون عليهم بذلك، فينبغي أن تكونوا أرغب منهم فيه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء، ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه. وسرق طُعْمَةُ بْنُ أَبِي رَافٍ دِرْعًا وَخَبَأَهَا عِنْدَ يَهُودِيٍّ، فَوُجِدَتْ عِنْدَهُ، فَرَمَاهُ طُعْمَةُ بِهَا وَحَلَفَ أَنَّهُ مَا سَرَقَهَا، فَسَأَلَ قَوْمُهُ النَّبِيَّ أَنْ يُجَادَلَ عَنْهُ وَيُبْرِئَهُ، فنزل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾: الْقُرْآنَ ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بـ«أنزل»، ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ﴾: عَلَّمَكَ ﴿اللَّهُ﴾ فيه، ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ﴾ كطُعْمَةَ ﴿خَصِيمًا﴾: مُخَاصِمًا عَنْهُمْ، ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مِمَّا هَمَمْتَ بِهِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: يَخُونُونَهَا بِالْمَعَاصِي، لِأَنَّ وَبَالَ خِيَانَتِهِمْ عَلَيْهِمْ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا﴾: كَثِيرَ الْخِيَانَةِ ﴿أَثِيمًا﴾ أَي: يُعَاقِبُهُ.

وقول المؤلف: (ونزل...) إلى آخره: يشير: إلى سبب نزول الآية، وهو أنها نزلت بعد غزوة أحد، وقد أصاب المسلمين ما أصابهم، ورجع أبو سفيان بمن معه فأمر الله المؤمنين بطلبهم^(١). وقوله: (تضعفوا): تفسير الفعل: ﴿تَهْنُوا﴾ من الوهن، وهو الضعف، والفعل وهن يهن، من باب ضرب. وقوله: (طلب): تفسير: ﴿ابْتَغَاءً﴾، والابتغاء مصدر ابتغاء يبتغي؛ أي: طلب يطلب، ومنه تبتغون عرض الحياة الدنيا. وقوله: (الكفار): بيان للمراد بالقوم الذين أمر المؤمنون بطلبهم. وقوله: (تجدون ألم الجراح): تفسير: لتألمون.

(١) ينظر: تفسير البغوي (٢/٢٨٢)، وزاد المسير (١/٤٦٤).

وقوله: (أي: مثلكم، فلا تَجُنُّوا عن قتالهم): يريد أن الكفار مع أنهم يصيبهم الألم من قتالكم لا يجنبون، فلا تجنبون -أيها المؤمنون- عن قتالهم وأنتم ترجون ثواب الله وهم لا يرجونه.

وقوله: (أنتم): يبين أن المخاطب المؤمنون.

وقوله: (من النصر والثواب عليه): بيان لما يرجونه من الله.

وقوله: (هم...) إلى آخره: بيان للمخبر عنهم، وهم: الكفار بأنهم لا يرجون من الله ما يرجوه المؤمنون من النصر والثواب، وهذا الرجاء فضل به المؤمنون على الكفار.

وقوله: (بكل شيء): يدل لذلك الإطلاق في عليم إذ لم يقيد بمعلوم معين.

وقوله: (في صنعه): معناه أن الله ذو حكمة في تدبيره فيضع الأشياء في مواضعها، فينصر أوليائه المؤمنين ويعاقب أعداءه الكافرين.

وقوله: (وسرق طعمة بن أبيرق درعاً...) إلى آخره: يشير: إلى سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾^(١).

وقوله: (القرآن): تفسير: للكتاب؛ لأن من أسماء القرآن الكتاب.

وقوله: (متعلق بـ«أنزل»): هذا أحد القولين في متعلق الجار والمجرور بالحق، والثاني متعلق بمحذوف حال من الكتاب، وهو أولى^(٢).

وقوله: (علمك): تفسير: لأرى، وعليه فهي من رأى العلمية لا البصرية.

وقوله: (فيه)؛ أي: في الكتاب.

وقوله: (كطعمة): يريد الذي سرق الدرع، ورمى به اليهودي.

وقوله: (مُخاصماً عنهم): تفسير: لـ ﴿خَصِيمًا﴾؛ لأنه من خاصم

يخاصم فاسم الفاعل مخاصم، وخصيم صيغة مبالغة.

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٨١).

(٢) ينظر: الدر المصون (٨٦/٤).

وقوله: (مِمَّا هَمَّتْ بِهِ): هذا مأخوذ مما ذكر في سبب نزول هذه الآيات، وهو سرقة الدرع من بني أُبَيْرِق، وإيداعه عند اليهودي، وأنَّ الرسول هم بقطع يده، ولهذا قال المؤلف: (مِمَّا هَمَّتْ بِهِ).

وقوله: (يَخُونُونَهَا بِالْمَعَاصِي): تفسير: ﴿يَخْتَانُونَ﴾ فمعنى ﴿يَخْتَانُونَ﴾ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: يَخُونُونَ أَنفُسَهُمْ؛ كقوله: «يَظْلَمُونَ أَنفُسَهُمْ»، فمن يفعل المعاصي هو خائن لنفسه وظالم لنفسه.

وقوله: (لَأَنَّ وَبَالَ خِيَانَتِهِمْ عَلَيْهِمْ): بيان لسبب إضافة الخيانة إلى أَنفُسِهِمْ، وكذلك الظلم.

وقوله: (كثِيرُ الْخِيَانَةِ): بيان لما تدل عليه صيغة المبالغة.
 وقوله: (أَيُّ يُعَاقِبُهُ): هذا تفسير لقوله: ﴿لَا يُحِبُّ﴾، وهو يقتضي: تفسير نفي المحبة بالعقوبة، وهذا جار على مذهب مَنْ لا يثبت لله صفة محبة لذلك يؤولون المحبة بالثواب، وعدم المحبة بالعقاب، فيجمعون بين التعطيل والتأويل، والصواب: أَنَّ الله يحب المؤمنين والمتقين ولا يحب الكافرين، بل يبغضهم^(١).



(١) ينظر: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ٦٣٥)، وتنظر: (ص ٦١)، (ص ٢٢١).

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾ هَآؤُلَآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجِدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٠٩ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١١٠ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ وَعَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١١ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ١١٢ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ وَلَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۖ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۖ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١١٣﴾ [النساء: ١٠٨-١١٣].

يخبر تعالى عن هؤلاء الخائنين أنهم يريدون إخفاء عملهم السيئ عن الناس حتى لا يكونوا مذمومين عندهم، ولكنهم لا يستخفون من الله؛ لأن ذلك غير ممكن لأن الله معهم بعلمه يسمع أقوالهم ويرى أفعالهم فيدبرون في الخفاء، ويقولون ما لا يرضى الله من القول، هذا والله محيط علمه بأقوالهم وأفعالهم، ثم أخبر تعالى أن الجدل في الدنيا عن هؤلاء الخائنين لا يغني عنهم شيئاً يوم القيامة، ولا أحد يجادل الله عنهم يوم القيامة، ولا يكون أحد وكيلاً عليهم ينصرهم وينقذهم من عذاب الله، ثم أخبر تعالى عن رحمته بعباده، ومغفرته لذنوبهم؛ فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾؛ أي: عملاً سيئاً كالعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾، بشيء من المعاصي القاصرة المختصة به، ثم يستغفر الله بعد ما ارتكب من سوء وظلم؛ أي: يسأل ربه المغفرة ويتوب من ذنبه ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١١٠﴾ وجدان علم؛ أي: يعلم أن ربه غفور رحيم بما يظهره له من آثار المغفرة والرحمة، أو بخبره الصادق أنه غفور رحيم لمن استغفره وتاب إليه، وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا﴾؛ أي: مَنْ يعمل ذنباً فإنما يكسبه على نفسه؛ أي: فإثمه عليه وهو المستوجب لعقوبته لا يتعدها إلى غيره؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ

كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴿١٦٤﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾؛ أي: ذنبًا عمدًا أو خطأ صغيرًا أو كبيرًا ﴿أَوْ إِثْمًا﴾؛ أي: ذنبًا عظيمًا على عمد ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ﴾؛ أي: بالخطيئة أو الإثم؛ المعنى: يتهم بما ارتكب من الخطيئة أو الإثم ﴿بَرِيئًا﴾؛ أي: من لم يفعل شيئًا من ذلك، وقوله: ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا﴾؛ أي: تحمل كذبًا برمي البريء ﴿وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾؛ أي: بينًا لأنه جمع قبائح كثيرة، فبرأ نفسه وهو كاسب الذنب، ورمى البريء، وفي ذلك ظلم له، وسبب للتسلط عليه بغير حق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾: هذا تذكير من الله لنبیه بنعمته عليه بصرف أعدائه عن الهم بإضلاله، ولو هموا لم يضره شيئًا، وعاد ما هموا به على أنفسهم.

ثم ذكر الله نبیه بنعمة عظمى وهي؛ ما أنزله عليه من الكتاب والحكمة، وتعليمه ما لم يكن يعلم، فكان فضل الله على نبیه عظيمًا. ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ أي: طُعمَةٌ وقومه حياءً ﴿مِنَ النَّاسِ﴾، ولا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴿بِعِلْمِهِ﴾، ﴿إِذْ يَبْتَئِنُونَ﴾: يُضْمِرُونَ ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾، من عزمهم على الحلف على نفي السرقة ورمي اليهودي بها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ علمًا.

﴿هَا أَنْتُمْ﴾ يا ﴿هَؤُلَاءِ﴾: خِطَابٌ لقوم طُعمَةٌ، ﴿جَادَلْتُمْ﴾: خَاصِمْتُمْ ﴿عَنْهُمْ﴾ أي: عن طُعمَةٌ وذويه -وقُريء: «عنه»- ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إذا عَذَّبَهُمْ؟ ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾: يتولّى أمرهم ويذب عنهم؟ أي: لا أحد يفعل ذلك.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾: ذنبًا يسوء به غيره كرمي طُعمَةِ اليهودي ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾: بعمل ذنب قاصر عليه، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ منه أي: يتوب،

﴿يَجِدِ اللَّهُ غُفُورًا﴾ له ﴿رَحِيمًا﴾ به، ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا﴾: ذنبًا ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾، لأنَّ وباله عليها ولا يضرَّ غيره - ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ في صنعه - ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾: ذنبًا صغيرًا ﴿أَوْ إِثْمًا﴾: ذنبًا كبيرًا، ﴿ثُمَّ يَرَمْ بِهِ بَرِيئًا﴾ منه، ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ﴾: تحمَّل ﴿بُهْتَانًا﴾ برميهِ ﴿وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾: بيِّنًا بكسبه، ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ - يا مُحَمَّد - ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بالعِصمة ﴿لَهَمَّتْ﴾: أضمرت ﴿طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾: من قوم طُعْمَة ﴿أَنْ يُضْلُوكَ﴾ عن القضاء بالحق، بتلبيسهم عليك، ﴿وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾، وما يضرُّونَكَ مِنْ: زائدة ﴿شَيْءٍ﴾ لأنَّ وبال إضلالهم عليهم! ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: ما فيه من الأحكام، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ من الأحكام والغيب، ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ بذلك وغيره ﴿عَظِيمًا﴾.

وقول المؤلف: (أي: طُعْمَة وقومه حياء): بيان للمعنيين بهذه الآية المستخفين من الناس حياء منهم لقبح صنيعهم.
وقوله: (بعلمه): يبين أنَّ المراد المعية العامة.
وقوله: (يُضْمِرُونَ): تفسير «يبيتون»؛ أي: يدبرون أقوالاً في الخفاء.
وقوله: (من عزمهم ...) إلى آخره: بيان للمراد بالأقوال التي لا يرضاها الله.

وقوله: (علمًا): بيان لنوع الإحاطة، يريد أنَّ الله محيط بأعمالهم بعلمه، فلا يخفى عليه منها شيء.
وقوله: (يا): حرف نداء، وأولي منادى مبني على الكسر في محل نصب.

وقوله: (خِطَابٌ لِّقَوْمٍ تُعْمَى): بيان للمخاطب بالضمير المنفصل، وهم: المنادى؛ فتقدير الكلام ها أنتم يا هؤلاء.

وقوله: (خاصمتهم): تفسير: ﴿جَادَلْتُمْ﴾ يدل له قوله: ﴿عَنْهُمْ﴾.

وقوله: (أي: عن طُعْمَةٍ وَذَوِيه): بيان للمجادل عنهم.

وقوله: (وَقُرِئَ: «عَنْهُ»): يعني: بإفراد الضمير، والقراءة قيل: لابن مسعود، وقيل: عن أبي، وهي: شاذة^(١)، وتخالف رسم المصحف لإسقاط الميم، وإن صحت فالمراد طُعْمَةٍ.

وقوله: (إِذَا عَذِّبَهُمْ؟): يريد ألا أحد يشفع لهم بصرف العذاب عنهم.

وقوله: (يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ ...) إلى آخره: بيان لما يفعله الوكيل، وأنه لا أحد يكون وكيلاً عليهم.

وقوله: (ذَنْبًا ...) إلى آخره: فسر: السوء بالذنب المتعدي، وهو الذي فيه إساءة لبعض الناس.

وقوله: (بِعَمَلٍ ذَنْبٍ قَاصِرٍ عَلَيْهِ): تفسير: لظلم النفس، وبهذا يظهر الفرق بين السوء وظلم النفس.

وقوله: (منه)؛ أي: من الذنب.

وقوله: (أي: يُثْبِتُ): تفسير: للاستغفار المستلزم للمغفرة، وهو

الاستغفار المتضمن للتوبة.

وقوله: (له)؛ أي: للمستغفر.

وقوله: (به)؛ أي: بالمستغفر.

وقوله: (ذَنْبًا): تفسير: للإثم بالذنب مطلقاً صغيراً كان أو كبيراً قاصراً أو متعدياً.

وقوله: (لَأنَّ وَبَالَهُ ...) إلى آخره: يبين أنَّ عقوبة الذنب على فاعله لا

يتعداه إلى غيره؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

(١) ينظر: التفسير البسيط (٧/ ٧٩)، والبغوي (٢/ ٢٨٥).

وقوله: (في صنعه): معناه أَنَّ الله حكيم في جزائه فلا يعاقب أحداً بذنب غيره، ومن يكسب إثماً فإثمه على نفسه.

وقوله: (ذنباً صغيراً)، وقوله: (ذنباً كبيراً): هذا أحد الأقوال في الفرق بين الخطيئة والإثم^(١)، وقيل: الخطيئة ما كانت عن غير عمد، والإثم ما كان عن عمد^(٢)، والقولان متقاربان.

وقوله: (منه)؛ أي: من الذنب صغيراً أو كبيراً.

وقوله: (تحمّل): تفسير: لـ «احتمل»، واللفظ متقارب، والمعنى واحد.

وقوله: (برميه)؛ أي: احتمل البهتان بسبب رميه.

وقوله: (يا محمد): بيان للمخاطب.

وقوله: (بالعصمة)؛ أي: بعصمتك ممن يريد إضلالك.

وقوله: (أضمرت)؛ لأنّ: الهم يكون في الضمير لا قولاً باللسان.

وقوله: (من قوم طعمة): وهم بنو أبيرق.

وقوله: (عن القضاء بالحق)؛ أي: عن العمل بما أراك الله.

وقوله: (زائدة): يريد ﴿مَنْ﴾ الداخلة على: ﴿شَيْءٍ﴾، ويقال لها صلة، وشيء في موضع نصب، وهو مصدر مبين للنوع.

وقوله: (لأنّ وبال إضلالهم عليهم!)؛ أي: وليس عليك منه شيء، ولهذا قال: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

وقوله: (القرآن): تفسير: الكتاب؛ لأنّ الكتاب من أسماء القرآن.

وقوله: (ما فيه من الأحكام): هذا أحد القولين في تفسير الحكمة، وقيل: المراد بالحكمة السنة^(٣).

(١) ينظر: الكشاف (١٤٧/٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٤٧٧/٧).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٤٨٠/٧)، وابن كثير (٤١٠/٢).



وقوله: (من الأحكام والغيب): بيان للمبهم في قوله: ﴿مَا لَمْ تَكُنْ

تَعْلَمُ﴾.

وقوله: (بذلك وغيره): يريد أن فضل الله على نبيه عام لما ذكر في

الآية، وغيره.



وقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضِلَّتْهُمُ وَلَا مُتَّيْتُهُمْ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلَيْبَسَ كُنَّ عَادَاتِ الْأَنْعَمِ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَغَيِّرْتُ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجْدُونَ عَنْهَا مَخِيصًا ﴿١٢١﴾ [النساء: ١١٤-١٢١].

يخبر تعالى أن كثيراً من كلام الناس لا خير فيه، فهو إما إثم، أو فضول، لكن من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس فذلك خير، وأن من يفعل هذه الأعمال أو يأمر بها طالباً لمرضاة الله فسوف يؤتيه الله أجراً عظيماً، ثم أخبر تعالى أن من يشاقق الرسول؛ أي: يعاديه، وهو عالم بالحق فيعدل عن الصراط المستقيم سبيل المؤمنين، ويتبع سبيل غيرهم فالله يتركه، وما اختار لنفسه فلا يهديه، وسيعاقبه بأن يصليه جهنم فهي مصيره وبئس المصير، ثم أخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك به، وذلك هو الشرك الأكبر الذي يخلد صاحبه في نار جهنم، وقد حرم الله عليه الجنة؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾؛ أي: يغفر ما دون الشرك من الذنوب، وذلك الوعد بالمغفرة يكون لمن يشاء الله فما دون الشرك من الذنوب، فتحت المشيئة فمن شاء الله غفر له، ومن شاء عذبه إلا من تاب فإن الله يتوب عليه، ويغفر له حتى الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ

اللَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴿٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]؛ أي: لمن تاب^(١)، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾؛ أي: الشرك الأكبر وهو الذي لا يغفر إلا بالتوبة؛ يقول تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾؛ أي: ضل عن سبيل الحق ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، أفاض به هذا الضلال إلى غاية الشقاء، وهو حري ألا يهدي، ثم أخبر تعالى عن المشركين الذين شاقوا الرسول، واتبعوا غير سبيل المؤمنين أنهم ما يعبدون آلهة إلا ما سموه باسم الإناث؛ كالكالات والعزى ومناة؛ فقال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا﴾؛ أي: ما يدعو هؤلاء المشركون مما يألوهونه إلا إناثًا؛ أي: ما سموه بالأسماء المؤنثة، والإناث أخس القسمين عندهم، وقد قيل المراد أنهم عبدوا الملائكة، والملائكة بنات الله عندهم^(٢)، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾؛ أي: وما يعبدون إلا شيطانًا مریدًا، وهو إبليس الذي لعنه الله يوم أبى أن يسجد لآدم، فتوعد ذريته بالإغواء، فمن أغواه منهم فهو من نصيبه الذي أقسم أن يتخذه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَا تَخْذَلْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾؛ أي: نصيبًا مقدرًا بتقدير الله، وهم أكثر الناس؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود]، وقال عن إبليس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ ذَرْيَتُكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٢١﴾﴾ [الإسراء]، وهم عباد الله المخلصون كما قال تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [ص]، ثم أخبر تعالى أن الشيطان أقسم على خمسة أمور يفعلها بني آدم يضلهم عن سبيل الله، ويمنيهم المستحيل في حقهم كما منى الكافرين من اليهود والنصارى والمشركين الجنة، وهي: محرمة عليهم، وأمر المشركين أن يقطعوا آذان الأنعام كالبحيرة والسائبة، وذلك قوله:

(١) ينظر: تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء لابن تيمية (١/ ٢٩٣).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٤٨٦)، وزاد المسير (١/ ٤٧٣).

﴿وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ [النساء: ١١٩]؛ أي: يقطعوا آذان الأنعام ليحرموها كالبحيرة والسائبة تقريباً بها لآلئهم^(١)، ويأمرهم أن يغيروا خلق الله؛ كتغيير الأبوين فطرة المولود بالتهويد أو التنصير أو التمجيس، وقيل؛ المراد بتغيير خلق الله خصاء البهائم كما قاله جماعة من المفسرين، وقيل: المراد الوشم كما لعن رسول الله الواشمة والمستوشمة^(٢)، ويشهد للقول الأول آية وحديث فالآية قوله تعالى: ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]؛ أي: لا تبدلوا خلق الله، وأما الحديث فقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(٣)، ثم أخبر تعالى أن مَنْ يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً؛ يعني: في الدنيا والآخرة، وأن الشيطان يعد أوليائه الوعود الكاذبة مثل أن يعدهم التوبة بعد المعصية، ثم لا يتوبون، ويمنيهم ما ليسوا له بأهل من الثواب والدرجات، ثم أخبر تعالى أن وعود الشيطان غرور؛ أي: خدع لا يفي منها بشيء، فتخب آمالهم ويزداد خسارهم، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوُهُمْ﴾؛ أي: أولياء الشيطان مأواهم جهنم فهي مسكنهم الذي يأوون إليه، ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً﴾^(٤)؛ أي: ملجأً يفرون إليه طلباً للنجاة منها؛ نعوذ بالله منها.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ أي: الناس، أي: ما يتناجون فيه ويتحدثون، ﴿إِلَّا﴾ نجوى ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾: عمل برٍّ، ﴿أَوْ

(١) البحيرة: التي يمنع دَرَّها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والوصيلة: الناقة البكر، تبكر في أول نجاج الإبل، ثم تثني بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحدهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. ينظر: صحيح البخاري (٤٦٢٣).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٤٩٤/٧)، وزاد المسير (١/٤٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٥) - واللفظ له -، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴿الْمَذْكُورَ﴾ ﴿ابْتِغَاءً﴾: طَلَبَ ﴿مَرْضَاةَ اللَّهِ﴾ لَا غَيْرَهُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ - بالنون، والياءِ أي: الله - ﴿أَجْرًا عَظِيمًا، وَمَنْ يُشَاقِقْ﴾: يُخَالِفِ ﴿الرَّسُولَ﴾، فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾: ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ بِالْمُعْجَزَاتِ، ﴿وَيَتَّبِعْ﴾ طَرِيقًا ﴿غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: طَرِيقَهُمُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ، بِأَنْ يَكْفِرَ، ﴿نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾: نَجْعَلُهُ وَالِيًّا لِمَا تَوَلَّاهُ مِنَ الضَّلَالِ، بِأَنْ نُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَنُضِلِّهِ﴾ نُدْخِلُهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ لِيَحْتَرَقَ فِيهَا، ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾: مَرَجَعًا هِيَ! ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عَنِ الْحَقِّ.

﴿إِنْ﴾: مَا ﴿يَدْعُونَ﴾: يَعْبُدُ الْمُشْرِكُونَ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: الله، أي: غَيْرَهُ ﴿إِلَّا إِنَانَا﴾ أَصْنَامًا مُؤَنَّثَةً كَاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ، ﴿وَإِنْ﴾: مَا ﴿يَدْعُونَ﴾: يَعْبُدُونَ بِعِبَادَتِهَا ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾: خَارِجًا عَنِ الطَّاعَةِ، لَطَاعَتِهِمْ لَهُ فِيهَا - وَهُوَ إِبْلِيسُ - ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾: أَبْعَدَهُ عَنْ رَحْمَتِهِ، ﴿وَقَالَ﴾ أي: الشَّيْطَانُ: ﴿لَا تَخِذْ﴾: لِأَجْعَلَنَّ لِي ﴿مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا﴾: حَظًّا، ﴿مَفْرُوضًا﴾: مَقْطُوعًا، أَدْعُوهُمْ إِلَى طَاعَتِي، ﴿وَلَا ضِلَّتَهُمْ﴾ عَنِ الْحَقِّ بِالْوَسْوَسَةِ، ﴿وَلَا مَنِيَّتَهُمْ﴾: أَلْقِي فِي قُلُوبِهِمْ طُولَ الْحَيَاةِ، وَأَنْ لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ، ﴿وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلْيَتَّكِنَنَّ﴾: يَقْطَعَنَّ ﴿آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ - وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بِالْبَحَائِرِ - ﴿وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾: دِينَهُ بِالْكَفْرِ، وَإِحْلَالَ مَا حَرَّمَ وَتَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ.

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا﴾ يَتَوَلَّاهُ وَيُطِيعُهُ، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غَيْرِهِ، ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾: بَيِّنًا لِمَصِيرِهِ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِ. ﴿يَعِدُّهُمْ﴾ طُولَ الْعُمُرِ، ﴿وَيُؤْمِنُهُمْ﴾ نَيْلَ الْأَمَالِ فِي الدُّنْيَا وَأَنْ لَا بَعْثَ

ولا جزاء، ﴿وما يعدُّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بذلك ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾: باطلاً. ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾: معدلاً.

وقول المؤلف: (أي: الناس ...) إلى آخره: بيان للموصوفين بنفي الخير عن نجواهم، وبيان للمراد من نجواهم، وهو كلامهم. وقوله: (نجوى): بيان للمستثنى فيقتضي أن الاستثناء متصل. وقوله: (عمل بر): تفسير: للمعروف. وقوله: (المذكور): بيان لمرجع اسم الإشارة، وهي: الأمور الثلاثة المأمور بها، ويحتمل أن المراد اسم الإشارة الأمر بها. وقوله: (طلب): تفسير للابتغاء، وهو مصدر ابتغاء كذا؛ أي: طلبه؛ كقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة: ٢]. وقوله: (لا غيره من أمور الدنيا): يريد أنهم مخلصون فيما يفعلون من طاعة الله. وقوله: (بالنون، والياء أي: الله): يشير إلى قراءتين: نؤتيه، ويؤتيه^(١)، وعلى القراءة بالياء ضمير الفاعل يعود إلى الله؛ فالتقدير: يؤتيه الله. وقوله: (يُخَالِفُ): تفسير: يشاقق، وهو تفسير قاصر؛ فالمخالفة أعم من المشاقة، فليس كل مخالفة مشاقة. وقوله: (فيما جاء به من الحق): بيان لمتعلق المشاقة. وقوله: (ظهر له الحق بالمعجزات): بيان لمعنى: ﴿تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾، ولا داعي للتقييد بالمعجزات. وقوله: (طريقاً): تقدير: للموصوف بغير.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٨١).

وقوله: (أي: طريقهم ...) إلى آخره: تفسير: سبيل المؤمنين.
 وقوله: (نَجْعَلُهُ وَالْيَا ...) إلى آخره: تفسير لقوله: ﴿نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾،
 وأوضح ذلك بقوله: (بأن نُخَلِّي بينه وبينه في الدُّنْيَا)؛ أي: فلا نهديه.
 وقوله: (نُدْخِلُهُ فِي الْآخِرَةِ): تفسير: نصليه، لأنه لا يصلى جهنم إلا مَنْ دخلها.

وقوله: (ليحترق فيها)؛ أي: ليعذب.
 وقوله: (مَرْجَعًا هِيَ!) : يريد تفسير «ساعت مصيرًا»، المعنى: جهنم
 ساءت مصيرًا، أي: مرجعًا، وساءت فعل يدل على الذم، والمصير هو
 المرجع الذي ينتهي إليه المكلف، والمخصوص بالذم جهنم، ولهذا قال
 المؤلف: (هي)، فالضمير يعود إلى جهنم.
 وقوله: (عن الحق): بيان لمتعلق الضلال.
 وقوله: (ما): تفسير: لـ«إن» يبين أنها نافية.
 وقوله: (يَعْبُدُ الْمُشْرِكُونَ): تفسير: للدعاء بالعبادة، وتفسير لواو الجمع
 بالمشركين.

وقوله: (أي: الله، أي: غيره): تفسير: للضمير المجرور، وأنه راجع
 إلى الله، وتفسير لـ: «دون» بـ: «غير» فمن كان من دون الله فهو غير الله.
 وقوله: (أَصْنَامًا مُؤَنَّثَةً ...) إلى آخره: بيان لسبب وصف معبوداتهم
 بالإناث، وهو أنهم سموها بأسماء مؤنثة.

وقوله: (ما): تفسير: لـ«إن» الثانية، وأنها نافية كالتي قبلها.
 وقوله: (يَعْبُدُونَ بِعِبَادَتِهَا): تفسير: للدعاء بالعبادة، وأنَّ عبادة الأصنام
 عبادة للشيطان.

وقوله: (خارجًا ...) إلى آخره: تفسير: لمريد، وبيان للمراد بالشيطان.
 وقوله: (أَبْعَدُهُ عَنْ رَحْمَتِهِ): بيان لمعنى اللعن، وأنه البعد عن رحمة الله.

وقوله: (أي: الشيطان): بيان للمراد بالضمير المستتر في قال.
وقوله: (لأجعلن لي): تفسير: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾، واتخاذ الشيء جعله مختصاً به.

وقوله: (حظاً): تفسير: لنصيب؛ أي: قسماً يختص به من ذرية آدم.
وقوله: (مقطوعاً): هذا تفسير: نصيباً مفروضاً، أي نصيباً معيناً معلوماً، وهو أكثر ذرية آدم كما قال تعالى عن إبليس: ﴿لَأُحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقوله: (أدعوهم إلى طاعتي): بيان لما يفعله إبليس لإغواء بني آدم، وهو دعوتهم إلى طاعته.

وقوله: (عن الحقّ بالوسوسة): بيان لطريقة إبليس في إضلال بني آدم.
وقوله: (أُلقي ...) إلى آخره: بيان لأنواع ما يمينهم الشيطان.
وقوله: (يُقَطَّعَنَّ): تفسير: يبتكن، والبتك: القطع^(١)، وهذا من فعل المشركين يقطعون آذان الأنعام للدلالة على أنها محرمة، يتقربون بذلك للأصنام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

وقوله: (وقد فعل ذلك بالبحائر): جمع بحيرة، وهي التي قطعت أذنها، ثم حرمت على طريقة أهل الجاهلية، وذلك بأمر الشيطان كما في هذه الآية، وتحريم البحيرة افتراء على الله وقد أكذبهم في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقوله: (دينه ...) إلى آخره: تفسير لتغيير خلق الله بتغيير فطرة التوحيد، وتحريم ما أحل الله.

وقوله: (يتولاه ويطيعه): بيان لمعنى اتخاذه ولياً.

(١) ينظر: المفردات (ص ١٠٦).



وقوله: (أَي: غَيْرَه): بيان لمعنى دون.

وقوله: (بَيِّنَا ...) إلى آخره: يريد أن خسران من يتولى الشيطان بين،

لأن من مصيره الخلود في النار قد خسر نفسه وأهله، وهذا أعظم خسران.

وقوله: (طُولَ الْعَمَرِ): هذا مثال لوعود الشيطان لأوليائه؛ لأن ذلك

يحملهم على التسويف في التوبة، وللشيطان وعود يعد بها أوليائه، ولا

يتحقق منها شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وقوله: (نِيلَ الْأَمَالِ ...) إلى آخره: بيان لما يمني الشيطان أوليائه إياه.

وقوله: (بِذَلِكَ) أي: بما يتمنونه.

وقوله: (بَاطِلًا): تفسير لغرور؛ فالمعنى: أن وعود الشيطان باطلة لن

يتحقق منها شيء.

وقوله: (مَعْدِلًا): معناها: مكانًا يعدلون إليه عن الوقوع في جهنم،

وهذا معنى: لا يجدون عنها محيصًا، ومحيص على وزن مفعل، من حاص

إذا راغ عن عدو يطلبه أو خطر يحذره إلى مكان ينجو به.



وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝١٢٤ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ۝١٢٦﴾ [النساء: ١٢٢-١٢٦].

لما ذكر الله مصير أعدائه - أولياء الشيطان -، ذكر مصير أوليائه الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأنه تعالى سيدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وأن ذلك وعد من الله، ووعد الله حق لأنه تعالى لا يخلف الميعاد؛ لأنه لا أصدق منه حديثاً، ولا أصدق منه قِيلاً، ثم أخبر تعالى أن جزاءه للعاملين يكون بمشيئته بمقتضى حكمته لا بأمني المتمني من أهل الكتاب أو من المسلمين، وقد حكم تعالى على الجميع بأن من يعمل سوءاً يجزى به، سواء كان من أهل الكتاب أو من المسلمين إلا أن يتوب من ذنبه، أو يحصل له مكفر من المكفرات كالمصائب الصغيرة والكبيرة، ومن أراد الله عقوبته فلن يجد له ولياً ينفعه أو نصيراً يدفع عنه، ثم أخبر تعالى أن من عمل الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فسيدخلهم الجنة ولا يظلمون نقيراً؛ أي: لا ينقصون من أجورهم، ولا مثل النقيير؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم]، ثم أخبر تعالى أنه لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله، وهو محسن، وهو الذي أخلص العبادة لله متبعاً سنة رسول الله محققاً ذلك باتباع ملة إبراهيم خليل الله، مقبلاً على الله معرضاً عما سواه، وإبراهيم إمام الحنفاء، ولذا اتخذه الله خليلاً؛ ثم أخبر

تعالى أَنَّ له ما في السموات وما في الأرض، ومعنى ذلك أنه مالك السموات والأرض وما فيهن، وهو تعالى المحيط بكل شيء علماً وقُدرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ ١٣٦.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: وَعَدَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ وَحَقَّهُ حَقًّا. ﴿وَمَنْ﴾ أي: لا أحد ﴿أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾: قولاً؟ ونزل، لما افتخر المسلمون وأهل الكتاب: ﴿لَيْسَ﴾ الأمر منوطاً ﴿بِأَمَانِيكُمْ﴾، ولا أمانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ، بل بالعمل الصالح. ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ إما في الآخرة، أو في الدنيا بالبلاء والمحن، كما ورد في الحديث، ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غيره ﴿وَلِيًّا﴾ يحفظه، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يمنع منه، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ شَيْئًا﴾ من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى، وهو مؤمنٌ، فأولئك يُدْخَلُونَ - بالبناء للمفعول، والفاعل - ﴿الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾: قدر نُقْرة النواة.

﴿وَمَنْ﴾ أي: لا أحد ﴿أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ أي: انقدا وأخلص عمله ﴿لِلَّهِ، وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: مُوحِّد، ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ المُوافقة لِمِلَّةِ الْإِسْلَامِ ﴿حَنِيفًا﴾؟ حال أي: مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم - ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾: صفيّاً خالص المحبة له - ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، مُلْكًا وخلقًا وعبيداً، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ علماً وقُدرة، أي: لم يزل متّصفاً بذلك.

وقول المؤلف: (أي: وعدهم...) إلى آخره: يريد أن «وعد» و«حق» كل منهما مصدر لفعل مقدر: وعد وعداً، وأحق حقاً.

وقوله: (لا أحد): يريد أن الاستفهام إنكاري معناه النفي.
 وقوله: (قولاً؟): يريد أن قيل وقول معناهما واحد.
 وقوله: (ونزل ...) إلى آخره: يشير إلى سبب نزول الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾^(١).

وقوله: (الأمر منوطاً): تقدير: لاسم ليس وخبرها.
 وقوله: (بل بالعمل الصالح): بيان لمناط الفضل والثواب، وهو تأكيد لنفي أن يكون ذلك بالأمني.
 وقوله: (إمّا في الآخرة ...) إلى آخره: بيان لوقت الجزاء، وما يكون به الجزاء في الدنيا، وهو المصائب، وأشار إلى الحديث في ذلك، وهو ما رواه مسلم، ولفظه: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى ألهم يهمله إلا كفر به من سيئاته»^(٢)، وفي بعض الأحاديث: «حتى الشوكة يشاكها»^(٣).

وقوله: (أي: غيره): بيان للمراد بدون.
 وقوله: (يحفظه): بيان لما يفعله الولي بمن يواليه.
 وقوله: (يمنعه منه): بيان لما يفعله النصير لمن يريد نصره، وهو أن يمنعه من العقوبة.

وقوله: (شيئاً): تقدير: لمفعول يعمل، والمراد بعض الصالحات.
 وقوله: (بالبناء للمفعول، والفاعل): يشير: إلى قراءتين في الفعل المضارع بضم الياء^(٤)، وفتح الخاء على البناء للمفعول، وفتح الياء، وضم الخاء بالبناء للفاعل.

(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٨٢)، ولباب النقول (ص ٨٦).

(٢) برقم (٥٢-٢٥٧٣) عن أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٤١ و ٢٦٤٢).

(٤) ينظر: المبسوط (ص ١٨١).

وقوله: (قَدَرُ نُقْرَةِ النُّوَاةِ): تفسير: للنقير، والمعنى: لا ينقصون من ثواب عملهم، ولا قدر النقير، وهو الشيء اليسير^(١).
 وقوله: (لَا أَحَدَ): بيان لمعنى الاستفهام بأنه استفهام إنكاري يفيد النفي.
 وقوله: (أَيُّ: انْقَادَ وَأَخْلَصَ عَمَلُهُ): بيان لمعنى أسلم؛ فمعنى: الإسلام الانقياد وإخلاص العمل لله.

وقوله: (مُوحَّدَ): هذا تفسير لقوله تعالى: ﴿مُحْسِنٌ﴾، وفي هذا التفسير نظر، بل التوحيد يدل له قوله: ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ﴾، وقوله: ﴿مُحْسِنٌ﴾؛ أي متبع لأمر لله ورسوله ظاهراً وباطناً، فدللت الآية على شرطي العمل الصالح وهما: الإخلاص واتباع الأمر.

وقوله: (المُؤَافَقَةَ لِمِلَّةِ الْإِسْلَامِ): يريد أن حقيقة الملتين واحدة.
 وقوله: (حَالٌ): بيان لوجه نصب «حنيفاً»؛ أي: منصوب على الحال.
 وقوله: (أَيُّ: مَائِلاً...): إلى آخره: بيان لمعنى «حنيفاً»؛ لأنَّ الحنف نوع من الميل، وأصله في القدم، والمراد بالحنف في القرآن هو كما قال المؤلف؛ الميل عن الأديان كلها إلى الدين القيم، وهو دين الإسلام.

وقوله: (صَفِيًّا خَالِصَ الْمَحَبَّةِ لَهُ): تفسير: لخليل، وأنَّ الخلّة تتضمن أمرين: الاصطفاء من قوله: «صَفِيًّا»، والثاني: كمال المحبة من قوله: (خالص المحبة له)، وظاهر العبارة أنَّ إبراهيم خالص المحبة لله، وعليه فاتخاذ إبراهيم خليلاً راجع إلى كمال محبته لربه لا لكمال محبة الله لعبده، وهذا يجري على مذهب مَنْ لا يثبت المحبة صفة لله، وهم نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة وَمَنْ تبعهم في أكثر الصفات من الأشاعرة^(٢)،

(١) ينظر: المفردات (ص ٨٢١).

(٢) ينظر: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ٦٣٥)، وتنظر:

(ص ٦١)، (ص ٢٢١)، (ص ٥١٥).

ومذهب أهل السنة إثبات المحبة صفة لله فمعنى: اتخذ الله إبراهيم خليلاً: أنَّ الله خصّه بغاية المحبة؛ فإبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** محبوب لله أكمل محبة، وكذلك محمد **ﷺ** فإنَّ الله اتخذَه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً^(١).

وقوله: (مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا): بيان لما تتضمنه اللام في قوله: **﴿لِلَّهِ﴾**.
وقوله: (عِلْمًا وَقُدْرَةً): يريد أنَّ قدرته محيطه بكل شيء فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنَّ علمه محيط بكل شيء؛ فلا تخفى عليه سبحانه خافية.

وقوله: (أَي: لم يزل متّصفاً بذلك): هذا: بيان لما تفيدُه **﴿وَكَانَ﴾** من الدوام في الماضي.



(١) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية لشيخنا (ص ٩٥)، (ص ١٩٧).

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُولَدْنَ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْعَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ١٢٧﴾ وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ١٢٨ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٢٩ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمِغْلَقَةِ ١٣٠ وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ١٣١ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ١٣٢ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ١٣٣﴾ [النساء: ١٢٧-١٣٠].

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾؛ أي: يسألك أصحابك في شأن النساء ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾؛ أي: الله يجيبكم عما سألتكم عنه ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾؛ أي: وما يتلى عليكم في الكتاب يفتيكم، وهو ما تقدم في أول السورة في شأن يتامى النساء، والمستضعفين من الولدان، وهم: الصغار، وكان أهل الجاهلية لا يورثونهم ولا يورثون النساء، وما يتلى في الكتاب في شأن يتامى النساء، والمستضعفين من الولدان هو ما تقدم في أول السورة من قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الَّتِي اتَّمَىٰ أَمْوَالُهُمْ﴾ [النساء: ٢]، إلى قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢]، وقد تضمنت الأمر بإيتاء اليتامى أموالهم والتحذير من ظلمهم، وإيتاء النساء مهرهن، وإيتاء النساء والصغار حقهم من الميراث، وأمر الأولياء الأغنياء بالاستعفاف عن أموال من ولوا عليه من النساء واليتامى، وأمر بأداء حقوقهم، والعدل فيهم، وقد أشير في هذه الآية إلى ذلك كله؛ بقوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُولَدْنَ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْعَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾، ومن تلكم الآيات في أول السورة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ

أَلَّا تُقْسَطُوا فِي الْيَتَمَى فَإِنْ كُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴿النساء: ٣﴾ الآية، وهن اليتامى اللاتي أولياؤهن من أبناء عمومتهن، فيرغب أحدهم في نكاح اليتيمة التي في حجره، لكن لا يؤتيها ما يجب لها من المهر، وقد يرغب عن نكاحها إذا لم تعجبه أو لم يكن لها مال ينكحها من أجله، ويوضح ذلك ما روى البخاري^(١) أن عروة بن الزبير يحدث أنه سأل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسَطُوا فِي الْيَتَمَى فَإِنْ كُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، قالت: هي اليتيمة في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن يتزوجها بأدنى من سنة نسائها، فنهاها عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق، وأمروا بنكاح من سواهن من النساء قالت عائشة: ثم استفتى الناس رسول الله ﷺ بعدُ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ قالت: فبين الله في هذه الآية أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال رغبوا في نكاحها، ولم يلحقوها بستها بإكمال الصداق فإذا كانت مرغوب عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء قال: فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها، إلا أن يقسطوا لها الأوفى من الصداق ويعطوها حقها. وقوله: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾، عطف على «يتامى النساء»؛ أي: وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء، وفي المستضعفين من الولدان؛ أي: الصغار بنين أو بنات، وقد أمر الله في أول السورة بإيتاء اليتامى أموالهم، وحذر من أكلها ظلماً، وقوله: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَى بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: ويفتيكم الكتاب أن تقوموا لليتامى بالقسط وهو العدل بأن تؤتوهم أموالهم، ولا تظلموهم، ثم رغب تعالى في فعل الخير، ومنه الإحسان إلى المستضعفين؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ ﴿١٧﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾، في هذه الآية بيان من الله لحكم آخر من أحكام النساء، وهو ما إذا خافت المرأة؛ أي: علمت بما ظهر لها من معاشرة زوجها لها أنه راغب عنها ربما يطلقها، وذلك هو النشوز أو بدا لها منه إعراض عنها كعدم الاهتمام بشأنها، فحينئذ لا جناح عليهما؛ أي: لا إثم على الرجل ولا المرأة أن يُصلحا بينهما صلحًا؛ أي: يصطلحا على أمر تصلح به حالهما، ويتتفي الحرج عنهما بالطلاق الذي تكرهه المرأة أو الإمساك الذي يكرهه الرجل، وذلك كتنازل المرأة عن شيء من حقوقها؛ كالنفقة والقسم، على أن تبقى في حباله فتعيش في كنفه، فإذا اتفق الزوجان على ذلك فذلك صلح رفع الله عنهما الجناح فيه، وقد وقع هذا التنازل من أم المؤمنين سودة، فإنها لما خشيت أن يطلقها الرسول ﷺ، لما كبر سنّها وهبت يومها وليلتها لعائشة، على أن يمسكها الرسول ﷺ، فتبقى من أمهات المؤمنين، وذلك من كمال عقلها وحسن نظرها لنفسها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد قبل منها النبي ﷺ ذلك، وقد جاء عن ابن عباس: أَنَّ هذه الآية نزلت في شأن سودة^(١)، وروي أَنَّ رافع بن خديج حصل له مع زوجته مثل ذلك فنزلت الآية^(٢).

ثم أخبر تعالى أَنَّ الصلح خير، وهذا يعم كل صلح، ومنه الصلح بين الزوجين، ثم أخبر تعالى أَنَّ الشح بالحقوق من الأخلاق اللازمة للنفوس، وهو معنى قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾، وهو يحمل على عدم التنازل عن الحقوق، فمن وقع منه صلح بتنازل عن بعض حقه فهو ممن وقاه الله شح نفسه ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر]، ثم رَغِبَ في الإحسان، الإحسان إلى عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله، ومنه الصلح الذي

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥٦٠/٧).

(٢) ينظر: أسباب النزول (١٨٥)، ولباب النقول (ص ٨٧).

يحصل به خير للمصطلحين، ورغب تعالى في التقوى، وهي: فعل المأمورات؛ فقال تعالى: ﴿وَأَنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: خير بأعمالكم لا يخفى عليه منها شيء، وسيجزىكم بها على الحسنات بالثواب، والسيئات بالعقاب إلا أن يعفو ويغفر؛ فإن الله عفو غفور.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، هذا خبر من الله لعجز الإنسان عن العدل بين الزوجات الذي أمر الله به في أول السورة في قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰٓ أَلَّا تَعْلَمُوا﴾ [النساء]؛ أي: تجوروا^(١)، وما لا يستطيع الإنسان مما أمر الله به ورسوله فليس بواجب عليه لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله ﷺ: «فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»^(٢)، فعلم بذلك أن العدل الواجب بين الزوجات هو المستطاع كالنفقة والمبيت، وما لا استطاع العدل فيه فليس بواجب؛ كالمحبة والجماع ودواعيه، ثم نهى تعالى عن الميل التام الذي يؤدي إلى أن تكون المرأة كالمعلقة لا ذات زوج ولا مطلقة؛ فقال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا هَآكُلُ مَعْلَقَةٍ﴾، وذلك بحرمانها من جميع حقوقها مما استطاع وما لا استطاع، ومن مال هذا الميل كان آثماً، فمن تاب وأصلح واتقى الله غفر الله له ورحمه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [١٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [١٣٠]، هذا وعد من الله للزوجين إذا انتهى أمرهما إلى الفراق إذ لم يجد صلح ولا وفاق، فإن الله يغني كلا منهما عن الآخر فيبدله الله خيراً منها، ويبدله خيراً منه.

(١) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ١١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) عن أبي هريرة رضى الله عنه.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾؛ أي: واسع الرحمة عظيم الفضل، وحكيماً في تدبيره في شرعه وقدره.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾: يطلبون منك الفتوى، ﴿فِي﴾ شأنِ ﴿النِّسَاءِ﴾ وميراثهن. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، وما يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ: القرآن، من آية الميراث، يُفْتِيكُمْ أَيْضًا ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ﴾: فرض ﴿لَهُنَّ﴾ من الميراث، ﴿وَتَرَعُونَ﴾ -أيها الأولياء- عن ﴿أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ لدمامتهنَّ، وتعضلوهنَّ أَنْ يتزوّجن طمعاً في ميراثهنَّ، أي: يُفْتِيكُمْ أَلَّا تفعلوا ذلك، ﴿و﴾ في ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: الصّغار ﴿مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أَنْ تُعْطَوْهُمْ حُقُوقَهُمْ، ﴿و﴾ يأمركم ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل في الميراث والمهر. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ فيُجازيكم عليه.

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ﴾: مرفوع بفعل يُفسّره ﴿خَافَتْ﴾: توقّعت، ﴿مِنْ بَعْلِهَا﴾: زوجها، ﴿نُشُوزًا﴾ ترفعاً عليها بترك مُضاجعتها والتقصير في نفقتها، لبغضها وطُموح عينه إلى أجمل منها، ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها بوجهه، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَالِحَا﴾ -فيه إدغام التاء في الأصل في الصاد، وفي قراءة: «يُصْلِحَا» من: أَصْلَحَ- ﴿بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ في القَسَمِ والنفقة، بأن تترك له شيئاً طلباً لبقاء الصُّحبة. فإن رضيت بذلك، وإلّا فعلى الزوج أَنْ يُوفِّيَهَا حَقَّهَا أَوْ يُفَارِقَهَا. ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة والنُّشُوز والإعراض. قال تعالى، في بيان ما جُبِلَ عليه الإنسان: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾: شِدَّة البُخل، أي: جُبِلَتْ عليه، فكأنّها حاضِرته لا تَغيب عنه. المعنى: أَنَّ المرأة لا تكاد تسمح بنصيبها من زوجها، والرجل لا يكاد يسمح عليها بنفسه إذا

أحبَّ غيرها، ﴿وإنْ تُحْسِنُوا﴾ عشرة النساء، ﴿وتَتَّقُوا﴾ الجور عليهنَّ، ﴿فإنَّ اللهَ كانَ بما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، فيُجازيكم به. ﴿ولَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا﴾: تُسَوُّوا ﴿بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ في المحبة، ﴿ولو حَرَصْتُمْ﴾ على ذلك - ﴿فلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ إلى التي تُحِبُّونها في القسَم والنفقة، ﴿فتَذَرُوهَا﴾ أي: تتركوا المُمالَ عنها ﴿كالْمُعَلَّقَةِ﴾ التي لا هي أيم ولا هي ذات بعل - ﴿وإنْ تُصْلِحُوا﴾ بالعدل في القسَم، ﴿وتَتَّقُوا﴾ الجور، ﴿فإنَّ اللهَ كانَ غَفُورًا﴾ لما في قلبكم من الميل، ﴿رَحِيمًا﴾ بكم في ذلك. ﴿وإنْ يَتَفَرَّقَا﴾ أي: الزوجان بالطلاق ﴿يُغْنِ اللهُ كُلًّا﴾ عن صاحبه، ﴿مَنْ سَعَتْهُ﴾ أي: فضله، بأن يرزقها زوجًا غيره ويرزقه غيرها. ﴿وكانَ اللهُ واسِعًا﴾ لخلقه في الفضل، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر لهم.

وقول المؤلف: (يطلبون منك الفتوى): تفسير: يستفتونك، وهذا مستفاد من السنين والتاء، فإنَّ السنين والتاء تدل على الطلب، والفتوى بيان الحكم في المسؤول عنه. وقوله: (شأن): يريد أن في النساء؛ أي: في شأن النساء؛ فالكلام على تقدير مضاف محذوف.

وقوله: (وميراثهن): يريد أن الاستفتاء في شأن ميراث النساء.

وقوله: (لهم)؛ أي: للسائلين.

وقوله: (القرآن...) إلى آخره: بيان للمراد بالكتاب، ثم بين المراد بما يتلى في الكتاب في ميراث النساء، أنه آتِي الميراث في أول السورة من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] إلى قوله: ﴿وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

وقوله: (فُرض ...) إلى آخره: تفسير كتب؛ أي: ما كتب الله ليتامى النساء من الميراث.

وقوله: (-أيها الأولياء- عن): بيان للمخاطبين بقوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾، وقوله: (عن): بيان لنوع الرغبة، وهي: الرغبة عن الشيء؛ فالمعنى: وترغبون عن نكاحهن؛ أي: لا تحبون نكاحهن، فإن أولياء اليتامى من النساء تارة يرغبون في نكاحهن، وتارة يرغبون عن نكاحهن فجاءت الآية محتملة للحالين، ويوضح ذلك حديث عائشة الذي تقدم ذكره^(١)، وقد تضمن ذكر الحالين.

وقوله: (لدمامتهن ...) إلى آخره: بيان لسبب الرغبة عن نكاحهن، وبيان لما أفتاهم الله به، وهو النهي عن عضلهن إذا رغبوا عن نكاحهن، ونهاهم عن نكاحهن إن خافوا ألا يقسطوا فيهن بأن لا يؤتونهن من المهر ما يؤتاه مثلهن.

وقوله: (في): يبين أن المستضعفين معطوف على يتامى النساء، والتقدير: ما يتلى عليكم في يتامى النساء، وفي المستضعفين.

وقوله: (الصغار): بيان للمراد بالمستضعفين.

وقوله: (أن تُعطوهم حقوقهم)؛ أي: من الميراث، وهو بيان لما أفتاهم الله به، وما يتلى عليهم في الكتاب.

وقوله: (يأمركم): تقدير: للعامل في المصدر المؤول؛ فالمعنى: ويأمركم بأن تقوموا ليتامى بالقسط.

وقوله: (بالعدل): العدل: هو معنى القسط.

وقوله: (في الميراث والمهر): بيان لما يجب فيه القسط.

(١) تنظر: (ص ٥٣٦).

وقوله: (فيُجازيكم عليه): بيان لما أشير إليه بذكر علم الله بفعل العبد، وهو المجازاة عليه.

وقوله: (مرفوع بفعل يفسره): يريد أن «امرأة» فاعل لفعل محذوف؛ تقديره: وإن خافت امرأة، ولهذا قال: يفسره خافت.

وقوله: (توقعت): تفسير للخوف بالتوقع؛ لأن توقع المخوف سبب الخوف، فهو من التعبير بالمسبب عن السبب.

وقوله: (زوجها): بيان للمراد بالبعل؛ لأن من أسماء الزوج البعل^(١)؛ كما قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقوله: (ترفعاً عليها...) إلى آخره: فسّر النشوز بالترفع؛ لأنه مأخوذ من النشز، وهو المرتفع من الأرض، ومن دلائل نشوز الرجل على امرأته ترك مضاجعتها، وسبب ذلك عدم محبته لها لطموحه إلى غيرها.

وقوله: (عنها بوجهه): تفسير: للإعراض، وهو الصدود بوجهه عند لقائها، وبهذا يظهر الفرق بين النشوز والإعراض؛ فالإعراض مقدمة النشوز.

وقوله: (فيه إدغام...) إلى آخره: يتضمن أن في الآية قراءتين؛ إحداهما: يصّالحيان، وأصله: يتصالحان فسكنت التاء، وأدغمت في الصاد، والثانية: ﴿يُصْلِحًا﴾ من أصلح^(٢).

وقوله: (في القسم والنفقة...) إلى آخره: بيان لما يتعلق به الصلح، وهو القسم والنفقة، وما يكون به الصلح، وهو تنازل المرأة عن حقها أو بعضه في القسم والنفقة، فإن تم الصلح، وإلا فعلى الزوج أن يؤدي ما وجب عليه.

وقوله: (من الفرقة...) إلى آخره: بيان للمفضل عليه، وهي: الأمور المذكورة، فإن الصلح خير منها.

(١) ينظر: المفردات (ص ١٣٥).

(٢) ينظر: المبسوط (ص ١٨٢).

وقوله: (قال تعالى ...) إلى آخره: فيه: بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾؛ أي: جبلت الأنفس على الشح فصار الشح حاضراً فيها كل وقت.

وقوله: (شِدَّةُ الْبُخْلِ ...) إلى آخره: تفسير: للشح بأنه شدة البخل، وبيان لوقوع ذلك من المرأة فيما لها من حقوق على زوجها، ومن الرجل فيما عليه من حقوق لامرأته.

وقوله: (عِشْرَةُ النِّسَاءِ): بيان لمتعلق الإحسان.
 وقوله: (الْجَوْرَ عَلَيْهِنَّ): بيان لما يجب اتقاؤه في شأن الزوجات.
 وقوله: (فَيُجَازِيكُم بِهِ): تقدم: التعليق على نظيرها قريباً.
 وقوله: (تُسَوُّوْا): تفسير: تعدلوا، وفيه بيان أن العدل بين النساء بالتسوية بينهن في الحقوق كالنفقة والقسم.

وقوله: (فِي الْمَحَبَّةِ): بيان لما لا يستطاع العدل فيه.
 وقوله: (عَلَى ذَلِكَ)؛ أي: على العدل في المحبة، وما يتبعها.
 وقوله: (إِلَى الَّتِي تُحِبُّونَهَا فِي الْقَسْمِ وَالنَّفَقَةِ): بيان للتي إليها الميل، وما يكون به الميل، وهو التفضيل في القسم والنفقة.
 وقوله: (تَتْرَكُوا الْمَالَ عَنْهَا): تفسير: تذرّوا بـ«تتركوا»، وبيان للمتركة، وهي: التي مال عنها زوجها إلى غيرها.

وقوله: (الَّتِي لَا هِيَ أَيْمٌ وَلَا هِيَ ذَاتُ بَعْلٍ): تفسير: للمعلقة بأنها التي ليست ذات زوج، ولا مطلقة، وهي: التي لا زوج لها، ويقال لها الأيم.
 وقوله: (بِالْعَدْلِ فِي الْقَسْمِ): بيان بأن العدل بين الزوجات من الإصلاح.

وقوله: (الْجَوْرَ): (الْجَوْرَ): بيان لما يجب اتقاؤه في عشرة الزوجات، وهو الجور المنافي للعدل الذي أوجبه الله.

وقولُه: (لما في قلوبكم من الميل): بيان للميل المغفور، وهو ميل القلب الذي لا يستطيع العدل فيه.

وقولُه: (بكم في ذلك): بيان لمتعلق الرحمة من الله.

وقولُه: (أي: الزوجان بالطلاق): تفسير: لضمير الثنية، وذكر لما تكون به الفرقة غالباً.

وقولُه: (عن صاحبه): بيان لمتعلق الغنى، فيغني الله المرأة عن مطلقها بأن يرزقها زوجاً لعله خير منه، ويغني الرجل عمن طلقها بأن يرزقه امرأة لعلها خير منها.

وقولُه: (أي: فضله...) إلى آخره: بيان لما يكون به الغنى، وقد تقدم معناه.

وقولُه: (لخلقه في الفضل): يريد أن الله يعم عباده بفضله.

وقولُه: (فيما دبره لهم): بيان لمتعلق الحكمة، وأن تدبير الله لعباده متضمن للحكمة، وهو مقتضى اسمه الحكيم.



وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ۝١٢١ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝١٢٢ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ۝١٢٣ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝١٢٤ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ لَمْ تَلَوْا فَرَأَتْهُ الْأَبْصَارُ ۚ وَلَٰكِنْ لَمْ يَرَوْهُ إِلَّا قُلُوبٌ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٢٥﴾ [النساء: ١٣١-١٣٥].

يخبر تعالى أن له ما في السموات وما في الأرض؛ أي: إنه مالكهم لأن خالق السموات والأرض وما فيهما ومن فيهما، والمدير لأمر العالم العلوي والسفلي فوجب بضرورة العقل والشرع أنه الإله الحق الذي لا يستحق العبادة سواه، فوجب إخلاص الدين لله، وأن لا يعبد سواه، ولهذا أوصى الله الأولين والآخرين بتقواه وأول ذلك اتقاؤه تعالى بترك الشرك به، ثم اتقاؤه بامتنال أوامره واجتناب مناهيه، ولهذا قال تعالى بعد تقرير ربوبيته وإلهيته: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ﴾، ولما كان ترك التقوى مطلقاً كفر بالله؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ۝١٢١﴾، فدل بذلك على أن الله غني عما كفر به ولا ينقص كفره من غنى الله شيئاً، فإنه تعالى لم يزل غنياً عن كل ما سواه مستحق للحمد كله، ثم ثنى ذكر الدليل على ربوبيته وإلهيته؛ فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝١٢٢﴾؛ أي: كفى الله وكيلاً على كل شيء؛ أي: مدبراً له بعلمه وحكمته فمن توكل عليه كفاه كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ [النساء: ٨١]، ثم ذكر تعالى دليلاً على كمال قدرته وهو خلقه للناس جيلاً بعد جيل، فإذا

ذهب بجيل من الناس استخلف من بعدهم جيلاً آخر؛ فقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ ١٣٢، ونظيرها قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ ١٣٣ [الأنعام]، وهذا من أدلة قدرته على البعث، ولهذا قال بعد قوله: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ ١٣٣ إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِيٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ١٣٤ [الأنعام]، ولَمَّا ذكر الله ما يدل على البعث أخبر تعالى بأن له الدنيا والآخرة فعنده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلب ذلك منه، وثواب الآخرة خير وأبقى، فمن كان يريد ثواب الدنيا فخير له أن يطلب ثواب الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، فمن لم يرد إلا ثواب الدنيا عَجَّلَ الله له من ذلك ما يشاء وما له في الآخرة من نصيب كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ ١٣٥ [الشورى]، وقال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ ١٣٦ [البقرة]؛ أي: نصيب، وخير من أولئك من يطلب ثواب الدنيا والآخرة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ١٣٧ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ١٣٨، أي: سميعاً لأقوال العباد ومبصر لأعمالهم وسيجزئهم بها، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ﴾، أمر من الله للمؤمنين بأن يكونوا قوامين بالقسط؛ أي: العدل، والقوام صيغة مبالغة من قائم تدل على الكثرة والقوة، وقوله: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾؛ أي: مؤدين ما لديكم من الشهادات مخلصين في ذلك لله ترجون ثوابه وتخافون عقابه تفعلون ذلك، ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو على الوالدين والأقربين إن يكن المشهود عليه غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما يتولاهما، ويصلح شأنهما، ولَمَّا

أمر تعالى بالقيام بالعدل، وبالشهادة لله نهى عن اتباع الهوى الصارف عن القيام بالعدل والشهادة لله، وقوله: ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾؛ أي: كراهة أن تعدلوا، وقوله: ﴿وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا﴾؛ أي: وإن تلوا في أداء الشهادة فلا تؤدوها على وجهها أو تعرضوا عن أدائها بكتمانها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: فإن ذلك لا يخفى على الله لأنه خبير بأعمالكم، وسيجزيكم بها فاحذروا معصيته بمخالفة أمره ونهيه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ، وَمَا فِي الْأَرْضِ. وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِمَعْنَى الْكِتَابِ، ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَي: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، ﴿وَيَاكُمْ﴾ - يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ - ﴿أَنْ﴾ أَي: بِأَنْ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: خافوا عقابه بِأَنْ تُطِيعُوهُ، ﴿و﴾ قَلْنَا لَهُمْ وَلَكُمْ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ بِمَا وُصِّيتُمْ بِهِ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ، وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خَلَقًا وَمُلَكًا وَعَبِيدًا، فَلَا يَضُرُّهُ كُفْرُكُمْ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عَنْ خَلْقِهِ وَعِبَادَتِهِمْ، ﴿حَمِيدًا﴾: مَحْمُودًا فِي صُنْعِهِ بِهِمْ، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ، وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا لِتَقْرِيرِ مُوجِبِ التَّقْوَى، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: شَهِيدًا بِأَنْ مَا فِيهِمَا لَهُ! ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ - يا أَيُّهَا النَّاسُ - وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴿بَدَلَكُمْ﴾، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا. مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بِعَمَلِهِ ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لِمَنْ أَرَادَهُ، لَا عِنْدَ غَيْرِهِ. فَلِمَ يَطْلُبُ أَحَدُهُمَا الْأَخْسَرَ؟ وَهَلَّا طَلَبَ الْأَعْلَى بِإِخْلَاصِهِ لَهُ، حَيْثُ كَانَ مَطْلَبُهُ لَا يُوْجَدُ إِلَّا عِنْدَهُ. ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، كُونُوا قَوَّامِينَ﴾: قَائِمِينَ ﴿بِالْقِسْطِ﴾: بِالْعَدْلِ، ﴿شُهَدَاءَ﴾ بِالْحَقِّ ﴿لِلَّهِ، وَلَوْ﴾ كَانَتِ الشَّهَادَةُ ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ فَاشْهَدُوا عَلَيْهَا بِأَنْ تُقَرَّوْا بِالْحَقِّ وَلَا تَكْتُمُوهُ، ﴿أَوْ﴾ عَلَى ﴿الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾

- **إِنْ يَكُنْ** المشهود عليه **غَنِيًّا** أو **فَقِيرًا** فالله أولى بهما **منكم**، وأعلم بمصالحهما - **فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى** في شهادتكم، بأن تحابوا الغني لرضاه أو الفقير رحمة له، **لَا** **تَعْدِلُوا**: تميلوا عن الحق، **وَأِنْ تَلَوْا**: تحرّفوا الشهادة - وفي قراءة بحذف الواو الأولى تخفيفاً - **أَوْ تُعَرِّضُوا** عن أدائها **فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**، فيُجازيكم به.

وقول المؤلف: (بمعنى الكتّب): يريد أنّ الكتاب اسم جنس فلذا أفردّه.
 وقوله: (اليهود والنصارى): بيان للمراد بالموصول، وهم المعروفون عند المسلمين بأهل الكتاب.
 وقوله: (يا أهل القرآن): بيان للمراد بالضمير المنفصل المنصوب، وأهل القرآن هم المسلمون، وهم المخاطبون في الآية.
 وقوله: (بأن): بيان للموصى به، والجار والمجرور متعلق بـ «أوصينا»، و«أنّ» مصدرية أو تفسيرية.
 وقوله: (خافوا عقابه بأن تُطيعوه): بيان لمعنى اتقوا الله.
 وقوله: (قلنا لهم ولكم): يريد أنّ قوله: **وَإِنْ تَكْفُرُوا**: مقول قول محذوف، وهو خطاب للجميع.
 وقوله: (بما وُصِّيتم به): بيان لمتعلق الكفر.
 وقوله: (خلقاً ومُلْكاً...) إلى آخره: بيان لما تدل عليه اللام، وقوله: (فلا يضرّه): جواب للشرط لقوله: **وَإِنْ تَكْفُرُوا**.
 وقوله: (عن خلقه وعبادتهم): بيان للمستغنى عنه.
 وقوله: (محموداً في صنعه بهم): يريد أنّ «حميد» في الآية؛ بمعنى: محمود، ومعنى ذلك أنه تعالى مستحق للحمد على مجازاته للكافرين

بالعقاب، لأنَّ له الحكمة البالغة فيما يفعله بأوليائه وأعدائه، وهو الغني عن عباده لا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين، ولذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

وقوله: (كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا لِتَقْرِيرِ مُوجِبِ التَّقْوَى): بيان لحكمة تكرير الخبر بأنَّ لله ما في السموات وما في الأرض، فقد ذكر ثلاث مرات، ومضمون هذا الخبر هو الموجب للتقوى، فمن له ما في السموات وما في الأرض حقيق أن يُتَّقَى.

وقوله: (شَهِيدًا، بِأَنَّ مَا فِيهِمَا لَهُ!): تفسير: للوكيل بالشهيد، ولا يظهر بين الكلمتين تناسب في المعنى، والذي اعتمده ابن جرير^(١) أنَّ معنى الوكيل الحفيظ المدبر، وهذا هو المناسب لمعنى الوكالة، وهو المناسب أن تكون جملة: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ تذييل لقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

وقوله: (يا): تقدير: لحرف النداء قبل «أيها» فيؤول المعنى: يا أيها الناس.

وقوله: (بَدَلَكُمْ)؛ لأنَّ مَنْ يُوْتَى به بعد ذهاب الجيل يكون بدلًا عنه.
وقوله: (بِعَمَلِهِ): بيان لموضع الإرادة، وهو العمل؛ أي: مَنْ كانت غايته من عمله ثواب الدنيا.

وقوله: (لَمَنْ أَرَادَهُ ...) إلى آخره: يبين أنَّ ما عند الله من الثواب إنما يناله مَنْ أَرَادَهُ وطلبه لا مَنْ أَعْرَضَ عنه، وأنَّ ثواب الدنيا والآخرة عند الله وحده لا عند غيره بدليل تقديم الظرف المفيد للحصر عند الله، وأنَّ مَنْ أَرَادَ ثواب الدنيا دون ثواب الآخرة فقد آثر الأدنى على الأعلى، وهذا لا يليق بالعاقل فضلًا عن المؤمن بالله واليوم الآخر، ويوضح هذا المعنى قوله

تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقوله: (قائمين): بيان لأصل المعنى، ولكنه تفسير قاصر؛ لأنه لا يفيد ما تفيده صيغة المبالغة من كثرة القيام والقوة فيه.

وقوله: (بالعدل): هذا: هو التفسير المعروف للقسط، وهو اسم مصدر من الإقساط، والفعل أقسط؛ أي: عدل.

وقوله: (بالحق): بيان لما تجب أن تكون الشهادة به.

وقوله: (كانت الشهادة): تقدير لفعل شرط «لو».

وقوله: (فاشهدوا عليها...) إلى آخره: تقدير لجواب الشرط، وأن الشهادة على النفس تكون بالإقرار بما على الإنسان من الحقوق.

وقوله: (على): تقدير: لحرف الجر نظير المعطوف عليه.

وقوله: (المشهدود عليه): بيان لمرجع الضمير المستتر في يكن.

وقوله: (منكم...) إلى آخره: بيان للمفضل عليه، وبيان للمقتضي لهذه الأولوية.

وقوله: (في شهادتكم...) إلى آخره: بيان لمتعلق النهي عن اتباع الهوى، وبيان لما يحمل على ذلك، وهو محاباة الغني إرضاء له أو الفقير رحمة به.

وقوله: (لـ «أن» لا): يبين أن المصدر المؤول في موضع جر بلام كي، وتقدر قبل «أن» مع تقدير لا النافية بعد «أن» فيكون المعنى: فلا تتبعوا الهوى لألى يكون العدل؛ بمعنى: العدول عن الشيء، وعلى هذا فالتعليل للنهي عن اتباع الهوى، وقيل: إن الكلام على تقدير مضاف محذوف هو مفعول لأجله؛ أي: نهيناكم عن اتباع الهوى كراهة أن تعدلوا عن الحق، وقيل: إنه تعليل لاتباع الهوى فيكون التقدير لا تتبعوا الهوى كراهة للعدل، وهو القسط؛ لأنه يتضمن شهادتكم على أنفسكم^(١).

(١) ينظر: الدر المصون (٤/ ١١٧)، وإعراب القرآن وبيانه (٢/ ٣٤٨).



وقوله: (تميلوا عن الحق): تفسير: للعدل، وهذا يقتضي أنه جعل العدل من العدول عن الشيء لا العدل الذي بمعنى القسط.
 وقوله: (تُحَرِّفُوا الشَّهَادَةَ)؛ أي: لا تؤدوها على وجهها؛ بل تغيروها بالزيادة والنقص.

وقوله: (وفي قراءة ...) إلى آخره: يريد الواو المضمومة فتتصل الواو الساكنة باللام فتصير الكلمة: ﴿وَإِنْ تَلَّوْا﴾،^(١) وقد ضعف ابن جرير هذه القراءة، وعزى القراءة الأولى للجمهور^(٢).

وقوله: (عن أدائها)؛ أي: عن أداء الشهادة بالكتمان.
 وقوله: (فيُجَازِيكُمْ بِهِ): تقدم: التعليق على نظيره قريباً آية «١٢٧»^(٣).



(١) ينظر: الشر (٢/٢٥٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/٥٩٣).

(٣) تنظر: (ص ٥٤٢).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٦-١٣٩].

يأمر الله عباده المؤمنين بالإيمان؛ أي: بالدوام عليه، وتكميله بلزوم شرائعه، والتمسك بأصوله ففي ذلك العصمة من الضلالة أما الكفر بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر فهو الضلال البعيد عن صراط الله، ولهذا قال تعالى فيمن كفر بهذه الأصول فقد ضل ضلالاً بعيداً، ثم أخبر تعالى عن صنف من المنافقين، وهم المترددون بين الإيمان والكفر؛ فأمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً بتماديهم في الكفر حتى ماتوا من غير توبة قال الله فيهم: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾، من سبل النجاة عقوبة على إصرارهم على الكفر، واشترائهم الضلالة بالهدى، ثم قال تعالى متوعداً المنافقين بالعذاب الأليم: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾، وهذا وعيد شديد مع تهكم بهم، لذكر الوعيد بالعذاب الأليم بلفظ البشارة، ثم ذكر تعالى بعض صفات المنافقين التي استوجبوا بها العذاب الأليم، وهو اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين تعزراً بهم فلم ينالوا بذلك عزة، فإن العزة لله ولرسوله والمؤمنين، والعزة لله جميعاً يعز من يشاء ويذل من يشاء، فيعز أوليائه ويذل أعداءه؛ فالكفار والمنافقون هم أعداء الله المحادون لله ورسوله، فهم الأذلون، ولهذا قال تعالى منكرًا على المنافقين في موالاة الكافرين طلباً للعزة عندهم: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، آمِنُوا﴾: داوموا على الإيمان ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،
وَالكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ مُحَمَّد - وهو القرآن - ﴿وَالكِتَابِ
الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ على الرُّسل، بمعنى: الكُتُب. وفي قراءة بالبناء
للفاعل في الفعلين. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الحق. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِمُوسَى
- وهم اليهود - ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعبادة العجل، ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ بعده، ﴿ثُمَّ
كَفَرُوا﴾ بِعِيسَى، ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ بِمُحَمَّد، ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ﴾
ما أقاموا عليه، ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾: طريقًا إلى الحق.

﴿بَشِّرْ﴾: أخبر - يا مُحَمَّد - ﴿الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:
مؤلمًا - هو عذاب النار - ﴿الَّذِينَ﴾: بدل أو نعت للمنافقين ﴿يَتَّخِذُونَ
الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، لما يتوهمون فيهم من القوة
- ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾: يطلبون ﴿عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾؟ استفهام إنكار، أي: لا يجدونها
عندهم. ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ في الدنيا والآخرة، ولا ينالها إلا
أولياؤه -.

وقول المؤلف: (داوموا على الإيمان): تفسير: للأمر بالإيمان، وهو
خطاب للمؤمنين، والمؤمن لا يصح أن يؤمر بالإيمان، لأنه من تحصيل
الحاصل فلذا أول الأمر بالإيمان بالمدائمة عليه.

وقوله: (مُحَمَّد - وهو القرآن -): بيان للمراد برسوله وبالمنزّل عليه.
وقوله: (على الرُّسل): بيان للمراد بالكتاب الذي أنزل من قبل؛
كالمنزّل على موسى وعيسى، وغيرهما، وهذه كتب لا كتاب واحد، فلذا

قال المؤلف: (بمعنى: الكُتُب)؛ أي: أنَّ الكتاب اسم جنس فيشمل كل كتاب أنزل قبل القرآن.

وقوله: (وفي قراءة...) إلى آخره: يشير: إلى أنَّ ﴿أَنْزَلَ﴾؛ قرئ بفتح الهمز للبناء للمعلوم؛ أي: وما أنزل الله كما أنَّ الفعل الذي قبله مبني للمعلوم، ولذا قال المؤلف: (وفي قراءة بالبناء للفاعل في الفعلين): يريد نزل وأنزل^(١)، والمبني للفاعل هو الفعل المسند إلى معلوم، ولذا يقال: مبني للمعلوم أو مبني للفاعل، ويقال: لما لم يسمَّ فاعله مبني للمفعول أو مبني للمجهول.

وقوله: (عن الحق): بيان لمتعلق البعد.

وقوله: (بمؤسى - وهم اليهود-)، إلى قوله: (بمُحمَّد): جعل الآية نازلة في اليهود في قلب أحوالهم مع الرسل بين الإيمان والكفر، وهذا أحد القولين في المراد بالآية، ورجحه ابن جرير، والقول الثاني: أنَّ المراد بالآية المنافقون الذين يترددون بين الإيمان والكفر؛ فيؤمنون ثم يكفرون ثم يؤمنون ثم يكفرون، ويقيمون على كفرهم حتى يموتوا^(٢)، ويرجح هذا القول ذكر المنافقين بعدها بذكر صفاتهم، وجزائهم من قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]^(٣).

وقوله: (ما أقاموا عليه)؛ أي: على الكفر يريد أنَّ هذا قيد في نفي المغفرة عنهم، وهو إقامتهم على الكفر، فلو تابوا تاب الله عليهم.

وقوله: (طريقاً إلى الحق): بيان للمراد بالسبيل الذي لا يهديهم الله إليه عقوبة على نفاقهم، ومن لم يهد إلى سبيل الحق فهو في ضلال مبين.

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٨٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٥٩٦)، وزاد المسير (١/ ٤٧٦).

(٣) وهو قول مجاهد وابن زيد ورجحه ابن عطية. ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٥٩٧-٥٩٨)، والمحرر الوجيز (٣/ ٤٥-٤٦).

وقوله: (أخبر - يا مُحَمَّد-) : بيان للمخاطب بهذا الأمر، ولو قال يا رسول الله كان أولى، لأنَّ الله لم يخاطب نبيه باسمه العلم؛ بل يقول: يا أيها النبي؛ يا أيها الرسول، واقتصر المفسر على تفسير ﴿بَشِّرْ﴾؛ بـ«أخبر»، ولم ينبه على ما فيه من التهكم بالمنافقين فإنَّ البشارة إنما تكون بما يسر، وهذا إخبار بما يسوء فليس من البشارة في شيء.

وقوله: (مؤلماً - هو عذاب النار-) : لأنه من ألمه فاسم الفاعل مؤلم، وأليم محول عن مؤلم، وهذا العذاب محله النار التي أعد الله للكافرين والمنافقين.

وقوله: (بدلٌ أو نعت للمنافقين) : والصحيح: أنه نعت للمنافقين في قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾.

وقوله: (لما يتوهمون فيهم من القوة) : بيان لسبب تولي الكافرين، ويدل لهذا التعليل قوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾.

وقوله: (يطلبون) : تفسير: يبتغون، والابتغاء هو الطلب.

وقوله: (استفهام إنكار ...) إلى آخره: يريد الاستفهام في قوله: ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾، واستفهام الإنكار يدل على النفي؛ أي: فلا عزة عندهم، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، فلا حظ منها للكافرين والمنافقين.

وقوله: (في الدنيا والآخرة ...) إلى آخره: ينبه: على أنَّ هذا خبر مطلق في الزمان، فالعزة لله وصفًا، وله العزة ملكًا يعز من يشاء من أنبيائه ورسله وأوليائه، ويدل أعداءه، فلا تنال العزة إلا بطاعته فمن طلب العزة غيرها ذلٌّ، فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].



وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (١١٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١١١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١١٢) مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١١٣) [النساء: ١٤٠-١٤٣].

يذكر تعالى عباده المؤمنين بما قد أنزله في كتابه من النهي عن القعود مع الخائضين في آيات الله بالكفر والاستهزاء، وهو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٦٨) [الأنعام]، وأخبر تعالى في هذه الآية بأنَّ مَنْ قعد مع الخائضين في آيات الله بالكفر والاستهزاء فهو مثلهم في الكفر، وفيما يستحقون من العقاب فعلم بذلك أنَّ مَنْ قعد مع الخائضين يسمع آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، وإن كان لا يستطيع الإنكار وهو يستطيع مفارقتهم فإنه كافر مرتد، فإنَّ قعوده وحاله ما ذكر يدل على عدم إنكاره لما يسمع، فلو كان منكراً بقلبه لما يسمع من الكفر والاستهزاء لما استطاع البقاء بينهم، وإنما يفعل هذا؛ أي: القعود مع الخائضين مع القدرة على مفارقة المكان مَنْ كان منافقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (١١٠): فقدم ذكر المنافقين في خبر الوعيد؛ لأنهم أولى بالعذاب من الكافرين غير المنافقين، لأنَّ كفر النفاق أغلظ أنواع الكفر، ولهذا كان مقر المنافقين في النار الدرك الأسفل نعوذ بالله من النار، وما يفضي إليها من قول وعمل، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ

يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ: صفة ثانية للمنافقين، فالصفة الأولى قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٣٩]، والثانية: الذين يترصدون بكم؛ أي: ينتظرون بكم دوائر الزمان، وهي: تبدل الأحوال كالهزيمة بعد النصر، والضعف بعد القوة، والذلة بعد العزة، والقلّة بعد الكثرة، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: نصر وغنيمة؛ قالوا: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾؛ أي: بما يظهرون من الإيمان يريدون أن يشركوهم في الغنيمة، وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظ من القوة أو الغلبة ﴿قَالُوا﴾؛ أي: المنافقون للكافرين ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: نتولاكم، ونحيطكم بالنصر على المؤمنين، ونمنعكم؛ أي: نحملك من بأس المؤمنين، وقوله: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾: الخطاب للمؤمنين؛ أي: بينكم وبين عدوكم من الكفار والمنافقين، وقوله: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾: قيل: في الآخرة، وقيل: في الدنيا والآخرة^(١)، وهو الصحيح لأنّ الوعد مطلق، وليس آخر الآية مردوداً إلى أولها كما اختاره ابن العربي^(٢)، ولا ريب أنّ هذا الوعد أظهر ما يكون يوم القيامة، والسبيل المنفي جعله للكافرين على المؤمنين؛ أمران:

الحجة والغلبة فلن تكون للكافرين حجة على المؤمنين؛ بل حجتهم داحضة، ولن يكون للكافرين قوة يتسلطون بها على المسلمين فيغلبونهم ويستبيحون بيضتهم ويستأصلونهم فيمحوا بذلك دين الإسلام كما يدل لذلك ما ثبت في الصحيح^(٣) أنّ الله أعطى نبيه لأمته ألاّ يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن اجتمع عليهم من في أقطارها، ويشهد لذلك

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦٠٩/٧)، وزاد المسير (٤٨٨/١).

(٢) ينظر: أحكام القرآن (٦٤٠/١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم، حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»^(١)، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، ومع هذا فقد يكون للكفار في بعض الأوقات تسلط على المسلمين استدراجاً لهم أو بسبب ذنوب بعض المسلمين كما جرى في غزوة أحد، وهذا التسلط لا يستقر ولا يبلغون به الكفار منتهى مرادهم فإن العاقبة للمتقين، والنصر للمؤمنين، وصدق الله وعده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾: بكذبهم في دعوى الإيمان، ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾؛ أي: والله خادعهم بقبول ما يظهرون من الإيمان فتجري عليهم أحكام المؤمنين في الدنيا، فيظنون أنهم ناجون يوم القيامة، وقد أعد الله لهم الدرك الأسفل من النار، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا﴾؛ أي: إذا دُعوا إلى الصلاة قاموا إليها بثقل وتباطئ لأنهم لا يؤمنون بفرضها وفضلها؛ قال ﷺ: «إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً»^(٢)، وهم بهذا الخداع لا يخدعون في الحقيقة إلا أنفسهم كما قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، وقوله تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾: معناه أنهم يريدون في إظهار الإيمان والقيام للصلاة أن يراهم الناس، فيظنونهم مؤمنين ومصلين، وما أرادوا بصلاتهم وجه الله، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣)؛ أي: لا يذكرون الله بقلوبهم ولا بألسنتهم إلا قليلاً؛ بل لا يذكرون الله أبداً، لأن ذكرهم لله كثيره وقليله باطل وحابط، فتشبه قوله

(١) أخرجه بنحوه: البخاري (٣٦٤٠)، (٧٣١١)، ومسلم (١٥٦)، (١٩٢٠-١٩٢٥) من حديث ثوبان، وجابرة بن سمرة، وجابر بن عبد الله، ومعاوية، وعقبة بن عامر، وسعد بن أبي وقاص بألفاظ متقاربة. ينظر: نظم المتناثر (١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١) واللفظ له، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٨٣﴾
 [النساء]؛ أي: كلكم، وقوله: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾؛ أي: مترددين بين الإيمان والكفر، فتارة مع المؤمنين بما يظهرون من الإيمان، وتارة مع اليهود لأنهم أولياؤه، وهم معه بما يبتغون من الكفر بالله ورسوله لذلك، فهم مترددون حيارى لا يميلون إلى المؤمنين دائماً ولا إلى الكفار دائماً، ولهذا قال تعالى: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾؛ أي: بين المؤمنين والكفار، وتفسيره قوله: ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿١٢١﴾؛ أي: مَنْ يضلله الله عن الحق فلن تجد له -أيها الرسول- سبيلاً يهتدي به إلى معرفة الحق والعمل به.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾، بالبناء للفاعل والمفعول، ﴿عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾:
 القرآن في سورة «الأنعام» ﴿أَنْ﴾: مُخَفَّفَةٌ واسمها محذوف، أي: أنه إذا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ: القرآن، ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا، فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ أي: الكافرين والمستهزئين، ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ. إِنَّكُمْ إِذَا:﴾ إن قعدتم معهم ﴿مِثْلَهُمْ﴾ في الإثم. ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾، كما اجتمعوا في الدنيا على الكفر والاستهزاء.

﴿الَّذِينَ﴾: بدل من «الذين» قبله ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾: ينتظرون ﴿بِكُمْ﴾ الدوائر، ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾: ظفرٌ وغنيمة ﴿مِنَ اللَّهِ قَالُوا﴾ لكم: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ في الدين والجهاد؟ فأعطونا من الغنيمة. ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ من الظفر عليكم ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ﴾: نستول ﴿عَلَيْكُمْ﴾، ونقدِرُ على أخذكم وقتلكم فأبقينا عليكم، ﴿وَأَلَمْ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن يظفروا بكم، بتخذيهم ومراسلتكم

بأخبارهم؟ فلنا عليكم المنة. قال الله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ وبينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، بأن يدخلكم الجنة ويدخلهم النار، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾: طريقاً بالاستئصال. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾، بإظهار خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية، ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ فيجازيهم على خداعهم، فيفضحون في الدنيا بإطلاع الله نبيه على ما أبطنوه، ويعاقبون في الآخرة، ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ مع المؤمنين ﴿قَامُوا كُسَالَى﴾: مثقلين، ﴿يُرَآؤُونَ النَّاسَ﴾ بصلاتهم، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾: يصلون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء، ﴿مُذَبِّبِينَ﴾: مترددين ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾: الكفر والإيمان، ﴿لَا﴾ منسوين ﴿إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: الكفار، ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: المؤمنين. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾: طريقاً إلى الهدى.

وقول المؤلف: (بالبناء للفاعل والمفعول): يشير: إلى أن في الآية قراءتين بفتح النون وضمها^(١).

وقوله: (القرآن في سورة «الأنعام»): بيان للمراد بالكتاب في الآية، وهو القرآن، وبيان للمراد بالمنزل في الكتاب، وهو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقوله: (مُخَفَّفَةٌ...) إلى آخره: بيان لنوع «أن» بأنها المخففة، واسمها ضمير الشأن^(٢)، ويحتمل أن تكون المفسرة، ولعله أظهر^(٣).

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٨٢).

(٢) ينظر: الدر المصون (٤/ ١٢٠-١٢١).

(٣) واختاره ابن عاشور في التحرير والتنوير (٥/ ٢٣٥).

وقوله: (الْقُرْآن): بيان للمراد بالآيات لأنها هي الآيات المسموعة، أما الآيات المخلوقة فهي مرئية.

وقوله: (الكافرين والمُستهزئين): بيان لمرجع الضمير المجرور بالإضافة في قوله: ﴿مَعَهُمْ﴾.

وقوله: (إِنْ قَعَدْتُمْ مَعَهُمْ): بيان لما يترتب عليه الوعيد، وهو مخالفة النهي في قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.

وقوله: (فِي الْإِثْم): يبين أَنَّ حكم القاعدين مع الكافرين والمستهزئين بآيات الله حكمهم حكمهم في الكفر والوعيد.

وقوله: (كَمَا اجْتَمَعُوا ...) إلى آخره: بيان لحكمة جمع الكافرين والمنافقين في نار جهنم، وهو أَنَّجزاء من جنس العمل؛ كما اجتمعوا في الدنيا على الكفر بآيات الله، والاستهزاء بها جمعهم الله في نار جهنم.

وقوله: (بَدَلُ مَنْ «الَّذِينَ» قَبْلَهُ): يريد أنه بدل من الموصول في قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ﴾ [النساء: ١٣٩]، والأظهر أنها صفة ثانية للمنافقين^(١).

وقوله: (يَتَنَظَّرُونَ ...) إلى آخره: تفسير: يتربصون، فَإِنَّ التربص الانتظار، وقوله: (الدوائر): بيان لما ينتظرونه بالمؤمنين، وهي: دوائر الزمان، وتحول الأحوال.

وقوله: (ظَفَرٌ وَغَنِيمَةٌ): تفسير: للفتح، وهو نصر المؤمنين.

وقوله: (لَكُمْ): بيان للمخاطب في كلام المنافقين.

وقوله: (فِي الدِّين ...) إلى آخره: بيان للمعية التي بين المؤمنين والمنافقين، وبيان لمقصودهم من ذكر معيتهم للمؤمنين، وهو أن يعطوا من الغنيمة.

وقوله: (مَنْ الظَّفَرُ عَلَيْكُمْ): بيان لما يكون منه النصيب الحاصل للكفار.

(١) وقيل غير ذلك ينظر: الدر المصون (٤/ ١٢٣).

وقوله: (لهم)؛ أي: للكافرين بيان للمخاطبين بقولهم: ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: (نستول ...) إلى آخره: تفسير: نستحذ؛ أي: نغلبكم ونتمكن منكم مع المسلمين، ونخذلهم عنكم، وندفعهم عن قتلهم وأسرهم، ونعينهم عليهم.

وقوله: (ألم): يبين أنه معطوف على ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ﴾. وقوله: (قال الله تعالى): يبين أن الجملة التالية مستأنفة. وقوله: (وبينهم)؛ أي: يحكم بينكم -أيها المؤمنون-، وبين عدوكم من المنافقين والكافرين. وقوله: (بأن يَدْخُلَكُمْ الْجَنَّةَ وَيُدْخِلَهُمُ النَّارَ): بيان لما يحكم الله به بين المؤمنين والكافرين.

وقوله: (طريقاً بالاستئصال): معناه لم يجعل الله للكافرين قدرة على استئصال المؤمنين؛ أي: إفنائهم، أما إقذارهم على أذى المؤمنين فهو واقع، قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]. وقوله: (بإظهار ...) إلى آخره: بيان لصفة المخادعة.

وقوله: (فيُجازيهم على خداعهم ...) إلى آخره: هذا تأويل لقوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾، وفي ذلك صرف للكلام عن ظاهره بناءً على أن الخداع ممتنع من الله تعالى، والصواب: أن الخداع كالمكر والاستهزاء، وكلها مما يضاف إلى الله فعلاً على وجه المجازاة بالمثل، وذلك من العدل والمجازاة بجنس العمل، وهذا موجب الحكمة^(١).

وقوله: (مع المؤمنين)؛ أي: للصلاة مع الجماعة. وقوله: (مُثَاقِلِينَ): بيان لمعنى كسالى؛ فإن الكسل ضعف الرغبة والثقل عن الشيء.

(١) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٧٣٧).

وقوله: (بصَلَاتِهِم): يريد أنهم يصلون ليراهم الناس.
 وقوله: (يُصَلُّون): تفسير: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾؛ لأنَّ الصلاة ذكر،
 والصواب: أنَّ الآية عامة في الصلاة وغيرها.
 وقوله: (رياء): يريد أنَّ الذكر القليل منهم يفعلونه رياء غير مخلصين
 فيه لله.

وقوله: (مُتَرَدِّدِينَ): تفسير: ﴿مُذَبِّدِينَ﴾ فالمذبذب الحائر المتردد.
 وقوله: (الكفر والإيمان): بيان لمرجع اسم الإشارة.
 وقوله: (منسويين...) إلى آخره: تقدير: لمتعلق الجار والمجرور،
 والمراد بهؤلاء الأولى الكفار، وبهؤلاء الثانية المؤمنون؛ فالمنافقون ليسوا
 من الكفار ولا من المؤمنين؛ كقوله تعالى: ﴿مَا هُمْ مِّنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾
 [المجادلة: ١٤].

وقوله: (طريقًا إلى الهدى): تفسير: للسبيل؛ المعنى: مَنْ يضلُّ الله
 فلا أحد يقدر على هدايته؛ كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾
 [الأعراف: ١٨٦].



وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۖ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۚ﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ [النساء: ١٤٤-١٤٧].

ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء يوادونهم وينصرونهم ويتغنون العزة عندهم، ومن فعل ذلك فقد قامت عليه حجة الله بما ارتكب من تولي أعداء الله، وهي عذر بين في تعذيبه، قاله قتادة^(١) فإنه تعالى لا يعذب أحداً إلا وله الحجة عليه، وليس لأحد حجة على الله؛ بل الحجة لله على عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ومن عذب فبذنبه، وتولي الكافرين سبيل المنافقين كما نعتهم الله بذلك في قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ﴾ [النساء: ١٣٨] الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[النساء: ١٣٩]﴾ ولهذا عقب الله هذا النهي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۚ﴾ [النساء: ١٤٠]، فمن تولّى الكافرين وآثرهم على المؤمنين فهو من المنافقين، والدرك الأسفل من النار هو قعرها، ولا يكون فيه إلا أشقى الناس، ثم استثنى الله من هذا الوعيد من تاب من نفاقه، وأصلح العمل، واعتصم بالله متوكلاً عليه، وأخلص الدين لله فبرئ من النفاق، ومن صارت حاله إلى ذلك دخل في عداد المؤمنين في الدنيا، ودخل الجنة في الآخرة مع المؤمنين، وقد وعد الله المؤمنين أجراً عظيماً، وهو ما أعد لهم في الجنة من النعيم المقيم والفوز العظيم، وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۚ﴾ [النساء: ١٤٦].

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦١٨/٧).

وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾: يريد تعالى أن مَنْ تاب من المنافقين، وأصلح العمل، وأخلص الدين لله، وشكر الله بما أنعم، وحقق الإيمان به وبرسوله فإنه غني أن يعذبه لأنه لا يعذب أحداً إلا جزاءً على ما ارتكب من ذنوب، أما مَنْ اتقى الله وشكره فإنَّ الله يجزل له الثواب لأنه تعالى شاكر وشكور، وهو عليم بأعمال عباده خيرها وشرها فيجزئهم كلاً بما يستحق إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بمُؤَالَاتِهِمْ ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾: بُرْهَانًا بَيِّنًا عَلَى نِفَاقِكُمْ؟ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ﴾: الْمَكَانِ ﴿الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ -وهو قعرها- ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾: مانعاً من العذاب. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ من النِّفَاقِ، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عملهم، ﴿وَاعْتَصَمُوا﴾: وثقوا ﴿بِاللَّهِ، وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ من الرِّياءِ، ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيما يُؤْتَوْنَهُ. ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في الآخرة، وهو الجنة. ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ، إِنْ شَكَرْتُمْ نِعْمَهُ وَءَامَنْتُمْ بِهِ؟ وَالْأَسْتَفْهَامُ بِمَعْنَى النَّفْيِ، أَي: لَا يُعَذِّبُكُمْ.﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ لأعمال المؤمنين بِالْإِثَابَةِ، ﴿عَلِيمًا﴾ بخلقِهِ.

وقول المؤلف: (بمُؤَالَاتِهِمْ): بيان لسبب قيام حجة الله عليهم. وقوله: (برهاناً بيّناً على نفاقكم؟): تفسير للسلطان المبين، وفي الاختصار من الجملة على تفسير السلطان تقصير في تفسير الجملة من

أولها، فلو قال: أتريدون بموالاتهم أن تكون لله حجة عليكم في تعذيبكم؛ لوفى بمعنى الآية.

وقوله: (المكان): تفسير: للدرك يريد المكان الأسفل من النار.
وقوله: (وهو قعرها): بيان للمراد بالدرك الأسفل، وقعر كل شيء أسفله.

وقوله: (مانعاً من العذاب): تفسير: نصير؛ لأنَّ النصير: هو الذي يدفع المكروه عن من يريد نصره.

وقوله: (من النفاق): بيان لمتعلق ﴿تَابُوا﴾.
وقوله: (عملهم): بيان لمفعول أصلحوا.
وقوله: (وثقوا): تفسير: اعتصموا، وهو يتضمن التوكل على الله، والتمسك بدينه، والإعراض عما سواه.
وقوله: (من الرياء)؛ أي: مراعاة الناس، وعملوا لله وحده فبرئوا من الشرك.

وقوله: (فيما يؤثرونه): يعني: من الأجر العظيم في الجنة؛ فالمعنى: أن المنافقين الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا وأخلصوا يصيرون يوم القيامة مع المؤمنين، الذين لم يكن منهم نفاق، وذلك أنَّ التوبة تجب ما كان قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.
وقوله: (في الآخرة، هو الجنة): بيان للمراد بالأجر العظيم، وأنَّ ذلك يكون في الآخرة.

وقوله: (نعمه): بيان لمتعلق الشكر، وهو نعم الله.
وقوله: (به؟)؛ أي: بالله.

وقوله: (والاستفهام...) إلى آخره: يريد الاستفهام في قوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ﴾، ويبين أنَّ معناه النفي، ولهذا قال: (أي: لا يُعَذِّبُكم)؛ لأنه تعالى غني عن تعذيب مَنْ شكر وآمن، ولا يعذب إلا مَنْ أساء وعصى.



وقولُه: (بالإِثابة): بيان لِمَا يكون به الشكر من الله للعاملين، وهو الثواب المضاعف.

وقولُه: (بخلقه): يبين أَنَّ علم الله عام محيط بجميع خلقه.



وقوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨) **إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ خُفُّوا أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا** (١٤٩) **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا** (١٥٠) **أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا** (١٥١) **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** (١٥٢) [النساء: ١٤٨-١٥٢].

يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر **﴿بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾**؛ أي: القول السيئ، ومنه السب والدعاء على الغير بغير حق، ولهذا قال تعالى: **﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾**، وما أخبر تعالى أنه لا يحبه فإنه يبيغضه، وخص الجهر، وهو لا يحب السوء من القول سرًّا كان أو جهرًا؛ لأنَّ الجهر بالقول السيئ أقبح، فأفاد هذا الخبر تحريم الجهر بالقول السيئ غيبة أو سبًّا أو دعاء، فلا يحل لأحد ذلك إلا المظلوم؛ لقوله تعالى: **﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾**، فالمظلوم يُباح له الجهر بسبِّ مَنْ ظلمه وغيبته من غير اعتداء، وقوله تعالى: **﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾**؛ أي: سميع لأقوال العباد؛ عليم بأعمالهم وأحوالهم، وفي هذا تحذير من الظلم بقول أو فعل، وفي قوله: **﴿ظَلَمَ﴾**؛ قراءة ثان: بضم الظاء، وكسر اللام بالبناء للمفعول، وفتح الظاء واللام بالبناء للفاعل ^(١)؛ فالمظلوم له أن يجهر بالسوء من القول في حق مَنْ ظلمه من غير أن يعتدي عليه؛ قال ابن عباس في تفسير الآية: «لا يحب الله أن يدعو أحدًا على أحد، إلا أن يكون مظلومًا، فإنه قد أُرخص له أن يدعو على مَنْ ظلمه، وذلك قوله: **﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾**، وإن صبر فهو خير له» رواه ابن جرير ^(٢)، ويجوز الجهر بالسوء من القول في حق الظالم إنكارًا عليه وزجرًا له عن ظلمه؛ كأن يقال له يا ظالم أو أنت ظالم،

(١) وهي قراءة شاذة. ينظر: المحتسب (١/ ٢٠٣)، وشواذ القراءات (ص ١٤٦).

(٢) (٦٢٥/٧).

ومثل المفسرون للمظلوم بالضيف ينزل على القوم، فلا يقرونه ولا يعطونه حقه من الضيافة، فللمظلوم أن يذمهم بذلك، ويجهر في ذمهم؛ قال مجاهد: «هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته، فيخرج من عنده فيقول: أساء ضيافتي ولم يُحسن!»^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّواْ خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوْهُ أَوْ تَعْفُواْ عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾^(١٤٩)، هذا ترغيب من الله في الخير قولاً وفعلًا سرًّا وعلنًا، ومن ذلك العفو عن المسيء، وهذا ندب من الله للمظلوم إلى العفو عمن ظلمه، وأنَّ الجزء من جنس العمل؛ فمن عفا، عفا الله عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾^(١٤٩)، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقرن الله بين اسميه: العفو، والقدير؛ لأنَّ العفو إنما يحمد من القادر، وهو تعالى واسع العفو والمغفرة مع كمال القدرة فله الحمد كله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، يخبر تعالى عن الكفار الذين ذكر صفتهم؛ قيل: المراد جنس الكفار، وقيل: المراد اليهود والنصارى، والكفر بالله بالجحد أو الشرك، والكفر بالرسول بالتكذيب، وهو يشمل جاحد النبوات المكذبين لجميع الرسل، والمكذبين لأي رسول من الرسل، فإنَّ مَنْ كَذَّبَ رَسُولًا فهو مكذب لجميعهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٢]، ونظائر ذلك. وقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾: فيدعون الإيمان بالله، ويكفرون بالرسول، وهذا لازم مَنْ آمَنَ ببعض الرسل دون بعض، فإنَّ إيمانه بمن آمن به من الرسل يتضمن الإيمان بالله، وتكذيبه بمن كذب به من الرسل يستلزم التكذيب بالرسول كلهم، فهذا -والله أعلم- هو معنى التفريق بين الله ورسوله، وأولى مَنْ يَصْدُقُ عليه هذا: اليهود والنصارى، فإنَّ اليهود

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦٢٧/٧)، وابن أبي حاتم (١١٠٠/٤).

آمنوا بموسى ومن قبله من الرسل، وكذبوا بعبسى ومحمد، والنصارى آمنوا بموسى وعيسى، وكذبوا بمحمد - صلى الله عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين -.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضِ﴾؛ أي: نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعضهم؛ كحال اليهود والنصارى، وهذا ما برأ الله منه رسوله محمداً ﷺ والمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ؕ وَالْمُؤْمِنُوْنَ كُلُّ ءَاْمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ؕ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ ؕ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ؕ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيْرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُتَّخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيْلًا﴾؛ أي: يريد هؤلاء الذين يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويفرقوا بين الرسل أن يتخذوا بين الإيمان والكفر ﴿سَبِيْلًا﴾؛ أي: طريقاً يختارونه، وهو من سبل الكفر؛ بل كفرهم باتخاذ هذا السبيل أقبح كفر، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾؛ وحقاً: صفة لمصدر محذوف؛ أي: كفراً حقاً، ومعناه: كفراً محققاً، وهو أغلظ الكفر وأشنعه، ثم توعدهم الله بما أعد لهم من عذاب مهين وهو الخلود في نار جهنم؛ فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾: ولما ذكر حال الكافرين وما أعد لهم من العذاب، ذكر حال المؤمنين وما لهم عند الله من الأجر العظيم؛ فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ ؕ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللّٰهُ غَفُوْرًا رَّحِيْمًا ﴿١٥٢﴾﴾، فوعدهم بالأجر والمغفرة والرحمة لقوله: ﴿وَكَانَ اللّٰهُ غَفُوْرًا رَّحِيْمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿لَا يُحِبُّ اللّٰهُ الْجَهْرَ بِالسُّوْءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ من أحد، أي: يعاقب عليه، ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾. فلا يؤاخذ به بالجهر به، بأن يُخبر عن ظلم ظالمه ويدعو عليه. ﴿وَكَانَ اللّٰهُ سَمِيْعًا﴾ لما يُقال، ﴿عَلِيْمًا﴾ بما يفعل. ﴿إِن

تُبْدُوا: تُظْهِرُوا ﴿خَيْرًا﴾ من أعمال البر، ﴿أو تُخْفُوهُ﴾: تَعْمَلُوهُ سِرًّا، ﴿أو تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾: ظَلَمَ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، بَأَن يُؤْمِنُوا بِهِ دُونَهُمْ، ﴿وَيَقُولُونَ: نُوْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ من الرُّسُلِ، ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ مِنْهُمْ، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ﴾: الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ﴿سَبِيلًا﴾: طَرِيقًا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾: مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِمُضْمَنِ الْجُمْلَةِ قَبْلَهُ، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾: ذَا إِهَانَةٍ، هُوَ عَذَابُ النَّارِ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ كُلَّهُمْ، ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ﴾ -بِالنُّونِ وَالْيَاءِ- ﴿أَجُورَهُمْ﴾: ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لِأَوَّلِيائِهِ، ﴿رَحِيمًا﴾ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ.

وقول المؤلف: (من أحد)؛ أي: من كل أحد.

وقوله: (أي: يُعاقِبُ عليه): تفسير لقوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ﴾، وهذه طريقة المؤلف في نظائره يؤول نفي المحبة بالعقوبة، والمحبة بالثواب، وهو جارٍ على طريقة مَنْ ينفي حقيقة المحبة عن الله، والصواب: إثبات الله أن يحب ويحب حقيقة؛ كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وتأويل المحبة بالثواب، ونفيها بالعقاب هو من التفسير باللازم، وهو صرف للكلام عن ظاهره بغير دليل، وهذه حقيقة التحريف^(١).

وقوله: (فلا يؤاخذُه...) إلى آخره: بيان لمضمون الاستثناء، ومعنى الكلام: أَنَّ مَنْ ظَلَمَ لَا يُؤَاخِذُهُ اللَّهُ إِذَا جَهَرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ؛ كَالْغِيَةِ لِلظَّالِمِ، والدعاء عليه، لأنه مستحق لذلك بظلمه.

(١) ينظر: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين: الفاتحة والبقرة (ص ٦٣٥)، وتنظر: (ص ٦١)، (ص ٢٢١).

وقوله: (لما يُقال): بيان لمتعلق السمع، وهو الأقوال.
 وقوله: (بما يُفعل): بيان لمتعلق العلم وهو الأفعال على قول المؤلف،
 ولكن علم الله أعم وأوسع من ذلك، فهو يعلم الأفعال والأحوال والسر
 والإعلان وهو اجس الصدور.

وقوله: (تُظهروا...) إلى آخره: بيان لمعنى الإبداء والإخفاء، وهو
 الإعلان والإسرار، وتفسير للخير بأعمال البر.

وقوله: (ظلم): تفسير: للسوء المعفو عنه، وهو ما يفعله الظالم
 بالمظلوم.

وقوله: (بأن يؤمنوا به دونهم): بيان لمعنى التفريق بين الله ورسله.
 وقوله: (من الرُّسل): بيان للمضاف إليه بعض؛ فالتقدير: نؤمن ببعض
 الرسل، ونكفر ببعضهم.

وقوله: (الكفر والإيمان): بيان للمشار إليه في قوله: (بين ذلك).
 وقوله: (طريقاً يذهبون إليه)؛ أي: طريقاً يختارونه من المذاهب.
 وقوله: (مصدر...) إلى آخره: يريد أن قوله: ﴿حَقًّا﴾: مؤكد لجملته
 ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، فإنها تفيد قصر الكفر عليهم.

وقوله: (ذا إهانة...) إلى آخره: يريد أن العذاب من صفته الإهانة
 للمعذبين، وهذا العذاب في نار جهنم.

وقوله: (كلهم): يريد كل الرسل، وبهذا فارقوا الكفر الذين يؤمنون
 ببعض ويكفرون ببعض.

وقوله: (بالنون والياء): يريد أن قوله: ﴿نُؤْتِيهِمْ﴾ فيها قراءتان:
 ﴿نُؤْتِيهِمْ﴾ و﴿يُؤْتِيهِمْ﴾^(١).

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٨٣).



وقوله: (ثواب أعمالهم): بيان للمراد بالأجور؛ فإن الله يسمي ثواب الأعمال الصالحة أجرًا وأجورًا؛ كقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦]، وقوله: ﴿لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٠].

وقوله: (لأوليائه)، و(بأهل طاعته): بيان لمن هو أهل لمغفرة الله ورحمته، وهم أولياء الله، وأهل طاعته.



وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا بِمُوسَىٰ سُلْطَنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: ١٥٣-١٥٤].

يخبر تعالى أن أهل الكتاب، وهم: اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ حول المدينة، كانوا يسألون الرسول ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء يأتي به مكتوبًا فيقرؤنه، وهذا نظير ما طلبه المشركون كما في قوله تعالى عن المشركين: ﴿أَوْ تَرَقَّىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ثم قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾: والفاء في جواب شرط مقدر؛ تقديره: فإن يسألوك ذلك فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، وهم أسلافهم، ثم بين تعالى ما سألوا موسى، وهو قولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾: وهذا مبين في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]؛ أي: رؤية ظاهرة، وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾؛ أي: أهلكهم الله بالصاعقة بسبب ظلمهم، وهو سؤالهم ما ليس لهم أن يسألوه، فماتوا ثم بعثهم الله؛ كما بين تعالى ذلك في سورة البقرة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾؛ أي: اتخذوا العجل إلهًا، وهذا ظلم آخر أعظم من الذي قبله، وهو مفصل في سورة «طه» و«الأعراف» و«البقرة»، ومما يزيد في ظلمهم أنهم فعلوا ذلك من بعد ما جاءتهم البينات، وقوله: ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾؛ أي: تجاوزنا لهم عن هذا الذنب العظيم لَمَّا تابوا وفعلوا ما أمرهم به موسى من قتل أنفسهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ

لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعَجَلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ
 ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٥١﴾ [البقرة]،
 وعطف اتخاذهم العجل بـ «ثم» بعد قولهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ اللَّهَ جَهْرَةً﴾، لا لترتيب
 الأفعال من حيث الزمان؛ بل لترتيبها في الذكر، فإنَّ اتخاذهم العجل كان
 قبل قولهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ اللَّهَ جَهْرَةً﴾، كما يدل لذلك تفصيل القصة في سورة
 «الأعراف»، وما في «ثم» من التراخي إنما يفيد التراخي الرتبى، فإنَّ اتخاذ
 العجل إلها أسوأ ما فعل بنو إسرائيل فهو أقبح من قول من قال منهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ
 اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(١)، وقوله: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾^(١٥٢)؛ أي: حجة بينة ظاهرة
 قاهرة دالة على صدق موسى بأنه رسول من رب العالمين، وقوله تعالى:
 ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ﴾؛ أي: ورفعنا الجبل فوقهم بسبب ميثاقهم،
 وهو أن يعطوا العهد المؤكد على الإيمان بالتوراة والعمل بما فيها، فلم يفوا
 بعهدهم، وقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ أي: باب القرية المقدسة،
 وهو: باب بيت المقدس المعروف بباب حطة كما جاء عن ابن عباس
 وغيره^(٢)، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وبدلوا القول الذي قيل لهم،
 وقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾؛ أي: نهيناهم عن صيد الحوت يوم
 السبت فاحتالوا على ذلك، وصادوا يوم السبت بالحيلة فاعتدوا بذلك
 حدود الله، وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(١٥٣)؛ وهو الميثاق الذي أخذ
 منهم يوم رفع الطور على رؤوسهم، وما تلاه من المواثيق، ومعنى غليظاً؛
 أي: مؤكداً شديداً، وفي هذه الآيات تعداد قبائحهم القولية والفعلية، وكلها
 مذكورة في آيات من سورة «البقرة» من غير تفصيل، وقصة العجل والسبت
 ورفع الطور مفصلة في سورة «الأعراف»، وفي سورة «طه» تفصيل لقصة

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٦/ ١٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٧١٤).

العجل، وأمرهم بدخول أبواب القرية سجّداً مفصل في سورة «الأعراف» في قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ...﴾ [الأعراف: ١٦١] الآيتين، إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف]، وفي سورة «البقرة» في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ...﴾ [البقرة: ٥٨] الآيتين؛ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة]، وفي سورة «المائدة» تفصيل لأمرهم بدخول الأرض المقدسة، وقد أجمع الله ذلك كله في هذه الآيات من سورة «النساء».

﴿يَسْأَلُكَ﴾ - يا مُحَمَّد - ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾: اليهود ﴿أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ جملة، كما أنزل على موسى، تعتّا. فإن استكبرت ذلك ﴿فَقَدْ سَأَلُوا﴾ أي: أبائهم ﴿مُوسَى أَكْبَرَ﴾: أعظم ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ فقالوا: أرنا الله جَهْرَةً ﴿عَيْنًا﴾. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾: الموت عقاباً لهم ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾، حيث تعتّوا في السؤال، ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلهًا، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾: المعجزات على وحدانية الله، ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ ولم نستأصلهم، ﴿وَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾: تسلطاً بيّناً ظاهراً عليهم، حيث أمرهم بقتل أنفسهم توبة فأطاعوه، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾: الجبل، ﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾: بسبب أخذ الميثاق عليهم ليخافوا فقبلوه، ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ وهو مُظِلُّ عليهم: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي: باب القرية ﴿سُجَّدًا﴾ سُجُودَ انحناءٍ. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾: لا تعدّوا - وفي قراءة بفتح العين وتشديد الدال، وفيه إدغام التاء في الأصل في الدال - أي: لا تعتدوا ﴿فِي السَّبْتِ﴾ باصطياد الحيتان فيه. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ على ذلك فنقضوه.

وقول المؤلف: (يا مُحَمَّد): بيان للمخاطب، وهو ظاهر.

وقوله: (اليهود): بيان للمراد بأهل الكتاب.

وقوله: (جُمْلَةً...) إلى آخره: يريد أنهم سألوا النبي أن ينزل عليهم كتابًا من السماء سؤال تعنت، لا طلبًا لمعرفة الحق.

وقوله: (فإن استكبرت ذلك)؛ أي: استعظمت سؤالهم تنزيل كتاب، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا: ﴿أَرَأَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، فدل ذلك أن تعنتهم وعنادهم قديم، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ.

وقوله: (أي: آبائهم): بيان للمراد بالذين سألوا موسى أكبر مما سأل اليهود النبي، والذين سألوا موسى؛ فقالوا: ﴿أَرَأَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، هم أسلاف اليهود الموجودين في عهد النبي ﷺ.

وقوله: (أعظم)؛ أي: أعظم تعنتًا وجرأة على الله.

وقوله: (عيانًا)؛ أي: نراه بأعيننا لا نشك في رؤيته.

وقوله: (الموت عقابًا لهم): تفسير: للصاعقة، وليس هذا بجيد؛ بل الصاعقة الصيحة، وهي: سبب الموت لا الموت نفسه.

وقوله: (حيث تعنتوا في السؤال): يريد أن تعنتهم هو الظلم الذي بسببه أخذتهم الصاعقة.

وقوله: (إلهاً): تقدير: للمفعول الثاني لـ «اتخذوا»، فإن اتخذ ينصب مفعولين.

وقوله: (المُعجزات على وحدانية الله): بيان للمراد بالآيات، وهي: الآيات التي جاء بها موسى كالعصا واليد وخلق البحر.

وقوله: (ولم نستأصلهم): بيان لأثر العفو؛ المعنى: فلولا أن الله عفا عنهم لاستأصلهم؛ أي: أهلكهم جميعًا.

وقوله: (تسلطاً...) إلى آخره: تفسير: للسلطان بالتسلط، والمعروف في معنى السلطان في القرآن الحجة^(١)، والحجة الظاهرة تجعل لصاحبها تسلطاً على خصمه، وبهذا يظهر وجه كلام المؤلف.

وقوله: (الجل): هذا: هو المعنى المشهور في تفسير الطور، ويشهد لهذا قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]، وبعضهم يخص الطور بالمُنْبِت^(٢).

وقوله: (بسبب...) إلى آخره: يبين أن الباء سببية، وأن رفع الطور سببه حملهم على إعطاء الميثاق اضطراراً أن يؤمنوا بما في التوراة. وقوله: (وهو مُظِلُّ عليهم)؛ أي: والجبل فوقهم كالظلة، ومعناه: أنه قيل لهم ادخلوا الباب سجّداً، والجبل فوقهم كالظلة، وفي هذا نظر، والمشهور عند المفسرين أن رفع الجبل فوقهم عندما جاءهم موسى بالتوراة في الألواح، فأبوا أن يقبلوها فرفع الجبل فوقهم ليقبلوها، ويؤمنوا بما فيها^(٣).

وقوله: (أي: باب القرية): قيل هي: إيليا، وقيل: أريحا، وقيل: المراد بالباب هو باب حطة أحد أبواب بيت المقدس^(٤).

وقوله: (سُجُودَ انحناءٍ): وهو: الركوع كما جاء عن ابن عباس سجّداً؛ أي: ركعاً^(٥)؛ لأنَّ السجود على الجبهة لا يمكن معه الدخول.

(١) وهو الغالب وقد يأتي بمعنى الملك والقهر. ينظر: نزهة الأعين النواظر (ص ٣٤٤).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٢/ ٤٨).

(٣) ينظر على سبيل المثال: تفسير الطبري (٢/ ٤٧)، والثعلبي (٣/ ٣٦٢)، والتفسير البسيط (٢/ ٦٣٠).

(٤) ينظر: تفسير أبي السعود (٢/ ٢٥٠).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٧١٤).



وقولُه: (وفي قراءة ...) إلى آخره: معنى هذه القراءة: لا تعتدوا من الاعتداء، وهو المجاوزة، والقراءة الأخرى: لا تعدوا من العدوى، ومعنى القراءتين واحد^(١).

وقولُه: (باصطياد الحِيتان فيه): بيان للاعتداء، الواقع منهم فيه لأنهم قد نهوا عن ذلك.

وقولُه: (على ذلك فنقضوه)؛ أي: قد أخذ منهم الميثاق على ترك الاصطياد يوم السبت فاحتالوا، ونقضوا الميثاق.



(١) ينظر: معاني القراءات للأزهري (١/ ٣٢٢).

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بَايَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ۝١٥٦﴾ وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَعَ الظَّنُّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ ۚ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٩].

يخبر تعالى في هذه الآيات ببعض قبائح اليهود، فمعناها متصل بالآيات السابقة، وأخبر تعالى أنه بسبب هذه القبائح نقض الميثاق الذي بينهم وبين الله، وكفرهم بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ، فما قتلوه ولا صلبوه؛ بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً، ثم أخبر تعالى أنه ما أحد من أهل الكتاب اليهود والنصارى إلا ليؤمنن بالمسيح ابن مريم قبل موته؛ قيل: موت المسيح، وقيل: موت الكتابي، والأول أظهر لتحد الضمائر، ولقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩﴾، واختار هذا القول ابن جرير، ورواه عن ابن عباس، وغيره من السلف^(١)، ونقله عنه ابن كثير واختاره^(٢)، وأن إيمان أهل الكتاب يكون حين ينزل المسيح ابن مريم آخر الزمان، ويحكم بشريعة الإسلام، فيقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، وساق ابن كثير الأحاديث في ذلك فليرجع إليه^(٣).

(١) (٦٦٣/٧)، (٦٧٢/٧).

(٢) (٤٥٤/٢).

(٣) (٤٥٥/٢).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ ما: زائدة، والباء: للسببية متعلقة بمحذوف، أي: لعناهم بسبب نقضهم ﴿مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ، وَقَوْلِهِمْ﴾ للنبي: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: لا تعي كلامك - ﴿بَلْ طَبَعَ﴾: ختم ﴿اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فلا تعي وعظاً، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم، كعبد الله بن سلام وأصحابه - ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ ثانياً بعيسى، وكرّر الباء للفصل بينه وبين ما عطف عليه، ﴿وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ حيث زموها بالزنى، ﴿وقولهم﴾ مفتخرين: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾، في زعمهم. أي: بمجموع ذلك عذبناهم. قال تعالى تكذيباً لهم في قتله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ، وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ المقتول والمصلوب - وهو صاحبهم - بعيسى، أي: ألقى الله عليه شبهه فظنوه إياه. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: في عيسى ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾: من قتله - حيث قال بعضهم لما رأوا المقتول: الوجه وجه عيسى والجسد ليس بجسده، فليس به. وقال آخرون: بل هو هو - ﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾ بقتله ﴿مِنْ عِلْمٍ، إِلَّا اتَّبَاعُ الظَّنِّ﴾: استثناء منقطع، أي: لكن يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾: حال مؤكدة لنفي القتل، ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ. وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ في ملكه، ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه.

﴿وَإِنْ﴾: ما ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أحدٌ ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾: بعيسى، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: الكتابي، حين يُعَايِن ملائكة الموت فلا ينفعه إيمانه، أو قبل موت عيسى لما ينزل قرب الساعة كما ورد في حديث، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ﴾ عيسى ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، بما فعلوه لما بُعث إليهم.

وقول المؤلف: (ما: زائدة...) إلى آخره؛ هذا من مصطلحات النحويين؛ يقولون: «ما» زائدة بعد «إذا» كثيراً، وبعد بعض الحروف ك: «إن»، والباء التي لسببية ك «ما» في هذه الآية؛ كما ذكر المؤلف، وقولهم: «زائدة» يريدون: أن ليس لها معنى حرفي، ولا اسمي؛ بل هي للتأكيد، وقولهم: الباء سببية يريد أن «ما» دخلت عليه، وما عطف عليه سبب للعنهم، والطبع على قلوبهم.

وقوله: (للنبي): يبين أن اليهود خاطبوا النبي ﷺ، بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

وقوله: (لا تعي كلامك): بيان لمقصودهم بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾. وقوله: (ختم): تفسير: للطبع بالختم، ومعناها متقارب، وقد جاء اللفظان في القرآن.

وقوله: (فلا تعي وعظاً): بيان لأثر الطبع على قلوبهم. وقوله: (منهم...) إلى آخره: يبين أن الاستثناء من الأشخاص. وقوله: (ثانياً بعيسى): بيان للمراد بالكفر الثاني المعطوف على ما قبله، وهو الكفر بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والكفر الأول كفر بآيات الله.

وقوله: (وكرر الباء...) إلى آخره؛ أي: السببية في قوله: ﴿وَكُفِّرْهُمْ﴾: ليبين سبب تكرارها، وهو الفصل بين المعطوف، والمعطوف عليه. وقوله: (حيث رَمَوْهَا بِالزَّنَى): بيان للمراد بالبهتان.

وقوله: (مفتخرين): بيان لمقصودهم من دعوى قتل المسيح، وهو الفخر بقتل المسيح.

وقوله: (في زعمهم): يريد أن قتلهم للمسيح دعوى لا حقيقة لها. وقوله: (بمجموع ذلك عذبناهم): يريد مجموع ما أخبر الله به عنهم من نقض الميثاق، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء، إلى آخر ما ذكر في الآيات.

وقوله: (قال تعالى تكذِّباً لهم في قتله): بيان لمقصود الخبر في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾، وهو تكذيبهم في زعمهم قتل المسيح وصلبه.
 وقوله: (المقتول والمصلوب ...) إلى آخره: بيان للمشبه، والمشبه به؛ فالمشبه هو صاحبهم الذي انتدبوه لقتل المسيح، والمشبه به عيسى، ثم بين المؤلف كيف كان ذلك، وهو أنَّ شبه عيسى ألقى على صاحبهم فقتلوا صاحبهم، وهذا من مكر الله بهم.

وقوله: (أي: في عيسى): بيان للمراد بالضمير المجرور.
 وقوله: (من قتله ...) إلى آخره: بيان للمشكوك فيه، وهو قتل المسيح، فشكوا هل المقتول المسيح أو غيره، فشكوا في قتل المسيح.
 وقوله: (بقتله): بيان للمراد بالضمير المجرور في قوله: ﴿بِهِ﴾.

وقوله: (استثناء منقطع ...) إلى آخره؛ بيان لنوع الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ﴾، فقال: إنه استثناء منقطع، ووجهه أنه استثناء للظن من العلم، والظن ليس من العلم فما قالوه في قتل المسيح هو اتباع لما ظنوه فليسوا على يقين أنهم قتلوا المسيح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

وقوله: (حال مؤكدة لنفي القتل): يريد أن جملة: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ في موضع نصب على الحال، وهي: مؤكدة لقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾.
 وقوله: (في ملكه)، و(في صنعه): بيان لمتعلق الاسمين.
 وقوله: (ما): يبين أن «إن» نافية.

وقوله: (أحد): تقدير: مبتدأ خبره الجار والمجرور من أهل الكتاب.
 وقوله: (بعيسى): بيان للمراد بالضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾.
 وقوله: (أي: الكتابي ...) إلى آخره: يريد أن الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾؛ فيه قولان قيل: يعود على الكتابي، وقيل: يعود إلى المسيح بن

وقوله: (في حديث): يشير: إلى الحديث الوارد في شأن نزول المسيح
آخر الزمان.

وقوله: (عيسى): بيان لمرجع الضمير المستتر في يكون.

وقوله: (بما فعلوه...) إلى آخره: بيان لما يشهد به، ومن يشهد عليهم.



وقوله تعالى: ﴿فَبَطَّلُوا حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ طَبَّيْتُ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦٦﴾ لَكِنَّ الرَّاْسُخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٦٧﴾ [النساء: ١٦٠-١٦٢].

يخبر تعالى عما عاقب به اليهود بسبب ظلمهم وصددهم عن سبيل الله، وأخذهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، فعاقبهم بتحريم الطيبات عليهم، كما فصل ذلك في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ۖ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝١٤٦﴾ [الأنعام]، ثم أخبر تعالى أنه أعتد للكافرين منهم عذاباً أليماً، أما الراسخون في العلم منهم والمؤمنون، فإنهم يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل على من قبله، ويطيعون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بالله، واليوم الآخر فهؤلاء وعدهم الله أن يؤتيهم أجراً عظيماً.

﴿فَبَطَّلُوا حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ طَبَّيْتُ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي: بسبب ظلم ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود، ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَبَّيْتُ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ -هي التي في قوله: «حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ» الآية- ﴿وَبِصَدِّهِمْ النَّاسَ﴾ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ: ﴿دِينَهُ صَدًّا﴾ كَثِيرًا، وَأَخْذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴿فِي التَّوْرَةِ﴾، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ: بِالرُّشَا فِي الْحُكْمِ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا: مُؤَلَّمًا.

﴿لَكِنَّ الرَّاْسُخُونَ﴾: الثابتون ﴿فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾، كعبد الله بن سلام، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾: المهاجرون والأنصار، ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الكتب -﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ نَصَبَ عَلَى

المدح، وُقِرَّ بالرفع - ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾، بالنون والياء، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنة.

وقول المؤلف: (أي: بسبب ظلم): يريد أن الباء سببية، وما بعدها سبب لتحريم ما حرم الله عليهم.

وقوله: (هم: اليهود): بيان للمراد: بـ ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾، أنهم اليهود دون النصارى.

وقوله: (هي التي ...): إلى آخره؛ يريد أن هذه الآية تفسرها آية الأنعام. وقوله: (الناس): بيان لمفعول الصد.

وقوله: (دينه صدًا): بيان للمراد بـ ﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾، وقوله: (صدًا): بيان للموصوف بـ ﴿كَثِيرًا﴾.

وقوله: (في التوراة): بيان لمصدر النهي.

وقوله: (بالرُّشَا في الحُكْم): مثال: لأكل المال بالباطل.

وقوله: (مؤلمًا): يبين أن «أليم»، أصلها اسم فاعل من آلمه.

وقوله: (الثابتون): تفسير: لـ ﴿الرَّاسِخُونَ﴾؛ لأن من رسخت قدمه لا

تزل؛ بل تثبت.

وقوله: (كعبد الله بن سلام): هذا مثال للراسخين في العلم من اليهود،

ولعبد الله بن سلام أصحاب دخلوا كلهم في الإسلام.

وقوله: (المهاجرون والأنصار): هذا: أحد القولين في المراد

بـ «المؤمنون»، وعلى هذا فهم صنف آخر غير الراسخين في العلم من اليهود،

وقيل: المؤمنون صفة أخرى للراسخين؛ فهم راسخون ومؤمنون^(١)، فعلى

(١) ينظر: الكشف (٢/ ١٧٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٣٤).

الأول هو عطف صنف على صنف، وعلى الثاني من عطف الصفات، والقول الثاني أظهر؛ فالآية كلها في الراسخين في العلم.

وقوله: (من الكتب): يشمل: القرآن والتوراة والإنجيل.

وقوله: (نُصِبَ على المدح): معناه أنه منصوب بفعل محذوف؛ تقديره: أمدح المقيمين.

وقوله: (وُقِرَّ بالرفع): نسبة: هذه القراءة إلى ابن مسعود ذكر ذلك ابن جرير^(١) وابن كثير^(٢).

وقوله: (بالنون والياء): إشارة: إلى قراءتين في الآية: نؤتيهم، ويؤتيهم^(٣).

وقوله: (هو الجنة): لأنها: التي أعدها الله للمتقين، ووعدھا المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [النساء: ٥٧]، ونظائرھا كثير.



(١) (٦٨١/٧).

(٢) (٤٦٨/٢)، وذكر ابن كثير أنها في مصحف أبي بن كعب، ونسبت لابن عباس، وابن جبير، والحجدي وغيرهم. ينظر: شواذ القراءات للكرمانى (ص ١٤٧)، ومختصر شواذ القرآن لابن خالويه (ص ٣٦)، والبحر المحيط (٤/١٤٣).

(٣) ينظر: المبسوط (ص ١٨٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۖ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۖ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٦].

يخبر تعالى نبيه ممتناً عليه بأنه أوحى إليه كما أوحى إلى نوح أول الرسل، والنبيين من بعده؛ كهود وصالح ولوط وشعيب، وأوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وأخبر تعالى أنه أعطى داود كتاباً اسمه الزبور، ثم أخبر تعالى أنه أرسل رسلاً قصصهم على رسوله من قبل، وأرسل رسلاً لم يقصصهم عليه، وأنه تعالى كلم موسى تكليماً؛ أي: بلا واسطة، ثم ذكر تعالى ما أرسل الله به الرسل، والغاية التي أرسلوا من أجلها؛ فقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ﴾، وكل هذا من آثار عزته وحكمته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ﴾، ثم أخبر أنه تعالى يشهد بما أنزله على رسوله من القرآن أنه حق من عند الله، وأنه تعالى أنزله عالم به، ومتضمناً للعلم الذي يريد الله من عباده أن يعلموه من الأخبار والأوامر والنواهي ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۖ﴾؛ أي: كفت شهادته عن شهادة كل شاهد كيف، وهو أكبر شاهد.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَ﴾ كما ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ابْنِيهِ،﴾ ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ بن

إِسْحَاقَ ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ أَوْلَادِهِ، ﴿وَعِيسَىٰ وَيُوحَنَّا وَهَارُونَ
وَسُلَيْمَانَ، وَآدِينَ﴾ أَبَاهُ ﴿دَاوُدَ زَبُورًا﴾، بِالْفَتْحِ: اسْمٌ لِلْكِتَابِ الْمُؤَتَى،
وَالضَّمُّ: مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى: مَزَبُورًا أَيْ: مَكْتُوبًا.

﴿و﴾ أَرْسَلْنَا ﴿رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ، وَرُسُلًا لَمْ
نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ - رُوي أَنَّهُ تَعَالَى بَعَثَ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ نَبِيِّ: أَرْبَعَةَ آلَافٍ
مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَرْبَعَةَ آلَافٍ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ. قَالَ الشَّيْخُ فِي سُورَةِ
«غَافِرٍ» - ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ﴾ بِلا واسطة ﴿تَكْلِيمًا، رُسُلًا﴾: بَدَلٌ مِنْ
«رُسُلًا» قَبْلُ، ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بِالثَّوَابِ مَنْ آمَنَ، ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ بِالْعِقَابِ مَنْ
كَفَرَ، أَرْسَلْنَاهُمْ ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾، تُقَالُ ﴿بَعْدَ﴾
إِرْسَالِ ﴿الرُّسُلِ﴾ إِلَيْهِمْ، «فَيَقُولُوا: رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَتَتَّبَعَ
آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». فَبَعَثْنَاهُمْ لِقَطْعِ عُذْرِهِمْ. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾
فِي مُلْكِهِ، ﴿حَكِيمًا﴾ فِي صُنْعِهِ.

وَنَزَلَ، لَمَّا سُئِلَ الْيَهُودُ عَنْ نَبَوْتِهِ ﷺ فَأَنْكَرُوهُ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾:
يُبَيِّنُ نَبَوْتَكَ، ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُعْجَزِ، ﴿أَنْزَلَهُ﴾ مُلْتَبِسًا
﴿بِعِلْمِهِ﴾ أَيْ: عَالِمًا بِهِ، أَوْ: وَفِيهِ عِلْمُهُ، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ لَكَ
أَيْضًا ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ عَلَى ذَلِكَ!

وَقَوْلُ الْمُؤَلَّفِ: (كَمَا): يَرِيدُ أَنَّ الْمَعْنَى: وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى
إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، مَعْطُوفٌ عَلَى: ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا
إِلَىٰ نُوحٍ﴾.

وَقَوْلُهُ: (ابْنِيهِ): يَبَيِّنُ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ابْنِي إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ أَوْحَى
اللَّهُ إِلَيْهِمَا كَمَا أَوْحَى إِلَىٰ أَبِيهِمَا.

وقوله: (بن إسحاق): يبين أن يعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم.

وقوله: (أولاده): يريد أن الأسباط أولاد يعقوب.

وقوله: (أباه)؛ أي: أبا سليمان، وهو داود.

وقوله: (بالفتح ...) إلى آخره: يبين أن في الزبور قراءتين بفتح الزاي،

وضمها^(١)؛ فبالفتح اسم للكتاب، وبالضم مصدر؛ بمعنى: كتابًا مزبورًا؛ أي: مكتوبًا.

وقوله: (أرسلنا): يبين أن «رسلنا» مفعول به لفعل محذوف؛ تقديره:

أرسلنا.

وقوله: (رؤي ...) إلى آخره: هذه رواية ضعيفة، والمشهور حديث

أبي ذر في عدد الرسل والأنبياء، وفيه قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال:

«هم مئة وأربعة وعشرون ألفًا، والرسل ثلاث مئة وثلاثة عشر جمًّا غفيرًا»

رواه أحمد وغيره، واختلف في صحته^(٢)، والذي يظهر أن مراده بالشيخ المحلي.

وقوله: (بلا واسطة): حق، لكن من وراء حجاب؛ لقوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾

[الأعراف: ١٤٣]، وأكثر الرسل يكلمهم الله بإرسال ملك إليهم؛ كما قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾

[الشورى: ٥١].

(١) ينظر: المبسوط (ص ١٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٤٦)، (٢٢٢٨٨)، وصححه ابن حبان (٣٦١)، وقال ابن تيمية: «...»

كما أنهم يؤمنون بالأنبياء والكتب وهم لا يعرفون عدد الكتب والرسل، وهذا الذي ذكره أحمد، وذكره محمد بن نصر، وغيرهما، يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل، وأن حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم. الإيمان (ص ٣٢٠). وينظر: تخريج الكشاف (٢/ ٣٨٨ رقم ٨٢٢)، والصحيحة (٢٦٦٨).

وقوله: (بدل...) إلى آخره؛ بيان لوجه نصب رسلاً؛ فهو منصوب على البدل من رسل في قوله: ﴿وَرُسُلًا لَمْ تَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾. وقوله: (بالثواب من آمن): بيان للمبشر، والمبشر به. وقوله: (بالعقاب...) إلى آخره: بيان للمنذر والمنذر به، وقوله: (أرسلناهم): تقدير: للعامل في الحال؛ التقدير: أرسلنا الرسل حال كونهم مبشرين ومنذرين، وهي: حال مقدرة.

وقوله: (تُقال)؛ أي: تذكر، ويتكلم بها، وهي: اعتذارهم لو لم يرسل الله إليهم رسلاً؛ بقولهم: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبَعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، وقولهم: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبَعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤]، ففي إرسال الرسل قطع لحجتهم، وقد أقام الله الحجة عليهم، فأرسل الرسل فما من أمة إلا خلا فيها نذير: ﴿بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ولهذا إذا قيل للكفار، وهم في النار: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ ﴿[الملك: ٨-٩]، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، فيقرون على أنفسهم بتكذيب الرسل؛ لأنه لا حجة لهم فقد جاءتهم الرسل، وبلغتهم، وهذا يفسر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقوله: (إرسال)؛ أي: بعد إرسال الله الرسل، وإرسال الرسل هو فعل الله الذي أعذر الله به إلى الناس، فلم تكن لهم حجة عليه سبحانه. وقوله: (إليهم)؛ أي: إلى الناس والجار والمجرور متعلق بإرسال. وقوله: (فيقولوا): بيان لما يقولونه في الاحتجاج عن عدم إيمانهم، وهذا القول مقتبس من آية القصص: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا... ﴿[القصص: ٤٧] الآية، وهي: حجة داحضة لأن الله قد أرسل إليهم رسولاً.

وقوله: (في ملكه)؛ أي: إنه في ملكه ذو عزة وغلبة ومنعة فلا يخشى من أحد، ولا يغلبه شيء لكمال قدرته وعظيم سلطانه.

وقوله: (في صنعه): معناه أن الله حكيم في خلقه فلا يخلق شيئاً عبثاً، ويضع كل شيء في موضعه تدبيراً وتقديرًا.

وقوله: (ونزل...) إلى آخره: يشير إلى سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾^(١).

وقوله: (يُبَيِّنُ نَبْوَتَكَ): تفسير: ليشهد بإقامة الأدلة على صدقه.

وقوله: (من القرآن المعجز)؛ أي: أن إنزال القرآن المعجز شهادة من الله.

وقوله: (مُلتبسًا)؛ أي: مشتملاً على علم الله أو أنزله عالمًا به.

وقوله: (أي: عالمًا به...) إلى آخره: قيل أنزله بعلمه أي: عالمًا به، وقيل: أنزله وفيه علمه الذي يريد أن يطلع عليه عباده^(٢)، فعلى الأول فالباء للحالية، وعلى الثاني فالباء بمعنى «في».

وقوله: (لك أيضًا)؛ أي: الملائكة يشهدون لك بالرسالة مع شهادة الله، وهو نظير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ١٨]، فالملائكة يشهدون لله بالتوحيد، وللنبي بالرسالة.

وقوله: (على ذلك!)؛ أي: على أنك رسول الله، وأن القرآن حق من عند الله.



(١) ينظر: أسباب النزول (ص ١٨٧)، ولباب النقول (ص ٨٩).

(٢) ينظر: التفسير البسيط (٧/ ١٩٩)، وزاد المسير (١/ ٥٠٠).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ [النساء: ١٦٧-١٧٠].

يخبر تعالى عن ضلال الذين كفروا بالله وصدوا الناس عن سبيل الله سبيل الحق أنهم ضلوا ضلالاً بعيداً، ثم أخبر تعالى عن الذين كفروا بالله، وظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا عباد الله أنه تعالى لن يغفر لهم، ولن يهديهم طريقاً من طرق الخير لكن يهديهم طريق جهنم، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، لكمال قدرته وهوانهم على الله، ثم توجه الخطاب إلى الناس بدعوتهم إلى الإيمان بالله ورسوله، فمن آمن فهو خير له، ومن كفر فالله غني عنه؛ لأن له ما في السموات والأرض ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧)، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء بعلم تام وحكمة بالغة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: دين الإسلام بكتهم نعتاً لمحمد - وهم اليهود - ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الحق. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، ﴿وظَلَمُوا﴾ نبيّه بكتمان نعته، ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ، وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ من الطرق، ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ أي: الطريق المؤدي إليها، ﴿خَالِدِينَ﴾: مُقَدَّرِينَ الخلود ﴿فِيهَا﴾ إذا دخلوها ﴿أَبَدًا﴾، وكان ذلك على الله يسيراً: هيئاً. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي: أهل مكة، ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾ مُحَمَّد ﴿بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. فآمنوا به، واقصدوا ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ مما أنتم فيه، ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ به ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وخلقًا وعبيدًا، فلا يضره كفركم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه، ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه بهم.

وقول المؤلف: (بالله): بيان لمتعلق الكفر، وأصل الكفر هو الكفر بالله.
وقوله: (الناس): تقدير: لمفعول صدوا، وفيه بيان أن «صدوا» من
الفعل المتعدي.

وقوله: (دين الإسلام...) إلى آخره: تفسير: سبيل الله بالإسلام، وهو
بيان للمصدود عنه، والصادون؛ هم: اليهود، وصدّهم عن سبيل الله الذي
جاء به محمد ﷺ بكتمان صفة النبي ﷺ.

وقوله: (وهم اليهود): لفظ: الآية عام لكل من كفر وصد عن سبيل
الله، ولكن اليهود أخص بهذا الوصف، ويؤيد أنهم المراد بالآية أنه قد تقدم
ذكر قبائحهم القولية والفعلية من قوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [النساء:
١٥٣]، إلى قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [النساء: ١٦٠].

وقوله: (عن الحق): بيان لمتعلق الضلال.
وقوله: (بالله): كالتي قبلها.

وقوله: (نبيّه بكتمان نعته): بيان لمن وقع عليه ظلمهم، وذكر الظلم
واقع على النبي تعبيراً لا أصل له في كتاب ولا سنة، ولا قول أحد من
السلف^(١)، والصواب: تفسيره بظلم أنفسهم وظلم الناس^(٢).

وقوله: (أي: الطريق المؤدّي إليها): بيان لوجه إضافة الطريق إلى جهنم.
وقوله: (مُقدّرِين الخلود): يبين أن خالدين حال مقدرة؛ لأنّ الخلود لا
يكون عند الدخول لكن بدوام الإقامة فيها.

(١) وهو في كتب التفسير بلا نسبة لأحد من السلف، ونسبه الواحدي في البسيط (٢٠١ / ٧)
لابن عباس، ولم نجده عند غيره. وأشار المحقق أنه في «تنوير المقباس من تفسير ابن
عباس» الذي جمعه الفيروزآبادي ولم نجده فيه. ينظر: تنوير المقباس (ص ٨٦)، مع
التنبية أن الفيروزآبادي نقل في هذا الكتاب تفاسير ابن عباس من طريق واحد موضوع
عن محمد بن مروان السُّدِّي الصغير عن الكلبى وكلاهما متهم بالكذب. ينظر: الميزان
(٨١٥٤)، (٧٥٧٤).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦٩٦ / ٧).



وقوله: (إذا دخلوها): يبين أنَّ الخلود إنما يكون بعد الدخول، وهذا معنى قوله: (مقدرين الخلود).

وقوله: (هيئاً): معناه لا يشق عليه تعذيبهم.

وقوله: (أهل مكة): لفظ الناس عام، وخصه المؤلف بأهل مكة لأنهم المخاطبون أولاً.

وقوله: (مُحمَّد): بيان للمراد بالرسول.

وقوله: (به): بيان لمعمول آمنوا، واقصدوا؛ لا يظهر لها معنى.

وقوله: (مِمَّا أنتم فيه): معناه أنَّ إيمانكم خير لكم مما أنتم فيه من

الكفر والشرك، لأنكم بالإيمان تنجون من العذاب، وتفوزون بالثواب.

وقوله: (به؛ أي: بالرسول، والجار والمجرور معمول تكفروا.

وقوله: (مُلْكًا...) إلى آخره: بيان لما تدل عليه اللام، وهو الغنى

والملك.

وقوله: (بخلقه): بيان لمتعلق العلم، وهو تعالى بكل شيء عليم.

وقوله: (في صنعه بهم): تقدم: التعليق على نظيره قريباً^(١).



وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوَ خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَكْفِ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَبَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

ينهى الله تعالى أهل الكتاب، وهم: النصارى عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد في الأعمال والأقوال الشرعية، ونهاهم عن أن يقولوا على الله إلا الحق لا يقولوا الباطل كقولهم المسيح ابن الله، ثم رد الله عليهم هذا القول ببيان حقيقة المسيح؛ فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، فهذا هو المسيح رسول من رسل الله، وهو كلمة الله؛ لأنه مكون بكلمة الله كن، وهو روح من الله؛ لأن نفسه من الأرواح التي خلقها الله فمبتدأ أمره من الله، ومنتهاه إلى الله، ثم أمر الله أهل الكتاب النصارى بالإيمان به وبرسله، ونهاهم عن قولهم الله ثالث ثلاثة، فإن انتهوا كان خيرا لهم؛ قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوَ خَيْرًا لَكُمْ﴾، ثم أكد إبطال قول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾، ثم أخبر تعالى أن المسيح لن يأنف ولن يستكبر أن يكون عبداً لله، وكذا الملائكة المقربون لن يستكفوا أن يكونوا عباد لله؛ فقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَكْفِ الْمَسِيحُ أَنْ

يَكُونُ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٠٠﴾، ثم توعد المستكبرين عن عبادته بأنهم سيحشرون إلى الله فيحاسبهم ويعاقبهم، ثم أخبر تعالى بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيوفيههم الله أجورهم ويزيدهم من فضله، وأما الذين استنكفوا واستكبروا عن عبادته فإنه تعالى يعذبه عذابًا أليمًا، ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيرًا.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: الإنجيل، ﴿لَا تَغْلُوا﴾: تتجاوزوا الحدَّ ﴿فِي دِينِكُمْ﴾، وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْقَوْلَ ﴿الْحَقَّ﴾، من تنزيهه عن الشريك والولد. ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا: أَوْصَلَهَا ﴿إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ﴾ أي: ذو رُوح ﴿مِنْهُ﴾. أضيف إليه -تعالى- تشريفًا له، وليس كما زعمتم ابن الله أو إلهًا معه أو ثالث ثلاثة، لأنَّ ذا الرُّوح مركَّب والإله منزَّه عن التركيب، وعن نسبة المُرْكَب إليه. ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، وَلَا تَقُولُوا: ﴿الْأَلَهَةُ ثَلَاثَةٌ﴾ اللهُ وَعِيسَى وَأُمُّهُ. ﴿انْتَهَوْا﴾ عن ذلك واثبتوا ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ منه. وهو التوحيد. ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ، سُبْحَانَهُ﴾: تنزيهًا له عن ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿خَلَقًا وَمُلَكًا﴾ -والمُلْكِيَّةُ تُنافي البُنُوَّةَ- ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: شهيدًا على ذلك!

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾: يتكبر ويأنف ﴿الْمَسِيحُ﴾ الذي زعمتم أنه إله، عن ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾، وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿عِنْدَ اللَّهِ لَا يَسْتَنْكِفُونَ أَنْ يَكُونُوا عِبِدًا. وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْإِسْطِرَادِ. ذِكْرُ لِلرَّدِّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهَا آلِهَةٌ أَوْ بَنَاتُ اللَّهِ، كَمَا رُدَّ بِمَا قَبْلَهُ عَلَى النَّصَارَى الزَّاعِمِينَ ذَلِكَ الْمَقْصُودَ خِطَابُهُمْ. ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فِي الْآخِرَةِ.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾: ثواب أعمالهم، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنَكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادته ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: مؤلماً، هو عذاب النار، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غيره ﴿وَلِيًّا﴾ يدفعه عنهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يمنعهم منه.

وقول المؤلف: (الإنجيل): يبين بذلك أن الخطاب للنصارى؛ لأن الإنجيل هو كتابهم المنزل على عيسى.
وقوله: (تجاوزوا الحد): تفسير: تغلوا؛ لأن الغلو مجاوزة الحد في كل شيء بحسبه، وهو أخص بالتعظيم والحب.
وقوله: (القول): يبين أن الحق صفة لموصوف محذوف؛ تقديره: القول.

وقوله: (من تنزيهه عن الشريك والولد): بيان للمراد بالقول الحق بأنه تنزيه الله عن الشريك والولد.

وقوله: (أوصلها): تفسير: ألقاها، يدل عليه تعدية الفعل بـ«إلى».
وقوله: (أي: ذو روح): يريد أن عيسى سُمي روحاً؛ لأنه ذو روح، وفي هذا نظر فإنه ليس كل ذي روح يصح أن يسمى روحاً؛ بل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سماه الله روحاً؛ لأنه مخلوق من نفخة الملك في فرج مريم، والملك جبريل وهو روح الله وروح القدس، ولذا قال الله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧].

وقوله: (أضيف إليه...): إلى آخره؛ أي: نسب إلى الله خلقاً وابتداء فهو بمعنى: روح الله، وهذه الإضافة من إضافة المخلوق إلى خالقه،

وتخصيص عيسى بهذه الإضافة مع أنَّ جميع المخلوقات من الله تفيد شريفاً كبيت الله، وناقة الله.

وقوله: (والإله منزّه عن التركيب): التركيب لفظ مجمل يحتمل عدة معان، لذلك لا يصح وصف الله به لا نفيًا ولا إثباتًا؛ لذلك لم يرد في كلام السلف^(١).

وقوله: (وعن نسبة المركّب إليه): أما نسبة التركيب والمركب إلى الله اسمًا أو صفة ففيه تفصيل، أما نسبته إلى الله خلقًا فكل ما في المخلوقات من المركبات تجب نسبة خلقها إلى الله.

وقوله: (الآلهة): يريد أنَّ «ثلاثة» خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: لا تقولوا الآلهة ثلاثة، والخطاب للنصارى من أهل الكتاب كما في أول الآية، لأنهم القائلون بالتثليث؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، الله والمسيح وأمه.

وقوله: (الله...): إلى آخره: بيان لمراد النصارى بالثلاثة.

وقوله: (عن ذلك)؛ أي: عن القول بالثلاثة.

وقوله: (وأتوا): تقدير: لناصب «خيرًا» على المفعولية، وأحسن من هذا الإعراب جعل «خيرًا» خبرًا ليكون مقدرًا جوابًا للأمر، والتقدير: انتهوا يكن الانتهاء خيرًا لكم^(٢).

وقوله: (منه)؛ أي: من التثليث؛ المعنى: التوحيد خير من التثليث، وأفعل التفضيل على غير بابه.

وقوله: (تنزيهاً له): هذا: هو معنى سبحان.

(١) ينظر: بيان تلبيس الجهمية (٥/ ٤٤١-٤٤٥)، والصواعق المرسلة (٣/ ٩٤٤-٩٤٧).

(٢) وقيل غير ذلك. ينظر: مشكل إعراب القرآن (١/ ٢١٤)، والكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٢/ ٣٨٥).

وقوله: (خلقًا ومُلْكًا): بيان لما تدل عليه اللام في قوله: (له).
 وقوله: (والمُلْكِيَّةُ تُنافي البُنُوَّةَ): يريد الرد على النصارى في قولهم:
 ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فكلهم ملكه وعبيده والمسيح ابن مريم منهم.
 وقوله: (شَهِيدًا عَلَى ذَلِكَ!): فسر: الوكيل بالشهيد، وفي هذا نظر.
 وقوله: (يَتَكَبَّرُ وَيَأْنَفُ): تفسير: يستنكف، فالاستنكاف هو الاستكبار
 والترفع بالنفس عن الشيء كراهة له^(١).
 وقوله: (الذي زعمتم أنه إله): بيان لما يعتقدونه في المسيح من
 الإلهية، وتعيين له بصفته عندهم.
 وقوله: (عن): بيان لحرف الجر الذي يتعدى به فعل: ﴿يَسْتَنكِفُ﴾،
 والمجرور هو المصدر المؤول من «أن»، وفعل يكون، وتقدير الكلام: لن
 يستنكف المسيح عن كونه عبدًا لله.
 وقوله: (عند الله...) إلى آخره: بيان لمكانهم ومنزلتهم، وبيان لما
 يفيد العطف على المسيح، وهو أنهم كذلك لا يستنكفون عن أن يكونوا
 عبادًا لله.
 وقوله: (وهذا من أحسن الاستطراد): الاستطراد: ذكر معنى ليس مما
 سبق له الكلام لكنه مناسب له ومؤكد^(٢)، والكلام في الآية مسوق لبيان
 عبودية المسيح ردًا على النصارى، ثم جاء ذكر عبودية الملائكة تأكيدًا
 لمقصود الكلام وردًا على المشركين الذين يعبدون الملائكة ويقولون إنهم
 بنات الله، ويعبدونهم من دون الله.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٧٠٧)، والبغوي (٢/ ٣١٥).

(٢) وينظر إطلاق مصطلح الاستطراد على بعض ما ورد في القرآن في: فتاوى في تفسير القرآن وعلومه لشيخنا (ص ١٦٩).

وقوله: (ذُكِرَ ...) إلى آخره: بيان لوجه الاستطراد بذكر الملائكة.
 وقوله: (في الآخرة): بيان لوقت الحشر.
 وقوله: (ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ): بيان للمراد بالأجور، وهو ثواب الأعمال.
 وقوله: («مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ...»): إلى آخره: أصله حديث قدسي^(١) فسر به المؤلف الزيادة من فضل الله.
 وقوله: (عن عبادته): بيان لما يتعلق به الاستنكاف والاستكبار، وهو المستنكف عنه، وهو في الآية عبادة الله وحده.
 وقوله: (مُؤْلَمًا، هو عذاب النار): يبين أنَّ «أليم»؛ معناه: مؤلم، وأنَّ المراد بهذا العذاب عذاب النار.
 وقوله: (أَي: غَيْرِهِ): يبين أنَّ معنى: ﴿دُونِ﴾ غير.
 وقوله: (يدفعه عنهم) و(يمنعهم منه): بيان لما يفعله الولي والنصير، وما ذكره يقتضي أنَّ الولي والنصير معناهما متقارب.



(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥) يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِن أَمْرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٦].

يذكر الله جميع الناس بما مَن به عليهم من البرهان الذي به الفرقان بين الحق والباطل، وهو القرآن، وقيل: الرسول، وقيل: الحجة، وهي معاني متلازمة، والنور المبين: الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو القرآن^(١) فأما من قبل البرهان واهتدى بالنور فأمن بالله ربًّا وإلهاً واعتصم به متوكلاً عليه، فسيدخلهم الله في رحمة منه، وهي: الجنة، ويتفضل عليهم من فضله، ثم أخبر تعالى أن بعض المسلمين استفتى النبي ﷺ عن ميراث الكلاله، وهو مَنْ لا ولد له ولا والد^(٢)، ويطلق اسم الكلاله على الميت، وعلى ورثته من الإخوة والأعمام؛ فيقال: هو كلاله، ولا يرثه إلا كلاله^(٣)، وله إخوة فأفتاهم الله بهذه الآية، ولذا تسمى آية الكلاله^(٤)، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾ الآية، فإن كان وارثه أختاً شقيقة أو لأب فلها نصف ما ترك أخوها، وإن كانت هي الكلاله وورثها أخوها، إن كان شقيقاً أو لأب فله جميع ما تركت أخته، وهو معنى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾، وإن كان وارث الكلاله أختين فلهما الثلثان مما ترك، وإن كان وارث الكلاله من

(١) ينظر: زاد المسير (١/ ٥٠٣).

(٢) تنظر: (ص ٣٤٥).

(٣) ينظر: المفردات (ص ٧١٩-٧٢٠).

(٤) ينظر: صحيح مسلم (١٠٦١٨-١٠٦١٩)، وتفسير الطبري (٧/ ٧١٩)، وصحيح ابن خزيمة (١٠٦).

الإخوة رجالاً ونساء؛ أي: ذكوراً وإناثاً؛ فلذكر مثل حظ الأنثيين، وفي هذا بيان لإرث مَنْ لا يرثه إلا كلاله، ولهذا قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٦)، ومن ذلك علمه بورثة من هو كلاله، ومقادير إرثهم وإن كانوا إخوة وأخوات؛ فالمال بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ﴾: حُجَّةٌ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ عليكم -وهو النبي- ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾: بيناً. وهو القرآن.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا﴾: طريقاً ﴿مُسْتَقِيمًا﴾، هو دين الإسلام.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ في الكلاله. ﴿قُلِ: اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ. إِنْ امْرُؤٌ﴾: مرفوع بفعل يُفسره ﴿هَلَكَ﴾: مات، ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: ولا والد -وهو الكلاله- ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ من أبوين أو أب، ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ، وَهُوَ﴾ أي: الأخ كذلك ﴿يَرِثُهَا﴾ جميع ما تركت، ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ -فإن كان لها ولد ذكر فلا شيء له، أو أنثى فله ما فضل من نصيبها، ولو كانت الأخت أو الأخ من أم ففرضه السدس، كما تقدم أول السورة- ﴿فَإِنْ كَانَتْ﴾ أي: الأختان ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ أي: فصاعدًا، لأنها نزلت في جابر، وقد مات عن أخوات، ﴿فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الأخ، ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ أي: الورثة ﴿إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِنْهُمْ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ. يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ شرائع دينكم، لـ ﴿أَنْ﴾ لا ﴿تَضِلُّوا. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ومنه الميراث. روى الشيخان عن البراء أنها آخر آية نزلت أي: من الفرائض.

وقول المؤلف: (حُجَّة): هذا: أشهر الأقوال في المراد بالبرهان^(١)، وهو الحجة الواضحة التي لا تقبل المعارضة.

وقوله: (عليكم - وهو النبي -): يريد أن البرهان حجة عليكم، ثم فسر البرهان بالنبي، وقد فسره أولاً بالحجة، ولا منافاة بين التفسيرين، فإن الرسول ﷺ حجة الله على العباد.

وقوله: (بَيِّنًا، وهو القرآن): هذا: أحد المعنيين لمبين فإنه اسم فاعل من أبان؛ قيل: بمعنى «بَيِّن»، وقيل: بمعنى «بان»، ولذا يفسر مبين: بمبين أو بين.

وقوله: (طريقًا) تفسير للصراط؛ بمعناه: الأعم فإن الصراط طريق خاص، وهو الواسع المسلك الموصل للغاية^(٢)، والمراد به في الآية: الإسلام^(٣).

وقوله: (في الكلالة): بيان لمتعلق الاستفتاء كما يدل عليه الجواب: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفَتِّحُكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾.

وقوله: (مرفوع بفعل يُفسِّره): يريد أن «امرؤ» فاعل لفعل محذوف بعد «إن» يفسره فعل «هلك»؛ فالتقدير: إن هلك امرؤ ليس له ولد ... إلى آخره.

وقوله: (مات): تفسير: هلك، والهلاك يطلق، ويراد به تارة مطلق الموت، وهو المراد في كلام المؤلف، وتارة يراد به الموت بالعذاب.

وقوله: (ولا والد - وهو الكلالة -): يريد؛ بيان معنى: ﴿الْكَلَالَةُ﴾، عند أهل اللغة والفقهاء والمفسرين، وهو مَنْ لا ولد له ولا والد.

(١) قاله مجاهد والسدي والطبري. ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٧١١)، وابن أبي حاتم (٦٣٢٣).

(٢) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٤١٦).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٧١٣)، وزاد المسير (١/ ٥٠٣).

وقوله: (من أبوين أو أب): يريد الاحتراز من الأخت لأم، وبيان المراد بالأخت في هذه الآية، وهي: الشقيقة أو لأب.

وقوله: (أي: الأخ كذلك): بيان للمراد بالضمير المنفصل، وهو الأخ، وقوله: (كذلك) أي: من أبوين أو أب.

وقوله: (جميع ما تركت): لأن: إرثه لها في الآية غير مقدر، وهذا هو الإرث بالتعصيب.

وقوله: (فإن كان لها ولد...) إلى آخره: بيان لمسائل إرث الأخ لأخته، وهي: ثلاث؛

إحداها: إن لم يكن لها ولد فله جميع ما تركت، وهذه الحال هي المنصوصة في الآية.

الثانية: إن كان الولد ابناً فلا شيء للأخ.

الثالثة: وإن كان بنتاً أو بنات؛ فلا أخ ما فضل عن فرضهن.

وقوله: (ولو كانت الأخت أو الأخ من أم فرضه السدس، كما تقدم أول السورة): يريد أن الأخوة في هذه الآية هم الأشقاء أو لأب، وأما الأخوة لأم فتقدم حكمهم في قوله تعالى في أول السورة: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١٢]، وفي بعض القراءة: «وله أخ أو أخت من أم»^(١).

وقوله: (أي: فصاعداً...) إلى آخره؛ أي: أكثر من اثنتين فحكمهن كالثنتين يرثن الثلثين؛ ثم ذكر الدليل على ذلك، وهو أن الآية نزلت في جابر بن عبد الله، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلاله، وله أخوات^(٢).

(١) ينظر هامش (ص ٣٤٦).

(٢) أسباب النزول (ص ١٨٧)، ولباب النقول (ص ٨٩).

وقوله: (الأخ): بيان للمراد بالضمير المستتر في ترك، وهو الأخ الشقيق أو لأب كما سبق.

وقوله: (أي: الورثة)؛ أي: ورثة الكلالة.

وقوله: (منهم)؛ أي: من الإخوة.

وقوله: (شرائع دينكم)؛ أي: أحكام دينكم، ومنها حكم الكلالة.

وقوله: (لأن)؛ يريد أن المصدر المؤول ﴿أَنْ تَضَلُّوا﴾ مجرور

بلام التعليل مع «لا» النافية بعد «أن» المعنى: يبين الله لكم الأحكام؛ لئلا تضلوا؛ فتهتدوا ببيان الله.

وقوله: (ومنه الميراث): معناه ومن جملة ما يعلمه الله الميراث،

فيعلم المستحق له ومقدار ما يستحق، ويحكم بذلك فأحكام المواريث صادرة عن كمال علم الله وحكمته، ولذا ختم آية المواريث في أول السورة

بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

وقوله: (روى الشيخان...) إلى آخره: ذكر هذا الحديث^(١) تنمة للكلام

على آية الكلالة.

وقوله: (أي: من الفرائض): تنبيه: على أنها ليست آخر آية نزلت من

القرآن^(٢).



آخر تفسير سورة النساء، والحمد لله رب العالمين، وبهذا ينتهي المجلد الثاني، وذلك في يوم الأربعاء الثاني من ربيع الأول من عام أربعة وأربعين وأربع مئة وألف.



(١) أخرجه البخاري (٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).

(٢) ينظر: فتح الباري (٨/ ٢٠٥)، والإتقان (١/ ١٨٠).

الفهرس التفصلي

تفسير سورة آل عمران

- ٥..... تفسير الآيات (١-٦).....
- ١١..... تفسير الآيات (٧-٩).....
- ١٨..... تفسير الآيات (١٠-١٣).....
- ٢٥..... تفسير الآيات (١٤-١٧).....
- ٣٥..... تفسير الآيتين (١٨-١٩).....
- ٤٢..... تفسير الآيات (٢٠-٢٢).....
- ٤٧..... تفسير الآيات (٢٣-٢٥).....
- ٥١..... تفسير الآيتين (٢٦-٢٧).....
- ٥٥..... تفسير الآيتين (٢٨-٢٩).....
- ٥٨..... تفسير الآيات (٣٠-٣٢).....
- ٦٣..... تفسير الآيات (٣٣-٣٧).....
- ٧٣..... تفسير الآيات (٣٨-٤١).....
- ٨٠..... تفسير الآيات (٤٢-٥١).....
- ٩٧..... تفسير الآيات (٥٢-٥٨).....
- ١٠٦..... تفسير الآيات (٥٩-٦٣).....
- ١١١..... تفسير الآيات (٦٤-٦٨).....
- ١١٦..... تفسير الآيات (٦٩-٧١).....
- ١١٩..... تفسير الآيات (٧٢-٧٤).....
- ١٢٥..... تفسير الآيات (٧٥-٧٨).....
- ١٣٢..... تفسير الآيتين (٧٩-٨٠).....

- تفسير الآيات (٨١-٨٣)..... ١٣٥
- تفسير الآيتين (٨٤-٨٥)..... ١٤١
- تفسير الآيات (٨٦-٩١)..... ١٤٤
- تفسير الآية (٩٢)..... ١٤٨
- تفسير الآيات (٩٣-٩٥)..... ١٥٠
- تفسير الآيتين (٩٦-٩٧)..... ١٥٤
- تفسير الآيتين (٩٨-٩٩)..... ١٦٠
- تفسير الآيتين (١٠٠-١٠١)..... ١٦٣
- تفسير الآيات (١٠٢-١٠٤)..... ١٦٥
- تفسير الآيات (١٠٥-١٠٩)..... ١٧٠
- تفسير الآيات (١١٠-١١٢)..... ١٧٤
- تفسير الآيات (١١٣-١١٥)..... ١٧٩
- تفسير الآيتين (١١٦-١١٧)..... ١٨٢
- تفسير الآيات (١١٨-١٢٠)..... ١٨٤
- تفسير الآيات (١٢١-١٢٣)..... ١٩٠
- تفسير الآيات (١٢٤-١٢٩)..... ١٩٣
- تفسير الآيات (١٣٠-١٣٦)..... ٢٠٠
- تفسير الآيات (١٣٧-١٤١)..... ٢٠٧
- تفسير الآيتين (١٤٢-١٤٣)..... ٢١٣
- تفسير الآيتين (١٤٤-١٤٥)..... ٢١٦
- تفسير الآيات (١٤٦-١٤٨)..... ٢١٩
- تفسير الآيات (١٤٩-١٥٢)..... ٢٢٣
- تفسير الآيات (١٥٣-١٥٥)..... ٢٢٩

- تفسير الآيات (١٥٨-١٥٦)..... ٢٣٩
- تفسير الآيتين (١٦٠-١٥٩)..... ٢٤٤
- تفسير الآيات (١٦٣-١٦١)..... ٢٤٨
- تفسير الآيات (١٦٨-١٦٤)..... ٢٥٢
- تفسير الآيات (١٧٥-١٦٩)..... ٢٦٠
- تفسير الآيات (١٧٩-١٧٦)..... ٢٧٠
- تفسير الآيات (١٨٢-١٨٠)..... ٢٧٧
- تفسير الآيات (١٨٦-١٨٣)..... ٢٨٤
- تفسير الآيات (١٨٩-١٨٧)..... ٢٩١
- تفسير الآيات (١٩٤-١٩٠)..... ٢٩٦
- تفسير الآيات (١٩٨-١٩٥)..... ٣٠٢
- تفسير الآيتين (٢٠٠-١٩٩)..... ٣٠٧

تفسير سورة النساء

- تفسير الآيتين (٢-١)..... ٣١٢
- تفسير الآيتين (٤-٣)..... ٣١٩
- تفسير الآيتين (٦-٥)..... ٣٢٤
- تفسير الآيات (١٠-٧)..... ٣٣٠
- تفسير الآية (١١)..... ٣٣٦
- تفسير الآية (١٢)..... ٣٤٣
- تفسير الآيات (١٨-١٣)..... ٣٤٨
- تفسير الآيات (٢٢-١٩)..... ٣٥٩
- تفسير الآيتين (٢٤-٢٣)..... ٣٦٦
- تفسير الآية (٢٥)..... ٣٧٨

- تفسير الآيات (٢٦-٢٨)..... ٣٨٥
- تفسير الآيات (٢٩-٣١)..... ٣٨٨
- تفسير الآيتين (٣٢-٣٣)..... ٣٩٢
- تفسير الآيتين (٣٤-٣٥)..... ٣٩٧
- تفسير الآيات (٣٦-٣٩)..... ٤٠٣
- تفسير الآيات (٤٠-٤٢)..... ٤٠٩
- تفسير الآية (٤٣)..... ٤١٣
- تفسير الآيات (٤٤-٤٧)..... ٤١٨
- تفسير الآيات (٤٨-٥٠)..... ٤٢٤
- تفسير الآيات (٥١-٥٧)..... ٤٢٨
- تفسير الآيتين (٥٨-٥٩)..... ٤٣٦
- تفسير الآيات (٦٠-٦٣)..... ٤٤١
- تفسير الآيات (٦٤-٧٠)..... ٤٤٦
- تفسير الآيات (٧١-٧٦)..... ٤٥٣
- تفسير الآيات (٧٧-٧٩)..... ٤٦١
- تفسير الآيات (٨٠-٨٢)..... ٤٦٩
- تفسير الآيات (٨٣-٨٧)..... ٤٧٣
- تفسير الآيات (٨٨-٩١)..... ٤٨٢
- تفسير الآيتين (٩٢-٩٣)..... ٤٨٩
- تفسير الآيات (٩٤-٩٦)..... ٤٩٥
- تفسير الآيات (٩٧-١٠٠)..... ٥٠١
- تفسير الآيات (١٠١-١٠٣)..... ٥٠٥
- تفسير الآيات (١٠٤-١٠٧)..... ٥١٢

٥١٦.....	- تفسير الآيات (١٠٨-١١٣).....
٥٢٢.....	- تفسير الآيات (١١٤-١٢١).....
٥٣٠.....	- تفسير الآيات (١٢٢-١٢٦).....
٥٣٥.....	- تفسير الآيات (١٢٧-١٣٠).....
٥٤٥.....	- تفسير الآيات (١٣١-١٣٥).....
٥٥٢.....	- تفسير الآيات (١٣٦-١٣٩).....
٥٥٦.....	- تفسير الآيات (١٤٠-١٤٣).....
٥٦٤.....	- تفسير الآيات (١٤٤-١٤٧).....
٥٦٨.....	- تفسير الآيات (١٤٨-١٥٢).....
٥٧٤.....	- تفسير الآيتين (١٥٣-١٥٤).....
٥٨٠.....	- تفسير الآيات (١٥٥-١٥٩).....
٥٨٥.....	- تفسير الآيات (١٦٠-١٦٢).....
٥٨٨.....	- تفسير الآيات (١٦٣-١٦٦).....
٥٩٣.....	- تفسير الآيات (١٦٧-١٧٠).....
٥٩٦.....	- تفسير الآيات (١٧١-١٧٣).....
٦٠٢.....	- تفسير الآيات (١٧٤-١٧٦).....
٦٠٧.....	الفهرس التفصيلي.....
٦١٢.....	الفهرس الإجمالي.....

الفهرس الإجمالي

٥.....	تفسير سورة آل عمران
٣١٢.....	تفسير سورة النساء
٦٠٧.....	الفهرس التفصيلي
٦١٢.....	الفهرس الإجمالي



للاطلاع على قائمة حديثة
لمؤلفات الشيخ ومتجر الكتب:
امسح الرمز

